الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان-

كلية الآداب واللغات

قسم : اللغة العربية وآدابها

فن الصياغة التركيبية في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه تخصص: أدب قديم

إعداد الطالب:

الزير أحمد إبراهيم

إشراف:

أ.د. محمد طول

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د. محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. محمد طول	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
أ.د. محمد زمري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
أ.د. أحمد جلايلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة النعامة	عضوا
أ.د. عبد الكريم بكري	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	عضوا
د. محمد حرير	أستاذ محاضر "أ"	جامعة تيارت	عضوا

السنة الجامعية: 1436- 1437هـ/ 2015- 2016م

المقدّمة

الحمد لله و الصّلاة و السّلام على رسول الله و آله و صحبه أجمعين . أمّا بعد :

فإنّ الإمام محمّد الطّاهر بن عاشور واحد من كبار أئمّة الإسلام الذين تركوا آثارا تشهد لهم بالسّبق في فنون العلم و المعرفة ، و لو لم يترك هذا الإمام إلاّ تفسيره " التّحرير و التّنوير " لكان كافيا ، إذ إنّه المصنَّف الذي حوى علوما جمّة من قراءات قرآنيّة ، و تفسير ، و فقه ، و نحو و بلاغة ، و سِيرٍ ، و أخبار ، و جدل ، و علم فلك ، و غيرها ، و كان ممّا عُني به ابن عاشور بيان إعجاز القرآن ، فوصفه إجمالا في المقدّمة العاشرة من تفسيره ، و أكّد فيه أنّ تفسير القرآن يكون قاصرا ما لم يقف صاحبه على الدّقائق من وجوه البلاغة ، لبيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربيّ و خصائص بلاغته ، و ما فاقت به آيُ القرآن في ذلك ، و إلاّ كان مترجِما لا مفسِّرا ، و قد أحال في مقدّمته المذكورة على الكتب التي وصفت الإعجاز إجمالا ، كما أحال على المصنّفات التي فصّلت و أطالت ، و عمدتها ـــ كما قال ـــ كتاب الكشّاف للعلاّمة الزّمخشريّ ، و ما خطّه يراعه في مؤلَّفه " التّحرير و التّنوير".

و لمّا كانت العلوم إنّما تشرُف بمتعلّقاتها ، كان أشرفَها على الإطلاق علم التّفسير ، و ممّا ينبني عليه هذا العلم معرفة الإعجاز تنظيرا ، و محاولة تعليله تطبيقا ،و قد تكفّل ابن عاشور بذلك ـــ كما صرّح ـــ،و لعلّه بصنيعه هذا كان يريد أن يفسّر ما أشكل على الجاحظ و من بعده الخطّابي من صعوبة تحديد مفهوم البلاغة و الفصاحة ، و كيف يفسّر الإعجاز بهما ، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني الذي استطاع أن يجيب عن الأسئلة التي حيّرت سابقيه ، و إن كان هو كذلك ترك الأمر معلّقا ، حيث قال متحدّثا عن تفاوت درجات الكلام: «...و تكثر المزيّة حتى يفوق الشّيء نظيره المجانسَ له درجات كثيرة ، و حتى تتفاوت القيم التّفاوت الشّديد ، كذلك يفْضل بعض الكلام بعضا ، و يتقدّم منه الشّيءُ الشّيءَ ، ثمّ يزداد من فضله ذلك ، و يترقّى منزلة فوق

منزلة ، و يعلو مرقبا بعد مرقب ، و يستأنف له غاية بعد غاية ، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، و تحسَرُ الظّنون ، و تسقط القوى ، و تستوي الأقدام في العجز ».

و لطالما سمعت من بعض المثقّفين أنّ ابن عاشور إنّما قلّد من سبقه ، كالزّمخشريّ خاصّة

و ابن عطيّة الأندلسيّ و البيضاوي ،فلم ألتفت إلى مقالتهم ، لأنّني وجدت الرّجل يثني على آراء هؤلاء أحيانا،و يعيبها أحياين أخرى ، بل لقد تفرّد ببيان مناسبة بعض الآيات و فسّر العلاقة التي تربطها بما قبلها و ما بعدها ، هذا الأمر الذي سكت عنه أولئك العلماء ، أو أغفلوا الوقوف عليه، فكان هذا من بين أهمّ الأسباب التي جعلتني أختار هذا الموضوع ، يضاف إلى ذلك بواعث أخرى أذكر منها :

ــ **أوّلا**:ميولي الفطري إلى الموضوعات القرآنيّة ، ما تعلّق منها بالتّجويد و القراءات ، أو ما تعلّق بالتّفسير و بلاغة القرآن ، و كذلك ما له صلة برسم المصحف رواية و دراية .

ــ **ثانيا**: كنت دائما أبحث في التّراكيب و مدى دقّتها في أداء المعاني ، و قد وجدت ابن عاشور يعنى بها كثيرا ، و يقف عندها متأمّلا ، باسطا القول في معانيها و ما يجيء من مستتبعاتها ، متذوّقا الكلمة القرآنيّة في مختلف أحوالها ، ضمن الإطار العامّ الذي وردت بصدده ، و كان يرى أنّ احتمالات تفسير آية ما مقبولةٌ ، إذا لم تخرج عن سمت ما تسمح به العبارة و يحتمله اللّفظ ، و لا يتعارض مع الشّرع ، فأردت أن أستجلي هذا الجانب ، و أسبر أغواره بالتّقعيد و ضرب الأمثلة.

ــ **ثالثا** : يُضاف إلى ذلك أنّ ما يميّز ابنَ عاشور في تفسيره منهجُه الذي توخّاه، فقد كان يؤمن أنّ السّورة من القرآن الكريم بناء محكم ، تناسبت أجزاؤه ،كأنّما أنزل جملة واحدة ، فكيف و قد نزل نجوما؟ ، و كان لا يشرع في تفسير سورة إلاّ و هو يؤمن أنّ كلّ آية منها ائتلفت مع أختها

و اجتمعتا مع آيات أخر لإيصال فكرة لا بدّ منها، و خدمة غرض معيّن .

و قد تأكّد لي ــ قبل هذا و بعده ــ أن لا سبيل إلى فهم كلام الله إلاّ بالتضلّع من علمي المعاني

و البيان ، كما قال ابن عاشور فيما نقله عن السّكّاكي: « و اعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب يُدرك و لا يمكن وصفُه ، كاستقامة الوزن تدرك و لا يمكن وصفها ، أو كالملاحة . و مدرك الإعجاز عندي هو الذّوق ليس إلاّ.و طريق اكتساب الذّوق طول خدمة هذين العِلميْن (المعاني و البيان) نعم للبلاغة وجوه متلثّمة ، ربّما تيسّرت إماطة اللّثام عنها لتجلى عليك ، أمّا نفس وجه الإعجاز فلا » ، و لذا آثرت أن تكون دراستي جامعة بين التّنظير و التّطبيق لبعض أبواب علم المعاني الذي يستشكله طلبة العلم .

هذا و لا يفوتني أن أنوّه بجهود سبقتني منها ما تناول موضوعا بعيدا عن بحثي ، و منها ما تقاطع مع دراستي و من هؤلاء ، الدّكتور عبد الرّحمن إبراهيم فودة في كتابه (البلاغة القرآنيّة في تفسير التّحرير و التّنوير) ، و الأستاذ ناطور الضّيف في رسالته (تفرّدات الطّاهر بن عاشور في تحريره عن الزّمخشري في كشّافه و ابن عطيّة في محرّره و البيضاوي في أنواره ــ دراسة مقارنة تقويميّة ــ و قد سجّلوا كثيرا من الآراء المتعلّقة بالبلاغة ، فكان منهم المكثر ، و منهم المقلّ ، إلاّ أنّهم أغفلوا تتبّع بلاغة السّورة القرآنيّة ، و دراسة التّناسب البياني.

و لعلّ أقرب هذه الدّراسات إلى بحثي ، دراسة الأستاذة رانية جهاد إسماعيل الشّوبكي في بحثها (الطّاهر بن عاشور و جهوده البلاغيّة في ضوء تفسيره " التّحرير و التّنوير " ــ المعاني و البديع ــ فقد استطاعت أن تتتبّع ــ تقريبا ــ كلّ الآيات التي فيها إشارة إلى فنّ من فنون البديع أو لون من ألوان المعاني ، فتضعه في خاصّ مكانه ، دون تعليق منها ، أو محاولة إقامة العلاقة بينه و بين ما يسبقه أو يلحق به ، الأمر الذي كان ابن عاشور حريصا على تسجيله و التّركيز عليه .

و قد رسمت لهذا العمل خطّة بدت لي مناسبة لما أروم الوصول إليه ، و تتمثّل في مدخل و خمسة فصول ، **فتطرّقت** في المدخل إلى علاقة الإعجاز بالبلاغة ، و فصّلت القول في الإعجاز البلاغيّ عند ابن عاشور ، فبيّنت أنّه يرجع إلى جهتين فيما يخصّ موضوعي ،ثمّ فصّلت الحديث عن كلّ جهة.

و **تحدّثت** في الفصل الأوّل عن بلاغة الكلمة ، فأوضحت كيف اختيرت كلمات القرآن بعناية فائقة ، ثمّ تعرّضت لأحوالها من ذكر و حذف ، و تعريف و تنكير ، و إفراد و تثنية و جمع و خلصت إلى بيان تألّق القرآن في اصطفاء الكلمات ظاهرا و باطنا ، لفظا و حالا.

و **تناولت** في الفصل الثّاني بلاغة الجملة ، ففصّلت القول في الجملة الخبريّة ، و ركّزت الحديث على المعاني البلاغيّة التي تضمّنتها، و لم يفتني في ذلك أن أبيّن كيف خالفتْ مقتضى الظّاهر في مواطن كثيرة ، و وجدت أنّ القرآن في الأغلب لا يخبر عن شيء ليعطي المعلومة ، و إنّما يخبر ليحذّر أو يبشّر ، أو يمدح أو يذمّ، أو يلوم أو ينوّه ، و أنّ للقرآن عاداته و مبتكراته .

و **جعلت** الفصل الثّالث للحديث عن بلاغة الجملتين ، فشقّقت القول عن القصر و اعتباراته و أنواعه ، فوضّحت أنّ القرآن عمد إلى هذا الفنّ ليخصّص أشياء بأشياء ، و ليس المقصود هو التّخصيص فحسب ، و لكن قد يكون تصحيح أفكار ، أو إبطال معتقدات أو غيرها من المعاني البلاغيّة التي رمى إليها كلام الله تعالى .

و **أفردت** الفصل الرّابع لبلاغة الجمل ، فدرست فيه فنّ الإطناب كما ورد عند ابن عاشور فوجدت أنّ القرآن كما يسمو بإيجازه ،و يؤدّي لك المعنى باللّمحة المعبّرة ، فإنّه يعلو بإطنابه الذي يزيل الإشكال ، و يتحرّز عن الخلط و الخطأ، و يوضّح بعد الإبهام و يكرّر ليفيد ، و يعترض ليذْكُر معنى لا بدّ من ذكره .

و أمّا الفصل الخامس فقد **خصّصته** لبلاغة السّورة القرآنيّة ، و أوردت ما قاله ابن عاشور عن سبب التّحدّي بها ، و بيّنت كيف التأمت أجزاؤها ، و تناسبت آياتها ، و بُنيت على أسس حامت حولها ، و أنّ العرب لم يسبق لهم في كلامهم أن عرفوا هذا التّسوير الذي تفرّد به القرآن ، ثمّ بيّنت أنّ لهذه السّور أغراضا و مقاصد تعين القارئ على فهم محتواها .

و لقد اعتمدت في هذا البحث مجموعة من المصادر و المراجع ذات الصّلة المباشرة بالموضوع أذكر منها : المثل السّائر ، و دلائل الإعجاز ، و مفتاح العلوم ، و الإيضاح ، و شروح التّلخيص للسّبكي و المغربي و التّفتازاني ، و كلّها كتب تراثيّة .

و هنالك مصنّفات أخرى حديثة ، كالكتب المؤلّفة في علم المعاني ، و المعاجم البلاغيّة ، و بعض كتب النّقد ذات الصّلة بالدّرس البلاغيّ و اللّغويّ .

و لقد اقتضت طبيعة البحث أن أعتمد المنهج الوصفيّ في دراستي ، لأنّه يرتكز على وصف القضايا العلميّة ، بعد جمعها و اسقرائها كما وردت في مظانّها، ثمّ تحليلها في ضوء ما استجدّ من دراسات سلكت المسلك نفسه ، و هذا الذي رمته من بحثي ، أن أقدّم جهود الطّاهر بن عاشور في مجال الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم ، متمثّلا في بناء النّصّ من الجزء ، و وصولا إلى الوحدة الموضوعيّة ، مركّزا في ذلك كلّه على التّناسب .

و بعد :

فعملا بقول رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : « لَمْ يشْكُرِ الله مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ». أتوجّه بالشّكر الجزيل إلى أستاذي الدّكتور : محمّد طول الذي تشرّفت بالتّتلمذ له ردحا من الزّمن

و الذي قبل الإشراف على هذا العمل ، فلقد كان نعم المشرف ، و نعم الموجّه .

و لله الحمد في الأولى و الآخرة ، إنّه نعم المولى و نعم النّصير ، و صلّى الله و سلّم على سيّدنا رسول الله ما تعاقب اللّيل و النّهار .

الزبير أحمد إبراهيم

تلمسان في : 9 ربيع الأوّل 1438 هـــ .

الموافق :7 ديسمبر 2016 م .

المدخل

علاقة البلاغة بالإعجاز

تمهيد:

إنّ القرآن كلام عربيّ ، فلا يمكن فهم معناه إلاّ بالتضلّع من مجموع علوم اللّغة التي تعدّ الأساس الذي بُني عليه كلام الله بنصّ القرآن نفسه ، قال تعالى :﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.[1] ينضاف إلى ذلك ضرورة تذوّق النّصوص الأدبيّة بمطالعة تراث العرب الزّاخر و معرفة سننهم و عاداتهم في الكلام.و هذا الذي أكّده العلماء القدامى عندما ربطوا فهم القرآن بالتّمكّن من علوم اللّغة عامّة ، و علمي البيان و المعاني خاصّة.[2] ، فهذا الزّمخشريّ يقول :«علم التّفسير الذي لا يتمّ لتعاطيه و إجالة النّظر فيه كلّ ذي علم ، فالفقيه و إن برز على الأقران في علم الفتاوى و الأحكام ، و المتكلّم و إن بزّ أهل الدّنيا في صناعة الكلام و حافظ القصص و الأخبار و إن كان من ابن القريّة أحفظ ، و الواعظ و إن كان من الحسن البصريّ أوعظ و النّحويّ و إن كان أنحى من سيبويه ، و اللّغويّ و إن كان علك اللّغة بقوّة لِحْيَيْه ، لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطّرائق ، و لا يغوص على شيء من تلك الحقائق ، إلاّ رجل قد برع في علمين مختصّين بالقرآن و هما علما البيان و المعاني».[3]

و قال السّكّاكي في مقدّمة القسم الثّالث من كتابه : «...و فيما ذكرنا ما ينبّه على أنّ الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى و تقدّس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين (المعاني و البيان) كلّ الافتقار فالويل كلّ الويل لمن تعاطى التّفسير و هو فيهما راجل».[4]

---

[1] - يوسف : 2 .

[2] - التّحرير و التّنوير :محمّد الطّاهر بن عاشور ، الدّار التّونسيّة للنّشر، دط ،1984 ، م 1، ج 1، ق 1 ص : 19 .

[3] - الكشّاف عن حقائق التّنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التّأويل ، أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشري الخوارزمي ، ط2 ، دار إحياء التّراث العربيّ ، 1421 هـــ – 2001 ، 1 / 42 – 43 .

[4] - مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمّد بن عليّ السّكّاكي ، ضبطه و كتب هوامشه و علّق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلميّة ـــ بيروت ـــ ، ط 2 ، 1407 هـــ / 1987 م ، ص : 162 .

و قال عبد القاهر الجرجاني : « و من عادة قوم ممّن يتعاطى التّفسير بغير علم ، أن يوهِمُوا أبدا في الألفاظ الموضوعة على المجاز و التّمثيل ، أنّها على ظواهرها (أي الحقيقة) ، فيفسدوا المعنى بذلك و يُبْطلوا الغرض ، و يمنعوا أنفسهم و السّامعَ منهم العلمَ بموضع البلاغة ، و بمكان الشّرف

و ناهيك بهم إذا أخذوا في ذكر الوجوه ، و جعلوا يُكْثرون في غير طائل ، هنالك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، و زَنْدِ ضلالةٍ قد قدحوا به».[1]

و علم البلاغة به يحصل انكشاف بعض المعاني و اطمئنان النّفس لها ، و به يترجّح أحد الاحتمالَيْن على الآخر من معاني القرآن ، ألا ترى أنّه لو اطّلع أحد على تفسير قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [2] و عرض له احتمال أن يكون عطف قوله : " **و لا نِساءٌ** " على قوله " **قَومٌ** " عطف مباين ، أو عطف خاصّ على عامّ فاستشهد المفسّر في ذلك بقول زهير :

وَ مَا أَدْرِي وَ سَوفَ إخَالُ أدْرِي ... أَقَــومٌ آلُ حِـصْــنٍ أمْ نِـسَاءُ[3]

كيف تطمئنّ نفسه لاحتمال عطف المباين دون عطف الخاصّ على العامّ ، و كذلك إذا رأى تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [4] و تردّد عنده احتمال أن الباء فيه للتّأكيد أو أنّها للتّبعيض أو أنّها للآلة و كانت نفسه غير مطمئنّة لاحتمال التّأكيد ، إذ كان مدخول الباء مفعولا فإذا استشهد له على ذلك بقول النّابغة :

لَكَ الخَيْرُ إنْ وَارَتْ بِكَ الأرْضُ وَاحِداً ... و أصْـبَــحَ جَـدُّ النّـاسِ يَظْـلُعُ عَـاثِراً[5]

---

[1] - دلائل الإعجاز : دلائل الإعجاز ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمّد الجرجانيّ ، قرأه و علّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ط5 ، مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ ، 1424هــ / 2004 م ، ص : 305 .

[2] - الحجرات :11 .

[3] - ديوان زهير بن أبي سلمى ، تحقيق كرم البستاني ،دط ،دار بيروت للطّباعة ، 1402 هــ /1982 م ، ص : 12 .

[4] - المائدة :6 .

[5] - ديوان النّابغة الذّبيانيّ ، تحقيق و شرح : كرم البستانيّ ، د ط ، دار صادر ــ بيروت ــ ، دت ، ص : 64 .

و قول الأعشى :

فَكُلُّنَا مُغْرَمٌ يَهْذِي بِصَاحِبِهِ   قَاصٍ وَ دَانٍ وَ مَخْبُولٌ و مُحْتَبِلُ[1]

رجح عنده احتمال التّأكيد و ظهر له أنّ دخول الباء على المفعول للتّأكيد طريقة مسلوكة في الاستعمال .[2]

أوّلا: تعريف الإعجاز :

أ ــ لغة : عجَزَ :العجْزُ نَقيضُ الحَزْم ، و عجَز عن الأمر يعجِزُ و عجِزَ عَجْزا فِيهِما ؛ و عجَّزَ فلانٌ رأيَ فلان ، إذا نسَبه إلى خلاف الحزم ، كأنّه نسبه إلى العجْز. و يقال أعجَزِني فلانٌ أي فاتني[3] ؛ و منه قول الأعشى :

فَذَاكَ وَ لَمْ يُعْجِزْ مِنَ المَوْتِ رَبَّهُ،   وَ لَـــكِنْ أَتَـــاهُ المَوْتُ لاَ يَتأَبَّقُ[4]

ب ــ اصطلاحا : يعرّفه الشّريف الجرجاني بقوله : « هو أن يؤدّى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطّرق».[5] و هذا التّعريف يدلّ على أنّ الشّريف الجرجاني يُرجع الإعجاز إلى البلاغة على رأي جماهير العلماء.

1 ــ أركان الإعجاز :

---

[1] - ديوان الأعشى ميمون بن قيس ، شرحه و قدّم له : مهدي محمّد ناصر الدّين ،ط3 ،دار الكتب العلميّة ــ بيروت ــ ، 1424 هــ / 2003 م ،ص: 132.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 21 — 22 .

[3] - لسان العرب : أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الإفريقيّ ، حقّقه و علّق عليه و وضع حواشيه : عامر أحمد حيدر ، ط1 ، 1426 هــ / 2005 م ، 5 / 369 – 370 .

[4] - ديوان الأعشى : ص : 118.

[5] - التّعريفات : عليّ بن محمّد السّيّد الشّريف الجرجاني ،اعتنى به مصطفى أبو يعقوب ، ط1 ، مؤسّسة الحسنى ، ــ المغرب 1427 هــ / 2006 م ، ص : 23 .

يرى عبد الوهّاب خلاّف أنّ الإعجاز ينبني على أركان لا بدّ من توافرها و هي :

أ ـــ التّحدّي : أي لا يكون إعجاز إلاّ بإعلان التّحدّي على المتحَدَّى ، و القرآن مليء بالآيات الدّالّة على ذلك .

ب ـــ وجود المقتضي :و هو الشّيء الذي يدفع المتحدَّى إلى المباراة و المنازلة و المعارضة ، فإعلان النبوّة بين ظهراني قريش خاصّة و المشركين عامّة ، و إبطال دينهم ، و الاحتجاج بالقرآن على أنّه من عند الله ، كلّ ذلك مقتض كاف يجعلهم يُجمعون أمرهم و شركاءهم ليتحدّوه .

ج ـــ انتفاء المانع : إذ إنّ العرب ما تُحُدّوا إلاّ و هم البلغاء الفصحاء الذين ملكوا اللّسان و أشعارهم و خطبهم ، و مآثرهم خير دليل على ذلك .[1]

2 ـــ جهات الإعجاز :

أفرد الإمام محمد الطّاهر بن عاشور المقدّمة العاشرة من تفسيره للحديث عن الإعجاز حيث أرجعه إلى جهات أربعة ، أمّا **الجهة الأولى** : « فبلوغ القرآن الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربيّ البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة و نكتا من أغراض الخاصّة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللّغة ، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم و خطبائهم ، و أمّا **الجهة الثانية** : فهي ما أبدعه القرآن من أفانين التّصرّف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب ، و لكنّه غير خارج عمّا تسمح به اللّغة ».[2]

و ذكر الطّبريّ في تفسيره أنّ من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم تلك الوجوه التي يتفاوت فيها الكلام بلاغة و ما ورد منها في اللّسان العربيّ و هي في جملتها لا تخرج عمّا يطرقه علم البلاغة من أبحاث التّقديم و التّأخير و الاستعارة و الإيجاز و الإطناب .و أشار الطّبريّ إلى قضيّة النّظم فقال

[1] - علم أصول الفقه : عبد الوهّاب خلاّف، دط ، دار الحديث القاهرة ، 1423 هـــ / 2003 م ، ص : 28 و ما بعدها.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 104 .

عنها : « و من أشرف تلك المعاني التي فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله ، نظمه العجيب و وصفه الغريب ، و تأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سوره الخطباء ، و كلّت عن وصف شكله البلغاء ، و تحيّرت في تأليفه الشّعراء ... إلخ »[1]

و أمّا **الجهة الثّالثة** فمتعلّقة بالحقائق العقليّة و الدّقائق المنطقيّة ، ممّا صار يعرف في زماننا بالإعجاز العلميّ الذي لم يكن معهودا ، و لم يشر إليه الأوائل كالباقلاّني و غيره .

و أمّا **الجهة الرّابعة** فحديث القرآن عن الأمور الغيبيّة من أخبار الأمم السّالفة ، و ذكر الجنّة و النّار و ما تعلّق بالآخرة ، و غيرها.[2]

فحديثنا عن الإعجاز هاهنا من الجهتين الأولى و الثّانية ، إذ هو متوجّه إلى العرب الذين أعجز فصحاءهم و خطباءهم و شعراءهم مباشرة ، و أعجز عامّتهم بواسطة إدراكهم أنّ عجز مقارعيه عن معارضته مع توفّر الدّواعي عليه هو برهان ساطع على أنّه تجاوز طاقة جميعهم . ثمّ هو بذلك دليل على صدق المنزّل عليه لدى بقيّة البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغا لا يستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار ، و لمن جاء بعدهم بشواهد التّاريخ . فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلي ، و إعجازه لغيرهم دليل إجمالي . ثمّ قد يشارك خاصّة العرب في إدراك إعجازه كلّ من تعلّم لغتهم و مارس بليغ كلامهم و آدابهم من أئمّة البلاغة العربيّة في مختلف العصور ، و هذا معنى قول السّكاكيّ في المفتاح مخاطبا النّاظر في كتابه : « متوسّلا بذلك (أي بمعرفة الخصائص البلاغيّة التي هو بصدد الكلام عليها إلى أن تتأنّق في وجه الإعجاز في التّنزيل منتقلا ممّا أجمله عجز المتحدّين به عندك إلى التّفصيل ».[3]

3 ـــ مردّ الإعجاز :

[1] - جامع البيان في تفسير آي القرآن : محمّد بن جرير الطّبريّ ، ط1 ، المطبعة الأميريّة الكبرى ـــ بولاق ، 1905م ، ج 1 ، ص : 65 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 104 – 105 .

[3] - ينظر مفتاح العلوم : ص : 513 .

أمّا الجهة الأولى فمرجعها إلى ما يسمّى بالطّرف الأعلى من البلاغة و الفصاحة ، و قد ذهب الأكثرون من علماء النّظم إلى أنّ وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها و أصغوا فيه إلى حكم الذّوق ، و يذكر الخطّابيّ : « أنّ كلام القرآن جمع بين المتضادّين : الجزالة و السّهولة ليكون آية للنّبيّ صلّى الله عليه و سلّم ، و إنّما عجز العرب عن الإتيان بمثله لأنّهم لا يستطيعون أن يحيطوا بالألفاظ في العربيّة و تأدية المعاني في وجوه الكلام المختلفة ، و أنّ القرآن جمع جمال الألفاظ إلى حسن النّظم و سموّ المعاني مجموعة في كلام واحد هو كلام العليم القدير و لم تجتمع في غيره».[1] و هو المصطلح على تسميّته حدّ الإعجاز ، فلقد كان منتهى التّنافس عند العرب بمقدار التّفوّق في البلاغة و الفصاحة ، و قد وصف أئمّة البلاغة و الأدب هذين الأمرين بما دوّن له علما المعاني و البيان ، و تصدّوا في خلال ذلك للموازنة بين ما ورد في القرآن من ضروب البلاغة و بين أبلغ ما حفظ عن العرب من ذلك ممّا عدّ في أقصى درجاتها . و قد تصدّى أمثال أبي بكر الباقلاّني و أبي هلال العسكري و عبد القاهر الجرجاني و السّكّاكي و ابن الأثير ، إلى الموازنة بين ما ورد في القرآن و بين ما بلغ في بليغ كلام العرب من بعض فنون البلاغة بما فيه مقنع للمتأمّل ، و مثل للمتمثّل .[2] و ليس من حظّ الواصف إعجاز القرآن وصفا جماليّا كصنعنا ههنا أن يصف هذه الجهة وصفا مفصّلا لكثرة أفانينها ، فحسبنا أن نحيل في تحصيل كلّياتها و قواعدها على الكتب المجعولة لذلك مثل دلائل الإعجاز ، و أسرار البلاغة ، و القسم الثّالث فما بعده من المفتاح و نحو ذلك ، و أن نحيل في تفاصيلها الواصفة لإعجاز آي القرآن على التّفاسير المؤلّفة في ذلك

[1] - بيان إعجاز القرآن : أبو سليمان الخطّابي ، ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : للرّمّاني و الخطّابي و عبد القاهر الجرجانيّ في الدّراسات القرآنيّة و النقد الأدبيّ ، حقّقها و علّق عليها:محمّد خلف الله أحمد و محمّد زغلول سلام ، ط3 ، دار المعارف ـــ مصر ـــ ، 1976 ، ص : 26 و ما بعدها.

[2] - ينظر : إعجاز القرآن : أبو بكر الباقلاّني ، تحقيق : محمّد عبد المنعم خفاجي ، ط1 ، دار الجيل ـــ بيروت ، 1411 هـــ / 1991 م ،ص : 165 . و كتاب الصّناعتين : أبو هلال الحسن بن عبد اله بن سهل العسكريّ ، تحقيق : د. مفيد قميحة ، ط2، دار الكتب العلميّة ـــ بيروت ـــ ، 1409 هـــ / 1989 م ، ص : 23 و ما بعدها .و - دلائل الإعجاز ، ص : 8 و ما بعدها .

و عمدها كتاب الكشّاف للعلاّمة الزّمخشري ، و ما نستنبطه و نبتكره في تفسيرنا هذا إن شاء الله غير أنّي ذاكر هنا أصولا لنواحي إعجازه من هذه الجهة و بخاصّة ما لم يذكره الأئمّة أو أجملوا في ذكره .[1]

و رغم أنّ العرب قد خُصّوا من بين الأمم بقوّة الذّهن و شدّة الحافظة و فصاحة اللّسان و تبيان المعاني ، إذ لا يستصعب عليهم سابق من المعاني ، و لا يجمح بهم عسير من المقامات ،إلاّ أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، أو بعشر سُوَر من مثله ، أو بسورة مثله، و قد دُعوا إلى ذلك أشدّ دعوة . و قد قال القاضي عياض في ذلك : «فلم يزل يقرعهم النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم أشدّ تقريع و يوبِّخهم و يسفِّه أحلامهم و يَحطّ أعلامهم و هم في كلّ هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته ، يخادعون أنفسهم بالتّكذيب و الإغراء بالافتراء ، و قولهم :﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[2]، و﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[3] ، و﴿ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾[4] و﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[5]. و قد قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾[6] فما فعلوا و لا قدروا ، و مَن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كُشف عواره لجميعهم . و لمّا سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[7] الآية قال : " و الله إنّ له لحلاوة و إنّ عليه لطلاوة ، و إنّ أسفله

[1] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص :106 .

[2] -المدّثر : 24.

[3] - القمر : 2.

[4] - الفرقان : 4.

[5] - الفرقان :5.

[6] - البقرة : 24 .

[7] - النّحل :90 .

لمُغْدق و إنّ أعلاه لمثمر و ما هو بكلام بشر ". و ذكر أبو عبيدة أنّ أعرابيّا سمع رجلا يقرأ : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [1] فسجد و قال : سجدت لفصاحته ، و كان موضع التّأثير في هذه الجملة و هو كلمة "اصدعْ " في إبانتها عن الدّعوة و الجهر بها و الشّجاعة فيها ، و كلمة " بما تؤمر " في إيجازها و جمعها . و سمع آخرُ رجلا يقرأ:﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا ﴾ [2] فقال أشهد أنّ مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام». [3] و كون النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم تحدّى به و أنّ العرب عجزوا عن معارضته ممّا عُلم بالضّرورة إجمالا و تصدّى أهل علم البلاغة لتفصيله قال السّكّاكيّ : « و اعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب يدرك و لا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدرك و لا يمكن وصفها ، أو كالملاحة . و مدرك الإعجاز عندي هو الذّوق ليس إلاًّ . و طريق اكتساب الذّوق طول خدمة هذين العلميْن (المعاني والبيان)، نعم للبلاغة وجوه متلثّمة ربّما تيسّرت إماطة اللّثام عنها لتجلى عليك ، أمّا نفس وجه الإعجاز فلا ».[4]

4 ــ تعليل الإعجاز :

يورد ابن عاشور كلام التّفتازانيّ في الإعجاز مؤكّدا أنّه شيء يُدرك و لا يمكن وصفه كالملاحة و ما سبق ذكره ، و ليس مدرك الإعجاز عنده سوى الذّوق و هو قوّة إدراكيّة لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام و وُجوه محاسنه الخفيّة فإن حصل بالفطرة فذاك ، و إن أُريد اكتسابه فلا طريق إليه سوى الاعتناء بعلمي المعاني و البيان و طول ممارستهما و الاشتغال بهما ، و إن جمع بينهما فتلك الغاية التي لا تبارى . و أكّد مرّة أخرى أنّ إعجاز القرآن راجع إلى بلوغه الدّرجة

---

[1] - الحجر :94 .

[2] - يوسف :80 .

[3] - الشّفا بتعريف حقوق المصطفى : أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي ؛ تقديم و تحقيق : عامر الجزّار ، دط ، دار الحديث ــ القاهرة ، 1425 هــ / 2004 م ، 1 / 175 – 176 .

[4] - مفتاح العلوم :: 512 .

العليا من البلاغة و الفصاحة ،لا كما ذهب إليه النّظّام و أضرابه ممّن زعم أنّ إعجاز القرآن بالصَّرفة ،[1] و لا كما ذهب إليه جماعة من أنّ إعجازه بمخالفة أسلوبه لأساليب كلامهم من الأشعار و الخطب و الرّسائل لاسيما في المقاطع مثل : يؤمنون و يُنفقون و يعلمون ، (قال السّيّد لا سيما في مطالع السّور و مقاطع الآية) أو بسلامته من التّناقض (قال السّيّد مع طوله جدّا)[2] أو باشتماله على الإخبار بالمغيّبات . و هذا كلّه قد ذكره السّكاكيّ مشيرا إلى فساده ، و منتقدا له من وجوه عدّة.[3]

و قد ذكر محمود شاكر هذه الحيرة التي أرّقت الجاحظ و من بعده الخطّابي ، كما ذكر أن عبد القاهر الجرجاني استطاع أن يفسّر مصطلحات متعلّقة بالإعجاز ، كالبلاغة و الفصاحة و البيان و البراعة ، فترع كما قال : « إلى بيان إشكال ما أشكل ، و إلى حلّ ما انعقد ، و إلى الكشف عمّا خفي من صفاتها ، و رام أن يضع القاعدة التي يبنى عليها هذا العلم».[4] ثمّ أورد كلام عبد القاهر و هو قوله: « و وجدت المعوّل على أنّ ههنا نظما و ترتيبا و تأليفا و تركيبا ، و صياغة و تصويرا ، و نسجا و تحبيرا ، و أن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها ، و أنّه كما يفضل هناك النّظمُ النّظمَ ، و التّأليفُ التّأليف ، و النّسج النّسج ، و الصّياغة الصّياغة، ثمّ يعظم الفضل ، و تكثر المزيّة حتى يفوق الشّيء نظيره المجانس له درجات كثيرة ، و حتى تتفاوت القيم التّفاوت الشّديد »[5] ويبدو أنّ عبد القاهر قد أدرك مقصود البلاغة التي يرجع إليها إعجاز القرآن لولا أنّه ترك الأمر معلّقا بعد ذلك بقوله : « ... حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، و تحسرُ الظّنون ، و تسقط القوى ، و تستوي الأقدام في العجز»[6] و

---

[1] - تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرّافعيّ ، ط4 ، دار الكتاب العربيّ ـــ بيروت ، 1394 هـــ / 1974 م ، 2 / 144 .

[2] - أي السّيّد الشّريف الجرجاني في حاشيته على الكشّاف .

[3] - مفتاح العلوم : ص :512 .

[4] - مداخل إعجاز القرآن:أبو فهر محمود محمّد شاكر ، دار المدني ـــ جدّة ، ط2 ، 1435 هـــ / 2014 م ، ص : 113.

[5] - دلائل الإعجاز ،ص : 34 – 35 .

[6] - دلائل الإعجاز ، ص : 35 .

لعلّه قصد بذاك القرآن الذي أعجز العرب و غيرهم ، و إلاّ فإنّ عبد القاهر ــ كما وصفه القفطي ــ كان ضيّق العطن أحيانا (أي قريب الملل)، بحيث يدرك سرّ الشّيء ، و تجده يعتلج في صدره و لكنّه لا يتكلّم به ، مع قدرته عليه .[1]

ثانيا: خصوصيات الكلام البليغ :

1 ــ حسن التّقسيم :

يرى ابن عاشور أنّ خصوصيات الكلام البليغ و دقائقه مرادة لله تعالى في كون القرآن معجزا

و ملحوظة للمتحدّين به على مقدار ما يبلغ إليه بيان المبين .و إنّ إشارات كثيرة في القرآن تلفت الأذهان لذلك و يحضرني الآن من ذلك أمور : أحدها ما رواه مسلم و الأربعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : قال الله تعالى : « قسَمْتُ الصَّلاَةَ (أي سورة الفاتحة) بَيْنِي وَ بيْنَ عَبْدي نِصْفَيْن و لعبْدي ما سأل . فإذا قَالَ العَبْدُ : الحمد لله ربّ العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي . و إذا قال : الرّحمن الرّحيم ، قال الله تعالى : أثنى عليَّ عبْدي . و إذا قال : مالك يوم الدّين ، قال : مجَّدَنِي عبدي (و قال مرّة : فَوّضَ إليَّ عبْدِي) فإذا قال : إيّاك نعبد و إيّاك نستعين ، قال : هذا بيني و بين عبدي و لعبدي ما سأل ، فإذا قال : اهدنا الصّراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضّالّين ، قال : هذا لعبدي و لعبدي ما سأل».[2]

---

[1] - انباه الرّواة عل أنباه النّحاة : جمال الدّين الحسن عليّ بن يوسف القفطي ، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، دار الفكر العربيّ ،1406 هــ / 1986 م ، 2 / 188 .

[2] - صحيح مسلم المسمّى : المسند الصّحيح المختصر من السّنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : مسلم ابن الحجّاج أبو الحسين ، اعتنى به : أبو قتيبة نظر محمّد الفاريابي، دار طيبة ، ط1 ، 1427 هــ / 2006 م ،باب وجوب قراءة سورة الفاتحة ، و الحديث من رواية أبي هريرة ، ص : 184.

ففي هذا الحديث تنبيه على ما في نظم فاتحة الكتاب من خصوصيّة التّقسيم إذ قسّم الفاتحة ثلاثة أقسام . و حسن التّقسيم من المحسّنات البديعيّة . مع ما تضمّنه ذلك التّقسيم من محسّن التّخلّص في قوله : فإذا قال : إيّاك نعبد و إيّاك نستعين ، قال : هذا بيني و بين عبدي إذ كان ذلك مزيجا من القسمين الذي قبله و الذي بعده.

2 ـــ وفرة الدّلالة :

و أشار إلى التّجنيس الذي قد كثر في القرآن ، و محسّن الطّباق ، و نبّه على مافيه من التّمثيل

و كان يعدّ من أفانين الكلام الالتفات ، ثمّ تحدّث عن التّشبيه و الاستعارة و ما لهما من مزيّة جماليّة قدكثر استعمالهما في القرآن،ليخلص إلى القول : « إنّ نظم القرآن مبنيّ على وفرة الإفادة و تعدّد الدّلالة ، فجمل القرآن لها دلالتها الوضعيّة التّركيبيّة التي يشاركها فيها الكلام العربيّ كلّه

و لها دلالتها البلاغيّة التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء و لا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها.و لها دلالتها المطويّة و هي دلالة ما يذكر على ما يقدّر اعتمادا على القرينة ، و هذه الدّلالة قليلة في كلام البلغاء و كثرت في القرآن ، مثل تقدير القول و تقدير الموصوف و تقدير الصّفة.[1]

و لها دلالة مواقع جمله بحسب ما قبلها و ما بعدها ، ككون الجملة في موقع العلّة لكلام قبلها

أو في موقع الاستدراك ، أو في موقع جواب سؤال ، أو موقع تعريض أو نحوه .و هذه الدّلالة لا تتأتّى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم و خطبهم بخلاف القرآن ، فإنّه لمّا كان من قبيل التّذكير و التّلاوة سمحت أغراضه بالإطالة ، و بتلك الإطالة تأتّى تعدّد مواقع الجمل

و الأغراض».[2]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 108 - 110.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 110 .

3 ــ انفتاح دلالة القرآن :

القرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم .

و هو لكونه كتاب تشريع و تأديب و تعليم ، كان حقيقا بأن يودع فيه من المعاني و المقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ ، في أقلّ ما يمكن من المقدار ، بحسب ما تسمح به اللّغة الوارد هو بها التي هي أسمح اللّغات بهذه الاعتبارات ، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى ، فمعتاد البلغاء إيداع المتكلّم معنى يدعوه إليه غرض كلامه و ترك غيره، و القرآن ينبغي أن يودع من المعاني كلّ ما يحتاج السّامعون إلى علمه ، و كلّ ما له حظّ في البلاغة سواء كانت متساوية أم متفاوتة في البلاغة ، إذا كان المعنى الأعلى مقصودا و كان ما هو أدنى منه مرادا دونه سواء كانت دلالة التّركيب عليها متساوية في الاحتمال و الظّهور ، أم متفاوتة بعضها أظهر من بعض و لو أن تبلغ حدّ التّأويل و هو حمل اللّفظ على المعنى المحتمَل المرجوح . أمّا إذا تساوى المعنيان فالأمر أظهر[1]،مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [2] أي ما تيقّنوا قتله و لكن توهّموه

أو ما أيقن النّصارى الذين اختلفوا في قتل عيسى علم ذلك يقينا بل فهموه خطأ[3] ، و مثل قوله :

﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾[4] ففي كلّ من كلمة (**ذكر**)[5]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 94 .

[2] - النّساء : 157.

[3] - التّسهيل لعلوم التّتريل : أبو القاسم أحمد بن محمّد بن جزيّ الكلبيّ ، ضبطه و صحّحه و خرّج آياته : محمّد سالم هاشم ، ط 1 ، دار الكتب العلميّة ، 1415 هـــ / 1995 م ،1 / 218 .

[4] - يوسف :42 .

[5] - ينظر : قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه و النّظائر في القرآن الكريم : الحسين بن محمّد الدّامَغاني ، حقّقه و رتّبه و أكمله و أصلحه : عبد العزيز سيّد الأهدل ، ط4 ، دار العلم للملايين ، 1983 م ، ص : 181 . و فيه أنّ معنى الآية : اذكر أمري عند فلان .

و (**ربّه**)[1] معنيان ، أي أنساه ذكر الله بلسانه و قلبه . و مثل قوله :﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [2] ففي لفظ(**ربّي**) معنيان ، أي الرّبّ بمعنى السّيّد البشريّ ، أو بمعنى الرّبّ أي الإله عزّ و جلّ. و قد تكثر المعاني بإنزال لفظ الآية على وجهين أو أكثر تكثيرا للمعاني مع إيجاز اللّفظ و هذا من وجوه الإعجاز. و مثاله قوله تعالى : ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [3] بالمثنّاة التّحتيّة و قرأ الحسن البصريّ : (أباه) بالباء الموحّدة [4] ، فنشأ احتمال فيمن هو الواعد . و لّما كان القرآن نازلا من المحيطِ علمُه بكلّ شيء ، كان ما تسمح تراكيبه الجارية على فصيح استعمال الكلام البليغ باحتماله من المعاني المألوفة للعرب في أمثال تلك التّراكيب ، مظنونا بأنّه مراد لمنزله ، ما لم يمنع من ذلك مانع صريح أو غالب من دلالة شرعيّة أو لغويّة أو توفيقيّة . و قد جعل الله القرآن كتاب الأمّة كلّها و فيه هدْيها ، و دعاهم إلى تدبّره و بذل الجهد في استخراج معانيه في غير ما آية كقوله تعالى :﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [5] و قوله : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [6] و قوله :﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [7] و غير غير ذلك على أنّ القرآن هو الحجّة العامّة بين علماء الإسلام لا يختلفون في كونه حجّة شريعتهم

---

[1] - أي : مالكك و سيّدتك ، المصدر نفسه ، ص :190 .

[2] - يوسف :23 .

[3] - التّوبة :114 .

[4] - معجم القراءات القرآنيّة مع مقدّمة في القراءات و أشهر القرّاء : د . أحمد مختار عمر ، و د . عبد العال سالم مكرم ، ط1 مطبوعات جامعة الكويت ، 1403 هـ / 1983 م ، 3 / 48 . و ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السّبع المثاني :أبو الفضل شهاب الدّين السّيّد محمود الألوسي ،دط ، دار إحياء التّراث العربي ـــ بيروت ،دت ، 11 / 34 .

[5] - التّغابن :16 .

[6] - النّساء :83 .

[7] - العنكبوت :49 .

و إن اختلفوا في حجّية ما عداه من الأخبار المرويّة عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم لشدّة الخلاف في شروط تصحيح الخبر و لتفاوتهم في مقدار ما يبلغهم من الأخبار مع تفرّق العصور و الأقطار ، فلا مرجع لهم عند الاختلاف يرجعون إليه أقوى من القرآن و دلالته .[1]

و قد أبدع ابن عاشور في هذا الباب و هو يؤصّل لمبدأ تعدّد الدّلالة القرآنيّة ، و قبول المعنى الذي لم ترد بشأنه الآية من كتاب الله تعالى إذا كان ممّا يحتمله اللّفظ، و يدلّل على تأصيله هذا بما وقع من تفسيرات مرويّة عن النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم لآيات من كتاب الله ، فنرى منها ما نوقن بأنّه ليس هو المعنى المقصود من التّركيب ؛ و لكنّا بالتّأمّل نعلم أنّ الرّسول عليه الصّلاة و السّلام ما أراد بتفسيره إلاّ إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن ، مثال ذلك ما رواه أبو سعيد بن المُعلّى قال : دعاني رسول الله و أنا في الصّلاة فلم أجبه فلمّا فرغت أقبلت إليه فقال : " ما منعك أن تجيبني ؟ فقلت : يا رسول الله كنت أصلّي ، فقال : ألم يَقُلِ الله تعالى : " استَجِيبُوا لله و للرَّسُولِ إذا دعَاكُمْ ؟"[2] فلا شكّ أنّ المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ ﴾[3] و أنّ المراد من الدّعوة الهداية كقوله تعالى :﴿ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾[4] وقد تعلّق فعل دعاكم بقوله :﴿ **لمَا يُحْيِيكُم** ﴾[5] أي لما فيه صلاحكم ، غير أنّ لفظ الاستجابة لّما كان صالحا للحمل على المعنى

---

[1] – قضيّة الاحتجاج بأحاديث الآحاد و غيرها من القضايا المتعلّقة بهذا الباب ، دُرست في علم أصول الفقه ، مثل كتاب المستصفى من علم الأصول لأبي حامد الغزالي .

[2] - صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري ، دار ابن كثير ــ دمشق ــ ط1، 1423 هــ / 2002 م ، كتاب التّفسير ، ص : 1145 .

[3] - آل عمران :172 .

[4] - آل عمران :104 .

[5] - الأنفال :24 .

الحقيقيّ أيضا و هو إجابة النّداء حمل النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم الآية على ذلك في المقام الصّالح له ، بقطع النّظر عن المتعلّق و هو قوله :(لما يحييكم).

و كذلك قوله صلّى الله عليه و سلّم : " يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ)".[1] إنّما هو تشبيه الخلق الثّاني بالخلق الأوّل لدفع استبعاد البعث ، كقوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [2] و قوله :﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[3] فذلك مورد التّشبيه ، غير أنّ التّشبيه لمّا كان صالحا للحمل على تمام المشابهة أعلمنا النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم أنّ ذلك مراد منه ، بأن يكون التّشبيه بالخلق الأوّل شاملا للتّجرّد من الثّياب و النّعال . و كذلك قوله تعالى :﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [4] فقد قال النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم لعمر بن الخطّاب لمّا قال له : لا تصلّ على عبد الله بن أبيّ بن سلول فإنّه منافق و قد نهاك الله عن أن تستغفر للمنافقين ، فقال النبيّ صلّى الله عليه و سلّم : خيّرني ربّي و سأزيد على السّبعين ". [5]

فحمل قوله تعالى :﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [6] على التّخيير مع أنّ ظاهره أنّه مستعمل في التّسوية ، و حمل العدد على دلالته الصّريحة دون كونه كناية عن الكثرة كما هو قرينة السّياق لّما كان الأمر و اسم العدد صالحيْن لما حملهما عليه فكان الحمل تأويلا ناشئا عن الاحتياط. و من

[1] - صحيح البخاريّ :، كتاب الرّقاق ، باب الحشر ، ص : 1621 .
[2] - ق :15 .
[3] - الرّوم :27 .
[4] - التّوبة :80 .
[5] - صحيح البخاري : كتاب التّفسير ، ص : 1152 .
[6] - التّوبة :80 .

هذا قول النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم لأمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط حين جاءت مسلمة مهاجرة إلى المدينة و أبتْ أن ترجع إلى المشركين فقرأ النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ [1] فاستعمله في معنى مجازيّ هو غير المعنى الحقيقيّ الذي سيق إليه ،إذ المعنى الحقيقيّ أنّه : " في كلّ لحظة يتحرّك بُرْعم ساكن من جوف حبّة أو نواة فيفلقها و يخرج إلى وجه الحياة ، و في كلّ لحظة يجفّ عود أو شجرة تستوفي أجلها فتتحوّل إلى هشيم أو حطام . و من خلال الهشيم و الحطام توجد الحبّة الجديدة السّاكنة المتهيّئة للحياة

و الإنبات ..."[2] ، و يذهب ابن عاشور إلى أنّ سجود النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم في مواضع سجود التّلاوة من القرآن ليس راجعا إلاّ إلى هذا الأصل ، فإن كان فَهْما منه رجع إلى ما شرح تأصيله ، و إن كان وحيا كان أقوى حجّة في إرادة الله من ألفاظ كتابه ما تحتمله ألفاظه ممّا لا ينافي أغراضه. و إنّك لتمرّ بالآية الواحدة فتتأمّلها و تتدبّرها فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التّركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربيّ . و قد تتكاثر عليك فلا تكُ من كثرتها في حصر و لا تجعل الحمل على بعضها منافيا للحمل على البعض الآخر إن كان التّركيب سمحا بذلك.[3]

4 ــ التّقديم و التّأخير :

و هو يفيد دقائق عجيبة كثيرة لا يحاط بها ، و ضرب ابن عاشور له مثلا قوله تعالى:﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ [4] إلى قوله :﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [5] إلى قوله:

[1] - الرّوم :19 .

[2] - في ظلال القرآن : سيّد قطب ، ط 1 ، دار الشّروق ، 1425 هــ / 2005 م ، م5 ،ج 19 ، ص: 2762 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص :97 .

[4] - النّبأ : 21 - 22.

[5] - النّبأ :31 - 32.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [1] إذ يرى أنّه كان للابتداء بذكر جهنّم ما يفسّر المفاز في قوله :﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾أنّه الجنّة لأنّ الجنّة مكان فوز . ثمّ كان قوله :﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ ما يحتمل لضمير (فيها) من قوله:﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أن يعود إلى :﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾

و تكون (في) للظّرفيّة المجازيّة أي الملابسة أو السّببيّة ، أي لا يسمعون في ملابسة شرب الكأس ما يعتري شاربيها في الدّنيا من اللّغو و اللّجاج ، و أن يعود على (مفازا) بتأويله باسم مؤنّث ، و هو الجنّة و تكون (في) للظّرفيّة الحقيقيّة ، أي لا يسمعون في الجنّة كلاما لا فائدة فيه و لا كلاما مؤذيا . [2] و هذه المعاني لا يتأتّى جميعها إلاّ بجُمل كثيرة لو لم يُقدّم ذكر جهنّم و لم يعقب بكلمة (مفازا) . و لم يؤخّر (و كأسا دهاقا) و لم يعقب بجملة :﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ إلخ

5 ـــ مراعاة المقام :

و يرجع صنف من الإعجاز إلى ما يسمّى في عرف علماء البلاغة بالنّكت البلاغيّة فإنّ بلغاءهم كان تنافسهم في وفرة إيداع الكلام من هذه النّكت ، و بذلك تفاضل بلغاؤهم ، فلمّا سمعوا القرآن انثالت على كلّ من سمعه من بلغائهم من النّكت التي تفطّن لها ما لم يجد من قدرته قِبلا بمثله. فالمعنى هو الذي يقتضي الذّكر أو الحذف و الإظهار أو الإضمار ، و التّقديم أو التّأخير و الفصل أو الوصل ، و الخبر أو الإنشاء ، و القصر أو الإطلاق و هلمّ جرّا .[3]

و ممّا يجب التّنبيه له أنّ مراعاة المقام في أن ينظم الكلام على خصوصيات بلاغيّة هي مراعاة من مقوّمات بلاغة الكلام و خاصّة في إعجاز القرآن ، فقد تشتمل آية من القرآن على خصوصيات

---

[1] - النّبأ :34 - 35.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 110.

[3] - الأصول (دراسة إبستيمولوجيّة للفكر اللّغويّ عند العرب) ت النّحو ـــ فقه اللّغة ـــ البلاغة : د. تمّام حسّان ، دط ، عالم الكتب ، 1425 هـــ / 2004 م ، ص : 312 .

تتساءل نفس المفسّر عن دواعيها و ما يقتضيها فيتصدّى لطلب مقتضيات لها ربّما جاء بها متكلّفة أو مغصوبة ، ذلك لأنّه لم يلتفت إلاّ إلى مواقع ألفاظ الآية ، في حال أنّ مقتضياتها في الواقع منوطة بالمقامات التي نزلت فيها الآية ، مثال ذلك قوله تعالى :﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [1] ثمّ قوله :﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [2] فقد يخفى مقتضى اجتلاب حرف التّنبيه في افتتاح كلتا الجملتين فيأوي المفسّر إلى تطلّب مقتضاه و يأتي بمقتضيات عامّة مثل أن يقول: التّنبيه للاهتمام بالخبر ، و لكن إذا قدّرنا أنّ الآيتين نزلتا بمسمع من المنافقين و المؤمنين جميعا علمنا أنّ اختلاف حرف التّنبيه في الأولى لمراعاة إيقاظ فريقي المؤمنين

و المنافقين جميعا ، فالأوّلون لأنّهم يتظاهرون بأنّهم ليسوا من حزب الشّيطان في نظر المؤمنين إذ هم يتظاهرون بالإسلام ، فكأنّ الله يقول قد عرفنا دخائلكم ، و ثاني الفريقين و هم المؤمنون نُبّهوا لأنّهم غافلون عن دخائل الآخرين فكأنّه يقول لهم تيقّظوا فإنّ الذين يتولّون أعداءكم هم أيضا عدوّ لكم ، لأنّهم حزب الشّيطان و الشّيطان عدوّ الله ، و عدوّ الله عدوّ لكم و اجتلاب حرف التّنبيه في الآية الثّانية لتنبيه المنافقين إلى فضيلة المسلمين لعلّهم يرغبون فيها فيرعوون عن النّفاق

و تنبيه المسلمين إلى أنّ حولهم فريقا ليسوا من حزب الله فليسوا بمفلحين ليتوسّموا أحوالهم حقّ التّوسّم فيحذروهم .[3]

6 ـــ صراحة كلمات القرآن :

عدّ ابن عاشور كلمات القرآن مظهرا من مظاهر إعجازه ، و ذلك باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة ، و أشملها لمعان عديدة مقصودة بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها ، و لا تجدها

---

[1] - المجادلة : 19.

[2] - المجادلة : 22.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 111 .

مستعملة إلاّ في حقائقها، مثل إيثار كلمة (حَرْدٍ) في قوله تعالى :﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾[1] إذ كان جميع معاني الحرد صالحا للإرادة في ذلك الغرض ، و هي تدلّ على الغضب و الحقد ، وحَرَد بمعنى قصد و بمعنى منع من قولك حاردت النّاقة إذا لم بها لبن . و حاردت السّنة ، إذا لم يكن فيها مطر[2] ، أو مجازات أو استعارات أو نحوها ممّا تنصب عليه القرائن في الكلام ، فإن اقتضى الحال تصرّفا في معنى اللّفظ كان التّصرّف بطريق التّضمين و هو كثير في القرآن مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾[3] فجاء فعل(**أتوا**) مضمَّناً معنى مرّوا فعُدّي بحرف (على) ؛ لأنّ الإتيان تعدّى إلى اسم القرية و المقصود منه الاعتبار بمآل أهلها ، فإنّه يقال : أتى أرض بني فلان و مرّ على حيّ كذا . و هذه الوجوه كلّها لا تخالف أساليب الكلام البليغ بل هي معدودة من دقائقه و نفائسه التي تقلّ نظائرها في كلام بلغائهم لعجز فطنة الأذهان البشريّة عن الوفاء بجميعها .[4]

7 ـــ فصاحة اللّفظ و انسجام النّظم :

و في هذه الجهة ناحية أخرى و هي ناحية فصاحة اللّفظ و انسجام النّظم و ذلك بسلامة الكلام في أجزائه و مجموعه ممّا يجرّ الثّقل إلى لسان النّاطق به ، و لغة العرب لغة فصيحة و أهلها مشهورون بفصاحة الألسن . قال الفخر الرّازي : « إنّ المحاسن اللّفظيّة غير مهجورة في الكلام الحكميّ ، و الكلام له جسم و هو اللّفظ و له روح و هو المعنى و كما أنّ الإنسان الذي نوّر

[1] - القلم : 25.

[2] - غريب القرآن المسمّى (نزهة القلوب) : أبو بكر محمّد بن عزيز السّجستاني ، دط ، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة 1990 م ، ص : 79 .

[3] - الفرقان : 40.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 112 .

روحه بالمعرفة ينبغي أن ينوّر جسمه بالنّظافة ، كذلك الكلام ، و ربّ كلمة حكيمة لا تؤثّر في النّفوس لركاكة لفظها ».[1]

و كان ممّا يعرض لشعرائهم و خطبائهم ألفاظ لها بعض الثّقل على اللّسان ، فأمّا ما يعرض للألفاظ فهو مل يسمّى في علم الفصاحة بتنافر حروف الكلمة أو تنافر حروف الكلمات عند اجتماعها مثل : مستشزرات[2] و الكَنَهْبُلِ[3] في معلّقة امرئ القيس ، و سنفنّجة[4] و الخَفَيْدَدِ [5] في كعلّقة طرفة ، و قول القائل : « و ليْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ». [6]

و قد سلم القرآن من هذا كلّه مع تفنّنه في مختلف الأغراض و ما تقتضيه من تكاثر الألفاظ

و بعض العلماء أورد قوله :﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [7] و قوله :

---

[1] - التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب : محمّد فخر الدّين الرّازي ، ط1 ، دار الفكر ، 1401 هـــ / 1981 م ، 1 /ص :32 .

[2] - ديوان امرئ القيس ؛ ضبطه و صحّحه : مصطفى عبد الشّافي ، ط5 ، دار الكتب العلميّة ـــ بيروت ـــ ، 1425 ÷ـــ / 2004 م ، ص : 115 . و ينظر : شرح القصائد العشر ، يحي بن الخطيب التّبريزيّ قدّم له و وضع هوامشه و فهارسه : فوّاز الشّعار دط ، مؤسّسة المعارف ـــ بيروت ـــ ، 1427 هـــ / 2006 م ، ص : 39 . و فيه أنّ معنى مستشزَرات (بفتح الزّاي): أي مرفوعات ، أمّا رواية ابن الأعرابيّ : مستشزِرات : بمعنى : مرتفعات.

[3] - ديوان امرئ القيس : ص : 121 . و البيت بتمامه :

فَأضْحَى يَسُحُّ المَاءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ على الأذْقَانِ دَوْحَ الكَنَهْبُلِ

و : الكنهبل : شجر من العضاه.

[4] - ديوان طرفة بن العبد ، شرحه و قدّم له مهدي محمّد ناصر الدّين ،ط 3 ، دار الكتب العلميّة ـــ بيروت ـــ ، 1423 هـــ / 2002 م ، ص :20 . و معنى : السفنّجة :النّعامة .

[5] - ديوان طرفة بن العبد : ص :23 . و البيت بتمامه :

و إنْ شِئْتُ سَامَى وَاسِطَ الكَوْرِ رَأْسُهَا و عَامَتْ بِضَبْعَيْهَا نَجَاءَ الخَفَيْدَدِ

و الخفيدد : الظّليم .و هو ذكر النَّعَام .و ينظر : شرح القصائد العشر : ص: 75 .

[6] - شرح عقود الجمان في علم المعاني و البيان ، جلال الدّين عبد الرّحمن السّيوطيّ ،دط ، دار الفكر، دت، ص : 4 – 5 . و الشّطر الأوّل من البيت :وَ قبرِ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ ، قال الرّمّانيّ : و ذكروا أنّه من شعر الجنّ لأنّه لا يتهيّأ لأحد أن يُنشِده ثلاث مرّات فلا يتتعتع .

[7] - يس : 60.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [1] و تصدّى للجواب ، و الصّواب أنّ ذلك غير وارد كما قاله المحقّقون لعدم بلوغه حدّ الثّقل ، و لأنّ حسن دلالة اللّفظ على المعنى بحيث لا يَخلُفه فيها غيره مقدّم على مراعاة خفّة لفظه .[2]

فقد اتّفق أئمّة الأدب على أنّ وقوع اللّفظ المتنافر في أثناء الكلام الفصيح لا يزيل عنه وصف الفصاحة ، فإنّ العرب لم يعيبوا معلّقة امرئ القيس و لا معلّقة طرفة . قال المبرّد : « و قد يُضطرّ الشّاعر المفلق و الخطيب المِصقع و الكاتب البليغ فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق و اللّفظ المستكره ، فإذا انعطفت عليه جنبتا الكلام غطّتا على عواره و سترتا من شينه».[3]

ثالثا: أفانين التّصرّف في أساليب الكلام البليغ :

يرى ابن عاشور أنّ هذا الجانب قد أغفِل من علم البلاغة ، و لذا وجدناه يقول : « اعلم أنّ أدب العرب نوعان شعر و نثر ، و النّثر خطابة و أسجاع كهّان ، و أصحاب هذه الأنواع و إن تنافسوا في ابتكار المعاني و تفاوتوا في تراكيب أدائها في الشّعر فهم ــ بالنّسبة إلى الأسلوب ــ قد التزموا في أسلوبي الشّعر و الخطابة طريقة واحدة تشابهت فنونها فكادوا لا يعْدون ما أَلِفوه من ذلك حتى إنّك لتجد الشّاعر يحذو حذو الشّاعر في فواتح القصائد و في كثر من تراكيبها».[4]

فلمّا جاء القرآن و لم يكن شعرا و لا سجع كهّان ، و كان من أسلوب النّثر أقرب إلى الخطابة ، ابتكر للقول أساليب كثيرة بعضها تتنوّع بتنوّع المقاصد ، و مقاصدها بتنوّع أسلوب الإنشاء ، فيها أفانين كثيرة فيجد فيه المطّلع على لسان العرب بغيته و رغبته ، و لهذا قال الوليد بن المغيرة لمّا استمع إلى قراءة النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم : « و الله ما هو بكاهن ، ما هو بزمزمته

---

[1] - هود : 48.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 113 .

[3] - الكامل في اللّغة و الأدب ؛ أبو العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد ، حقّقه و شرحه و ضبطه و فهرسه : حنّا الفاخوري ، دط دار الجيل ــ بيروت ــ ، 1425 هــ / 2005 م ، ص : 32 – 33 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 114 .

و لا سجعه وقد عرفنا الشّعر كلّه رجزه و هزجه ، و قريضه و مبسوطه ، و مقبوضه ما هو بشاعر».[1] و عندما وصفوا القرآن بالشّعر لم يكن بدّ من إلحاق القرآن بصنف من أصناف كلامهم ألحقوه بأشبه الكلام به فقالوا : إنّه شعر تقريبا للدّهماء بما عهده القوم من الكلام الجديد بالاعتبار من حيث ما فيه من دقائق المعاني و أحكام الانتظام و النّفوذ إلى العقول ، فإنّه مع بلوغه أقصى حدّ في فصاحة العربيّة و مع طول أغراضه و تفنّن معانيه و كونه نثرا لا شعرا ، ترى أسلوبه يجري على الألسنة سلسا سهلا لا تفاوت في فصاحة تراكيبه ، و ترى حفظه أسرع من حفظ الشّعر.

و يرى ابن عاشور أنّ العرب قدّموا الشّعر و جعلوه وسيلة تسجيل مآثرهم ، لما فيه من الوزن الموسيقيّ و الإيقاع الدّاخليّ ، ممّا يجعله جاريا على الألسن و سهلا على التّرديد و الحفظ ، و إن كان أصحابه متفاوتون في نظمه،و متسامحون في أمور كثيرة،سمّوها أحيانا بالضّرورات الشّعرية.

و لو أنّ واحدا من أولئك الشّعراء طُلب منه أن يدقّق فيما يقول و يحقّق ما يكتب بالتّصحيح

و التّقديم و التّأخير و الحذف و الزّيادة لأمضى زمنا طويلا في تأليف ما يقدّر بسورة من متوسّط سور القرآن، و لما سلم مع ذلك من جُمَل يتعثّر فيها اللّسان . فمن أجل ذلك وردت الفواصل فيه بإزّاء ورود الأسجاع في كلام العرب ، و إنّما لم يجئ على أسلوب واحد ، لأنّه لا يحسن في الكلام جميعا أن يكون مستمرّا على نمط واحد ، لما فيه من التّكلّف، و لما في الطّبع من الملل عليه. و لأنّ الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد.[2] و لهذالم تفته سلاسة الشّعر و لم ترزح تحت قيود الميزان ، فجاء القرآن كلاما منثورا و لكنّه فاق في فصاحته و سلاسته على الألسنة و توافق كلماته و تراكيبه في السّلامة من أقلّ تنافر و تعثّر على الألسنة . فكان كونه من النّثر داخلا في إعجازه ، وقد اشتمل القرآن على أنواع أساليب الكلام العربيّ و ابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها ، وإنّ لذلك التّنويع حكمتين داخلتين في الإعجاز : أولاهما ظهور أنّه من عند

---

[1] - ينظر الرّسالة الشّافية : عبد القاهر الجرجاني ، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، ص : 122 – 123 .

[2] - منهاج البلغاء و سراج الأدباء : أبو الحسن حازم القرطاجنّي ، تقديم و تحقيق محمّد الحبيب ابن الخوجة ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي — بيروت ، 1981م ، ص : 388 – 389 .

الله ؛ إذ قد تعارف الأدباء في كلّ عصر أن يظهر نبوغ نوابغهم على أساليب مختلفة ، كلّ يجيد أسلوبا أو أسلوبيْن . و الثّانية أن يكون في ذلك زيادة التّحدّي للمتحدّين به بحيث لا يستطيع أحد أن يقول : إنّ هذا الأسلوب لم تسبق لي معالجته ، و لو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته.[1]

1 ــ الجمع بين الموعظة و التّشريع :

يذهب ابن عاشور إلى أنّ من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنّه جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه ، و هما : مقصد الموعظة و مقصد التّشريع ، فكان نظمه يمنح بظاهره السّامعين ما يحتاجون أن يعلموه و هو في هذا النّوع يشبه خطبهم ، و كان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التّشريع و الآداب و غيرها ، و قد قال في الكلام على بعضه : هذا من حيث ما لمعانيه من العموم و الإيماء إلى العلل و المقاصد و غيرها.[2]

2 ــ التّناسب :

يعدّ ابن عاشور ما يسمّيه بالتّفنّن و هو بداعة تنقّلاته من فنّ إلى فنّ بطرائق الاعتراض و التّنظير و التّذييل و الإتيان بالمترادفات عند التّكرير تجنّبا لثقل الكلم ، و كذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التّفنّن عند بلغاء العربيّة فهو في القرآن كثير ، ثمّ الرّجوع إلى المقصود فيكون السّامعون في نشاط متجدّد بسماعه و إقبالهم عليه .بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيز مثلها في شعر العرب و في نثر بلغائهم من الخطباء و أصحاب بدائه الأجوبة . و في هذا التّفنّن و التّنقّل مناسبات بين المنتقَل منه و المنتَقَل إليه هي في منتهى الرّقّة و البداعة بحث لا يشعر سامعه و قارئه بانتقاله إلاّ عند حصوله. و يعرف هذا الإحكام و التّرابط في القرآن ، كلّ من ألقى باله إلى هذا التّناسب الشّائع فيه من غير تفكّك و لا تخاذل ، و لا انحلال و لا تنافر ، بينما الموضوعات مختلفة متنوّعة ، فمن تشريع إلى قصص لإلى جدل إلى وصف

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 114 – 115 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 116 .

إلى غير ذلك . [1] و ذلك التّفنّن ممّا يعين على استماع السّامعين و يدفع سآمة الإطالة عنهم ، فإنّ من أغراض القرآن القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى : فقوله : يقتضي الاستكثار بقدر التّيسّر،[2] و في تناسب أقواله و تفنّن أغراضه مجلبة لذلك التّيسير و عون على التّكثير ، نقل عن أبي بكر بن العربيّ أنّه قال : « ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متّسعة منتظمة المباني ، علمٌ عظيم »[3] ،و قد أبان عبد الله دراز عن هذه الحقيقة بعنوان : " الكثرة" و " الوحدة" ، فقال: « ...و أنت قد تعرف أنّ الكلام في الشّأن الواحد إذا ساء نظمه و انحلّت وحدة معناه فتفرّق من أجزائه ما كان مجتمعا ، و انفصل ما كان متّصلا ، كما تتبّدد الصّورة الواحدة على المرآة إذا لم يكن سطحها مستويا . أليس الكلام هو مرآة المعنى ؟ فلا بدّ إذا لإبراز تلك الوحدة الطبيعيّة " المعنويّة" من إحكام هذه الوحدة الفنّيّة " البيانيّة" . و ذلك بتمام التّقريب بين أجزاء البيان و التّأليف بين عناصره حتى تتماسك و تتعانق أشدّ التّماسك و التّعانق».[4] و معنى هذا الكلام أنّ السّورة القرآنيّة متآلفة الأجزاء ، متناسبة الأغراض و المعاني، متآخيّة الحواشي

و الأطراف ، رغم نزول القرآن نجوما ، و نقل الزّركشيّ عن عزّ الدّين بن عبد السّلام قوله : « المناسبة علم حسن و يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوّله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، و القرآن نزل في نيّف و عشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، و ما كان كذلك لا يتأتّى ربط بعضه ببعض »[5].

3 ـــ كيفية أداء التّراكيب :

[1] - مناهل العرفان في علوم القرآن : محمّد عبد العظيم الزّرقاني ، راجعه و ضبطه و علّق عليه : محمّد علي قطب ، و يوسف الشّيخ محمّد ، ط1 ، المكتبة العصريّة ، 1417 هـــ / 1996 م ، 2 / 289 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 116 .

[3] - البرهان في علوم القرآن : بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزّركشي ، تحقيق : أبو الفضل الدّمياطيّ ، دط ، دار الحديث ، 1427 هـــ / 2006 م ، ص : 37 .

[4]- النّبأ العظيم ، نظرات جديدة في القرآن : د. محمّد عبد الله دراز ، ط 4 ، دار القلم ، 1397 هـــ / 1977 م ،ص :142 – 143 .

[5] - البرهان: 37 .

إنّ بلاغة الكلام لا تنحصر في أحوال تراكيبه اللّفظيّة ، بل تتجاوز إلى الكيفيات التي تؤدّى بها تلك التّراكيب ، فإنّ سكوت المتكلّم البليغ في جملة سكوتا خفيفا قد يفيد من التّشويق إلى ما يأتي بعده ما يفيده إبهام بعض كلامه ثمّ تعقيبه ببيانه ، فإذا كان من مواقع البلاغة نحو الإتيان بلفظ الاستئناف البياني و إن لم يكنه عينه ، مثاله قوله تعالى :﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [1] فإنّ الوقف على قوله :﴿مُوسَىٰٓ﴾ يُحدث في نفس السّامع ترقّبا لما يبيّن حديث موسى ، فإذا جاء بعده :﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [2] ...إلخ حصل البيان مع ما يحصل عند الوقف على كلمة موسى من قرينة من قرائن الكلام لأنّه على سجعة الألف مثل قوله :﴿طُوًى ، طَغَىٰ ، تَزَكَّىٰ﴾...إلخ .

و قد بيّن عند تفسير قوله تعالى :﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [3] أنّ القارئ إذا وقف على كلمة : (ريب) ، و يسمّى هذا الوقف وقف المعانقة ـــ بضمّ الميم ـــ من عانق : و ضع كلّ من الرّجلين ذقنه على كتف الآخر ، و عنقه على عنقه ، و ضمّه إلى نفسه .[4] و في الاصطلاح : هو أن يجتمع وقفان في محلّ واحد يصحّ الوقف على كلّ واحد منهما ، و لكن إذا وُقف على أحدهما امتنع الوقف على الآخر ؛ لئلاّ يختلّ المعنى ، و يسمّى أيضا وقف المراقبة .[5] و يكون المعنى من قبيل إيجاز الحذف ، أي : لا ريب في أنّه الكتاب ، فكانت جملة :﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ابتداء كلام و كان مفاد حرف (في) استنزال طائر المعاندين أي: إن لم يكن كلّه هدى ، فإنّ فيه هدى .

---

[1] - النّازعات : 15.

[2] - النّازعات :16.

[3] - البقرة : 2.

[4] - ينظر لسان العرب 3 / 31 – 33 .

[5] - الوقف و الابتداء و صلتهما بالمعنى في القرآن الكريم :د . عبد الكريم عوض صالح ، ط2 ، دار السّلام ، 1429 هـــ / 2008 م ص : 245 .

و إن وصل القارئ (فيه) كان من قبيل الإطناب و كان ما بعده مفيدا أنّ هذا الكتاب كلّه هدى.[1]

4 ــ العدول عن التّكرار :

و قد عدّها ابن عاشور من أساليب القرآن فيما عدا المقامات التي تقتضي التّكرير من تهويل

و نحوه ، و ممّا عدل فيه عن التّكرير قوله تعالى :﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ﴾[2] فجاء بلفظ قلوب جمعا مع أنّ المخاطَب امرأتان فلم يقل قلباكما تجنّبا لتعدّد صيغة المثنّى .[3] و من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا ﴾[4] فروعي معنى(ما) الموصولة مرّة فأتى بضمير جماعة المؤنّث و هو (خالصة) و روعي لفظ (ما) الموصولة فأتي بمحرَّم مذكّرا مفردا .

إنّ المقام قد يقتضي شيئْن متساويين أو أشياء متساوية فيكون البليغ مخيَّرا في أحدهما و له ذكرهما تفنّنا و قد وقع في القرآن كثيرا و منه قوله تعالى :﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا ﴾[5] بواو العطف في سورة البقرة ، و قوله في الأعراف :(فَكُلاَ) بفاء التّفريع

و كلاهما مطابق للمقام فإنّه أمر ثان و هو أمر مفرّع على الإسكان فيجوز أن يحكى بكلّ من الاعتباريْن ، و منه قوله:﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا ﴾،[1] و في سورة الأعراف : فعبّر مرّة بـــ (ادخلوا) و مرّة بـــ (اسكنوا) و عبّر مرّة بواو العطف و مرّة بفاء التّفريع .

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 117 .

[2] - التّحريم : 4.

[3] - التّكرير بين المثير و التّأثير : د . عزّ الدّين علي السّيّد ، ط1 ، دار الطّباعة المحمّديّة ــ القاهرة ، 1398 هــ / 1978 م ، ص : 88 .

[4] - الأنعام : 139.

[5] - البقرة :35.

و هذا التّخالف بين الشّيئين يقصد لتلوين المعاني المعادة حتى لا تخلو إعادة عن تجدّد معنى و تغاير أسلوب ، فلا تكون إعادتها مجرّد تذكير .[2]

5 ــ مبتكرات القرآن :

يذهب ابن عاشور إلى أنّ للقرآن مبتكراته التي تميّز نظمه عن بقيّة كلام العرب ،و يقصد أنّ القرآن استخدم ألفاظا و اصطلاحات و تراكيب حقيقيّة و مجازيّة لم يكن العرب قد استعملوها في لغتهم شعرا و نثرا.[3] و عدّد منها أنواعا :

أ ــ أسلوبه : إنّ العرب أمّة جُبلت على ذكاء القرائح و فطنة الأفهام ، فعلى فطنتهم أقيمت أساليب كلامهم ،و بخاصّة كلام بلغائهم ، و لذلك كان الإيجاز عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلّمين على أفهام السّامعين كما يقال : " لمحة دالّةٌ ". لأجل ذلك كثر في كلامهم : المجاز ، و الاستعارة ، و التّمثيل و الكناية ، و التّعريض ، و الاشتراك و التّسامح في الاستعمال كالمبالغة ، و الاستطراد ومستتبَعات التّراكيب ، و الأمثال ، و التّلميح ، و التّمليح ، و استعمال الجملة الخبريّة في غير إفادة النّسبة الخبريّة ، و استعمال الاستفهام في التّقرير أو الإنكار ، و نحو ذلك ، فالأسلوب هو طريقة خلق الفكرة و توليدها و إبرازها في الصّورة اللّفظيّة المناسبة ، و ذلك من خلال إيجاد الدّقائق و العلائق و العبارات و الصّور و الأفكار و الألفاظ ، أو في الصّلة بين الأفكار و الألفاظ.[4]

و ملاك ذلك كلّه توفير المعاني ، و أداء ما في نفس المتكلّم بأوضح عبارة و أخصرها ليسهل اعتلاقها بالأذهان ؛ و إذ قد كان القرآن وحيا من العلاّم سبحانه وقد أراد أن يجعله آية على صدق رسوله تحدّى بلغاء العرب بمعارضة أقصر سورة منه ، فقد نُسج نظمه نسجا بالغا منتهى ما

---

[1] - البقرة :58.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 118 .

[3] - البلاغة القرآنيّة في تفسير التّحرير و التّنوير : د, عبد الرّحمن إبراهيم فودة ، دط ، كليّة دار العلوم ــ القاهرة ، 1426 هــ / 2005 م ، ص : 73 .

[4] - دفاع عن البلاغة : أحمد حسن الزّيّات ، دط ، مطبعة الرّسالة ، 1945 م ، ص : 62 .

تسمح به اللّغة العربيّة من الدّقائق و اللّطائف لفظا و معنى بما يفي بأقصى ما يراد بلاغة إلى المرسل إليهم .و هذا الذي ذهب إليه ابن خلدون متحدّثا عن ثمرة علم البيان بقوله: " و اعلم أنّ ثمرة هذا الفنّ إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن ، لأنّ إعجازه في وفاء الدّلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة و مفهومة ، و هي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختصّ بالألفاظ في انتقائها و جودة رصفها و تركيبها ، و هذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن دركه .."[1]

و قد خالف القرآن أسلوب الشّعر ، و هو ممّا نبّه عليه العلماء المتقدّمون ، و ضمّ إليه ابن عاشور أسلوب الخطابة الذي خالفه بعض الشّيء كذلك ، و جاء القرآن بطريقة يقصد حفظه و تلاوته و ذلك من دلائل إعجازه ، إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتّباع لطرائق العرب القديمة في الكلام . فجاء القرآن على أسلوب أبدع ممّا كانوا يعهدون و أعجب ، فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته و لم يسعهم إلاّ الإذعان ، سواء في ذلك من آمن منهم مثل لبيد بن ربيعة و كعب بن زهير و النّابغة الجعدي ، و من استمرّ على كفره عنادا مثل الوليد بن المغيرة .[2] و لقد تحدّث البلاغيّون عمّا يسمّى بالأغراض البلاغيّة للأسلوب و هي تلك الأغراض التي خرجت عن معناها الحقيقيّ الذي وُضعت له ، إلى معان أخرى لم تكن موضوعة لها في الأصل ، و تمّ استخراج هذه الأغراض من خلال السّياق اللّغويّ و سياق الحال أو المقام ، و كانت هذه بدايات العناية بالسّياق و ما يستتبعه .[3]

ب ــ جمله : لعلّ من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ما نجده من التّلاؤم و الاتّساق الكاملين بين كلمات جُمَله ، و بين تلاحق حركاتها و سكناتها ، إذ الجملة في القرآن نجدها دائما مؤلّفة من

[1] - مقدّمة ابن خلدون : وليّ الدّين عبد الرّحمن بن محمّد بن خلدون ، حقّق نصوصه و خرّج أحاديثه و علّق عليه: عبد الله محمّد الدّرويش ، ط 1 ، دار يعرب ، 1425 هــ / 2004 م ، 2 / 375 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 93 .

[3] - نظريّة السّياق بين القدماء و المحدثين ـــ دراسة لغويّة نحويّة دلاليّة : د. عبد النّعيم خليل ،ط 1 ، دار الوفاء لدنيا الطّباعة و النّشر ،2007 م ، ص : 175 .

كلمات و حروف ، و أصوات تتناغم ، و يرتاح لها السّمع ، و يتكوّن من تضامّيها نسقٌ جميل ينطوي على إيقاع رائع .[1] وقد جاءت هذه الجمل دالّة على معان مفيدة محرّرة شأن الجمل العلميّة

و القواعد التّشريعيّة ، فلم يأت بعموميّات شأنها التّخصيص غير مخصوصة ، و لا بمطلقات تستحقّ التّقييد غير مقيّدة ، كما كان يفعله العرب لقلّة اكتراثهم بالأحوال القليلة و الأفراد النّادرة .[2]

و مثاله قوله تعالى :﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[3]

ج ــ الأسلوب القصصيّ : و ذلك في حكاية أحوال النّعيم و العذاب في الآخرة ، و في تمثيل الأحوال ، و قد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب ، إذ كان فنّ القصص مفقودا من أدب العربيّة إلاّ نادرا[4] ، فلمّا جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب كما في سورة الأعراف من وصف أهل الجنّة و أهل النّار و أهل الأعراف ، و كذلك سورة الشّعراء ، و سورة هود.[5] و المقصود بالأسلوب ليس المفردات

و التّراكيب التي يتكلّم منها الكلام ، و إنّما هو الطّريقة التي انتهجها القرآن في اختيار المفردات و التّراكيب لكلامه .[6]

د ــ التّصرّف في حكاية الأقوال : إذ إنّ القرآن إذا نقل أقوالا غير عربيّة صاغها على النّمط الذي يوافق إعجازه و بلاغته ، لا على ما كانت عليه هذه الأقوال في لغاتها الأصليّة، و إذا حكى أقوالا عربيّة تصرّف فيها كذلك تصرّفا يناسب أسلوب المعبّر مثل ما يحكيه عن العرب فإنّه لا

---

[1] - الإعجاز في نظم القرآن : د. محمود السّيّد شيخون ، ط 1 ، مكتبة الكلّيات الأزهريّة ، 1398 هــ / 1978 م ، ص : 86 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 120 .

[3] - القصص : 50.

[4] - بحوث في قصص القرآن : السّيّد عبد الحافظ عبد ربّه ، ط 1 ، دار الكتاب اللّبنانيّ ــ بيروت ، 1972 م ، ص : 79 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 120 .

[6] - مناهل العرفان في علوم القرآن : 2 / 278 .

يلتزم حكاية ألفاظهم ، بل يحكي حاصل كلامهم ، فالإعجاز الثّابت للأقوال المحكيّة في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكيّة.[1]

هـ ــ الأمثال : القرآن أوضح الأمثال و إنّ هذه أمثال لا يعقلها إلاّ العالمون . و إنّها شبيه شيء بشيء في حكمه ، و تقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسيْن من الآخر ، و اعتبار أحدهما بالآخر .[2] و قد أبدع القرآن تركيبها بخلاف كلام العرب ، فإنّهم و إن كانت لهم أمثال تعلّقت بأحوال ، فإنّه مع تقادم الزّمن نسيت تلك الأحوال و لم تبق إلاّ الشّعور بمغازيها التي تقال لأجلها .[3] و لقد بلغت الأمثال مكانة عالية و درجة سامية ، فجعلها الله مقياسا للعقلاء ، و ميزانا للعلماء ، و سمّى من يعقلها بهذا الاسم " العالمون" مصداقا لقوله تعالى :﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾[4] و الأمثال أسلوب رصين ، و بيان رائع و تصوير صادق ، و هي كذلك نماذج للحكمة لما غب عن الأسماع و الأبصار ، و لم تكن الأمثال في القرآن قاصرة على العهد المكيّ ، بل شملت المكيّ و المدنيّ ، و هي أسلوب من أساليب القرآن في الدّعوة إلى الله بالتي هي أحسن .[5]

ز ــ تنوّع أسلوب السّور : لم يلتزم القرآن أسلوبا واحدا في السّور ، و لكن اختلفت أساليبه بحيث تكاد تتفرّد كلّ سورة بأسلوب خاصّ ، و لهجة خاصّة ، فإنّ بعضها بني على فواصل و بعضها ليس كذلك ، و الكلام نفسه يقال عن الفواتح ، و هي قريب ممّا نعبّر عنه في صناعة الإنشاء بالمقدّمات .[1]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 120 .

[2] - أمثال القرآن : محمّد بن أبي بكر بن أيّوب بن سعد الزّرعيّ ، المشهور بابن قيّم الجوزيّة ، حقّق النّصوص و ضبطها مع تخريج الآيات الشّريفة : جميل إبراهيم حبيب ،دط ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ــ بيروت ، دت ، ص : 27 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 121 .

[4] - العنكبوت : 43.

[5] - موسوعة الأمثال القرآنيّة : د. محمّد عبد الوهّاب عبد اللّطيف ، ط1 ، مكتبة الآداب ، 1414 هــ / 1993 م ، 1 / 7 .

ح ـــ الإيجاز : سبق الرّمّاني غيره إلى الحديث عن الإيجاز بنوعيه (إيجاز الحذف و إيجاز القصر) فرأى أنّه قد يكون أبلغ من الذّكر أحيانا ، لأنّه يترك النّفس تذهب كلّ مذهب في تأويل معناه للوقوف على سرّه ، و لو ذُكر المحذوف لزالت هذه المزيّة ، إذ سيتحدّد المراد بتحدّد الدّلالة [2]

و هو الخصّصية الدّقيقة التي يتميّز بها القرآن ، و التي كانت متنافس العرب قديما ، و قد جاء القرآن بأبدع صوره ، إذ كان مع ما فيه من الإيجاز المبين في علم المعاني ، فيه إيجاز عظيم آخر

و هو صلوحيّة معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعدّدة كلّها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللّفظ ، فبعض تلك الاحتمالات ممّا يمكن اجتماعه ، و بعضها و إن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر ، فتحريك الأذهان إليه و إخطاره بها يكفي في حصول المقصد من التّذكير به للامتثال أو الانتهاء. و لولا إيجاز القرآن لكان أداء ما تضمّنه من المعاني في مقدار القرآن .

و أسرار التّنزيل و رموزه في كلّ باب بالغة من اللّطف و الخفاء حدّا يدقّ عن تفطّن العالم و يزيد عن تبصّره و لا ينبّئك مثل خبير . [3]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 121 .

[2] - النّكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) ، ص : 77 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1، ق 1 ص : 122.

الفصل الأوّل

بلاغة الكلمة

تمهيد :

يلاحظ الدّارس لكتاب الله أنّ ألفاظه دقيقة ، و قد اختيرت من بين قريناتها ، و أنّ واحدا لو أراد أن يبدّل لفظ القرآن بغيره من الألفاظ القريبة، أو ما يسمّى بالمرادفات ، لما وفّى بالمعنى الذي قصد إليه القرآن الكريم، و كما قال السّامرّائيّ : « و لا شكّ أنّ كلّ مفردة وُضعت وضعا فنّيّا مقصودا في مكانها المناسب ، و إنّ الحذف من المفردة مقصود ، كما أنّ الذّكر مقصود ، و إنّ الإبدال مقصود ، كما أنّ الأصل مقصود ، و كلّ تغيير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه ».[1] و يشترط أهل الفصاحة في اللّفظ أن يكون كما قال قدامة بن جعفر : « سمحا ، سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلوّ من البشاعة».[2] و لا نجد هذا إلاّ في لفظ القرآن ، و قد عدّ العلماء القصد في اللّفظ و الوفاء بحقّ المعنى في الآن نفسه من وجوه الإعجاز في كلام الله ، و قلّ أن يتوفّر هذا لأحد ممّن نبغ في الأدب ، و تضلّع من فنون القول فضلا عن أن يقدر على ذلك عوامّ النّاس . و لقد صدق من قال : إنّ محاولة التّوفيق بين هذين العنصرين أمر صعب ، وحال صاحبه كمن يريد أن يعدل بين ضرّتين ،[3] و ليس بقادر ، لأنّه إذا وُفّق لاختيار لفظه فلسوف يخفق في الوفاء بالمعنى ، هذا الأمر هو الذي حمل كثيرا من الأدباء على إعادة النّظر فيما كتبوا ، و على حدّ قول البوطي : « فإنّ للكلمة القرآنيّة مزيّة لا تجدها في الكلمات التي يتكوّن منها كلام النّاس و تعابيرهم مهما سمت في مدارج البلاغة و البيان . فهي : <u>**أوّلا**</u>:تتناول من المعنى سطحه و أعماقه و أعماقه و سائر صوره و خصائصه . و لا تقف عند العموميّات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشريّة التي تعاني من العجز الذي أوضحناه .

---

[1] - بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ : فاضل صالح السّامرّائيّ ، ط2 ، شركة العاتك لصناعة الكتاب ـــ القاهرة ، 1427 هـــ / 2006 م ، ص : 4 .

[2] - نقد الشّعر :أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق : كمال مصطفى ، ط3 ، مكتبة الخانجي ـــ القاهرة ، 1398 هـــ / 1978 م ، ص : 28 .

[3] - النّبأ العظيم : ص :109 .

ثانيا : و هي تمتاز عن سائر مرادفاهّا اللّغويّة بتطابق أتمّ مع المعنى المراد فمهما استبدلت بها غيرها لم يسدّ مسدّها و لم يغن غناءها ، و لم يؤدّ الصّورة التي تؤدّيها.

و القرآن يتناول من الكلمات المترادفة أدقّها دلالة ، و أتمّها تصويرا بالنّسبة إلى نظائرها . فإذا استنفدت اللّغة طاقتها و لا تزال بقيّة من المعنى أو الصّورة شاردة وراء حدود اللّغة ، اتّسعت لها الكلمة القرآنيّة و شملتها عن طريق ما تتّسم به من جرس و وزن و إيقاع».[1]

و أمّا القرآن الكريم فلقد استطاع أن يجمع بين هذين العنصرين أحسن جمع ، كما قال عبد الله دراز : « إن سَرّك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان بغير فترة و لا انقطاع ، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم ، تجد بيانا قد قدّر على حاجة النّفس أحسن تقدير ، فلا تحسّ فيه بتخمة الإسراف و لا بمخمصة التّقتير.

يؤدّي لك من كلّ معنى صورة نقيّة وافية : " نقيّة " لا يشوبها شيء ممّا هو غريب عنها و "وافية " لا يشذّ عنها شيء من عناصرها الأصليّة و لواحقها الكماليّة. كلّ ذلك في أوجز لفظ و أنقاه . ففي كلّ جملة منه جهاز من أجهزة المعنى ، و في كلّ كلمة منه عضو من أعضائه ، و في كل حرف منه جزء بقدره ، و في كلّ أوضاع كلماته من جمله ، و أوضاع جمله من آياته سرّ الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته ، و بالجملة ترى كما قال الباقلاّني : «محاسن متوالية ، و بدائع تترا».[2]

ضع يدك حيث شئت من المصحف ، و عدّ ما أحصته كفّك من الكلمات عدّا ، ثمّ أحص عدّها من أبلغ كلام تختاره خارجا عن الدّفّتين و انظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك ثمّ انظر كلّ كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدّلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله ؟ وأيّ

---

[1] - من روائع القرآن (تأمّلات علميّة و أدبيّة في كتاب الله عزّ و جلّ) ، د . محمّد سعيد رمضان البوطي ، دط ، مؤسّسة الرّسالة ، 1416 هـــ / 1996 م ، ص : 139 – 140 .

[2] - إعجاز القرآن للباقلاّني : ص : 129 .

كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلّها هناك ؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطيّة : «لو نُزعت منه لفظة ثمّ أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد »،[1] بل هو كما وصفه الله : :﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [2]

و هذا الذي ذكرناه هاهنا هو ما عبّر عنه أحد الباحثين بالبنائيّة ، و هي تشمل عنده العمارة المؤسّسة على الشّكل و المضمون ، و هي تختصّ بمتانة السّبك و قوّته ، و بانتقاء الألفاظ ، و بالتّأليف الحسن ، و هي أيضا جودة النّظم ، و بعبارة موجزة : هي وضع اللّفظ المناسب في المكان المناسب .[3]

أوّلا : الذكر و الحذف:

أ ــ الذّكر :

الأصل في أجزاء الكلم أن تُذكر و لا يحذف منها شيء إلاّ بدليل[4] سواء كان الدّليل معنويّا (أي يقتضيه المعنى) أم صناعيّا (أي تقتضيه الصّناعة النّحويّة) ، و يمكن الاستغناء أحيانا عن الفضلة كالمفعول به و النّعت و غيرهما ، إلاّ أنّ الدّلالة تبقي قاصرة إذا حُذف جزء من أجزاء الكلم و لم توجد قرينة تدلّ عليه ، كما قد تفوت معان بلاغيّة يقتضيها الذّكر ،[5] فالحذف في القرآن الكريم كثير و متنوّع ، و لا غرو فإنّ العرب قد أولعوا به و كثر في كلامهم ، و لذلك سيكون حظّه من الدّرس ههنا كبيرا بالنّسبة إلى الذّكر ، و آراء ابن عاشور في هذا الموضوع تدلّ على اقتداره و بعد نظره ، و هو الذي كان ينظر إلى اللّفظة من حيث سياقها المقامي و اللّغوي ، و إنّما شغلني

---

[1]- النّبأ العظيم : ص :112 .

[2] - هود : 11.

[3] - ينظر :الإبلاغيّة في البلاغة العربيّة : سمير أبو حمدان ، ط 1 ، منشورا ت عويدات الدّوليّة ، 1991 م ، ص: 105 .

[4] - الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جنّي ، تحقيق : محمّد عليّ النّجّار ، دط ، المكتبة العلميّة ، 1376 هــ / 1957 م ، 2 / 360 .

[5] - ينظر : الجملة العربيّة تأليفها و أقسامها :د. فاضل صالح السّامرّائيّ ، ط2 ، دار الفكر ، 1427 هــ / 2007 م ، ص : 75 .

الحديث عن الذّكر و الحذف و فنّيّتهما في التعبير القرآني عن الاسقصاء و الحشد ، إذ صرفت همّتي إل إيضاح جانب من الإعجاز البلاغيّ عند ابن عاشور بإعطاء بعض الأمثلة و الشّواهد.

و الأغراض البلاغيّة للذّكر كثيرة ، منها ما تعلّق بالمبتدأ و الفاعل و اسم إنّ ، و المفعول به

و الجارّ و المجرور، و غير ذلك ممّا استُعمل في خاصّ معناه ، و لو خولف تركيبه و صياغته لفاتت المزيّة التي قصد إليها القرآن الكريم ، و أذكر من هذه الأغراض:

ــ تقوية التّمكّن :

إظهار اسم الجلالة في قوله تعالى :﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [1] دون أن يقول : و يمح الباطل لتقوية تمكّن المسند إليه من الذّهن و إظهار عناية الله بمحو الباطل .[2]

ــ الإفصاح عن المراد :

و أظهر اسم الشّيطان في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [3] و كان حقّه أن يضمر للإفصاح عن المراد بالغَرُور أنّه الشّيطان و إثارة العداوة بين النّاس ، و الشّيطان معنى من معاني القرآن تصريحا و تضمينا و هو هنا صريح.[4]

ــ الدّلالة على العناية :

---

[1] - الشّورى : 24 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 25 ، ص : 87 .

[3] - فاطر : 6 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22 ، ص : 260 .

و جملة :﴿ وَرَبُّكَ ﴾ من قوله تعالى :﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [1] إظهار في مقام الإضمار و مقتضى الظّاهر أن يقال : و هو الغنيّ ذو الرّحمة ، فخولف مقتضى الظّاهر لما في اسم الرّبّ من دلالة على العناية بصلاح المربوب ، و لتكون الجملة مستقلّة بنفسها فتسير مسرى الأمثال و الحكم ، و للتّنويه بشأن النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم .[2]

ـــ الإيماء إلى مقام الإطلاق :

في قوله تعالى:﴿ مَّا كَانُوٓاْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [3] وقع إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار : لأنّ اسم الجلالة يومئ إلى مقام الإطلاق و هو مقام ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [4] ، و يومئ إلى أنّ ذلك جرى على حسب الحكمة ، لأنّ اسم الجلالة يتضمّن جميع صفات الكمال .[5]

ـــ استقلاليّة الدّلالة :

و إعادة لفظ ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ من قوله تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ [6] إظهار في مقام الإضمار اقتضاه أنّ شأن التّذييل أن يكون مستقلّ الدّلالة على معناه لأنّه كالمثل .

و ليست هذه الجملة من قول المؤمنين إذ لا قبل للمؤمنين بأن يحكموا هذا الحكم ، على أنّ أسلوب افتتاحه يقتضي أنّه كلام من بيده الحكم يوم القيامة،و هو ملك يوم الدّين ، فهو كلام من

---

[1] - الأنعام : 133 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ص : 85 .

[3] - الأنعام : 111 .

[4] - الأنبياء : 23 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ص : 7 .

[6] - الشّورى :45.

جانب الله ، أي و هم مع النّدم و ذلك الذّلّ و الخزي بسماع ما يكرهون في عذاب مستمرّ.[1]

ـــ الإطناب و الإيضاح :

و ذلك قوله تعالى:﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾[2] فقد جاء التّصريح بفعل البراءة مرّة ثانية دون إضمار و لا اختصار ، بأن يقال : و أذان إلى النّاس بذلك ، أو بها ، أو بالبراءة : لأنّ المقام مقام بيان و إطناب لأجل اختلاف أفهام السّامعين فيما يسمعونه ، ففيهم الذّكيّ و الغبيّ ، ففي الإطناب و الإيضاح قطع لمعاذيرهم و استقصاء في الإبلاغ لهم .[3]

ـــ علّة الاستحقاق :

و في قوله تعالى :﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾[4] إظهار في قوله:﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في مقام الإضمار ، و مقتضى الظّاهر أن يقال : و لننبّئنّهم بما عملوا فعدل إلى الموصول و صلته لما تؤذن به الصّلة من علّة استحقاقهم الإذاقة بما عملوا و إذاقة العذاب.[5]

ـــ زيادة التّشنيع :

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 25 ، ص : 129 .

[2] - التّوبة : 3 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 109 .

[4] - فصّلت : 50 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 13 .

في قوله تعالى :﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[1] ، المراد بأئمّة الكفر:المشركون الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، فوضع هذا الاسم موضع الضّمير حين لم يقل : فقاتلوهم ، لزيادة التّشنيع عليهم ببلوغه هذه المترلة من الكفر ، و هي أنّهم قدوة لغيرهم لأنّ الذين أضمروا النّكث يبقون متردّدين بإظهاره ، فإذا ابتدأ بعضهم بإظهار النّقض اقتدى بهم الباقون ، فكان النّاقضون أئمّة للباقين .[2]

ـــ التّقرير في الذّهن :

ذكر المؤمنين في جملة :﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من قوله تعالى :﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾[3] دون أن يقال :وعدهم الله:لتقريرهم في ذهن السّامع ليتمكّن تعلّق الفعل بهم فضل تمكّن في ذهن السّامع.و قوله :﴿عَدۡنٖ﴾ معناه الخلد و الاستقرار المستمرّ ، فجنّات عدن هي الجنّات المذكورة قبل ، فذكرها بهذا اللّفظ من الإظهار في مقام الإضمار مع التّفنّن في التّعبير و التّنويه بالجنّات.[4]

ـــ قصد التّعميم :

في قوله تعالى :﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[5] إظهار في مقام الإضمار لقصد التّعميم الذي يشملهم و غيرهم أي : هذا شأن الله في جميع الكافرين .[6]

ـــ الدّلالة على السّببيّة :

---

[1] - التّوبة : 12 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 130 .

[3] - التّوبة : 72 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 264 .

[5] - التّوبة : 37 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص :195 .

ذكر ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [1] إخراج على خلاف مقتضى الظّاهر : لأنّ مقتضى الظّاهر أن يقول : و إنّ الله مخزيكم ، و وجه تخريجه على الإظهار الدّلالة على سببيّة الكفر في الخزي .[2]

ـــ التّعليل :

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ [3] فأظهر دون أن يقال : و ما كنّا عنكم غافلين ، لما يفيده المشتقّ من معنى التّعليل ، أي ما كنّا عنكم غافلين لأنّكم مخلوقاتنا فنحن نعاملكم بوصف الرّبوبيّة ، و في ذلك تنبيه على وجوب الشّكر و الإقلاع عن الكفر .[4]

و كذلك قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [5] إذ يجوز أن يكون المراد بالذين فسقوا المتحدّث عنهم خاصّة فيكون من الإظهار في مقام الإضمار لإفادة أنّهم مع صفاتهم السّابقة قد اتّصفوا بالفسق ، و لإفادة كون فسقهم علّة في أن حقّت عليهم كلمة الله ، فيكون المشبّه به هو الحقّ المأخوذ من (حقّت) أي كذلك الحقّ حقّت عليهم كلمة ربّك مبالغة في ظهوره حتى أنّه إذا أريد تشبيهه و تقريبه لم يُشبّه إلاّ بنفسه على طريقة قوله

---

[1] - التّوبة : 2 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 107 .

[3] - المؤمنون : 17 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 8 ، ج 18، ص : 28 .

[5] - يونس : 33 .

تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [1] و هي مع ذلك تذييل لما فيه من الفذلكة و التّعجيب.[2]

ـــ سبب الانتفاء :

ذكْر الظّالمين في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [3] و عدم الاكتفاء بالضّمير كأن يُقال : فما لكم من نصير لإفادة سبب انتفاء النّصير عنهم ، ففي الكلام إيجاز ، أي لأنّكم ظالمون و ما للظّالمين من نصير فالمقصود ابتداء نفي النّصير عنهم ، و يتبعه التّعميم نفي النّصير عن كلّ من كان مثلهم من المشركين.

و يجوز أن يكون كلاما مستقلاّ مفرّعا على القصّة ذُيّلت بها للسّامعين من قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ [4]، فليس فيه عدول عن الإضمار إلى الإظهار لأنّ المقصود إفادة الشّمول هذا الحكم لكلّ ظالم فيدخل الذين كفروا المتحدَّث عنهم في العموم .[5]

ـــ تذكير الصّلة و زيادة التّشهير:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [6]و أظهر أظهر في مقام الإضمار قوله : ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ و كان حقّها أن يقال : (و لا تتّبع

---

[1] - البقرة : 143 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 11 ، ص : 160 .

[3] - فاطر : 37 .

[4] - فاطر : 36 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 9 ، ج 22 ، ص : 320 .

[6] - الأنعام : 150 .

أهواءهم) لأنّ في هذه الصّلة تذكيرا بأنّ المشركين يكذّبون بآيات الله ، فهم ممّن يُتجنّب اتّباعهم،و قيل : أريد بالذين كذّبوا اليهود بناء على ما تقدّم من احتمال أن يكونوا المراد من قوله :﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾[1] و سمّي دينهم هوى لعدم استناده إلى مستند و لكنّه إرضاء للهوى .

و كان مقتضى الظّاهر أن لا يعاد اسم الموصول في قوله تعالى :﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّ حرف العطف مغن عنه ، و لكن أجري الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر لزيادة التّشهير بهم ، كما هو بعض نكت الإظهار في مقام الإضمار . و قيل : أريد بالذين كذّبوا بالآيات: الذين كذّبوا الرّسول صلّى الله عليه و سلّم و القرآن ، و هم أهل الكتابيْن ، و بالذين لا يؤمنون بالآخرة و هم بربّهم يعدلون : المشركون .[2]

ـــ التّنبيه على التّرديد :

كان مقتضى الظّاهر في قوله تعالى :﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[3] أن يُؤتى بضمير (هم) مضافا إليه الظّنّ إمّا ضمير خطاب أو غيبة . فيقال : و ما ظنّكم أو ما ظنّهم ، فعدل عن مقتضى الظّاهر إلى الإتيان بالموصول بالصّلة المختصّة بهم للتّنبيه على أنّ التّرديد بين أن يكون الله أذن لهم فيما حرّموه ، و بين أن يكونوا مفترين عليه ، قد انحصر في القسم الثّاني ، و هو كونهم مفترين ، إذ لا مساغ

[1] - الأنعام : 147 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ص : 154 – 155 .

[3] - يونس : 60 .

لهم في ادّعاء أنّه أذن لهم ، فإذا تعيّن أنّهم مفترون فقد صار الافتراء حالهم المختصّ بهم . و في الموصول إيذان بعلّة التّعجيب من ظنّهم بأنفسهم يوم القيامة.[1]

ـــ التّهويل المشوّق :

التّهويل هو تعظيم الأمر حتّى لا يستخفّ السّامع بشأنه ، و منه قوله تعالى :﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[2] يقول ابن عاشور : " و جعل المسند إليه في جملة الإخبار عن استمرار ضلالهم اسم الجلالة للتّهويل المشوّق إلى استطلاع الخبر . و الخبر هو أنّ هُداهم لا يحصل إلاّ إذا أراده الله ، و لا يستطيع أحد تحصيله لا أنت و لا غيرك فمن قدّر الله دوام ضلاله فلا هادي له . و لولا هذه النّكتة لكان مقتضى الظّاهر أن يكون المسند إليه ضمير المتحدّث عنهم بأن يقال : فإنّهم لا يهديهم غير الله "[3]

ب ـــ الحذف :

عادة العرب أن يختصروا في كلامهم لأنّهم يحبّون اللّمحة الدّالّة ، و يكرهون الإطالة إلاّ إذا اقتضها الضّرورة ، و لذلك وجدناهم يحذفون ، و يتصرّفون في أجزاء الكلم ليعربوا عن حاجاتهم بالعبارة الموجزة ، و هذا الرّمّاني يذكر الحذف ضمن حديثه عن الإيجاز ، و يعدّه أحد نوعيْه فيقول: «الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، و إذا كان المعنى أن يعبّر عنه بألفاظ كثيرة و يمكن أن يعبّر عنه بألفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة إيجاز ، و الإيجاز على وجهين :حذف و قصر فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام».[4]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 11 ، ص : 210 .

[2] - النّحل : 37.

[3]- التّحرير و التّنوير : م 6، ج 14، ص : 152 .

[4] - النّكت في إعجاز القرآن : 76 .

و في تفسير التّحرير و التّنوير يكثر الحديث عن المحذوفات ، و عن اللّطائف البلاغيّة المتلثّمة وراءها.

1 ـــ حذف الحرف :

تنبّه ابن عاشور إلى أنّ حذف الحروف أو إثباتها له صلة بالمعنى ، كما تشير إليه بعض الدّراسات ،[1] ففي تفسير قوله تعالى :﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[2] يذكر أنّ هذه المخالفة من التّفنّن ، ثمّ قد روعي فيها الأصل كما في الآيات السّابقة ، و هي قوله تعالى : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[3] ، و معناه عند أبي عبيدة :" ما استطاعوا أن يعلوه : و يقال ظهرت فوق الجبل و فوق البيت : أي علَوْته" .[4]

و قوله :﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[5] فذكر (استطاعوا) ثمّ بعدها (اسطاعوا) ، أمّا الآية الأولى فقد قلب فيها الوضع بحيث ذكر (اسطاعوا) ثمّ (استطاعوا)

و السّبب في ذلك أنّ الأولى وَلِيَها همز و هو شديد ، و لذلك حُذفت منها التّاء تخفيفا ، و أمّا الثّانية فقد وليها حرف اللاّم و هو خفيف فجيء عندها بالكلمة على أصلها ، ثمّ يقول : « و من خصائص مخالفة مقتضى الظّاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة في المعنى ، لأنّ استطاعة نقب السّدّ أقوى من استطاعة تسلّقه ، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في

---

[1] - إعجاز رسم القرآن و إعجاز التّلاوة : محمّد شملول ، ط 2 ، دار السّلام ، 1428 هـــ / 2007 م ، ص : 8 .

[2] - الكهف :97 .

[3] - الكهف :78 .

[4] - مجاز القرآن : أبو عبيدة معمر بن المثنّى ،عارضه بأصوله و علّق عليه : محمّد فؤاد سزكين ، دط ، مكتبة الخانجي ـــ القاهرة ، دت ،1 / 415 .

[5] - الكهف :82 .

المعنى ».[1] و ينبني على كلام ابن عاشور أنّ قوله تعالى :﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[2] زيدت فيه التّاء لأنّ تأويل تصرّفات الخضر يقتضي زمنا ، و أمّا الآية الثّانية فقد حذفت منها التّاء ، لأنّها تصف عجلة موسى ــ عليه السّلام ــ و عدم صبره على الخضر . و لقد سجّل السّهيليّ رأيه بخصوص حذف الحرف أو إثباته ، فقال في باب معرفة علامات الإعراب و هو يتحدّث عن سبب إعراب الأسماء الخمسة بالحروف : « فإن قيل : فلم كان إعرابها بالحروف دون الحركات ؟ و لم أعِلّت بالحذف ، دون القلب خلافا لنظائرها ممّا عِلّته كعلّتها ، و هي الأسماء المقصورة ؟

قلنا : في ذلك جواب فلسفيّ لطيف ، و هو أنّ اللّفظ جسد و المعنى روح ، فهو تبع له في صحّته و اعتلاله ، و الزّيادة فيه و النّقصان منه ، كما أنّ الجسد مع الرّوح كذلك ؛ فجميع ما يعتري اللّفظ من زيادة فيه أو حذف ، فإنّما هو بحسب ما يكون في المعنى ، اللّهمّ إلاّ أن يكثر استعمال كلمة فيحذف منها تخفيفا على اللّسان لكثرة دورها فيه ، و لعِلْم المخاطَب بمعناها».[3]

و أمّا حذف حروف الجرّ فظاهرة شائعة في الكلام العربيّ لفتت أنظار الدّارسين منذ بدايات النّحو العربيّ و التّقعيد اللّغويّ ، و اعترفوا بصحّة التّركيب مع وجود هذا الحذف ، و قد أجازوا حذف بعض الحروف و بقاء عملها قياسا. مثل : رُبّ ، و أجازوا النّصب على نزع الخافض.

و الذي سوّغ هذا الحذف أنّ العرب كانوا يجنحون إلى تخفيف ما كثر استعماله .[4]

و مظاهر حذف الحروف كثيرة و متنوّعة ، و قد عدّ عبد القادر حسين ذلك بلاغة الكلام

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 7 ، ج 16، ص : 38 . و ينظر : دلالات الظّاهرة الصّوتيّة في القرآن الكريم : د. خالد قاسم بني دومي ، ط1 ، عالم الكتب الحديث ، 2006 م ،ص :206 .

[2] - الكهف :78 .

[3] - نتائج الفِكَر في النّحو : أبو القاسم عبد الرّحمن بن عبد الله السّهيليّ ، تحقيق : د . محمّد إبراهيم البنّا ،ط 3 ، دار الرّياض للنّشر و التّوزيع ،دت ، ص : 99 .

[4] - ينظر ظاهرة التّخفيف في النّحو العربيّ ، د. أحمد عفيفي ،ط 1 ، الدّار المصريّة اللّبنانيّة ، 1417 هـــ / 1996 م ، ص : 324 .

و فصاحة الأسلوب ، مؤكّدا أنّ العرب تلجأ إليه طلبا للخفّة ، و خوفا من الثّقل على اللّسان .[1]

و منه قوله تعالى﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2]

يقول ابن عاشور : "﴿ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ قرأه الجمهور ـــ بالنّصب ـــ عطفا على اسم الله .[3] و قرأه حمزة ـــ بالجرّ ـــ عطفا على الضّمير المجرور .[4] فعلى قراءة الجمهور يكون الأرحام مأمورا بتقواها على المعنى المصدريّ أي : اتّقائها و هو على حذف مضاف ، أي اتّقاء حقوقها ، فهو استعمال المشترك في معنييْه و على هذه القراءة فالآية ابتداء تشريع و هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[5] و على قراءة حمزة يكون تعظيما لشأن الأرحام ، أي التي يسأل بعضكم بعضا بها[6] و ذلك قول العرب : " ناشدتك الله و الرّحمَ " كما روي في الصّحيح : أنّ النبيّ صلّى الله عليه و سلّم حين قرأ على عتبة بن ربيعة صدْر سورة "فصّلت" إلى أن بلغ قوله تعالى :﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[7] فأخذت عتبة رهبةٌ و قال : ناشدتك الله و الرّحم».[8]

---

[1] - ينظر أثر النّحاة في البحث البلاغيّ ، د . عبد القادر حسين ، دط ، دار نهضة مصر بالفجالة ، 1975 م ، ص : 71 – 72.

[2] - النّساء :1.

[3] - مجاز القرآن : 1 / 113 .

[4] - مصحف دار الصّحابة في القراءات العشر من طريق الشّاطبيّة و الدّرّة :جمال الدّين شرف، ط1، دار الصّحابة للتّراث - طنطا - ، 1425 هـــ - 2004 م ، ص :77 .

[5] - النّساء : 1 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 2 ، ج 4 ، ص : 217 ـــ 218.

[7] - فصّلت : 13 .

[8] - مسند أبي يعلى الموصليّ : أبو يعلى أحمد بن عليّ بن المثنّى الموصليّ ،حقّق أصوله و خرّج أحاديثه: خليل مأمون شيحا ، ط1 دار المعرفة ـــ بيروت ، 1426 هـــ / 2005 م ، ص : 420 . و الحديث من رواية عبد الله بن جابر – رضي الله عنهما- .

و منه قوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾[1] يقول ابن عاشور :قوله :

﴿سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ بدل من﴿ قَوْمَهُۥ ﴾ « بدل بعض من كلّ ، و قيل إنّما نُصب على حذف حرف الجرّ و التّقدير : اختار من قومه ، قالوا : وحذف الجارّ من المتعلّق الذي هو في رتبة المفعول الثّاني شائع في ثلاثة أفعال : اختار ، و استغفر ، و أمر ، و منه : أمرتُك الخيرَ ، و على هذا يكون قوله : ﴿سَبْعِينَ ﴾ مفعولا أوّلا .و أيّاً ما كان فبناء نظم الكلام على ذكر القوم ابتداء دون الاقتصار على سبعين رجلا اقتضاه حال الإيجاز في الحكاية ، و هو من مقاصد القرآن».[2]

و يذهب ابن قتيبة إلى أن قوله تعالى﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[3] إلى أنّ المعنى : « مكّنّا لهم ، و قد قال: و العرب تقول : عددْتُك مائةً ، أي عددت لك ، و أستغفر الله ذنبي .

قال الشّاعر :

أَسْتَغْفِرُ الله ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ   رَبَّ العِبَادِ إِلَيْهِ الوَجْهُ و العَمَلُ [4]

شبعت خبزا و لحما ، و شربت و رويت ماءً و لبنا ، و تعرّضتُ معروفك ، و نزلْتُك و نأيْتُك و بتُّ القومَ ، و غاليت السّلعة ، و ثويْتُ البصْرَةَ ، و سرقْتُك مالاً ، و سعيْت القومَ

---

[1] - الأعراف : 155 .

[2] ــ التّحرير و التّنوير ، م 4،ج 9، ص 123.

[3] ــ الحجّ: 41.

[4] ــ خزانة الأدب و غاية الأرب : تقيّ الدّين أبو بكر عليّ المعروف بابن حجّة الحمْوي ، شرح : عصام شعيتو ، ط1 ، دار مكتبة الهلال ــ بيروت ــ ، 1987 ، 1/ 386 ،و الصّاحبي في فقه اللّغة العربيّة و مسائلها و سنن العرب في كلامها : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا الرّازي ، حقّقه و ضبط نصوصه و قدّم له : د. عمر فاروق الطّبّاع ، ط1 ، مكتبة المعرف ــ بيروت ، 1414 هــ / 1993 م ، ص :185، و تفسير الطّبريّ 1 / 56 ، و اللّسان 6 / 330 ، و هو غير منسوب في الجميع .

و استجبْتُك ."[1] و يرى ابن عاشور أنّه يجوز أن يكون بدلا من (مَنْ) الموصولة في قوله : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[2] فيكون المراد : كلّ من نصر الدّين من أجيال المسلمين . أي مكّناهم بالنّصر الموعود به إن نصروا دين الله . و على الاحتماليْن فالكلام مسوق للتّنبيه على الشّكر على نعمة النّصر بأن يأتوا بما أمر الله به من أصول الإسلام فإنّ بذلك دوام نصرهم ، و انتظام عقد جماعتهم ، و السّلامة من اختلال أمرهم ، فإن حادوا عن ذلك فقد فرّطوا في ضمان نصرهم و أمرهم إلى الله».[3]

و في قوله تعالى :﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾[4] « و معنى﴿تَفۡتَؤُاْ﴾تفتر. يقال : فتِئَ من باب علِم . إذا فتر عن الشيء .

و المعنى : لا تفترُ في حال كونك تذكر يوسف . و لملازمة النّفي لهذا الفعل و لزوم حال يعقب فاعله صار شبيها بالأفعال النّاقصة ... ، و مقصودهم الإنكار عليه صدّا له عن مداومة ذكر يوسف ــ عليه السّلام ــ على لسانه لأنّ ذكره باللّسان يُفضي إلى دوام حضوره في ذهنه ».[5]

و قد سوّغ حذفها " زوال اللّبس فيه ، إذ لو أريد الإثبات لقال : لتفتأنّ ، فلمّا لم يؤكّد دلّ على إرادة النّفي " .و قد حُذفت "لا" من الكلام توسّعا و إيجازا .[6]

---

1 ــ تأويل مشكِل القرآن :أبو محمّد مسلم ابن قتيبة ، شرحه و نشره : السّيّد أحمد صقر، دط ، المكتبة العلميّة ، دت، ص : 229.

2 - الحجّ : 40 .

3 ــ التّحرير و التّنوير : م 7 ، ج 17 ، ص : 280 .

4 - يوسف :85 .

5 - التّحريرو التّنوير : م 6 ، ج 13 ، ص : 44 .

6 - الإكسير في علم التّفسير : عبد الكريم البغداديّ ، تحقيق:د . عبد القادر حسين ، دط ، المطبعة النّموذجيّة، 1977، ص: 193 .

و في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾[1] امتنان،و أن ﴿ تَضِلُّواْ﴾ تعليل لـــ ﴿يُبَيِّنُ﴾ حُذفت منه اللاّم ، و حذْف الجارّ مع (أَن) شائع . و المقصود التّعليل بنفي الضّلال لا لوقوعه ؛ لأنّ البيان ينافي التّضليل ، فحذفت لا النّافية ، و حذفها موجود في مواقع من كلامهم إذا اتّضح المعنى ، كما في قول عمرو ابن كلثوم :

نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الأضْيَافِ مِنَّا   فَعَجَّلْنَا القِرَى أنْ تَشْتُمُونَا [2]

أي أن لا تشتمونا بالبخل ، و هذا تأويل الكوفيين ، و تأويل البصريّين الآية و البيت و نظائرهما على تقدير مضاف يدلّ عليه السّياق هو المفعول لأجله ، أي كراهة أن تضلّوا ، و بذلك قدّها في الكشّاف .[3] و هي عند ابن هشام بمعنى " **لئلاّ**" و بعد أن ساق البيت الذي ذكرناه قال :

و الصّواب أنّها مصدريّة ، و الأصل كراهيةَ أن تضلّوا ، و في البيت مخافة أن تشتمونا ، و هو قول البصريّين . و قيل هو على إضمار لام قبل " أنْ " و لا بعدها ، و هو تعسّف".[4]

و قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[5] و حقيقة الإمساك : القبض باليد على الشّيء بحيث لا ينفلت و لا يتفرّق ، فمثّل حال حفظ نظام السّماوات و الأرض بحال استقرار الشّيء الذي يمسكه الممسك بيده ، و لمّا كان في الإمساك معنى المنع عدّي إلى الزّوال بـــ (من) ، و حُذفت كما هو شأن حروف الجرّ مع(أنْ)

---

[1] - النّساء : 176 .

[2] - ديوان عمرو بن كلثوم ، جمعه و حقّقه و شرحه: د . إميل بديع يعقوب ، ط 1 ، دار الكتاب العربيّ ، 1411 هـــ - 1991 م ، ص: 73 . و فيه : فأعجلنا .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 3 ، ج 6 ، ص : 67 .

[4] - مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب : ابن هشام الأنصاريّ ، تحقيق : حنّا الفاخوري ، ط1 ، دار الجيل ـــ بيروت ، 1411 هــــ / 1991 م ، 1 / 70 .

[5] - فاطر : 41 .

و (أن) في الغالب (لا) ، و أكّد هذا الخبر بحرف التّوكيد لتحقيق معناه و أنّه لا تسامح فيه و لا مبالغة .[1]

و في قوله تعالى : ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ﴾[2] و ﴿أَن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مجرور بحذف (عن) ، أي ضاقت عن قتالكم ، لأجل أنّهم مؤمنون لا يرضون قتال إخوانهم ، و عن قتال قومهم لأنّهم من نسب واحد فعظُم عليهم قتالهم .[3]

و يرى آخرون أنّ الماضي الواقع حالا تُحذف منه (قد) كما هو الشّأن في هذه الآية ، أي : قد حصرتْ صُدُورُهم ، و مثله قوله تعالى :﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[4] يقول ابن عاشور:« استفهام إنكاري،أي أنؤمن لك و قد اتّبعك الأرذلون ، فجملة ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ حالية ».[5] ».[5] و لا يخفى ما أفادته (قد) المحذوفة في الآيتيْن من تصوير سرعة حصر الصّدور ، و اتّباع الأرذلين لنوح ـــ عليه السّلام ـــ كما قال كفّار قومه .[6]

2 ـــ حذف الكلمة :

و كما يحذف الحرف في القرآن الكريم ، تحذف الكلمة لتؤدّي معنى بلاغيّا قد لا يكون مع ذكر المحذوف . على حدّ قول عبد القاهر الجرجاني متحدّثا عن الحذف : " هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيهٌ بالسّحر ، فإنّك ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر ،

[1] - التّحرير و التّنوير :م 9 ، ج 22 ، ص : 327 .

[2] - النّساء :90 .

[3] - التّحريرو التّنوير : م 2 ،ج 5 ، ص : 154 .

[4] - الشّعراء : 111 .

[5] - التّحريرو التّنوير : م 8 ، ج 19 ، ص : 160 .

[6] - الإيجاز في كلام العرب ،ص : 277 .

و الصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، و تجدُك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، و أتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِن ".[1] فللحذف جماله كما للذّكر فنّيته و روعته ، إلاّ أنّ الحذف يجعل النّفس تذهب كلّ مذهب في تأويله و الوقوف على كنهه ، و بهذا يكون قد ناسب موضعه ، و أدّى وظيفته أحسن الأداء .

أ ــ حذف الفعل :

لقد قسّم ابن الأثير حذف الفعل قسمين: أحدهما : يظهر بدلالة المفعول عليه كقولهم :" أهلَكَ وَ اللّيلَ "، فنصب "أهلك" و "اللّيل" يدلّ على محذوف ناصب ، تقديره : " الْحَقْ أهلَكَ ، و بَادِرِ اللّيْلَ " و هذا مثل يُضرب في التّحذير .[2]

و منه قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] فالتّقدير : «و أرسلنا لوطا ، و تغيير الأسلوب في ابتداء قصّة لوط و قومه إذ ابتُدئت بذكر (لوطا) كما ابتدئت قصّة نوح بذكر نوح لأنّه لم يكن لقوم لوط اسم يُعرفون به كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به .[4]

و أمّا القسم الثّاني الذي يُحذف فيه الفعل من السّياق فهو الذي « لا يظهر فيه قسم الفعل لأنّه لا يكون هناك منصوب يدلّ عليه ، و إنّما يظهر بالنّظر إلى ملاءمة الكلام ، و منه قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ

---

[1] - دلائل الإعجاز : 146.

[2] - المثل السّائرفي أدب الكاتب و الشّاعر : ضياء الدّين بن الأثير ، قدّمه و علّق عليه : د. أحمد الحوفي ، و د . بدوي طبانة ،دط ، دار نهضة مصر ــ القاهرة ، دت ، 2 / 285 ، و الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز ، يحي بن حمزة بن عليّ بن إبراهيم العلويّ اليمنيّ ، دط ، طبعة المقتطف ــ مصر ، 1226 هــ / 1914 م ، : 2 / 101 .

[3] - الأعراف : 80 .

[4] - التّحريرو التّنوير : م 4 ، ج 9 ، ص : 229 .

جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ [1]، يقول ابن عاشور : «فلفظ ﴿ وَيَوۡمَ﴾ منصوب بفعل مضمر . تقديره :اذْكُرْ . كما هو متعَارف في أمثاله فبعد أن بيّن لهم تعرّض ما هم فيه من نعيم إلى الزّوال على وجه الموعظة ، أعقبه بالتّذكير بما بعد ذلك الزّوال بتصوير حال البعث و ما يترقّبهم فيه من العقاب على كفرهم به ... و جملة : ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ ﴾ مقول لقول محذوف دلّ عليه أنّ الجملة خطاب للمعروضين فتعيّن تقدير القول .

و هذه الجملة في محلّ الحال . و التّقدير : قائلين لهم لقد جئتمونا . [2]

و قد جعل العلماء من حذف الفعل قسما يطلقون عليه : «إيقاع الفعل على شيئين و هو لأحدهما و من ذلك قوله تعالى :﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ فلفظ﴿ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ ليس معطوفا على﴿أَمۡرَكُمۡ ﴾المنصوب بالمفعوليّة ، و إنّما الأقرب أن يكون منصوبا بتقدير فعل و التّقدير :

" فأجمعوا أمركم و اجْمَعوا شركاءكم ، و قيل التّقدير :" و ادعوا شركاءكم "[3] و لا يجوز عطف الشّركاء على الأمر حتى يصلح الفعل " أجمِعُوا " لهما ، و ذلك لأنّ معنى " أجمعوا " من " أجمع الأمر " إذا نواه و عزم عليه ".[4] و يؤكّد هذا المعنى قراءة ابن مسعود :(**فَأجْمِعُوا أمْرَكُم و ادْعُوا شُرَكَاءكُم**) ،[5] فأورِد الكلام موجزا بحذف النّاصب .و أمّا ابن عاشور فيرى أنّ إجماع الأمر :

---

[1] - الكهف : 48

[2] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 15 ، ص : 334 .

[3] - البيان في غريب القرآن : ابن الأنباري ،1 / 417 .

[4] - المثل السّائر : 2 / 288 .

[5] - المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات و الإيضاح عنها :أبو الفتح عثمان بن جنّي ، دراسة و تحقيق محمّد عبد القادر عطا ، ط1، دار الكتب العلميّة – بيروت – ، 1419 هـــ – 1998 م ، ص 434 . و فيه أنّها منسوبة إلى أبيّ بن كعب ، و ينظر كذلك : مختصر في شواذّ القرآن من كتاب البديع ، ابن خالويه ،دط ،مكتبة المتنبّي– القاهرة ، دت ، ص : 62.

« العزم على الفعل بعد التّردّد بين فعله و فعل ضدّه . و هو مأخوذ من الجمع الذي هو ضدّ التّفريق لأنّ المتردّد في ماذا يعمله تكون عنده أشياء متفرّقة فهو يتدبّر و يتأمّل ، فإذا استقرّ رأيه على شيء منها فقد جمع ما كان متفرّقا . فالهمزة فيه للجعل ، أي جعل أمره جمعا بعد أن كان متفرّقا.

و(شركاءكم) منصوب في قراءة الجمهور على أنّه مفعول معه.و الواو بمعنى (مع) : أي أجمعوا أمركم و معكم شركاؤكم الذين تستنصرون بهم .[1]

و قرأ يعقوب و شُرَكَاؤُكُم مرفوعا عطفا على ضمير (فأجمعوا)[2] ، و سوّغه الفصل بين الضّمير و عُطف عليه بالمفعول . و المعنى : و ليُجْمِعْ شركاؤكم أمرهم .[3]

ب – حذف الفاعل :

يذهب علماء البلاغة إلى أنّ الفاعل يجوز حذفه من الكلام لمعنى بلاغيّ[4]، و إن كان كثير من النّحاة يرى أنّ الفاعل و كذا نائب الفاعل و اسم كان ، كلّ هذه لا تُحذف ، و إنّما تستتر و يقع حذفها مع أفعالها و هم يرون أنّ الفاعل كالجزء بالنّسبة للفعل.

ومن الشّروط التي وضعها النّحاة للحذف ألاّ يكون المحذوف كالجزء ، و عليه أنكروا حذف الفاعل ، لكن لو عدنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أنّ الفاعل يُحذف ، و تبيّن لنا : «عدم دقّة هذا

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م5 ، ج 11 ، ص : 238 – 239 .

[2] - مصحف دار الصّحابة في القراءات العشر المتواترة ، ص : 217 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 11 ، ص : 238- 239.

[4] - علم المعاني : د . عبد العزيز عتيق ، دط ، دار النّهضة العربيّة ، دت ، ص : 126 .

الشّرط ، و الأصحّ ألاّ يذكر شرطا لوقوع الحذف "[1]. فالفاعل يحذف مع بقاء ما يدلّ عليه و من ذلك قوله تعالى :﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [2] و قرأ نافع

و الكسائيّ و حفص و عاصم بفتح نون﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ [3] فـ﴿ بَيْنَ﴾ على هذه القراءة ظرف مكان دالّ على مكان الاجتماع و الاتّصال فيما يضاف هو إليه . و قرأ البقيّة بضمّ نون ﴿بَيْنُكُمْ﴾ على إخراج ﴿ بَيْنَ﴾ عن الظّرفيّة فصار اسما متصرّفا و أسنِد إليه التّقطّع على طريقة المجاز العقليّ .

و حذف فاعل تقطّع على قراءة الفتح لأنّ المقصود حصول التّقطّع ، ففاعله اسم مبهم ممّا يصلح للتّقطّع و هو الاتّصال . فيقدّر : لقد تقطّع الحبل أو نحوُه . قال تعالى :﴿ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾[4] . و قد صار هذا التّركيب كالمثل بهذا الإيجاز .[5]

و ممّا حذف الفاعل فيه كذلك قوله تعالى :﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾[6] قال ابن عاشور : «و جملة :﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾جواب قسم محذوف و هي متعلّقة بفعل ﴿بَدَا﴾ عن العمل فيما بعده لأجل لام القسم ، لأنّ ما بعد لام القسم كلامٌ مستأنف .

---

[1] - ظاهرة الحذف في الدّرس اللّغويّ ، طاهر حمّودة ، ص : 198 .

[2] - الأنعام : 94 .

[3] - إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ، أحمد بن محمّد بن عبد الغنيّ البنّا الدّمياطيّ ؛ تحقيق : الشّيخ عبد الرّحيم الطّرهوني ، دط ، دار الحديث – القاهرة - ،1430 هـــ - 2009 م ،ص : 537 – 538 . و ينظر :مصحف دار الصّحابة في القراءات العشر ، ص :139 .

[4] - البقرة : 166 .

[5] - التّحريرو التّنوير :م 3 ، ج 7 ، ص : 385 .

[6] - يوسف : 35 .

و فيه دليل للمعمول المحذوف ، إذ التّحقيق أنّ التّعليق لا يختصّ بأفعال الظّنّ ، و هو مذهب يونس بن حبيب ، لأنّ سبب التّعليق وجود أداة لها صدر الكلام . و في هذه الآية دليله .

و التّقدير : بدا لهم ما يدلّ عليه هذا القسم ، أي بدا لهم تأكيد أن يسجنوه .

و ذكر في المغني في آخر الجمل التي لها محلّ من الإعراب : وقوع الخلاف في الفاعل و نائب الفاعل هل يكون جملة ؟ فأجازه ابن هشام[1] و ثعلب[2] مطلقا ، و أجازه الفرّاء و جماعة إذا كان الفعل قلبيّا و وُجد معلق ، و حملوا الآية عليه ، و نُسب إلى سيبويه . و هو يؤول إلى معنى التّعليق و التّعليق أنسب بالمعنى».[3]

و يقدّر الزّمخشريّ الفاعل المحذوف بقوله : «و المعنى : بدا لهم بِدَاءٌ أي ظهر لهم رأي ليسجننّه و الضّمير في (لهم) للعزيز و أهله ».[4]

و من ذلك قوله تعالى :﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾[5] يقول ابن عاشور : «و ضمير﴿ بَلَغَتِ﴾ راجع إلى غير مذكور في الكلام و لكنّه معلوم من فعل﴿ بَلَغَتِ ﴾ و ذكر﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ فإنّ فعل﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ يدلّ أنّها روح الإنسان . و التّقدير : إذا بلغت الرّوح أو النّفس . و هذا التّقدير يدلّ عليه الفعل الذي أسند إلى الضّمير بحسب عرف أهل اللّسان ، و مثله قول حاتم الطّائيّ :

---

[1] - مغني اللّبيب : 2 / 462 .

[2] - مجالس ثعلب : أبو العبّاس أحمد بن يحي ثعلب ، شرح و تحقيق : عبد السّلام هارون ، دط ، دار المعارف ـــ مصر ، دت ص : 422 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م5 ، ج 12 ، ص : 267 – 268 .

[4] - الكشّاف : 2 / 135 .

[5] - القيامة : 26 .

أمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عنِ الفَتَى   إذَا حَشْرَجَتْ وَ ضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ[1]

أي إذا حشْرَجت النّفس . و من هذا الباب قول العرب: " أرْسَلَتْ ، يريدون : أرسلت السّماء المطر ، و يجوز أن يُقدّر في الآية ما يدلّ عليه الواقع .[2] و مثله قوله تعالى :﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[3].و قد يحذف الفاعل احتقارا له و لشأن صاحبه كما في قوله تعالى :﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾[4] يقول ابن عاشور : «و ذكر ما يُقال للغاوين للإنحاء عليهم و إظهار حقارة أصنامهم ، فقيل لهم: و في الاقتصار على ذكر هذا دون غيره ممّا يُخاطبون به يومئذ مناسبة لمقام طلب الإقلاع عن عبادة تلك الأصنام ».

و حذف فاعل التّزيين من قوله تعالى :﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾[5] لخفائه عن إدراك عموم المخاطبين ، لأنّ ما يدلّ على الغرائز و السّجايا ، لّما جهل فاعله في متعارف العموم ، كان الشّأن إسناد أفعاله للمجهول : كقولهم عُني بكذا ، و اضطُرّ إلى كذا ، لا سيما إذا كان المراد الكناية عن لازم التّزيين ، و هو الإغضاء عمّا في المزيّن من المساوي ؛ لأنّ الفاعل لم يبق مقصودا بحال ، و المزيّن في نفس الأمر هو إدراك الإنسان الذي أحبّ الشّهوات و ذلك أمر جبِلّي جعله الله في نظام الخلقة.[6]

و أسند فعل القول إلى غير معلوم لأنّ الغرض تعلّق معرفة القول لا بمعرفة القائل ، فالقائل الملائكة بإذن من الله تعالى ، لأنّ المشركين أحقر من أن يوجّه الله إليهم خطابه مباشرة .[1]

---

[1] - ديوان حاتم الطّائيّ،شرحه و قدّم له : أحمد رشاد، ط 3، دار الكتب العلميّة بيروت، 142 هـــ / 2002 م،ص : 23 ، و فيه (و حشرجت نفس) .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 12 ، ج 29 ، ص :357 ، و ينظر كذلك الطّراز للعلوي : 3 / 103 .

[3] - الواقعة : 83 .

[4] - الشّعراء : 91 – 92 .

[5] - آل عمران : 14.

[6] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج3، ص : 180 .

و مثله قوله تعالى :﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴾[2] و فاعل (قيل) في الآية محذوف لتحقيره و امتهانه .[3] و ذلك كقول النّابغة الذّبيانيّ :

لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي وِشَايَةً　　لَمُبْلِغُكَ الوَاشِي أغَشُّ وَ أَكْذَبُ [4]

ج – حذف المفعول :

يُحذف المفعول به لأغراض بلاغيّة عديدة ، و ذلك لأنّ الحاجة إليه أمسّ ... و اللّطائف كأنّها فيه أكثر و ما يظهر بسببه من الحسن و الرّونق أعجب و أظهر "[5] و ممّا يسوّغ حذف المفعول أنّه فضلة " يستقلّ القول دونها على ما تقرّر في فنّ النّحو ، و حذفه مهيع من كلام العرب ، طافحة به اللّغة و القرآن ، و ليس يُحصى كثرة ".[6]

و حال الفعل مع الفاعل كحاله مع المفعول الذي يتعدّى إليه الفعل ، يقول الخطيب القزويني : « فكما أنّك إذا أسندت الفعل إلى الفاعل كان غرضك أن تفيد وقوعه منه لا أن تفيد وجوده في نفسه فقط ، كذلك إذا عدّيته إلى المفعول كان غرضك أن تفيد وقوعه عليه لا أن تفيد وجوده في نفسه فقط،و قد اجتمع الفاعل و المفعول في أنّ عمل الفعل فيهما إنّما كان ليعلم التباسه بهما».[7]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 19 ، ص : 151 .

[2] - الشّعراء : 38 – 39 .

[3] - علوم البلاغة : أحمد مصطفى المراغي (البيان و المعاني و البديع) ، دط ، دار الكتب العلميّة ، دت، ص : 65 .

[4] - ديوان النّابغة الذّبيانيّ ، ص : 17.

[5] - دلائل الإعجاز: 185 .

[6] - المترع البديع في تجنيس أساليب البديع ،أبو محمّد السّجلماسيّ ؛ تحقيق : د . علاّل الغازي ، مكتبة المعارف - الرّباط ، ط1 1980 ، ص: 202 .

[7] - الإيضاح : 61 .

و إنّما يحذف المفعول لغرض في الكلام قد يكون للاقتصار على إثبات المعاني للفاعل دون التّعرّض للمفعول أو يكون لمجرّد الاختصار ، أو لتوفير العناية على إثبات الفعل لفاعله ، أو لاستهجان التّصريح به ، أو لرعاية الفاصلة .و من الأغراض البلاغية التي يحذف لأجلها المفعول ، ما يلي :

ـــ التّهكّم :

يدلّ الحذف على النّقص في الحسّيات و التّجريديّات ، و في قوله تعالى :﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾[1] حذف مفعول﴿ زَادُوكُمْ ﴾ لدلالة الخروج عليه ، أي ما زادوكم قوّة أو شيئا ممّا تفيد زيادته في الغزو نصرا على العدوّ ، ثمّ استثنى من المفعول المحذوف الخبال على طريقة التّهكّم بتأكيد الشّيء بما يشبه ضدّه .[2]

ـــ الرّعاية على الفاصلة:

و يحذف المفعول كذلك – عند علماء البلاغة – لرعاية الفاصلة ، و من ذلك سورة الضّحى : ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾[3]

و هذه الغاية التي حدّدها البلاغيّون ، و رأوا أنّ المفعول يحذف لأجلها غاية ليست لذاتها و إنّما المرعيّ ابتداء هو المعنى ، و إلاّ فإنّ القرآن الكريم يعكس مدلولات كثيرة من خلال أمره

---

[1] - التّوبة :47.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 216 .

[3] - سورة الضّحى كاملة.

و نهيه،و استفهامه و إخباره ، و خطابه و تنبيهه ، و هو مع ذلك يخرج الكلام في شكله التّركيبيّ الذي يعطيه جرسا معيّنا يتفاعل مع المعنى بحيث لا ينفكّ أحدهما عن الآخر .[1] و مع ذلك فسورة الضّحى حذفت منها مفعولات قد دلّ عليها دليل لفظي كما قال ابن عاشور : «و حذف مفعول"قلى" لدلالة "ودّعك" عليه كقوله تعالى : ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [2] و هو إيجاز لفظيّ لظهور المحذوف و مثله قوله:فـــآوى ، فهدى ، فأغنى ».[3]

فلم تكن رعاية الفاصلة هدفا يسعى إليه القرآن بخطاباته فيما يطرأ على سياقاته من طوارئ الحذف " و إنّما الحذف لمقتضى محتوى بلاغيّ يقوّيه الأداء اللّفظيّ دون أن يكون الملحظ الشّكليّ هو الأصل ، و لو كان البيان القرآنيّ يتعلّق بمثل هذا لما عدل عن رعاية الفاصلة في آخر سورة الضّحى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ .[4]

ـــ تتريل الفعل مترلة اللاّزم :

و منه قوله تعالى :﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [5] حذف مفعول﴿يَعۡلَمُونَ﴾ لتتريل الفعل مترلة اللاّزم إذا أريد به : لقوم ذوي علم و عقل .[6]

ومثله قوله تعالى :﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [7] يعلّق عبد القاهر على هذه الآيات قائلا : «المعنى : هو الذي منه الإحياء و الإماتة و الإفناء و هكذا كلّ موضوع كان القصد فيه أن يثبت

[1] - البلاغة و الأسلوبيّة : محمّد عبد المطّلب ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، 1994 م ، ص: 242 .

[2] - الأحزاب :35.

[3] - التّحرير و التّنوير ، م 12 ، ج 30 ، ص :397 .

[4] - التّفسير البياني للقرآن : د . عائشة عبد الرّحمن بنت الشّاطئ ، ط7 ، دار المعارف ، دت ،1 / 35

[5] - التّوبة :11.

[6] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج10 ، ص : 128 .

[7] - النّجم : 43 .

المعنى في نفسه فعلا للشّيء".ثمّ يشرح عبد القاهر ما ذهب إليه بقوله : " ألا ترى أنّك إذا قلت : هو يعطي الدّنانير ، كان المعنى على أنّك قصدت أن تُعلم السّامع أنّ الدّنانير تدخل في عطائه أو أن يعطيها خصوصا دون غيرها ، و كان غرضك على الجملة بيان جنس ما تناوله الإعطاء ، لا الإعطاء في نفسه»،[1] و ذهب الفرّاء إلى أنّ المعنى : «أضحك أهل الجنّة بدخول الجنّة ، و أبكى أهل النّار بدخول النّار ، و العرب تقول في كلامها إذا عيب على أحدهم الجزع و البكاء يقول : إنّ الله أضحك و أبكى ، يذهبون به إلى أفاعيل الدّنيا ».[2] و يرى ابن عاشور أنّ قوله تعالى :

﴿ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ لم يذكر مفعوله لأنّ القصد إلى الفعلين لا إلى مفعوليْهما ، فالفعلان متزّلان متزلة اللاّزم ، أي أوجد الضّحك و البكاء .[3]

ـــ التّعميم :

و ممّا جاء في القرآن الكريم منه ، قوله تعالى :﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[4] يقول ابن عاشور : «و حذف مفعول﴿ يَسْقُونَ ﴾ لتعميم ما شأنه أن يُسقى و هو الماشية و النّاس ، و لأنّ الغرض لا يتعلّق بمعرفة المسقيّ و لكن بما بعده من انزواء المرأتيْن عن السّقي كما في الكشّاف تبعا لدلائل الإعجاز ، فيكون من تتريل الفعل المتعدّي متزلة اللاّزم ، أو الحذف هنا للاختصار كما اختاره السّكّاكيّ و أيّده شارحاه (السعد و السّيّد) . و أمّا حذف مفاعيل (تذودان — و لا نسقي — فسقى لهما) فيتعيّن فيها ما ذهب إليه الشّيخان . و أمّا ما

[1] - دلائل الإعجاز : 167 .

[2] - معاني القرآن : ص : 101 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج27 ، ص :143 .

[4] - القصص : 23 – 24 .

ذهب إليه صاحب المفتاح و شارحاه فشيء لا دليل عليه في القرآن حتى يُقدَّر محذوف و إنّما استفادة كونهما تذودان غنما مرجعها إلى كتب الإسرائليّين ». [1]

ـــ التّشويق :

و في قوله تعالى :﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [2] جاء تركيب الآية على نظم بديع ، إذ حذف المفعول الثّاني لفعل الحسبان الأوّل،لدلالة ما يدلّ عليه و هو مفعول﴿ **فَلَا تَحْسَبَنَّهُم**﴾،

و التّقدير : لا يحسبنّ الذين يفرحون ... إلخ أنفسَهم .

و أعيد فعل الحسبان في قوله :﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّهُم** ﴾مسندا إلى المخاطب على طريقة الاعتراض بالفاء و أتى بعده بالمفعول الثّاني ، و هو :﴿**بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ** ﴾ فتنازعه كلا الفعلين .

و على قراءة الجمهور :﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ**﴾ بتاء الخطاب[3] ،يكون خطابا لغير معيّن ليعمّ كلّ مخاطب ، و يكون قوله :﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّهُم**﴾ اعتراضا بالفاء أيضا و الخطاب للنّبيّ صلّى الله عليه و سلّم مع ما في حذف المفعول الثّاني لفعل الحسبان الأوّل ، و هو محلّ الفائدة ، من تشويق السّامع إلى سماع المنهي عن حسبانه.[4]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 20 ، ص : 99 .

[2] - آل عمران :188.

[3] - قرأ نافع ، و ابن كثير ، و ابن عامر ، و أبو عمرو ، و أبو جعفر المدني :(لا يحسبنّ) بالياء التّحتيّة على الغيبة ، و قرأه الباقون بتاء الخطاب : (لا تحسبنّ). ينظر :تقريب النّشر في القراءات العشر : الإمام ابن الجزريّ ، قدّم له و علّق عليه جمال الدّين محمّد شرف ، دط ، دار الصّحابة للتّراث ـــ طنطا، د ت ، ص : 144 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج4 ، ص : 194 – 195 .

و الظّاهر في قوله تعالى :﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [1] أنّ مفعول (يخش) حُذف لتذهب نفس السّامع في تقديره كلّ مذهب محتمل ، فينظر كلّ سامع بحسب الأهمّ عنده ممّا يخشاه أن يصيب ذرّيّته.[2]

ـــ البيان بعد الإبهام (حذف مفعول المشيئة):

يرد مفعول المشيئة محذوفا في القرآن كثيرا جدّا و يسوقه البلاغيّون ضمن حذف المفعول به .

و قد جعل البلاغيّون لذلك غرضا مستقلاّ ، هو البيان بعد الإبهام . إذ إنّ مجيء المشيئة بعد "لو" و بعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معدّاة إلى شيء كثير شائع "[3] و من ذلك قوله تعالى :

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4] يقول ابن عاشور :

« مفعول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه و ذلك شأن فعل المشيئة و الإرادة و نحوهما إذا وقع متّصلا بما يصلح لأن يدلّ على مفعوله ، مثل وقوعه صلة لموصول يحتاج إلى خبر نحو : ما شاء الله كان ، أي : ما شاء كونَه كان ، و مثل وقوعه شرطا لِلَوْ لظهور أنّ الجواب هو دليل المفعول و كذلك إذا كان في الكلام السّابق قبل فعل المشيئة ما يدلّ على مفعول الفعل،[5] نحو قوله تعالى :

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[6] قال الشّيخ في دلائل الإعجاز :" إنّ البلاغة في أن يجاء به

---

[1] - النّساء : 9.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج4 ، ص : 252 .

[3] - دلائل الإعجاز : 193 ، و المثل السّائر : 2 / 393 .

[4] - البقرة : 20 .

[5] - التّحريرو التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 322 .

[6] - الأعلى : 6 – 7 .

كذلك محذوفا و قد يتّفق في بعضه أن يكون إظهار المفعول هو الأحسن،[1] و ذلك نحو قول الشّاعر هو إسحاق الخريمي مولى بني خريم من شعراء عصر الرّشيد يرثي أبا الهيذام الخريمي حفيده ابن ابن عمارة :

وَ لَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِيَ دَماً لَبَكَيْتُهُ عليهِ وَ لَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ[2]

و سبب حسنه أنّه كأنّه بِدْع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دما فلمّا كان كذلك كان الأولى أن يصرّح بذكره ليقرّره في نفس السّامع ...إلخ كلامه. و تبعه صاحب الكشّاف و زاد عليه أنّهم لا يحذفون في الشّيء المستغرب ...إلخ [3] و هو مؤوّل بأنّ مراده أنّ عدم الحذف حينئذ يكون كثيرا. و عندي أنّ الحذف هو الأصل لأجل الإيجاز فالبليغ تارة يستغني بالجواب فيقصد البيان بعد الإبهام و هذا هو الغالب في كلام العرب ، قال طرفة : و إن شئت لم تَرقل و إن شئت أرقلتَ. و تارة يبين بذكر الشّرط أساس الإضمار في الجواب نحو البيت و قوله تعالى:﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[4] و يحسن ذلك إذا كان في المفعول غرابة فيكون ذكره لابتداء تقريره كما في بيت الخريمي ، و الإيجاز حاصل على كلّ حال لأنّ فيه حذفا إمّا من الأوّل أو من الثّاني . و قد يوهم كلام أئمّة المعاني أنّ المفعول الغريب يجب ذكره و ليس كذلك فقد قال الله تعالى :﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[5] فإنّ إنزال الملائكة أمر غريب قال أبو العلاء المعرّي :

وَ إنْ شِئْتَ فَازْعُمْ أَنَّ مَنْ فَوقَ ظَهْرِهَا عَبِيـــدُكَ وَ اسْـــتَشْهِدْ إِلَهَكَ يَشْهَدِ[6]

---

[1] - دلائل الإعجاز : 164 .

[2] - الكامل في اللّغة و الأدب : 2 / 329 .

[3] - الكشّاف : 4 / 780 .

[4] - الأنبياء : 17 .

[5] - فصّلت : 14 .

[6] - ديوان سقط الزّند ، أبو العلاء المعرّي ، شرحه : أحمد شمس الدّين ،ط 2 ، دار الكتب العلميّة – بيروت،1428 –2007 م ، ص :81 . و قال الخوارزميّ : " أرى في الظّاهر أنّه أراد بقوله " إلهك" الله تعالى ، و لعلّه تأوّله على ما ذكره في شرح الخطبة

فإن زعْم ذلك زعمٌ غريب» .[1]

يقول ابن عاشور بعد أن بيّن أنّ الآية يمكن أن تُحمل على محامل كثيرة : «و بهذا يتحصّل أنّ لفظ﴿مَا يَشَآءُ ﴾ عامّ يشمل كلّ ما يشاؤه الله تعالى و لكنّه مجمل في مشيئة الله بالمحو و الإثبات و ذلك لا تصل الأدلّة العقليّة إلى بيانه ، و لم يرد في الأخبار المأثورة ما يبيّنه إلاّ القليل على تفاوت في صحّة أسانيده .[2] و من الصّحيح فيما ورد من ذلك قول النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم : « إنّ أحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنّةِ ، حَتى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ و بَيْنَهَا إلاّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا . و إنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ ، حَتى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلَ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنَّة فيَدْخُلَها».[3]

د ــ حذف المبتدأ :

يحذف المبتدأ من الكلام ، و يبقى ما يدلّ عليه ، و في حذفه حيث حُذف عين البلاغة ، و تمام الإفادة.و من ذلك قوله تعالى :﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا ﴾[4] كاف التّشبيه في موضع الخبر عن مبتدأ محذوف دلّ عليه ضمير الخطاب تقديره : أنتم كالذين من قبلكم .[5] و من المعاني التي ينصرف إليها حذف المبتدأ ما يلي :

ــ تعدّد المعاني :

بالهوى، قال تعالى : ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية : 23). (شروح سقط الزّند ، تحقيق : مصطفى السّقا و جماعة من العلماء ، دط ، الدّار القوميّة للطّباعة و النّشر ــ القاهرة ، 1383 هــ / 1964 م ، : 1 / 388)

[1] - التّحريرو التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 322 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ح 13 ، ص : 166 .

[3] - صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، و الحديث من رواية : عبد الله بن مسعود ، ص : 795 .

[4] - التـوبة : 69.

[5] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج10 ، ص : 256 .

و من ذلك قوله تعالى :﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[1]. يقول ابن عاشور : «و قوله :﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي لا تنطقوا بهذه الكلمة ، و لعلّها كانت شعارا للنّصارى في دينهم ككلمة الشّهادة عند المسلمين ، و من عوائدهم الإشارة إلى التّثليث بالأصابع الثّلاثة : الإبهام و الخنصر و البنصر . و المقصود من الآية النّهي عن النّطق بالمشتهر من مدلول هذه الكلمة و عن الاعتقاد .

ثمّ يقول : «و﴿ ثَلَٰثَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف كان حذفه ليصلح لكلّ ما يصلح تقديره من مذاهبهم من التّثليث ، فإنّ النّصارى اضطربوا في حقيقة تثليث الإله ... فيقدّر المبتدأ المحذوف على حسب ما يقتضيه المردود من أقوالهم في كيفيّة التّثليث ممّا يصحّ الإخبار عنه بلفظ﴿ ثَلَٰثَةٌ ﴾ من الأسماء الدّالّة على الإله ، و هي عدّة أسماء».[2]

و قال الزّمخشري : «خبر مبتدأ محذوف . فإن صحّت الحكاية عنهم أنّهم يقولون : هو جوهر واحد و ثلاثة أقانيم ، فتقديره الله ثلاثة ، و إلاّ فتقديره الآلهة ثلاثة ، و الذي يدلّ عليه القرآن التّصريح منهم بأنّ الله و المسيح و مريم ثلاثة آلهة ، و أنّ المسيح وَلدُ الله من مريم ».[3] ألا ترى إلى قوله:﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾[4] .

و قدّر الرّازي تقديرا آخر في الآية فقال : «و الوجه : أن يقال : الثّلاثة صفة مبتدأ لا خبر مبتدأ . و التّقدير : و لا تقولوا آلهة ثلاثة ، ثمّ حذف الموصوف الذي هو آلهة ، فبقي : و لا تقولوا ثلاثة .

---

[1] - النّساء : 171 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 6 ، ص : 54 .

[3] - الكشّاف :1 / 627 .

[4] - المائدة : 117 .

و الفرق بين ذلك و بين ما قالوا : أنّه إذا قيل : لا تقولوا آلهتنا ثلاثة . ففيه اعتراف بوجود الآلهة و نفي لكونها ثلاثة . و إذا قيل : لا تقولوا لنا آلهة ثلاثة ، لا يلزم إثبات أصل الآلهة ؛ لأنّه يصحّ أن يقال : لا تقولوا في الوجود آلهة ثلاثة و لا إلهان . فصحّ الفرق . و اعلم : أنّ القدح في التّأويل الأوّل إنّما يصحّ بناء على القول بدليل الخطاب».[1]

ـــ تكثير الفائدة باحتمال أمريْن:

و من الأغراض التي يُحذف لأجلها المبتدأ أيضا : تكثير الفائدة باحتمال أمريْن و منه قوله تعالى : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2] يقول ابن عاشور :« ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ نائب مناب اصبر صبرا جميلا . و عدل به عن النّصب إلى الرّفع للدّلالة على الثّبات و الدّوام . و قد يكون ذلك اعتراضا في أثناء خطاب أبنائه ، أو يكون تقدير : اصبر صبرا جميلا ، على أنّه خطاب لنفسه . و يجوز أن يكون ﴿صَبْرٌ جَمِيلٌ﴾خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه السّياق ، أي : فأمري صبر . أو مبتدأ خبره محذوف كذلك . و المعنى على الإنشاء أوقع» .[3]

و من هذا القبيل قوله تعالى :﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[4] إمّا أن يكون كلاما مستأنفا ، و هو مبتدأ خبره محذوف ، أي طاعة و قول معروف خير لهم ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : الأمر طاعة ، و قول معروف،أي أمر الله أن يُطيعوا.[5]

ـــ الاجتزاء بالصّفة :

---

[1] - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، فخر الدّين الرّازي، ط 1 ، دار الجيل – بيروت ، 1412 هـــ / 1992 ، ص : 245 .

[2] - يوسف : 18 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج12 ، ص :239 . و ينظر : علوم البلاغة للمراغي: 95 . .

[4] - محمّد : 21 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 26 ، ص : ، 109 ، و ينظر : الخصائص ص : 362 ، و بديع القرآن : ابن أبي الأصبع تحقيق :حفني شرف ، ط1 ، مكتبة نهضة مصر ،1975 م ، ص : 190 و نهاية الإيجاز ، ص : 243 .

و (مِنَ) تبعيضيّة في قوله تعالى :﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1] و هي خبر لمبتدأ محذوف دلّت عليه صفته و هي جملة :﴿يُحَرِّفُونَ﴾ و التّقدير : قوم يحرّفون الكلم.

و حذف المبتدإ في مثل هذا شائع في كلام العرب اجتزاء بالصّفة عن الموصوف ، و ذلك إذا كان المبتدأ موصوفا بجملة أو ظرف ، و كان بعضَ اسم مجرور بحرف (من) ، و ذلك الاسم مقدّم على المبتدإ . و من كلمات العرب المأثورة قولهم : منّا ظعَن و منّا أقام ، أي منّا فريق ظعن ، و منّا فريق أقام .[2] و منه قول ذي الرّمّة :

فَظَلُّوا وَ مِنْهُمْ دَمْعُهُ غَالِبٌ لَهُ   وَ آخَرُ يَذْرِي دَمْعَةَ العَيْنِ بِالهَمْلِ[3]

أي و منهم فريق ، بدليل قوله في العطف و آخر .و قول تميم ابن مقبل:

و مَا الدَّهْــرُ إلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا   أمُوتُ وَ أخْرَى أبْتَغِي العَيْشَ أكْدَحُ[4]

هـــ ـــ حذف الخبر :

يحذف الخبر عند النّحاة وجوبا في حالات أربع ، الأولى أن يكون خبرا لمبتدأ بعد " لولا "

و الثّانية أن يكون المبتدأ نصّا في اليمين ، و الثّالثة " أن يقع بعد المبتدأ واو هي نصّ في المعيّة " ... و الرّابعة أن يكون المبتدأ مصدرا و بعده حال سدّت مسدّ الخبر و هي لا تصلح أن تكون خبرا فيُحذف الخبر وجوبا لسدّ الحال مسدّه .

---

[1] - النّساء :46.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج5 ، ص : 74 .

[3] - ديوان ذي الرُّمّة ، اعتنى به و شرح غريبه : عبد الرّحمن المصطاوي ، ط1، دار المعرفة ـــ بيروت ـــ ، 1427 هـــ / 2006 م ص : 217 . و فيه في الشّطر الثّاني : و آخر يثني عبرة العين .

[4] - ديوان ابن مقبل ، عني بتحقيقه : د عزّة حسن ، دط،دار الشّرق العربي ـــ بيروت ـــ ، 1416 هـــ / 1995 م ، ص : 38 .

و يحذف الخبر جوازا في الإجابة عن سؤال ، أو العطف على مبتدأ ذكِر خبره ، أو حين يكون المبتدأ " اسما موصولا واقعا بعد همزة استفهام إنكاريّ ، و كان الخبر على عكس المبتدأ في الصّفة ، كما يحذف جوازا بعد إذا الفُجائيّة ، و في الإخبار بشبه جملة .[1]

و أمّا البلاغيّون فقد شغلهم البعد البلاغي من وراء تقنين النّحويّين ، ليكشفوا عن مواطن الجمال و الرّوعة التي أدّاها حذف الخبر ، و في القرآن الكريم مواطن كثيرة حُذف فيها الخبر

و من ذلك قوله تعالى :﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[2] يقول ابن عاشور : « و إنّما أفرد الضّمير في قوله :﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ مع أنّ المعاد اثنان لأنّه أريد عود الضّمير إلى أوّل الاسميْن ، و اعتبار العطف من عطف الجمل بتقدير : و الله أحقّ أن يرضوه و رسوله كذلك، فيكون الكلام جملتين ثانيهما كالاحتراس و حذف الخبر إيجاز . و من نكتة ذلك الإشارة إلى التّفرقة بين الإرضاءيْن و منه قول ضابئ بن الحارث :

وَ مَنْ يَكُ أمْسَى بِالَمدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّـــي وَ قَـــيَّارٌ بِـــهَا لَـــغَرِيبُ[3]

و التّقدير : فإنّي لغريب و قيّار بها غريب أيضا . لأنّ إحدى الغربتيْن مخالفة لأخراهما» .[4]

[1] - شرح ابن عقيل : بهاء الدّين عبد الله بن عَقِيل العقِيلي ، تأليف محمّد محي الدّين عبد الحميد ،ط 20 ، دار التّراث ـــ القاهرة ، 1400 هــ / 1980 م ، 1 / 253 – 254 .

[2] - التّوبة : 62 .

[3] - معاهد التّنصيص شرح شواهد التّلخيص : عبد الرّحيم بن عبد الرّحمن بن أحمد العبّاسي ، دط ، دون دار الطّبع ، دت ،و فيه أنّ ضابئ بن الحرث البرجمي ينتهي نسبه إلى تميم ، و ذُكر فيمن أدرك رسولَ الله صلّى الله عليه و سلّم ، و معنى البيت : التّحسّر على الغربة ، و الرّحل: السّكن و ما يستتبعه من الأثاث ، و قيّار: جمل ضابئ أو فرسه . 1 / 66 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م5 ، ج 10 ، ص :245 .

و في قوله تعالى :﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾[1] يقول ابن عاشور : « جملة هي خبر رابع عن الرّحمن و إلاّ كان ذكره هنا بدون مناسبة فينقلب اعتراضا . و رابط الجملة بالمبتدأ تقديره : بحسبانه ، أي حسبان الرّحمن و ضبطه ... و الباء للملابسة و هي ظرف مستقرّ هو خبر عن الشّمس و القمر ، و التّقدير : كائنان بحسبان . أي بملابسة حسبان أي لحساب النّاس مواقع سيرهما ».[2]

و منه قوله تعالى :﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾[3] يقول ابن عاشور : « يجوز أن تكون الهمزة همزة استفهام و ﴿مَنْ﴾ مبتدأ و الخبر محذوف دلّ عليه الكلام قبله من ذكر الكافر في قوله :﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ إلى قوله :﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[4] و تقدير الكلام : أمن هو قانتٌ أفضلُ أم من هو كافرٌ ؟ و الاستفهام حينئذ تقريريّ و يُقدَّر له معادل محذوف دلّ عليه قوله عقبه[5] :﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[6]

---

[1] - الرّحمن : 5 .

[2] - التّحريرو التّنوير : م 11 ، ج 27 ، ص :234 .

[3] - الزّمَر : 9 .

[4] - الزّمر : 8 .

[5] - التّحريرو التّنوير : م 9 ، ج 23 ، ص : 345 .

[6] - الزّمر : 9 .

في قوله تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [1] يكون قوله :﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ ﴾ مبتدأ ، و حذف خبره

و دلّ عليه قوله :﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾و قصد العدول عن العطف لتكون مستقلّة و لما فيه من فائدة العموم ، و فائدة الإعلام بأنّ هؤلاء من الكافرين . فالتّقدير : الذين يبخلون أعتدنا لهم عذابا مهينا و أعتدنا ذلك للكافرين أمثالهم ، و تكون جملة :﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ معطوفة أيضا على جملة :﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ ﴾ محذوفة الخبر أيضا ، يدلّ عليه قوله:﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾ [2] ...إلخ .

و التّقدير : و الذين ينفقون أموالهم رئاء النّاس قرينهم الشّيطان . و نكتة العدول إلى العطف مثل نكتة ما قبلها.[3]

و ــ حذف الصّفة :

تُحذف الصّفة و يُقام الموصوف مقامها ، و إن كان حذفها أقلّ وجودا في اللّغة و القرآن من حذف الموصوف و إقام الصّفة مقامه ، فحذف الصّفة قليل " و لا يكاد يقع في الكلام إلاّ نادرا لمكان استبهامه ».[4]

[1] - النّساء : 37 - 38.

[2] - النّساء : 38.

[3] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج5 ، ص : 52 .

[4] - المثل السّائر : 2/ 301 .

و قد يقع حذف الصّفة كثيرا في كلام العامّة حين يقول أحدهم : قصدت فلانا فوجدته رجلا : أي : رجلا يُعتمد عليه فيما أقصده له . و كذلك يقال : " إنّ محمّدا رجل " في غير مقام الإخبار عنه بالرّجولة دون الأنوثة ، فذلك معلوم من اسمه إن كان غائبا ، أو اسمه و هيئته إن كان حاضرا.

و حذف الصّفة لا يسوغ إلاّ في صفة تقدّمها ما يدلّ عليها أو تأخّر عنها ، أو فُهم ذلك من شيء خارج عنها .[1]

و من المواطن التي وردت الصّفة فيها محذوفة من القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[2] يقول ابن عاشور : « و معنى﴿ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ أي صالحةٍ ، بقرينة قوله :﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[3] ثمّ يوضّح سبب مخالفة الظّاهر في هذه الآية ، إذ كان مقتضى نظم الآية أن يقدّم ذكر مسكنة أولئك القوم

ثمّ طغيان ذلك الملك المغتصب للسّفن و جبروته ،سببان كافيان حملا الخضر – عليه السّلام – على إحداث عطب في السّفينة حتى يعيبها لأصحابها فيما بعد.إلى أن يقول: «و جملة ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ متفرّعة على كلّ من جملتي ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ ﴾ ،﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ فكان حقّها التّأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظّاهر ، و لكنّها قُدّمت خلافا لمقتضى الظّاهر لقصد الاهتمام

و العناية بإرادة إعابة السّفينة حيث كان عملا ظاهره الإنكار و حقيقته الصّلاح زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله ، لأن" كون السّفينة لمساكين ممّا يزيد السّامع تعجّبا في الإقدام على خرقها

---

[1] - الإيجاز في كلام العرب و نصّ الإعجاز " دراسة بلاغيّة " : د . مختار عطيّة ، دط ، دار المعرفة الجامعيّة ـــ مصر ، دت ص : 322 .

[2] - الكهف : 79 .

[3] - التّحريرو التّنوير : م 7 ، ج 16 ، ص :12 .

. و المعنى : فأردت أن أعيبها و قد فعلت . و إنّما لم يقل : فعِبْتُها ، ليدلّ على أنّ فعله وقع عن قصد و تأمّل ».[1]

ــ العموم العرفيّ :

و منه قوله تعالى :﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾[2]

يقول ابن عاشور : « و معنى ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ نالت من كلّ شيء حسن من شؤون المُلْك . فعموم كلّ شيء عموم عُرفيّ من جهتيْن يفسّره المقام ، كما فسّر قول سليمان ، أي أوتِيَتْ من خصال الملوك و من ذخائرهم و عُددهم و جيوشهم و ثراء مملكتهم و زُخْرفها و نحو ذلك من المحامد و المحاسن .

و بناء فعل﴿وَأُوتِيَتۡ﴾ إلى المجهول إذ لا يتعلّق الغرض بتعيين أسباب ما نالته بل المقصود ما نالته على أنّ الوسائل و الأسباب شتّى فمنه ما كان إرثا من الملوك الذين سلفوها ، و منه ما كان كسبا من كسبها و اقتنائها ، و منه ما وهبها الله من عقل و حكمة ، و ما منح بلادها من خصب و وفْرة مياه ».[3]

هـــ ـــ حذف الموصوف :

يحذف الموصوف و تقام الصّفة مقامه إذا وُجدت قرينة تدلّ عليه ، سواء أكانت قرينة لفظيّة أم حالية ، فإذا فُقدت قرينة استبهم الكلام ، و كان غير لائق ، و من الصّفات ما لا يمكن حذف موصوفها و ذلك إذا كانت الصّفة جملة .

[1] - المرجع السّابق : 12 .

[2] - النّمل : 23 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 19 ، ص : 253 .

و يُشترط لحذف الموصوف شرطان ، أحدهما أن تكون الصّفة خاصّة بالموصوف حتى يحصل العلم به ، و الثّاني " أن تكون الصّفة قد غلب استعمالها مفردة على الموصوف كالبَرِّ و الفاجر و العالِم و الجاهل و المتّقي و الرّسول و النّبيّ و نحو ذلك ممّا غلب استعمال الصّفة فيه مجرّدة عن الموصوف "، و يسوّغ حذفه أيضا دلالة الكلام عليه " حتى لو قلت : مررت بطويل " و لا قرينة لم يجز ، إذ لا يُعلم هل المراد : رمح ، أو ثوب أو إنسان ".

و لقد تنبّه ابن الأثير – من خلال تتبّعه مواطن محذوف الموصوف – إلى أنّ حذف الموصوف يكثر وقوعه في النّداء و في المصدر ، و إن كانت هذه القاعدة ليست عامّة بحيث تصدق على الشّواهد كلّها ، إذ ورد الموصوف محذوفا في غير نداء و لا مصدر[1]، و ذلك في آيات كثيرة ، منها مثلا :

قوله تعالى :﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾[2] و التّقدير :" قوماً حصرت صدورهم"

قوله تعالى :﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾[3] و التّقدير :"على طائفة خائنة منهم"

قوله تعالى :﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[4] و التّقدير :"فله عشرُ حسناتٍ أمثالها"

قوله تعالى :﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾[5] و التّقدير :"وعْدُ المرّة الآخرة"

---

[1] - المثل السّائر : 2 / 300 .

[2] - النّساء : 90 .

[3] - المائدة : 13

[4] - الأنعام : 160 .

[5] - الإسراء : 104 .

قوله تعالى :﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾[1] و التّقدير :"قولا شططا"

ــ الشّيوع :

و هنالك آيات أخرى كثيرة تخالف ما ذهب إليه ابن الأثير ، و من الشّواهد الدّالّة على بلاغة هذا الحذف قوله تعالى :﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾[2] يقول ابن عاشور :

«و﴿سَٰبِغَٰتٖ﴾ صفة لموصوف محذوف لظهوره من المقام ، إذ شاع وصف الدّروع بالسّابغات و السّوابغ ، حتى استغنوا عند ذكر هذا الوصف عن ذكر الموصوف ».[3]

و منه قوله تعالى :﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾[4] يقول ابن عاشور : «و قوله :﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ﴾ عطف على الأنفس باعتبار قيد ﴿حِينَ مَوۡتِهَا﴾ لأنّه في معنى الوصف فكأنّه قيل : يتوفّى الأنفس التي تموت في حالة نومها ، و الأنفس التي لم تمت في نومها فأفاقت . و يتعلّق ﴿فِي مَنَامِهَا ﴾بقوله:﴿ يَتَوَفَّى﴾ ، أي و يتوفّى أنفُسا لم تمت يتوفّاها في منامها كلّ يوم ، فعُلم أنّ المراد بتوفّيها هو منامها ، و هذا جار على وجه التّشبيه بحسب عرف اللّغة إذ لا يُطلق على النّائم ميّت و لا متوفّى ».[5]

---

[1] - الكهف : 14 .

[2] - سبأ : 11 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج22 ، ص : 157 .

[4] - الزّمر : 42 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 24 ، ص : 24 .

ـــ الظّهور :و في قوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [1] الرّواسي : جمع راس . و هو الثّابت المستقرّ، أي جبالا رواسي.و قد حذف موصوفه لظهوره فهو كقوله :﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾[2] أي السّفن الجواري .[3]

و في قوله تعالى :﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [4] الحسنى صفة لموصوف محذوف أي الحالة الحسنى ، أو المعاملة الحسنى . و الأظهر أنّ الحسنى صارت اسما للإحسان أخذا من صيغة التّفضيل.[5]

و ــ حذف المضاف :

أحصى ابن جنّي مواطن ورود حذف المضاف في القرآن الكريم فبلغت أكثر من ثلاثمائة موضع [6] و قد وصف ابن الأثير هذا النّوع من الحذف بأنه:" باب عريض طويل شائع في كلام العرب " [7]

7

هو أيضا : " باب واسع كثير ، و مهيع لاحب ، اللّغة طافحة به ، وكثرته خارجة عن الإحصاء".[8]

و لقد خالف بعض ما ذهب إليه ابن جنّي من كثرة حذف المضاف ، و أنكروا أن يكون جواز الحذف قياسا مطلقا ، و قد لاحظ بعض المحدثين عدم وجود مبرّر لكثير ممّا ادُّعي فيه الحذف

---

[1] - الرّعد : 3.

[2] - الرّحمن : 24.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 13 ، ص : 82 .

[4] - فصّلت : 50.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 25 ، ص : 12 .

[6] - الخصائص ، 2 / 452 .

[7] - المثل السّائر ، 2 / 295 .

[8] - المترع البديع : 205 .

و تُكلّفت من أجله التّخريجات ، بل و اعترض على تأويل آيات كثيرة زعموا أنّ المضاف فيها قد حُذف .[1]

و من شواهد القرآن على حذف المضاف قوله تعالى :﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] يقول ابن عاشور : «و إنّما جعل حبّهم العجل إشرابا لهم للإشارة إلى أنّه بلغ حبّهم العجل مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه كأنّ غيرهم أشربهم إيّاه كقولهم أُولِع بكذا و شُغِف . و (العجلَ) مفعول أشربوا على حذف مضاف مشهور في أمثاله من تعليق الأحكام و إسنادها إلى الذّوات مثل :﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾[3] أي أكل لحمها . و إنّما شُغفوا به استحسانا و اعتقادا أنّه إلههم و أنّ فيه نفعهم لأنّهم لّما رأوه من ذهب قدّسوه من فرط حبّهم الذّهب .[4]

و من ذلك قوله تعالى :﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[5] يقول ابن عاشور : « الأمر بالسّؤال هنا تمثيل لشهرة الخبر و تحقّقه كما في قول السّموأل أو الحارثي :

سَلِي إنْ جَهِلْتِ النّاسَ عَنَّا وَ عَنْهُمْ[6]

و قول زيد الخيل :

---

[1] - ظاهرة الحذف : 206 .

[2] - البقرة : 93 .

[3] - المائدة : 3 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 1 ، ص : 611 .

[5] - الزّخرف : 45 .

[6] - ديوانا عروة بن الورد و السّموأل ، دار صادر، دط ، دت ، و البيت من قصيدة مخمّسة ، و شطره الأوّل : فَإنْ شِئْتِ خُبْرَ الحَالِ مِنَّا وَ مِنْهُمْ ، ص : 98 .

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشِدَّتِنَا[1]

و قوله :﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[2] إذ لم يكن الرّسول صلّى الله عليه و سلّم في شكّ حتى يسأل ، و إلاّ فإنّ سؤاله الرّسل الذين من قبله متعذّر على الحقيقة . و المعنى استقْرِ شرائع الرّسل و كتبَهم و أخبارهم هل تجد فيها عبادة آلهة .

و في الحديث : «**وَ استْفْتِ قلبَكَ** »[3]

أي : تثبّتْ في معرفة الحلال و الحرام .[4]

و ما ذهب إليه ابن عاشور أوجه ممّا ذهب إليه صاحب الإشارة عندما زعم أنّ المحذوف : " اسأل أتباع أو أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا "[5] ؛ إذ يأمر – سبحانه – بالسّؤال و يضع له صيغته فيقول له: سلهم ، أجعلنا من دون الرّحمن آلهة يُعبدون ، و هم سوف يجيبونك بالنّفي لأنّهم رأوا العذاب .و كيف يسألهم – عليه الصّلاة و السّلام – أو يسأل أتباعهم و قد بادوا و اندثروا و باعد بينه و بينهم مرّ العصور و كرّ الدّهور .

---

[1] - ديوان زيد الخيل الطّائيّ ، جمع و دراسة و تحقيق : د . أحمد مختار البرزة ، دار المأمون للتّراث، ط1 ، 1408 هـــ - 1988م ، ص : 155 . و الشّطر الثّاني قوله : أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ القَاعِ ذِي الأَكَمِ

[2] - يونس : 94 .

[3] - مسند الإمام أحمد بن حنبل حقّقه و خرّج أحاديثه و علّق عليه : شعيب الأرناؤوط ، و عادل مرشد، مؤسّسة الرّسالة ط1 ، 1416 هـــ / 1995 م ، ص :(175). و الحديث من رواية وابصة بن معبد – رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه قال له :" جئت تسألني عن البرِّ و الإثْم ؟ قال: نعم . فجمع أنامله ، فجعل ينكُث بهنّ في صدري ، و يقول : يا وابصة استفت قلبك و استفت نفسك ثلاث مرّات ، البرّ ما اطمأنّتْ إليه النّفسُ ، و الإثمُ ما حاك في النّفس و تردّد في الصّدر و إن أَفْتَاكَ النّاسُ و أفتَوْكَ ".

[4] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج25 ، ص : 222 .

[5] - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، عزّ الدّين بن عبد السّلام ، دط ،المطبعة العامرة ، دت ، ص : 193 .

و في قوله تعالى :﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ ﴾[1] حُذف المضاف و التّقدير : يضرب الله مَثل الحقّ و الباطل ، لدلالة فعل (يضرب) على تقدير هذا المضاف .

و حذف الجارّ من (الحقّ) لتزيل المضاف إليه مترلة المضاف المحذوف .[2]

أدخل حرف (عن) من قوله تعالى :﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞ ﴾[3] على ضمير المنافقين بتقدير مضاف يدلّ عليه السّياق لظهور أنّهم يريدون الإعراض عن لومهم . ففي حذف المضاف تهيئة لتفريع التّقريع بعه بقوله:﴿ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ ﴾ ، أي فإذا كانوا يرومون الإعراض عنهم فأعرضوا عنهم تماما.[4]

و في قوله تعالى :﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ﴾[5] بلوغ النّكاح على حذف مضاف أي بلوغ وقت النّكاح أي التّزوّج ، و هو كناية عن الخروج من حالة الصّبا للذّكر و الأنثى و للبلوغ علامات معروفة ، عبّر عنها في الآية ببلوغ النّكاح على المتعارف عند العرب من التّبكير بتزويج البنت عند البلوغ ، و من طلب الرّجل الزّواج عند بلوغه .[6]

ثانيا: التّعريف و التّنكير :

لقد تحدّث علماء النّحو عن المعرفة و النّكرة ، و ذكروا أقسام المعارف ، فطرقوا باب العلم

[1] - الرّعد : 17.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 6 ، ج13 ، ص : 120 .

[3] - التّوبة : 95.

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج11، ص : 8 .

[5] - النّساء : 6.

[6] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج4، ص : 238 .

و باب الضّمير ، و باب أسماء الإشارة ، و كذا الاسم الموصول ، و المعرّف بالألف و اللاّم و غير هذا من الأمور المتعلّقة بالمعارف ، إلاّ أنّ حديثهم كان من ناحية إعرابيّة صرفة .[1]

أمّا علماء البلاغة فقد بيّنوا عمل المعرفة و النّكرة في المعنى ، و كيف تتعدّد الأغراض و تتنوّع بذكر معرفة دون غيرها ، أو إيراد لفظ نكرة دون غيره[2] ، و ابن عاشور واحد من أولئك الذين عنوا ببيان هذا الجانب من الإعجاز البيانيّ، فكانت له تأمّلات جيّدة رصد من خلالها بعض الأغراض البلاغيّة لكلّ من التّعريف و التّنكير .

أ ـــ التّعريف :

1 ـــ التّعريف باللاّم :

أ ـــ عوض عن المضاف إليه :

و من أمثلته قوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[3] إذ التّعريف باللاّم في العبيد،عوض عن المضاف إليه ، أي لعبيده كقوله : و يجوز أن يكون العبيد أطلق على ما يرادف النّاس.[4]

و لفظ (الأمر) من قوله تعالى :﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[5] بمعنى شأن المشركين . و التّعريف فيه عوض عن المضاف إليه ، أي ليس لك من

---

[1] - شرح ابن عقيل : 1 / 86 و ما بعدها .

[2] - الكافي في علوم البلاغة العربيّة (المعاني ـــ البيان ـــ البديع) : د . عيسى علي العاكوب ، و أ . علي سعد الشّتيوى ، دط الجامعة المفتوحة ، 1993م ، ص : 205 .

[3] - الأنفال : 51.

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج10 ، ص : 42 .

[5] - آل عمران : 128 .

أمرهم اهتمام . و هذا تذكير بما كان للنّبيّ صلّى الله عليه و سلّم يوم بدر من تخوّف ظهور المشركين عليه و إلحاحه في الدّعاء بالنّصر.[1]

ب ــ الاستغراق العرفيّ :

كلمة الإنسان في قوله تعالى :﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾[2] مراد بها الجنس ، و التّعريف باللاّم يفيد الاستغراق العرفيّ ، أي الإنسان الكافر ، لأنّ جمهور النّاس حينئذ كافرون ، إذ كان المسلمون قبل الهجرة لا يعدون بضعة و سبعين رجلا مع نسائهم و أبنائهم الذين هم تبع لهم . و بهذا الاعتبار يكون المنظور إليهم في هذا الحكم هم الكافرون.و يأخذ المسلمون من هذا الحكم ما يناسب مقدار ما في آحادهم من بقايا هذه الحال الجاهليّة فيفيق كلّ من غفلته.[3]

و التّعريف في لفظ (المصير) من قوله تعالى:﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[4] للاستغراق أي مصير النّاس كلّهم ، فبذلك كانت الجملة تذييلا بما فيه من العموم ، أي مصيرنا و مصيركم و مصير الخلق كلّهم .[5]

ج ــ تعريف الجنس :

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج4 ، ص : 80 .

[2] - يونس : 12.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 109 .

[4] - الشّورى : 15.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 25 ، ص : 64 .

و من ذلك التّعريف في قوله تعالى :﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ من الآية :﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [1] فالتّعريف فيه للجنس و ليس تعريف العهد ، لأنّ المقصود إثبات أنّ ماهية الصّلح خير للنّاس ، فهو تذييل للأمر بالصّلح و التّرغيب فيه ، و ليس المقصود أنّ الصّلح المذكور آنفا ، و هو الخُلع ، خير من النّزاع بين الزّوجين ، لأنّ هذا ، و إن صحّ معناه ، إلاّ أنّ فائدة الوجه الأوّل أوفر ، و لأنّ التّفادي عن إشكال تفضيل الصّلح على النّزاع في الخيريّة مع أنّ النّزاع لا خير فيه أصلا.[2]

و تعريف (الحقّ) في قوله تعالى :﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ [3] تعريف الجنس و هو يفيد قصر المسند على المسند إليه قصر مبالغة لكمال الجنس في المسند إليه نحو: عنترة الشّجاع ، أي يوقنون بأنّها الحقّ كلّ الحقّ ، و ذلك لظهور دلائل وقوعها حتى كأنّه لا حقّ غيره.[4]

د ــ العهد الذّهنيّ :

و ممّا يقرب من الحضور في التعريف بــ (أل) : العهد و هو ما سبق العلم به و معرفته فهو معهود أي معلوم لدى المخاطَب ، و من ذلك قوله تعالى :﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [5] "إذ التّعريف في (القتال) للعهد، و هو القتال الذي يعرفونه ، أعني قتال أعداء الدّين. "[6]

---

[1] - النّساء : 128.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج5 ، ص : 216 .

[3] - الشّورى : 18.

[4] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج25 ، ص : 70 .

[5] - الأنفال : 65.

[6]- التّحرير و التّنوير : م 5، ج 10، ص : 65 .

و منه تعريف (السّقاية) في قوله تعالى :﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾[1] فهو تعريف ذهنيّ ، أي سقاية معروفة لا يخلو عن مثلها مجلس العظيم .[2]

و مثله قوله تعالى : ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[3] يقول ابن عاشور : " و التّعريف في النّاس للعهد ، أي تخشى المنافقين أن يؤذوك."[4] و يمكن أن يكون التّعريف للعهد أو للاستغراق كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾[5] إذ التّعريف في (الكافرين) يحتمل أن يكون للعهد ، أي الكافرين الذين كانوا شاقّوا النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم و آذوه و أرجفوا في المدينة و هم المنافقون و من ناصرهم من المشركين في وقعة الأحزاب من اليهود .

و يحتمل أن يكون التّعريف للاستغراق ، أي كلّ كافر . "[6] و في قوله تعالى : ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[7] و التّعريف في (الأرض) تعريف العهد ، و هي الأرض المعهودة لهم ، أي أرض مصر .[8]

2 ــ التّعريف بالضّمير :

كثيرا ما تبتدأ السّور القرآنيّة بالضّمير مثل سورة "نوح" ، و سورة "الفتح" ، و سورة " الكوثر"

---

[1] - يوسف : 70.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 6 ، ج13 ، ص : 28 .

[3] - الأحزاب :37.

[4]-التّحرير و التّنوير : م 9، ج22 ، ص : 33 .

[5] - الأحزاب : 64.

[6]- التّحرير و التنوير : م 9، ج22 ، ص : 114 .

[7] - يوسف : 55.

[8]- التّحرير و التّنوير : م 6، ج 13، ص : 8 .

و أمّا استعمال الضّمير للتّعبير عن مواقف و أغراض فأكثر ، و لقد عني ابن عاشور بالحديث عن الأبعاد البلاغيّة المنطوية ضمن هذه الأساليب ، نذكر منها مثالين هما :

ـــ التّشريف :

يرى ابن عاشور أنّ قوله تعالى :﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[1]: " أنّه جيء بالمسند إليه ضمير الجلالة تشريفا للنبيّ صلّى الله عليه و سلّم بعزّ الحضور لمقام التّكلّم مع الخالق تعالى و تقدّس ، كأنّ الله يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة ، فلذا لم يقل له إنّ الله أرسلك".[2]

ـــ تسكين روعة المخاطَب :

و من ذلك قوله تعالى :﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾[3] يقول ابن عاشور : " و الإخبار عن ضمير المتكلّم بأنّه ربّ العالمين لتسكين روعة نفسه من خطاب من لا يرى مخاطبه ، فإنّ شأن الرّبّ الرّفق بالمربوب . "[4]

3 ـــ التّعريف بالموصول :

و العدول إلى التّعبير بالموصول في قوله :﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴾[5] دون دون أن يقال : إنّ الله مخرج سورة تنبّئكم بما في قلوبكم : لأنّ الأهمّ من تهديدهم هو إظهار

---

[1] - البقرة : 119 .

[2]- التّحرير و التّنوير : م 1، ج1 ، ق2 ، ص :691.

[3] - طه : 12.

[4]- التّحرير و التّنوير : م 7 ،ج 16 ،ص : 196 .

[5] - التّوبة :59.

سرائرهم لا إنزال السّورة ، فذكر الصّلة واف بالأمرين : إظهار سرائرهم ، و كونه في سورة تنزل ، و هو أنكى لهم ، ففيه إيجاز بديع.[1]

و افتتحت الوصايا من قول الله عزّ و جلّ :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] بالنّداء اهتماما بها ، و جُعل طريق تعريف المنادى طريق الموصوليّة : لما تؤذن به الصّلة من الاستعداد لامتثال ما يأمرهم به الله تعالى ، لأنّ ذلك أخصّ صفاتهم تلقاء أوامر الله تعالى .[3]

و عرّف المتحدَّث عنهم في قوله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾[4] بطريق الموصوليّة دون لقبهم،أعني اليهود ، لأنّ في الصّلة ما يزيد التّعجيب من حالهم ؛لأنّ كونهم على علم من الكتاب قليل أو كثير من شأنه أن يصدّهم عمّا أخبر به عنهم. على ما في هذه الصّلة أيضا من توهين علمهم المزعوم .[5]

و من بديع الإعجاز صوغ قوله تعالى :﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[6] في قالب صالح للمصدريّة و الموصوليّة ، فالمصدريّة مشعرة بأنّ القيامية سببها تفضيل من الله و إنفاق ، و الموصوليّة مشعرة بأنّ سببها ما يعلمه النّاس من فضل الرّجال ، و من إنفاقهم ليصلح الخطاب للفريقين : عالمهم و جاهلهم، كقول السّموأل :

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج10 ، ص : 249 .

[2] - التّوبة :45.

[3] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج10 ، ص : 29 .

[4] - آل عمران :23 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج3 ، ص : 209 .

[6] - النّساء : 34.

سَلِي إنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عنَّا وَ عَنْهُمْ فَلَيْـــسَ سَـــوَاءً عَـــالِمٌ وَ جَـــهُولُ[1]

و لأنّ في الإتيان بـــ (ما) مع الفعل على تقدير احتمال المصدريّة جزالة لا توجد في قولنا : بتفضيل الله و بالإنفاق ، لأنّ العرب يرجّحون الأفعال على الأسماء في طرق التّعبير.[2]

و في قوله تعالى :﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾[3] عدل عن تسمية الذّهب و الفضّة إلى الموصوليّة لأنّها أخصر و أجمع ، و لأنّ الغرض في ذكر الجملة المجعولة صلة . فلو ذكرت بكيفيّة غير صلة كالوصفيّة مثلا لكانت بمترلة الفضلة في الكلام و لطال الكلام بذكر اسم المعدنين مع ذكر الصّلة إذ لا محيد عن ذكر الوقود لأنّه سبب الزّبد ، فكان الإتيان بالموصول قضاء لحقّ ذكر الجملة مع الاختصار البديع.

و لأنّ في العدول عن ذكر اسم الذّهب و الفضّة إعراضا يؤذن بقلّة الاكتراث بهما ترفّعا عن ولع النّاس بهما فإنّ اسميهما قد اقترنا بالتّعظيم في عرف النّاس.[4]

و مجيء المسند اسم موصول في قوله تعالى :﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[5] لإفادة اتّصاف الله تعالى بمضمون صلته و أنّها شأن من شؤون شؤون الله تعالى عرف به ثابت له لا يتخلّف لأنّه المناسب لحكمته و عظمة شأنه و غناه عن خلقه .

[1] - ديوانا عروة بن الورد و السّموأل : 92 . و البيت من شواهد النّحو حيث قدّم خبر ليس على اسمها و هذا لا يجوز لجمودها .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 2 ، ج 5، ص : 40 .

[3] - الرّعد : 17.

[4] - التّحرير و التّنوير :م 6 ، ج13، ص : 119 .

[5] - الشّورى : 25.

و لإيثار جملة الصّلة بصيغة المضارع لإفادة تجدّد مضمونه و تكرّره ليعلموا أنّ ذلك وعد لا يتخلّف و لا يختلف.[1]

4ـــ التّعريف بالإضافة :

و يفيد لطائف بلاغيّة كثيرة نذكر منها:

ـــ التّحبيب و التّرقيق :

هذا الغرض يكاد يتكرّر في قصص الأنبياء عند مخاطبتهم قومهم ، و القرآن إذ يحدّثنا عن ذلك فهو يوقفنا على منهج دعوي فريد ، يعلّمنا كيف نتلطّف مع المخالف ، و نتوجّه إليه بالعبارات التي من شأنها أن تستولي على القلوب، و تسترعي الانتباه و تفتح القلب لتلقّي الخطاب ، ففي قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [2]. يقول ابن عاشور : " و أضاف (قوم) إلى ضميره للتّحبيب و التّرقيق لاستجلاب اهتدائهم . "

ـــ التّعريض :

التّعريض هو المخاطبة بالإشارة ، و لا يستلزم من ذلك أن تكون الإشارة حسيّة ، أي باليد أو بشيء آخر ، إذ قد يكون ذلك بالكلام ، عندما يساق هذا الكلام إلى شخص بعينه ، و يكون المراد بذلك من هو واقع في الأمر نفسه ، فيمتثل عند سماع الخطاب ، أو قد يتنبّه إن لم ينته . وفي قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [3] يقول ابن عاشور : " و الإشارة بـــ (ذلكم) إلى اسم الجلالة في قوله :﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

[1] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج25، ص : 89 .

[2] - الأعراف : 59.

[3] - غافر : 62.

﴿لِتَسْكُنُواْفِيهِ﴾ [1] و عدل عن الضّمير إلى اسم الإشارة لإفادة أنّه تعالى معلوم متميّز بأفعاله المنفرد بها بحيث إذا ذُكرت أفعاله تُميّز عمّا سواه فصار كالمشاهد المشار إليه ، فكيف تلتبس إلهيّته بإلهيّة مزعومة للأصنام فليس للذين أشركوا شبهة تلبس عليهم ما لا يفعل مثل فعله،أي:ذلكم ربّكم لا غيره و في اسم الإشارة هذا تعريض بغباوة المخاطَبين الذين التبست عليهم حقيقة إلهيّته."[2]

و إضافة﴿ صُدُورَ ﴾ إلى﴿قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ من قوله تعالى :﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [3] دون ضمير المخاطَبين يدلّ على أنّ الذين يشفي الله صدورهم بنصر المؤمنين طائفة من المؤمنين المخاطبين بالقتال ، و هم أقوام كانت في قلوبهم إحَن على بعض المشركين الذين آذَوْهم و أعانوا عليهم ، و لكنّهم كانوا محافظين على عهد النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم فلا يستطيعون مجازاتهم على سوء صنيعهم ،و كانوا يودّون أن يؤذن لهم بقتالهم ، و في ذكر هذا الفريق زيادة تحريض على القتال بزيادة ذكر فوائده ، و بمقارنة حال الرّاغبين فيه بحال المحرّضين عليه الملحوح عليهم الأمر بالقتال.[4]

و في تعريف اليوم بحصول بياض وجوه و سواد وجوه من قوله تعالى :﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [5] ، فيه تهويل لأمره ، و تشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضّة و الوجوه المسودّة : ترعيبا لفريق و ترغيبا لفريق آخر . و الأظهر أنّ علم السّامعين بوقوع تبييض

---

[1] - غافر :61.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 24، ص : 187 .

[3] - التوبة :14 - 15.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 136 .

[5] - آل عمران : 106.

وجوه و تسويد وجوه في ذلك اليوم حاصل من قبل : في الآيات النّازلة قبل هذه الآية.[1]

و الإضافة في قوله :﴿أَيْمَٰنُكُم﴾و قوله :﴿ فَتَيَٰتِكُمُ ﴾من قوله تعالى :﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [2] للتّقريب و إزالة ما بقي في نفوس العرب من احتقار العبيد و الإماء و التّرفّع عن نكاحهم و إنكاحهم ، و كذلك وصف المؤمنات ،و إن كنّا نراه للتّقييد فهو لا يخلو مع ذلك من فائدة التّقريب ، إذ الكفاءة عند مال تعتمد الدّين أوّلا.[3]

و إضافة الصّواع إلى الملك في قوله تعالى :﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ [4] لتشريفه ، و تهويل سرقته على وجه الحقيقة ، لأنّ شؤون الدّولة كلّها للملك . و يجوز أن يكون أطلق الملك على يوسف عليه السّلام تعظيما له.[5]

5 ــ التّعريف باسم الإشارة :

لقد كثر التّعبير باسم الإشارة في القرآن الكريم ، و تنوّعت أغراضه البلاغيّة ، الأمر الذي جعل ابن عاشور يستكشف كثيرا من هذه الأغراض و يذكر منها :

ــ إظهار الرّفعة :

يرى ابن عاشور أنّ الإتيان باسم الإشارة في مطلع سورة البقرة من قوله تعالى :﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 2 ، ج 4 ، ص : 44 .

[2] - النّساء : 26.

[3] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج5 ، ص : 14 .

[4] - يوسف : 72.

[5] - التّحرير و التّنوير :م 6 ، ج13 ، ص : 28 .

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]: " إنّما هي إشارة للبعيد لإظهار رفعة هذا القرآن لجعله بعيد المنزلة ، و قد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشّريف بالشّيء المرفوع في عزّة المنال لأنّ الشّيء النّفيس عزيز على أهله فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صونا له عن الدّروس و تناول كثرة الأيدي و الابتذال ، فالكتاب هنا لّما ذكر في مقام التّحدّي بمعارضته بما دلّت عليه حروف التّهجّي في " ألَمِ" كان كالشّيء العزيز المنال بالنّسبة إلى تناولهم إيّاه بالمعارضة أو لأنّه لصدق معانيه و نفع إرشاده بعيد عمّن يتناوله بهجر القول كقولهم :﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾[2]، و قولهم : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾.[3]

و لا يرد على هذا قوله تعالى :﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾[4] فذلك للإشارة إلى كتاب بين يدي أهله لترغيبهم في العكوف عليه والاتّعاظ بأوامره و نواهيه[5].

و قد يشار باسم الإشارة الذي يفيد القرب ، و يكون المراد إظهار قلّة الاكتراث كقول قيس بن الخطيم :

مَتَى يَأتِ هَذَا المَوتُ لاَ يُلْفِ حَاجَةً   لِنَفْــسِي إذا قَــضَيْــتُ قَــضَاءَهَا[6]

ـــ الحثّ على النّظر :

[1] - البقرة : 2.

[2] - هود : 13 .

[3] - الفرقان : 15.

[4] - الأنعام : 155.

[5]- التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ،220-221

[6] - ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق : د ناصر الدّين الأسد ، دط ، دار صادر ـــ بيروت ـــ ، دت ، ص :

قوله تعالى :﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [1] المقصود فيه من الإشارة إمّا الحثّ على النّظر في آيات القرآن ليتبيّن لهم أنّه من عند الله و يعلموا صدق من جاءهم به . و إمّا إقناعهم من الآيات الدّالّة على صدق النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم بآيات الكتاب الحكيم فإنّهم يسألون النّبيّ آية على صدقه ، و في الرّدّ عليهم قيل : ، أي ما هو آية واحدة بل آيات كثيرة ، فإنّ الإعجاز حاصل بكلّ سورة منه.[2]

ـــ التّنويه و التّعظيم :

و الإشارة في قوله: (فبذلك) من قوله تعالى :﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [3] للمذكور و هو مجموع الفضل و الرّحمة ، و اختير للتّعبير عنه اسم الإشارة لما فيه من الدّلالة على التّنويه و التّعظيم مع زيادة التّمييز و الاختصار.[4]

ـــ كمال التّمييز لزيادة التّقرير :

جملة :﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ من قوله تعالى :﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [5] جيء في صدرها باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز لأنّهم امتروا في صفة الإلهيّة و ضلّوا فيها ضلالا مبينا ، فكانوا أحرياء بالإيقاظ بطريق

[1] - يونس : 1.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج11 ، ص : 81 .

[3] - يونس :58 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج11 ، ص : 204 .

[5] - يونس :3.

اسم الإشارة ، و للتّنبيه على أنّ المشار إليه حقيق بما سيذكر بعد اسم الإشارة من حيث إنّه اتّصف بتلك الأوصاف التي أشير إليه من أجلها ، فإنّ خالق العوالم بغاية الإتقان و المقدرة و مالك أمرها و مدبّر شؤونها و المتصرّف المطلق مستحقّ للعبادة .[1]

ــ التّنبيه على الاستحضار:

و الإشارة في المسند إليه في قوله :﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [2] للتّنبيه على استحضارهم باعتبار الأوصاف المتقدّمة البالغة غاية الخوف من الله تعالى و المبادرة إلى طلب مرضاته ، ليعرف أنّهم أحرياء بمدلول المسند الوارد بعد الإشارة.[3]

و جيء بالإشارة في قوله :﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ من الآية :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [4] لاستحضارهم كأنّهم بحيث يشار إليهم و للتّنبيه على أنّهم أحرياء بما سيأتي من الخبر و هو قوله : و عطفت هذه الجمل و لم تفصل لأنّ المراد من التي قبلها وعيد في الدّنيا و هذه في وعيد الآخرة.[5]

ــ تتريل المعقول مترلة المحسوس :

و الإشارة إلى الشّريعة في قوله تعالى :﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ تتريل للمعقول مترلة المحسوس لبلوغه من الوضوح للعقول حدّا لا يخفى فيه إلاّ عمّن لا يُعدّ مدركا.[6]

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج11 ، ص : 88 .

[2] - النّساء : 17.

[3] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج4 ، ص : 280 .

[4] - آل عمران : 10.

[5] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج3 ، ص : 173 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 6 ، ج13 ، ص : 65 .

ـــ الاستحقاق :

و كذلك الإشارة بقوله :﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ ﴾ [1] للتّنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل ما سبق اسم الإشارة من قولهم:﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ ﴾ [2] بعد أن رأوا دلائل الخلق الأوّل فحقّ عليهم بقولهم ذلك حكمان : أحدهما أنّهم كفروا بربّهم لأنّ قولهم :﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ ﴾ لا يقوله إلاّ كافر بالله . أي بصفات إلهيّتة ، إذ جعلوه غير قادر على إعادة خلقه ، و ثانيهما استحقاقهم العذاب.[3]

ب ـــ التّنكير :

قد يكون التّنكير للإفراد أي تنكير المسند إليه للقصد إلى فرد غير معيّن ، ممّا يصدق عليه اسم الجنس ، أو النّوعيّة ، أي القصد إلى نوع منه ، أو التّعظيم ،أو التّحقير ،و يعني أنّه بلغ في ارتفاع شأنه أو انحطاطه مبلغا لا يمكن أن يُعرف ، أو غير هذا ممّا سنذكر بعضه.[4]

1 ـــ التّعظيم :

و من ذلك قوله تعالى :﴿ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا ﴾ [5] و معنى أمرا هنا الشّيء العظيم ، فتنكيره للتّعظيم ، أو يجعل بمعنى الشّأن و هم لا يطلقون (الأمر) بهذا المعنى إلاّ على شيء مهمّ .[6]

---

[1] - الرّعد : 5.

[2] - الرّعد : 5.

[3] - التّحرير و التّنوير :م 6 ، ج13 ، ص : 90 .

[4] - المطوّل : 234 .

[5] - الأنفال :42.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج10 ، ص : 20 .

و كذلك تنكير كلمة (قربة) من قوله تعالى :﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ [1] لعدم الدّاعي إلى التّعريف ، أو لأنّ التّنكير قد يفيد التّعظيم.[2]

و تنكير (مغفرة) من قوله تعالى :﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [3] و وصلها بقوله : ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ مع تأتّي الإضافة بأن يقال إلى مغفرة ربّكم ، لقصد الدّلالة على التّعظيم .[4]

2 ـــ النّوعيّة :

تنكير ﴿قَوۡمًا﴾ في قوله تعالى:﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [5] للنّوعيّة إذ لا تَعيُّنَ لهؤلاء القوم ضرورةَ أنّه معلّق على شرط عدم النّفير ، و هم قد نفروا لّما استُنفروا إلاّ عددا غير كثير و هم المخلّفون.[6]

و التّنكير في قوله:﴿رُشۡدٗا﴾ منقوله :﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [7] تنكير النّوعيّة ، و معناه إرادة نوع الماهية لأنّ المواهي العقليّة متّحدة لا أفراد لها و إنّما أفرادها اعتباريّة باعتبار تعدّد المحالّ أو تعدّد المتعلّقات ، فرشد زيد غير رشد عمرو و الرّشد

---

[1] - التّوبة :99.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج11، ص : 16 .

[3] - آل عمران : 133.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 2 ، ج4، ص : 89 .

[5] - التّوبة :39 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج10 ، ص : 200 .

[7] - النّساء : 6 .

في المال غير الرّشد في سياسة الأمّة ، و في الدّعوة إلى الحقّ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴾[1] و قال عن قوم شعيب :﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[2] . و ماهية الرّشد هي انتظام الفكر و صدور الأفعال على نحوه بانتظام ، و قد علم السّامعون أنّ المراد هنا

الرّشد في التّصرّف المالي فالمراد من النّوعيّة نحو المراد من الجنس ، و لذلك ساوى المعرّف بلام الجنس النّكرة.[3]

3 ـــ التّنويع :

و التّنكير في﴿ رِضْوانٌ﴾ من قوله تعالى :﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[4] للتّنويع يدلّ على جنس الرّضوان ، و إنّما لم يقرن بلام تعريف الجنس ليتوسّل بالتّنكير إلى الإشعار بالتّعظيم فإنّ رضوان الله تعالى عظيم.[5]

4 ـــ الجنس :

و منه قوله تعالى :﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِى عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾[6] فظاهر تنكير (عليم) أن يراد به الجنس فيعمّ كلّ موصوف بقوّة العلم إلى أن ينتهي إلى علم الله تعالى . فعموم هذا الحكم بالنّسبة إلى المخلوقات لا إشكال فيه ، و يتعيّن تخصيص هذا العموم بالنّسبة إلى الله تعالى بدليل العقل إذ ليس فوق الله عليم .

[1] - يوسف : 76.

[2] - هود : 97.

[3] - التّحرير و التّنوير :م 2 ، ج4، ص : 243 .

[4] - التّوبة :72.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج10 ، ص : 264 .

[6] - التّوبة :72.

و قد يحمل التّنكير على الوحدة و يكون المراد عليم واحد فيكون التّنكير للوحدة و التّعظيم و هو الله تعالى فلا يحتاج إلى التّخصيص.[1]

ثالثا : الإفراد و التّثنية و الجمع :

ورود كلمات القرآن بالإفراد مرّة ، و بالتّثنية مرّة أخرى ، و بالجمع كرّة ثالثة ، أمر يسترعي الانتباه و يدعو إلى التّسآل : لم أفرد هذا اللّفظ في هذا الموضع ؟ ، و لم ثُنّي في موضع آخر ؟،و لاشكّ أنّ لكلّ مقام مقاله الذي يناسبه ، إذ لم تجئ الأمور هكذا اتّفاقا أو اعتباطا،و هذا ما حاول الدّارسون لكتاب الله تفسيره و الوقوف على سرّه.

1 ـــ إفراد اليمين و جمع الشّمائل :

و لعلّ ابن عاشور من خيرة من تصدّى لذلك ، ففي قوله تعالى :﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [2] يفسّر الآية بأنّ قوله : " عن اليمين و الشمائل " أي عن جهات اليمين وجهات الشّمائل مقصود به إيضاح الحالة العجيبة للظّلّ ، إذ يكون عن يمين الشّخص مرّة و عن شماله أخرى ، أي إذا استقبل جهة ما ثمّ استدبرها.

و ليس المراد خصوص اليمين و الشّمال بل كذلك الأمام و الخلف .

و أفرد اليمين لأنّ المراد به جنس الجهة كما يُقال المشرق . و جمع " الشّمائل " مراد به تعدّد جنس جهة الشّمال بتعدّد أصحابها ، كما قال : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [3] ، ثمّ يقول : "

[1] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج13 ، ص : 33 .

[2] - النّحل : 48.

[3] - المعارج : 40 .

فالمخالفة بالإفراد و الجمع تفنّن ." [1] و أمّا ابن القيّم فيذهب إلى أنّ إفراد الشّمال في آية الواقعة و هي قوله تعالى :﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ [2] مقصود به أهل هذه الجهة و مصيرهم و مآلهم إلى جهة واحدة و هي جهة الشّمال مستقرّ أهل النّار ، و النّار من جهة الشّمال فلا يحسن مجيئها مجموعة لأنّ الطّرق الباطلة و إن تعدّدت فغايتها المردّ إلى طريق الجحيم ، و هي من جهة الشّمال ... ثمّ يقول :" و قد قال بعض النّاس إنّ الشّمائل إنّما جُمعت في الظِّلال و أفرد اليمين لأنّ الظّلّ حين ينشأ أوّ ل النّهار يكون في غاية الطّول يبدو كذلك ظلاّ واحدا من جهة اليمين ، ثمّ يأخذ في النّقصان ، و أمّ إذا أخذ في جهة الشّمال فإنّه يتزايد شيئا فشيئا ، و الثّاني منه غير الأوّل فلمّا زاد منه شيئا فهو غير ما كان قبله ، فصار كلّ جزء منه كأنّه ظلّ فحسُن جمع الشّمائل في مقابلة تعدّد الظّلال". [3] فليس الأمر تفنّنا فحسب كما ذهب إليه ابن عاشور ، و إنّما السّرّ في ذلك ما قال به ابن القيّم .

2 ـــ إفراد المغرب والمشرق:

و أمّا إفراد المشرق و المغرب في سورة المزّمّل فلمناسبة الأمر بذكره في اللّيل و ذكره في النّهار في قوله تعالى :﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [4] فاللّيل و النّهار هما وقتا ابتداء غياب الشّمس و طلوعها ، وذلك يُشعر بامتداد كلّ زمان إلى أن يأتي ضدّه ، فيصحّ أن يكون المشرق و المغرب جهتي الشّروق و الغروب فيكون لاستيعاب جهات الأرض ، أي ربّ جميع العالم ، و ذلك يشعر بوقتي الشّروق و الغروب .

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص:169 .

[2] - الواقعة : 41 .

[3] - بدائع الفوائد : شمس الدّين محمّد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة ، دط ، دار الفكر، دت ، 1 / 121 .

[4] - المزّمّل : 8 - 9 .

و يصحّ أن يراد بِهما وقتا الشّروق و الغروب ، أي مبدأ ذيْنك الوقتين ، و منتهاهما كما يقال : سبّحوا لله كلّ مشرق و مغرب ، و كما يقال صلاة المغرب.[1]

3 ــ تثنية المشرق و المغرب و جمعهما:

و إذا سلّمنا بأنّ المشرق و المغرب هما جهتا الشّروق و الغروب ، فإنّ التّثنية في قوله تعالى :

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [2] مقصود بها طلوع الشّمس و غروبها باعتبار أنّ الشّمس تطلع في فصلي الشّتاء و الرّبيع من سمت وفي فصلي الصّيف و الخريف من سمت آخر ، و بمراعاة وقت الطّول ووقت القصر وكذلك غروبها ، و هي فيما بين هذين المشرقين و المغربين ينتقل طلوعها و غروبها في درجات متقاربة ، فقد يُعتبر ذلك فيقال المشارق و المغارب ،كما في آية سورة المعارج ، و يرى ابن عاشور أنّ من زعم أنّ تثنية المشرقين و المغربين لمراعاة مشرق الشّمس و القمر ، و كذلك تثنية المغربين ، أنّه لم يغص على معنى كبير.[3] و فات ابن عاشور أن يذكر مناسبة كلّ استعمال لموضعه الذي ورد فيه ، و أمّا ابن القيّم فقد اعتدّ بنفسه أنّه أوّل من نبّه عليه ، فذهب إلى أنّ لفظي "المشرق" و "المغرب" قد ثُنّيا في سورة "الرّحمن" ، لأنّ هذه السّورة بُنيت على المزدوجات من أوّلها إلى آخرها ، و أمّا إفراد اللّفظين في سورة المزّمّل فلما تقدّمهما من ذكر اللّيل و النّهار ، إذ أمر رسوله ــ صلّى الله عليه و سلّم ــ بقيام اللّيل ، ثمّ أخبره أنّ له في النّهار سبحا طويلا ، و لأنّ ظهور اللّيل و النّهار هما واحد فالنّهار أبدا يظهر من المشرق ، و اللّيل أبدا يظهر من المغرب فحسن بذلك أن يُفردا في هذا الموطن .و أمّا جمعهما في سورة المعارج:" فلمّا كان ذلك القسم واردا في سعة ربوبيّته و إحاطة قدرته ، و المقسم عليه أرباب هؤلاء و الإتيان بخير منهم ، ذكر المشارق و المغارب لتضمّنها انتقال الشّمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة و نقله ــ سبحانه ــ لها ، و تصريفها كلّ يوم في مشرق و مغرب ، فمن فعل هذا كيف يُعجزه أن يبدّل

---

[1] - التّحرير و التّنوير ، م 12 ، ج 29 ،ص : 267 .

[2] - الرّحمن : 17 .

[3] - التّحرير و التّنوير ، م 11 ، ج 27 ،ص : 247 .

هؤلاء و ينقل إلى أمكنتهم خيرا منهم".[1] و قد يرد ذكر الجهات مفردا ، و المقصود الإحاطة بالجهات لأنّهما الجهتان اللّتان يغلب حلُولُهُما[2] كما في قوله تعالى :﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [3] واستشهد على ذلك بقول قطَريّ بن الفجاءة:

فَلَقَدْ أَرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي .[4]

يريد من كلّ جهة .

4 ـــ إفراد الرّيح و جمعها :

و فيما يخصّ ذكر الرّياح في القرآن الكريم نجد ابن عاشور يُقرّ رأي من يقول إنّ هذه اللّفظة إذا أفردت فإنّها تنصرف إلى العذاب ، و إذا جمعت فإنّها تدلّ على الرّحمة و الخير و البركة ، ففي قوله تعالى :﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [5] ، يقول ابن عاشور : " إنّ الرّياح حيثما وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرّحمة كقوله تعالى : ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [6] ، و أكثر ذكر الرّيح المفردة أن تكون مقترنة بالعذاب كقوله تعالى :﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [7] ، و قد يُعترض على هذا أنّ الرّيح قد أفردت في القرآن و أريد بها الرّحمة ، فيردّ ابن عاشور بقوله : " و من قرأ بالإفراد فتقييدها بالنّشُر يزيل

---

[1] - بدائع الفوائد : 122 .

[2] - التّحرير و التّنوير ، م 12 ، ج 29 ،ص : 177 .

[3] - المعارج : 36 – 37 .

[4] - شعر الخوارج ، د . إحسان عبّاس ، ط2 ، دار الثّقافة ـــ بيروت ، 1974 م ، ص : 109 .

[5] - الأعراف : 57.

[6] - الحجر : 22.

[7] - الأحقاف : 27.

الاشتراك أي الإيهام . و التّحقيق أنّ التّعبير بصيغة الجمع قد يراد به تعدّد المهابّ ، أو حصول الفترات في الهبوب . و أنّ الإفراد قد يراد به أنّها مدفوعة دفعة واحدة قويّة لا فترة بين هبّاتها."[1]

5 ــ إفراد السّمع و جمع القلوب:

ويُرجع ابن عاشور إفراد السّمع ، وجمع القلوب و الأبصار في قوله تعالى :﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2] إمّا لأنّه أُريد منه المصدر الدّالّ على الجنس ، إذ لا يطلق على الآذان سمع ، ألا ترى أنّه جمع لّما ذكر الآذان في قوله تعالى :﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾[3] ، و قوله :﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾[4] فلمّا عبّر بالسّمع أفرد لأنّه هو اسم لا مصدر ، و إمّا لتقدير محذوف ، أي و على حواسّهم أو جوارح سمعهم .[5]

و قد سبق ابن عاشور إلى هذا الرّأي كلّ من السّيوطي[6] ، و أبو حيّان[7] ، و الزّمخشري[8] ،إلاّ أنّ أنّ ابن عاشور زاد عليهم فسجّل بعض اللّطائف البلاغيّة قائلا : " و قد تكون في إفراد السّمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن ، هي أنّ القلوب كانت متفاوتة و اشتغالها في أمر الإيمان و الدّين مختلف باختلاف وضوح الأدلّة، و بالكثرة و القلّة ، و تتلقّى أنواعا كثيرة من الآيات فلكلّ

---

[1]- التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8، ق 2 ، ص : 179 .

[2]- البقرة : 7.

[3] - البقرة : 19 .

[4] - فصّلت : 50 .

[5]- التّحرير و التّنوير ، م 1 ، ج 1 ، ص : 255 .

[6]- الإتقان في علوم القرآن : 2 / 301 .

[7] - البحر المحيط : أثير الدّين أبو عبد الله محمّد بن يوسف أبو حيّان الأندلسيّ ، ط1 ، مطبعة السّعادة ــ مصر 1328 هــ ،1/ 46 .

[8] - الكشّاف : 1 / 92 .

عقل حظّه من الإدراك ، و كانت الأبصار أيضا متفاوتة التّعلّق بالمرئيّات التي فيها دلائل الوحدانيّة في الآفاق ، و في الأنفس التي فيها دلالة ، فلكلّ بصر حظّه من الالتفات إلى الآيات المعجزات و العبر و المواعظ ، فلمّا اختلفت أنواع ما تتعلّق به جمعت ، و أمّا الأسماع فكانت تتعلّق بسماع ما يلقى إليها من القرآن ، فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعا متساويا و إنّما يتفاوتون في تدبّره ، و التّدبّر عمل العقول فلمّا اتّحد تعلّقها بالمسموعات جُعلت سمعا واحدا .

و إطلاق أسماء الجوارح و الأعضاء إذا أرِيد به المجاز عن أعمالها و مصادرها جاز في إجرائه على غير المفرد إفراده و جمعه و قد اجتمعا هنا ، فأمّا الإطلاق حقيقة فلم يصحّ ."[1] و لعلّ ابن عاشور قد استفاد ممّا قاله السّيوطي عندما قرّر بأنّ السّمع في أصله مصدر ، و المصادر لا تجمع فلمح الأصل ، و بأنّ مدركات السّمع نوع واحد و هو الأصوات ، أمّا مدركات القلوب و الأبصار فألوان شتّى و أنواع مختلفة ، فأشير بالجمع و الإفراد متعلّق كل .[2]

و يستدلّ لذلك بقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [3] ، و كذلك بقوله تعالى :﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴾[4] ، و كذلك بقوله تعالى :﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[5] . أمّا إذا كانت مضافة إلى مفرد ، أو دلّ السّياق على أنّ المخاطَب أو المتحدَّث عنه فرد واحد ، فإنّ البصر و الفؤاد يردان مفردين .[6] كما في قوله

[1]- التّحرير و التّنوير ، م 1 ،ج 1 ، ص :256 .

[2]- الإتقان في علوم القرآن : 301 .

[3] - الأنعام : 46 .

[4] - الأحقاف : 26.

[5] - النّحل : 108 .

[6]- من بلاغة النّظم القرآني: د. بسيوني عبد الفتّاح فيّود ، ط1 ، مطبعة الحسين الإسلاميّة ، 1413 هـــ / 1992 م ، ص : 23 .

تعالى :﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] ، و كذلك قوله :﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[2]. و كذلك قوله تعالى : ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[3] ، و كذلك قوله :﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[4] ، لأنّ المراد بصر فرد واحد، فلا يتأتّى الجمع حينئذ

و كذا إذا أريد الدّلالة على السّرعة كما في قوله تعالى:﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[5] فإنّ الغرض من التّشبيه الدّلالة على سرعة الوقوع ، و الذي يناسب ذلك لفظ لفظ " البصر " لا " الأبصار "[6] .

7 ــ الكناية عن مطلق التّكرير:

و من الألفاظ التي استعملت مفردة و مثنّاة لفظ الكرّة ، أمّا مفردة ففي قوله تعالى :﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[7] ، و كذلك قوله تعالى :﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ﴾[8] و كذلك قوله تعالى :﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[9]
فذكر الكرّة الواحدة في هذه الآيات دالّ على تمنّي هؤلاء الرّجوع إلى الدّنيا رجعة واحدة كي

[1] - ق : 22.
[2] - الجاثية : 23.
[3] - النّجم :17.
[4] - الإسراء : 36.
[5] - النّحل : 77.
[6]- من بلاغة النّظم القرآني: 30 .
[7] - الشّعراء : 102 .
[8] - البقرة : 167.
[9] - النّازعات : 12.

يُبدوا من أنفسهم عكس ما ظهر منها ، و أمّا تثنية هذا اللّفظ فقد وردت في قوله تعالى:﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [1] يرى ابن عاشور : : " أنّ تثنية كرّة و هي المرّة عبّر عنها هنا بالكرّة مشتقّة من الكرّ و هو العود لأنّها عود إلى شيء بعد الانفصال عند كرّة المقاتل يحمل على العدوّ بعد أن يفرّ فرارا مصنوعا .

و إيثار لفظ " كرّتين " في هذه الآية دون مرادفة نحو مرّتين و تارتين لأنّ كلمة كرّة لم تغلب إطلاقا على عدد الإثنين فكان إيثارها في مقام لا يراد فيه اثنين أظهر في أنّها مستعملة في مطلق التّكرير دون عدد اثنين أو زوج ، و هذا من خصائص الإعجاز ، ألا ترى أنّ مقام إرادة عدد الزّوج كان مقتضيا تثنية مرّة في قوله تعالى:﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [2] لأنّه أظهر في إرادة العدد تداولا و تثنية كرّتين ليس المراد بها عدد الاثنين الذي هو ضعف الواحد ، إذ لا يتعلّق غرض بخصوص هذا العدد و إنّما التّثنية مستعملة كناية عن مطلق التّكرير ، فإنّ من استعمالات صيغة التّثنية في الكلام أن يراد بها التّكرير ، و ذلك كما في قوله : " لبّيك و سعديك " يريدون تلبيّات كثيرة و إسعادا كثيرا.و يوافق ابن عاشور النّيسابوري في أنّ معنى (كرّتين) أي ارجع البصر و كرّر النّظر أبدا إلاّ أنّ يزيد عليه قوله : " قد أمرناك بذلك مرّتيْن ".[3] و مثله ابن الجوزي الذي فسّر " كرّتين" بمرّة بعد مرّة .[4]

ثمّ يقول : " و أصل استعمال التّثنية في معنى التّكرير أنّهم اختصروا بالتّثنية تعداد ذكر الاسم تعدادا

---

[1] - الملك : 3 - 4 .

[2] - البقرة : 229.

[3] - إيجاز البيان عن معاني القرآن : محمود بن أبي الحسن النّيسابوري ، دراسة و تحقيق : د . حنيف بن حسن القاسمي ،ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، 1995 م ، ص : 825 .

[4] - زاد المسير في علم التّفسير :أبو الفرج جمال الدّين عبد الرّحمن بن علي بن محمّد بن الجوزيّ ، ط1 ، دار ابن حزم ، 1423 هـ / 2002 م ، ص : 1456 .

مشيرا إلى التّكثير . و قريب من هذا قولهم : وقع كذا كم من مرّة ، أي مرّات عديدة ."[1]

7ـــ الإيذانُ بالقلّة:

و في قوله تعالى :﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾[2] ، يقول ابن عاشور : " إنّ الوصف بمعدود مؤذن بالقلّة لأنّ المراد بالمعدود الذي يعدّه النّاس إذا رأوه أو تحدّثوا عنه ، و قد شاع في العرف و العوائد أنّ النّاس لا يعمدون إلى عدّ الأشياء الكثيرة دفعا للملل أو لأجل الشّغل سواء عرفوا الحساب أو لم يعرفوه لأنّ المراد العدّ بالعين و اللّسان لا العدّ بجمع الحسابات إذ ليس مقصودا هنا . و تأنيث معدودة و هو صفة " أيّاما " مراعى فيه تأويل الجمع بالجماعة ، و هي طريقة عربيّة مشهورة

و لذلك كثر في صفة الجمع إذا أنّثوها أن يأتوا بصيغة الإفراد إلاّ إذا أرادوا تأويل الجمع بالجماعات ." كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾.[3]

8ـــ المخالفة بين الجنسين:

و يرى ابن عاشور أنّ المخالفة بين اسمي الجنسين من قوله تعالى:﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾[4] في حكاية كلام الكافرين إذ جيء بـــ " شافعين " جمعا ، و بـــ " صديق " مفردا لأنّهم أرادوا بالشّافعين الآلهة الباطلة و كانوا يعهدونهم عديدين فجرى على كلامهم ما هو مرتسم في تصوّرهم ، و أمّا الصّديق فإنّه مفروض جنسه دون عدد أفراده ، إذ لم يعنوا عددا معيّنا ، فبقي على أصل نفي الجنس ، و على الأصل في الألفاظ إذ لم يكن داع لغير الإفراد . و الذي يبدو أنّه

[1]- التّحرير و التّنوير : م 12 ، ج 29 ، ص : 19-20 .

[2] - البقرة : 80.

[3] - آل عمران : 24.

[4] - الشّعراء : 100 - 101.

أوثر جمع " شافعين " لأنّه أنسب بصورة ما في أذهانهم كما تقدّم ، وأمّا إفراد " صديق " فلأنّه أريدَ أن يجرى عليه وصف " حميم " فلو جيء بالموصوف جمعا لاقتضى جمع وصفه

و جمع " حميم " فيه ثقل لا يناسب منتهى الفصاحة ، و لا يليق بصورة الفاصلة مع ما حصل في ذلك من التّفنّن الذي هو من مقاصد البلغاء .[1] و ربّما فيه إشارة إلى هول المطلع يوم القيامة ، إذ الشّعار يومئذ : نفسي نفسي ، لا أسألك إلاّ نفسي ، و قد يكون لعزّة الصّديق الحميم الذي لا يكاد يخلص للإنسان منه إلاّ واحد ، إن هو وُفّق في إحرازه.و يصدّق هذا الكلام قوله تعالى :

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[2]

[1]- التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 19 ،ص : 155 .

[2] - المعارج : 10.

الفصل الثّاني

بلاغة الجملة الخبريّة

تمهيد :

الخبر عند علماء البلاغة كلام يحتمل الصّدق و الكذب ، و لا قيمة للألفاظ مجرّدة حتّى تأتلف مع غيرها لتؤدّي معنى ما ، فإذا أفاد الخبر معلومة جديدة غير معهودة لدى المتلقّي سمّي المستفَاد من الكلام فائدة الخبر ، و إذا كان مضمون الخبر معلوما لدى المخاطَب سمّي لازم الفائدة ، و سمّي كذلك لأنّه يلزم من استفادة الجاهل الحكمَ من الخبر أن يستفيد علم المخبَر به .[1]

و للخبر أضربه فإذا كان مجرّدا عن المؤكّدات سمّي خبراً ابتدائيّا ، و إذا أكّد بمؤكّد واحد سمّي طلبيّا ، و إذا أكّد بمؤكّدين فما فوق سمّي إنكاريّا .

و قد يخرج الخبر عن هذين الغرضين إلى أغراض أخرى تفهم من السّياق و تُعرف بالقرائن اللّفظيّة أو الحالية.[2]

و نبّه ابن عاشور إلى أنّ الخبر إذا لم يكن مطابقا الواقع ، صيغ بلفظ يفيد عدم الصّحّة و التّخطئة كما في قوله تعالى :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] يقول ابن عاشور :«و في التّعبير بـــ (يقول) في مثل هذا المقام إيماء إلى أنّ ذلك غير مطابق للواقع لأنّ الخبر المحكيّ عن الغير إذا لم يتعلّق بذكر نصّه و حكِي بلفظ (يقول) ، أومأ ذلك إلى أنّه غير مطابق لاعتقاده أو أنّ المتكلّم يكذّبه في ذلك ».[4]

---

[1] - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : بهاء الدّين السّبكي ، تحقيق : د . عبد الحميد هنداوي ، ط1 ، المكتبة العصريّة ـــ بيروت ، 1423 هـــ / 2003 م ، 1 / 116 .

[2] - المعاني في ضوء أساليب القرآن : د . عبد الفتّاح لاشين ، ط4 ، دار الفكر العربيّ ، 1999 م ، ص : 90 – 91 .

[3] - البقرة :8 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ق 2 ، ص: 263 .

و قد يجيء الخبر جملة اسميّة ليدلّ على الثّبات كما من قوله تعالى :﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾[1] فالخبر جملة اسميّة تدلّ على معنى الثّبات ، أي ثابتٌ جمعُ الله النّاس لأجل ذلك اليوم ، فيدلّ على تمكّن تعلّق الجمع بالنّاس و تمكّن كون ذلك الجمع لأجل اليوم حتى لقّب ذلك اليوم يوم الجمع[2] في قوله تعالى :﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾[3]

و صيغ الخبر﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ من قوله تعالى :﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾[4] بالجملة الاسميّة : للدّلالة على أنّ إيمانهم يقتضي ثبات الأخوّة و دوامها ، تنبيها على أنّهم يعودون كالمؤمنين السّابقين من قبل في أصل الأخوّة الدّينيّة.[5]

و استكشف ابن عاشور نوعا من أنواع الخبر لم سيق أن عرفته العرب ، و ذلك قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[6] و كان يرى هذا أفاد أنّ من سواهم و هم المشركون لا بشرى لهم و لم يهدهم الله ، و لا ألباب لهم لعدم انتفاعهم بعقولهم و كان حاصل ذلك أنّ المشركين محرومون من حسن العاقبة بالنّعيم الخالد لحرمانهم من الطّاعة التي هي سببه .

و قد جاء نظم الكلام على طريقة مبتكرة في الخبر المهتمّ به ، بأن يؤكّد مضمونه الثّابت للخبر عنه بإثبات نقيض أو ضدّ ذلك المضمون لضدّ المخبر عنه ليتقرّر مضمون الخبر مرّتين ، مرّة بأصله

[1] - هود :103.
[2] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 12، ص : 161 .
[3] - التّغابن : 9.
[4] - التّوبة : 11.
[5] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 10، ص : 127 .
[6] - الزّمر :18.

و مرّة بنقيضه أو ضدّه ، لضدّ المخبر عنه[1] ،كقوله تعالى :﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ [2]

عقب قوله:﴿ هَٰذَا ذِكۡرٌۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴾ . [3]

أوّلا:لازم الفائدة:

قد يذكر الخبر في القرآن الكريم ، و ظاهره الإخبار ، إلاّ أنّه عند التّأمّل يتبيّن أنّ المراد من ذلك لازم المعنى ، أي المعنى البلاغي ، لا ظاهر الخبر ، و منه قوله تعالى:﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ [4] خبر مستعمل في لازم الفائدة.و هو أنّه يعلم أنّ وعد الله حقّ. [5] و كذلك قوله تعالى :﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [6] خبر مستعمل في لازم لازم فائدته على طريق الكناية ، أي نحن نعلم بأنّ الرّوم غلبت، فلا يهنكم ذلك و لا تطاولوا به على رسولنا و أوليائنا ، فإنّا نعلم أنّهم سيغلبون من غلبوهم بعد بضع سنين بحيث لا يُعدّ الغلب في مثله غلبا.[7]

و لازم المعنى قد يفيدة لطائف بلاغيّة متنوّعة ، نذكر منها:

ـــ التّأييس:

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 23، ص: 368 – 369 .

[2] - الزّمر :55.

[3] - الزّمر :49.

[4] - هود :45.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 12، ص : 84 .

[6] - الرّوم : 2 – 3 - 4.

[7] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 21، ص : 41 .

وذلك قوله :﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[1] و هو مثل قوله :﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾[2] خبر مستعمل في معناه الكنائيّ ، و هو لازم معناه ، يعني قبول الإسلام و الثّبات عليه و الاغتباط به ، لأنّ من أحبّ شيئا أسرع إليه فجاءه أوّلَ النّاس ، و هذا بمترلة فعل السّبق إذ يطلق في كلامهم على التّمكّن و التّرجّح كما قال النّابغة:

سَبَقْتَ الرِّجَالَ البَاهِشِينَ إلى العُلاَ   كَسَبْقِ الجَوَادِ اصْطَادَ قَبْلَ الطَّوَارِدِ [3]

لا يريد أنّه كان في المعالي أقدم من غيره لأنّ في أهل المعالي من هو أكبر منه سنّا ، و من نال العلا قبل أن يولد الممدوح ، و لكنّ أراد أنّه تمكّن من نوال العلا و أصبح الحائز له و الثّابت عليه.

و في الحديث : « **نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ**».[4] و هذا المعنى تأييس للمشركين من الطّمع في التّنازل لهم في دينهم و لو أقلّ تنازل.[5]

ــــ الاغتباط بالحال:

و الخبر في قوله تعالى :﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾[6] مستعمل في لازم معناه و هو الاغتباط بحالهم بحالهم و تنغيص أعدائهم بعلمهم برفاهية حالهم ، و التّورّك على الأعداء إذ كانوا يحسبوهم قد ضلّوا حين فارقوا دين آبائهم ، و أنّهم حرموا أنفسهم طيّبات الدّنيا بالانكفاف عن المعاصي ، و هذه معان متعدّدة كلّها من لوازم الإخبار ، و المعاني الكنائيّة لا يمتنع تعدّدها لأنّها تبع للّوازم

---

[1] - الأنعام :163.

[2] - الأنعام :163.

[3] - ديوان النّابغة الذّبياني،شرح و تقديم :عبّاس عبد السّاتر ،دار الكتب العلميّة – بيروت ، ط3 ، 1416 هـــ / 1996 م ، ص : 41 . و معنى الباهشين : أي المسرعين الذين يمدّون أيديهم ليتناولوه . الطّوارد : الملحق به .

[4] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : عليّ بن سلطان محمّد القاري ، تحقيق الشّيخ : جمال عيتاني ، دط ، دار الفكر ، 1422 هـــ / 2002 م ، كتاب الصّلاة ـــ باب الجمعة ـــ ، و الحديث من رواية أب هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ 3 / 397 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق1 ، ص: 204 .

[6] - الأعراف :44.

العقليّة ، و هذه الكناية جمع فيها بين المعنى الصّريح و المعاني الكنائيّة ، و لكنّ المعاني الكنائيّة هي المقصودة إذ ليس القصد أن يعلم أهل النّار بما حصل لأهل الجنّة و لكنّ القصد ما يلزم عن ذلك .و أمّا المعاني الصّريحة فمدلولةٌ بالأصالة عند عدم القرينة المانعة.[1]

ــــ التّثبيت و التّأييد:

و تأكيد الخبر بـــ (إنّ) من قوله تعالى :﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [2] للاهتمام به ، و تأكيد الضّمير المتّصل بضمير منفصل في قوله :﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لتقرير مدلول الضّمير تأكيدا لفظيّا للتّنبيه على عظمة ذلك الضّمير ليفضي به إلى زيادة الاهتمام بالخبر إذ يتقرّر أنّه فِعْلُ مَن ذلك الضّميرانِ له ، لأنّه لا يفعل إلاّ فعلا منوطا بحكمة و أقصى الصّواب .

و هذا من الكناية الرّمزيّة ، و بعد فالخبر بمجموعه مستعمل في لازم معناه و هو التّثبيت و التّأييد فمجموعه كناية رمزيّة.[3]

ــــ الإعلام:

و من ذلك قوله تعالى :﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [4] و الكلام موجّه إلى النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم ، و ليس هو من قبيل الالتفات . و المقصود لازم الخبر و هو إعلام النّبيّ عليه

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق2 ، ص: 136 .

[2] - الإنسان :23 - 24.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 29 ، ص: 402 .

[4] - الأحزاب : 17.

الصّلاة و السّلام ببطلان تحيّلاتهم و أنّهم لا يجدون نصيرا غير الله ، و قد حرمهم الله النّصرَ لأنّهم لم يعقدوا ضمائرهم على نصر دينه و رسوله.[1]

ـــ التّهديد :

كما في قوله تعالى :﴿ **لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ** ﴾[2] فهو تهديد ، و هو يؤذن بأنّ هذا القول جراءة عظيمة ، و إن كان القصد منها التّعريض ببطلان كلام القرآن ، لأنّهم أتوا بهاته العبارة بدون محاشاة ، و لأنّ الاستخفاف بالرّسول و قرآنه إثم عظيم و كفر على كفر

و لذلك قال تعالى :﴿ **لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ** ﴾ المستعمل في لازم معناه ، و هو التّهديد على كلام فاحش ، إذ قد علم أهل الأديان أنّ الله يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصّدور ، فليس المقصود إعلامهم بأنّ الله علم ذلك بل لازمه.[3]

ـــ إنذار السّامعين :

و ذلك قوله تعالى:﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ** ﴾[4] لمّا أنذرهم بتوقّع العذاب أعقبه بالاستشهاد على وقوع العذاب بأمم من قبل ، ليعلم هؤلاء أنّ تلك سنّة الله في الذين ظلموا بالشّرك .

و هذا الخبر مستعمل في إنذار السّامعين من المشركين على طريقة التّعريض ، و هم المخاطبون

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 21، ص : 293 .

[2] - آل عمران :181.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 2، ج 4، ص: 183 .

[4] - الأنعام :42 .

بالقول المأمور به في الجملة التي قبلها.[1]

ـــ الشّكاية و التّمهيد :

و قوله تعالى :﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [2] خبر مستعمل في لازم معناه و هو الشّكاية و التّمهيد لطلب النّصر عليهم لأنّ المخاطَب به عالم بمدلول الخبر .[3] و ذلك ما سيفضي إليه بقوله :﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [4] الآيات.

ـــ التّعريض بالتّهديد :

و منه قوله تعالى :﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ من الآية الكريمة:﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [5] فهي تعريض بالتّهديد لهؤلاء الآخرين ، فالخبر مستعمل في معناه الكنائيّ ، و هو تعقُّبهم و الإغراء بهم ، و تعريض بالامتنان على المسلمين بأنّهم بمحلّ عناية الله فهو يحصي أعداءهم و ينبّههم إليهم.

و المقصود من الخبر هو تأكيد لازم معناه لا تحقيق الخبر و تأكيده ، إذ لا ينكره أحد.[6]

ثانيا: أضرب الخبر:

1 ـــ الجملة الطّلبيّة:

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص: 226 .

[2] - نوح :5 - 6.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 29 ، ص: 193 .

[4] - نوح :26.

[5] - الأنفال : 60 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 10، ص : 57 .

في قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [1] يقول ابن عاشور : « تأكيد الجملة بـــ (إنّ) لأنّ المخاطبين متردّدون في كونهما من شعائر الله ، و هم أميل إلى اعتقاد أنّ السّعي بينهما من أحوال الجاهليّة ، و في أسباب النّزول للواحديّ أنّ سؤالهم كان عام حجّة الوداع، [2] و بذلك كلّه يظهر أنّ هذه الآية نزلت بعد نزول آية تحويل القبلة بسنين ، فوضعها في هذا الموضع لمراعاة المناسبة مع الآيات الواردة في اضطراب الفرق في أمر القبلة و المناسك». [3]

و مثله قوله :﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ [4] هو ابتلاء تكليف و نهي ، كما دلّ عليه تعلّقه بأمر ممّا يفعل ، فهو ليس كالابتلاء في_ قوله :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ [5] و إنّما أخبرهم بهذا على وجه التّحذير . فالخبر مستعمل في معناه و لازم معناه ، و هو التّحذير . و يتعيّن أن يكون هذا الخطاب وُجّه إليهم في حين تردّدهم بين إمساك الصّيد و أكله ، و بين مراعاة حرمة الإحرام ، إذ كانوا محرمين بعمرة في الحديبيّة ، و قد تردّدوا فيما يفعلون ، أي أنّ ما كان عليه النّاس من حرمة إصابة الصّيد للمحرم معتدّ به في الإسلام أو غير معتدّ به . فالابتلاء مستقبل لأنّه لا يتحقّق معنى الابتلاء إلاّ من بعد النّهي و التّحذير . و وجود نون التّوكيد يعيّن المضارع للمستقبل ، فالمستقبل هو الابتلاء . و أمّا الصّيد و نوال الأيدي و الرّماح فهو حاضر. [6]

2 ـــ الجملة الإنكاريّة:

---

[1] - البقرة :158.

[2] - أسباب النّزول ، أبو الحسن عليّ بن أحمد الواحديّ النّيسابوريّ ، دراسة و تحقيق :د السّيّد الجميلي، مطبوعات ميموني للنّشر و التّوزيع ـــ الجزائر ، دط ، دت ، ص: 47 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 2 ، ق1 ، ص: 60 .

[4] - المائدة :64.

[5] - البقرة : 155.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص: 38 .

الخطاب في قوله تعالى :﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [1] موجّه إلى المشركين ابتداء ، و لذلك كان للتّأكيد بحرف (إنّ) موقعَه لردّ إنكار المشركين انفراد الله بالرّبوبية ، و إذ كان ما اشتملت عليه هذه الآية يزيد المسلمين بصيرة بعِظَم مجد الله و سعة ملكه ، و يزيدهم ذكرى بدلائل قدرته ، كان الخطاب صالحا لتناول المسلمين لصلاحية ضمير الخطاب لذلك ، و لا يكون حرف (إنّ) بالنّسبة إليهم سدى ، لأنّه يفيد الاهتمام بالخبر ، لأنّ فيه حظّا للفريقين .[2]

و يجوز أن تكون (إنّ) من قوله تعالى :﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [3] للتّأكيد ردّا لإنكارهم أن يكون الله أرسل رسلا للنّاس لأنّ المشركين أنكروا أنّ الله لا يرسل رسولا من البشر قال تعالى :﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [4]، فكان ردّ إنكارهم ذلك ردّا ردّا لإنكارهم رسالة محمّد صلّى الله عليه و سلّم فتكون جملة : مستأنفة.

و يجوز أن تكون (إنّ) لمجرّد الاهتمام بالخبر فتكون مغنية غناء التّسبّب فتفيد تعليلا ، فتكون جملة : ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تعليلا لجملة :﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي أنزلناه للإنذار لأنّ الإنذار شأننا.[5]

و الجملة قد تؤكّد بمؤكّدات كثيرة و لا تكون إنكارية ، و إنّما أكّدت الجملة لمعنى آخر و من

---

[1] - الأعراف :54 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق2 ، ص: 159 .

[3] - الدّخان : 3.

[4] - الأنعام : 91.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 279 .

قول الله تعالى :﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[1] بحرف التّوكيد و لامه و ضمير الفصل تصويرا لعظمة رزق الله تعالى.[2]

ج ــ تأكيد الخبر:

ويمكن أن تؤكّد الجملة ، و تنصرف إلى معان بلاغيّة نذكر بعضها:

ــ مزيد الاهتمام:

تأكيد الخبر بـــ(إنّ) و لام التّوكيد و صيغتي المبالغة في﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ من قوله تعالى :﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3] لمزيد الاهتمام به ترغيب للعصاة في التّوبة ، و طردا للقنوط من نفوسهم ، و إن عظمت ذنوبهم ، فلا يحسبوا تحديد التّوبة بحدّ ، إذا تجاوزته الذّنوب بالكثرة أو العظم لم تقبل منه توبة.[4]

ــ تحقيق الالتحاق :

تأكيد الخبربـــ (إنّ) في قوله تعالى :﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾[5] لتحقيق التحاقهم بالمشركين إذا أطاعوا الشّياطين ، و إن لم يدّعوا لله شركاء ، لأنّ تخطئة أحكام الإسلام تساوي الشّرك ، فلذلك احتيج إلى التّأكيد ، أو أراد : إنّكم لصائرون إلى الشّرك ، فإنّ الشّياطين تستدرجكم بالمجادلة حتى يبلغوا بكم إلى الشّرك ، فيكون اسم الفاعل مرادا به الاستقبال.[6]

---

[1] - الحجّ : 58.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 17، ص : 311 .

[3] - الأعراف :153.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 9 ، ص:121 .

[5] - الأنعام :128.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق1 ، ص: 42 .

ـــ **التّعجيب :**

تأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بـــ (إنّ) و لام الابتداء من قوله تعالى :﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾[1] مستعمل في التّعجيب من شأنهم بتنزيل السّامع غير المنكر لوقوع الخبر منزلة المنكر لأنّ وقوع ذلك ممّا شأنه أن لا يقع ، إذ كان الشّأن اتّباع ما يحبّه الرّسول صلّى الله عليه و سلّم أو التّفويض إليه ، و ما كان ينبغي لهم أن يكرهوا لقاء العدوّ ، و يستلزم هذا التّنزيل التّعجيب من حال المخبَر عنهم بهذه الكراهية فيكون تأكيد الخبر كناية عن التّعجيب من المخبر عنهم.[2]

ـــ **تعظيم النّعمة:**

التّأكيد في :﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾[3] بحرف التّوكيد و لامه الذي هو في الأصل لام قسم و بضمير الفصل مقصود به تعظيم النّعمة أداء للشّكر عليها بالمستطاع من العبارة.[4]

ـــ **إدخال الرّوع :**

و أكّد الخبر عن الوعيد في قوله تعالى :﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾[5] بحرف التّأكيد لإدخال الرّوع عليهم ،لأنّ المتوعّد إذا أكّد كلامه بمؤكّد فقد أذن بأنّه لا هوادة له في وعيده.[6]

ـــ **تعظيم النّعمة :**

---

[1] - الأنفال : 5.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 9 ، ص: 266 – 267 .

[3] - النّمل :16.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 238 .

[5] - الإنسان : 4.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 29 ، ص: 377 .

و التّأكيد في :﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[1] بحرف التّوكيد و لامه الذي هو في الأصل لام قسم و بضمير الفصل مقصود به تعظيم النّعمة أداء للشّكر عليها بالمستطاع من العبارة.[2]

ثالثا:الخبر مراد به الإنشاء :

و منه قوله تعالى :﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[3] فعلى قراءة الرّفع عند نافع و ابن عامر و يعقوب فهو استئناف[4] ، و هو كلام آنفُ لا ارتباط له بما قبله ، و هو تهديد للمشركين بأنّهم لا محيص لهم من عذاب الله لأنّه لّما قال:﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾[5] كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾[5] صار المعنى : و مِن آيات انفراده بالإلهيّة الجواري في البحر. و المشركون يجادلون في دلائل الوحدانيّة بالإعراض و الانصراف عن سماعها، فهدّدهم الله بأنْ أعلمهم أنّهم لا محيص لهم ، أي من عذابه ، فحذف متعلّق المحيص إبهاما له تهويلا للتّهديد لتذهب النّفس كلّ مذهب ممْكن فيكون قوله :﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ خبرا مرادا به الإنشاء و الطّلب فهو في قوّة : و ليعلم الذين يجادلون،أو اعلموا يا من تُجادلون ، و ليس خبرا عنهم لأنّهم لا يؤمنون بذلك حتى يعلموه.

و أمّا قراءة النّصب فهي عند سيبويه و جمهور النّحاة[6] على العطف على فعل مدخول للام التّعليل و تضمّن (أنْ) بعده . و التّقدير : لينتقم منهم و يعلم الذين يجادلون ... إلخ . و سمّوا هذه الواو

---

[1] - النّمل :16.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 238 .

[3] - الشّورى : 35.

[4] - إملاء ما منّ به الرّحمن من وجوه الإعراب و القراءات في جميع القرآن : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبريّ دار الفكر للطّباعة و النّشر ، دط ، 1414 هــ / 1993 م ، ص : 521 .

[5] - الشّورى :32.

[6] - إعراب القرآن : أبو جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل النّحّاس ؛ اعتنى به :الشّيخ خالد العلي ،ط 2، دار المعرفة – بيروت 1429 هــ / 2008 م ، ص : 930 .

واو الصّرف لأنّها تصرف ما بعدها عن أن يكون معطوفا على ما قبلها ، إلى أن يكون معطوفا على فعل متصيَّد من الكلام و هذا قول سيبويه في باب ما يرتفع بين الجزميْن و ينجزم بينهما[1]

و تبعه الزّمخشريّ في كشّافه ، و ذهب الزّجاج إلى أنّ الواو واو المعيّة التي تنصب الفعل المضارع بعدها بــ (أنْ) مضمرة.

و يجوز أن يجعل الخبر مستعملا في مقاربة المخبر به كقولهم : قد قامت الصّلاة ، فلمّا كان علمهم بذلك يوشك أن يحصل نُزّل مترلة الحاصل فأخبر عنهم به ، و على هذا الوجه يكون إنذارا بعقاب يحصل لهم و هو عذاب السّيف و الأسر يوم بدر.[2]

ــ الخبر في معنى الأمر :

قوله تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[3] خبر في معنى الأمر، و مجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر ، لأنّ الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشّيء الحاصل حتى إنّه يخبر عنه .[4] و قد جعله الخليل تحت ما يُعرف بالرّفع على فقدان النّاصب ،" و معناه : ألاّ تعبدوا إلاّ الله . فلمّا أسقط حرف النّاصب ارتفع ، فقال : لا تعبدون".[5]

تعبدون".[5]

---

[1] - الكتاب : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنبر،تحقيق و شرح : عبد السّلام هارون ، ط1،دار الجيل – بيروت ، د ت ، 3 / 85 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 107 – 108 .

[3] - البقرة : 83 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ق 2 ، ص: 582 .

[5] - كتاب الجمل في النّحو : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق : د . فخر الدّين قباوة ، ط 5 ، دون ذكر دار الطّبع ، 1416 هــ / 1995 م ، ص : 164 .

و منه قوله تعالى :﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [1] فجملة:﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ حالية ، و هي خبر مستعمل في معنى الأمر ، أي إنّما تكون منفعة الصّدقات لأنفسكم إن كنتم ما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله لا للرّياء و لا لمراعاة حال مسلم و كافر ، و هذا صالح لكلا المعنيين المحتمَلَيْن في الآية التي قبلها. و يجوز كونها معطوفة عليها إذا كان الخبر بمعنى النّهي ، أي لا تنفقوا إلاّ ابتغاء وجه الله . و هذا الكلام خبر مستعمل في الطّلب لقصد التّحقيق و التّأكيد ، و لذلك خولف فيه أسلوب ما حفّ به [2] من جملة :﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ ، و جملة:﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ .

ـــ الطّلب :

و منه قوله تعالى :﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [3] و الخطاب للنّبيّ صلّى الله عليه و سلّم المخاطَب بقوله :﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾. [4] و فعل المُضيّ مستعمل في معنى الأمر و هو من استعمال الخبر في معنى الطّلب للمبالغة كما يُستعمل الخبر في إنشاء صيغ العقود نحو : بِعْتُ . و المعنى : اعجبْ لهم .

---

[1] - البقرة :272.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 2، ج 3، ص : 72 .

[3] - الصّافّات : 12.

[4] - الصّافّات :11.

و جملة :﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ من قوله تعالى :﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[1] خبريّة مراد بها الأمر ، فالخبر مستعمل في الإنشاء و هو مجاز فيجوز جعله مجازا مرسلا مركّبا ، باستعمال الخبر في لازم معناه ، و هو التّقرير و الحصول .و هو الوجه الذي اختاره التّفتازانيّ في قوله تعالى : بأن يكون الخبر مستعملا في المعنى المركّب الإنشائيّ ، بعلاقة اللّزوم بين الأمر ، مثلا كما هنا ، و بين الامتثال ، حتى يقدّر المأمور فاعلا فيخبر عنه .[2] و قد لاحظ صاحب إعراب القرآن :" أنّه أضاف الثّلاثة إلى قروء ، و هي من جموع الكثرة ، لأنّه لمّا جمع المطلّقات ـــ و كان الواجب على كلّ منهنّ ثلاثة أقراء ـــ جمع القروء جمع كثرة ليتناسق الكلام ، أو أنّه من باب الاتّساع ، و وضع أحد الجمعيْن في موضع الآخر".[3]

هو كناية عن الوعيد بالجزاء على جميع ما فعلوه في الدّنيا بحيث لا يغادر شيئا.[4]

رابعا:تحقيق الخبر :

قد يؤكّد الخبر و المراد تحقيقه ، و يلاحظ في ذلك أنّ هذا الخبر قد يرد في حقّ من يُظنّ به التّيقّن ، و عدم الشّكّ أو التّردّد ، و مع ذلك يؤكّد في حقّه الخبر ، فتأكيد الخبر بلام القسم من قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾[5] و(قد) لتحقيق الخبر لأنّ موسى عليه السّلام قد علم ذلك ، فتحقيق الخبر له تحقيق للازمه المراد منه ، و هو أنّ عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه زيادةً في تطمين خاطره[6] بعد قوله تعالى :﴿قَدْ أُوتِيتَ ﴾.[1]

---

[1] - البقرة : 228.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 2 ، ق 2، ص: 388 .

[3] - إعراب القرآن الكريم و بيانه :محي الدّين الدّرويش ، ط 9 ، دار ابن كثير ـــ دمشق ، 1424 هـــ / 2003 م، 1/ 296 –297 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 11، ص : 186 .

[5] - طه :37.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 16، ص : 215 .

و (قد) من قوله تعالى :﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [2] مفيد للتّحقيق لأنّهم لنفاقهم و مرض قلوبهم يشكّون في لازم هذا الخبر و هو إنباء الله رسوله ـــ عليه الصّلاة و السّلام ـــ بهم ، أو لأنّهم لجهلهم النّاشئ عن الكفر يظنّون أنّ الله لا يعلم خفايا القلوب . و ذلك ليس بعجيب في عقائد أهل الكفر.[3]

و تأكيد الخبر في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [4] بحرف التّأكيد لقصد تحقيقه لأنّهم بغفلتهم عن عداوة الشّيطان كحال من ينكر أنّ الشّيطان عدوّ .[5]

و تأكيد الخبر في قوله تعالى :﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [6] بـــ (قد) و لام القسم لتحقيقه لأنّهم مظنّة أن ينكروه لبعد عهدهم به.[7]

خامسا:مخالفة مقتضى الظّاهر :

و قد تحتمل الآية من القرآن الكريم الحمل على الظّاهر إذا فُهمت فهما معيّنا ، و تحتمل مخالفة مقتضى ذلك الظّاهر باعتداد آخر ، و من ذلك قوله تعالى :﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [8] فتأكيد الفعل بلام القسم و (قد) ، إمّا باعتبار صفة (كتاب)

---

[1] - طه :36.

[2] - الأحزاب :18.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 21، ص : 294 .

[4] - فاطر : 6 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 22، ص: 260 .

[6] - غافر : 34.

[7] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 24، ص: 138 .

[8] - الأعراف : 52 .

و هي جملة :﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيكون التّأكيد جاريا على مقتضى الظّاهر ، لأنّ المشركين ينكرون أن يكون القرآن موصوفا بتلك الأوصاف ، و إمّا تأكيد لفعل :﴿ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ ، و هو بلوغ الكتاب إليهم فيكون التّأكيد خارجا على خلاف مقتضى الظّاهر ، بتتريل المبلَّغ إليهم مترلة من ينكر بلوغ الكتاب إليهم ، لأنّهم في إعراضهم عن النّظر و التّدبّر في شأنه بمترلة من لم يبلغه الكتاب ، و قد يناسب هذا الاعتبار[1] ظاهر قوله بعد :﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [2]

و قوله تعالى :﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [3] زيدت فيه (ما) عقب (إذا) و زيادهّا للتّأكيد ، أي لتأكيد معنى (إذا) و هو الشّرط ، لأنّ هذا الخبر لغرابته كان خليقا بالتّأكيد ، و لأنّ المنافقين ينكرون صدوره منهم بخلاف الآية السّابقة لأنّ مضموهٔا حكاية استئذاهٔم و هم لا ينكرونه.[4]

1 ـــ تتريل غير المنكر مترلة المنكر:

و تأكيد الاستدلال من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [5] بحرف (إنّ) لأجل تتريل المخاطَبين به الذين لم يهتدوا بتلك

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق2 ، ص: 152 .

[2] - الأعراف : 53 .

[3] - التّوبة :124.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 11، ص : 64 .

[5] - يونس :6 .

بتلك الدّلائل إلى التّوحيد مترلة من ينكر أنّ في ذلك آيات على الوحدانيّة بعدم جريهم على موجب العلم .[1]

و تأكيد الخبر بلام القسم و (قد) المفيدة للتّحقيق في قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2]، تتريل للذين هم المقصود من الخطاب مترلة من ينكر مضمون الخبر لأنّهم لمّا عبدوا غير الله كان حالهم كحال من ينكر أنّ الله هو الذي مكّنهم من الأرض ، أو كحال من ينكر وقوع التّمكين من أصله.[3]

و تأكيد الخبر بـــ (إنّ) في قوله تعالى :﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4] لتتريل معظم النّاس مترلة المنكر لتلك الآيات لعدم جريهم في أحوالهم على مقتضى ما تدلّ عليه .[5]

و تأكيد الخبر بلام القسم و حرف التّحقيق من قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[6] مراعًى فيه التّعريض بالمشركين المترّلين مترلة من ينكر هذا الخبر لعدم جريهم على موجب العلم.[7]

وأكّد الخبر بـــ (إنّ) من قوله تعالى :﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] و إن كان المخاطَبون غيرَ منكرين لتتريلهم مترلة المنكر لذلك ، بسبب عدم انتفاعهم بما في هذه الكائنات من دلالة على وحدانيّة الله تعالى .[2]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 11، ص : 97 .

[2] - الأعراف :10.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق2 ، ص: 33 .

[4] - الزّمر :42.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 24، ص: 26 .

[6] - المؤمنون :12.

[7] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18، ص : 22 .

و تأكيد الخبر بحرف(إنّ) من قوله تعالى :﴿ كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ [3] لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين ، لأنّهم لم ينظروا في تلك المخلوقات على وحدانيّة الله ، و هم يحسبون أنفسهم من أولي النّهى ، فما كان عدم اهتدائهم بتلك الآيات إلاّ لأنّهم لم يعدّوها آيات.[4]

و تأكيد الخبر بـــ (إنّ) في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [5] لأنّهم بحال من ينكر أنّ الله يعلم الغيب ، فكذَبُوا على النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم مع علمهم أنّه مرسل من الله فكان كذبهم عليه مثل الكذب على الله.[6]

و التّوكيد بـــ (مِنْ) في قوله تعالى :﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٖ ﴾ [7] لتنزيلهم منزلة من يُنكر أنّ الله أنبت ما على الأرض من أنواع حين ادّعوا استحالة إخراج النّاس من الأرض ، و لذلك جيء بالتّوكيد في هذه الآية لأنّ الكلام فيها على المشركين و لم يؤت بالتّوكيد في آية سورة طه.[8]

2 ـــ تنزيل غير السّائل منزلة السّائل :

---

[1] - الجاثية :3 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 326 .

[3] - طه :54.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 16، ص : 239 .

[5] - الحجرات : 18.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 271 .

[7] - ق : 7.

[8] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 289 .

و جملة:﴿ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ من قوله تعالى :﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ [1] إخبار بما سيقع و بيان لسبب الأمر بصنع الفلك . و تأكيد الخبر بحرف التّوكيد في هذه الآية مثال لتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر بتتريل غير السّائل المتردّد مترلة السّائل ، إذا قُدّم إليه من الكلام ممّا يلوّح إلى جنس الخبر ، فيستشرفه لتعيينه استشرافا يشبه استشراف السّائل عن عين الخبر.[2]

3 ـــ تتريل السّامع مترلة المتردّد :

و تأكيد الجملة من قوله تعالى :﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [3] باللاّم الموطّئة للقسم و ما يتبعه من نون التّوكيد لتتريل السّامع مترلة المتردّد في صدور هذا القول منهم لغرابة صدوره من العاقل ، فيكون التّأكيد القويّ و التّتريل مستعملا في لازم معناه ، و هو التّعجيب من حال الذين كفروا أن يحيلوا إعادة الخلق و قد شاهدوا آثار بدء الخلق و هو أعظم و أبدع.[4]

4 ـــ تتريل غير الشّاكّ مترلة الشّاكّ:

و أكّد الخبر في قوله تعالى :﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [5] بحرف (قد) الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التّحقيق أي التّوكيد . فحرف (قد) في الجملة الفعليّة يفيد مفاد (إنّ و اللاّم) في الجملة الاسميّة ، أي يفيد توكيدا قويّا.

---

[1] - هود :37.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 12، ص : 67 .

[3] - هود : 7.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 12، ص : 9 .

[5] - المؤمنون : 1.

و وجه التّوكيد هنا أنّ المؤمنين كانوا مؤمّلين مثل هذه البشارة فيما سبق لهم من رجاء فلاحهم كالذي في قوله :﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1] ، فكانوا لا يعرفون تحقق أنّهم أتوا بما أرضى ربّهم ، و يخافون أن يكونوا فرّطوا في أسبابه و ما عُلّق عليه وعدُهم إيّاه، بلْهَ أن يعرفوا اقتراب ذلك ، فلمّا أخبِروا بأنّ ما ترجّوه قد حصل ، حُقّق لهم بحرف التّحقيق و بفعل المضيّ المستعمل في معنى التّحقّق . فالإتيان بحرف التّحقيق لتتريل ترقّبهم إيّاه لفرط الرّغبة و الانتظار مترلة الشّكّ في حصوله. و لعلّ منه : قد قامت الصّلاة ، إشارة إلى رغبة المصلّين في حلول وقت الصّلاة ، و قد قال النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم : " أرِحْنَا بها يَا بِلاَل "[2]، و شأن المؤمنين التّشوّق إلى عبادتهم ، كما يشاهد في تشوّق كثير إلى قيام رمضان.[3] و توسيط ضمير الفصل من قوله تعالى :﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾[4] لتقوية الخبر عنهم بذلك.[5]

و تأكيد الجملة بحرف الـــتّأكيد من قوله تعالى :﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[6] لدفع الشّكّ عن موسى ، نُزّل مترلة الشّاكّ لأنّ غرابة الخبر تعرّض السّامع للشّكّ فيه.[7]

و افتتاح الجملة من قوله تعالى :﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴾[8] بالمبتدأ المخبر عنه بالخبر الفعليّ دون أن تفتتح بـــ (خلقناهم) أو نحن خالقون ، لإفادة

---

[1] - الحجّ : 77.

[2] - مرقاة المفاتيح ، كتاب الصّلاة ، باب القصد في العمل ، ص : 295 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18، ص : 8 .

[4] - المؤمنون : 10.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18، ص : 20 .

[6] - طه : 14.

[7] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 16، ص : 200 .

[8] - الإنسان :28.

لإفادة تقوّي الخبر و تحقيقه بالنّظر إلى المعنيّين بهذا الكلام و إن لم يكن خطابا لهم و لكنّهم هم المقصود منه .

و تقوية الحكم بناء على تنزيل أولئك المخلوقين منزلة من يشكّ في أنّ الله خلقهم حيث لم يجرؤوا على موجب العلم فأنكروا أنّ الله يعيد الخلق بعد البلى فكأنّهم يسندون الخلق الأوّل لغيره .

و تقوّي الحكم يترتّب عليه أنّه إذا شاء بدّل أمثالهم بإعادة أجسادهم فلذلك لم يحتج إلى تأكيد جملة: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ استغناء بتولّد معناها عن معنى التي قبلها و إن كان هو أولى بالتّقوية على مقتضى الظّاهر.[1]

5 ـــ انفتاح الدّلالة:

و قد يكون هذا النّوع من الأخبار مسوقا للاهتمام ، أو لبعد بلاغيّ آخر ، فابن عاشور لا يمنع تعدّد المعاني إذا كان اللّفظ يحتملها. ففي قوله تعالى :﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [2] نجد الافتتاح بحرف التّوكيد للاهتمام بالخبر ، أو تنزيله لغرابة شأنه منزلة ما قد ينكره السّامع.[3]

و كذلك افتتاح الخبر من قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [4] بـــ (إنّ) للاهتمام به ، أو لتنزيل السّائل المتلهّف للخبر منزلة المتردّد في مضمونه لشدّة شوقه إليه ، أو نظرا إلى ما في

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 29 ، ص: 409 .

[2] - الأحزاب : 72.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 22، ص: 124 .

[4] - الزّخرف :73.

الخبر من التّعريض بإسماعه المشركين و هم ينكرون مضمونه فكأنّه قيل : إنّكم أيّها المجرمون في عذاب جهنّم خالدون.[1]

سادسا:الاهتمام بالخبر :

قد يؤكّد الخبر و لا يكون تأكيده إلاّ لمجرّد الاهتمام ، و لا يعني أنّ المخاطب شاكّ أو متردّد كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[2] بـــ (إنّ) لتحقيقه اهتماما بشأنه لا للشّكّ في تحقّقه.[3] و تأكيد الخبر في قوله تعالى :﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾[4] بـــ (إنّ) للاهتمام بالخبر و ليس لردّ إنكار.[5] و كذلك افتتاح الكلام بالتّوكيد في قوله تعالى :﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6] للاهتمام بالخبر إذ ليس المقام لردّ إنكار منكر،و لا دفع شكّ عن عن متردّد. و كثيرا ما يفتتح بلغاء العرب أوّل الكلام بحرف التّوكيد لهذا الغرض و ربّما جعلوا (إنّ) داخلة على ضمير الشّأن،[7] في نحو قوله تعالى :﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[8]

و مع ذلك فقد يفيد هذا الضّرب من الأخبار معاني بلاغيّة ، نذكر بعضا منها:

ـــ إزالة الالتباس:

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 257 .

[2] - الحجر :95.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص: 89 .

[4] - غافر :47.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 24، ص: 161 .

[6] - نوح : 1.

[7] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 29 ، ص: 186 .

[8] - نوح : 1.

و تأكيد الخبر في قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾[1] بحرف التّوكيد للاهتمام به ، لأنّه بحيث يلتبس على النّاس سبب افتراق النّاس في تلقّي الهدى بين مبادر و متقاعس و مصِرٍّ على الاستمرار في الضّلال .[2]

ــ لفت الأنظار:

و (إنّ) من قوله تعالى :﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[3] لمجرّد الاهتمام بالخبر للفت الأنظار إليه ، و يحتمل أنّهم نُزّلوا مترلة من ينكر أن يكون في ذلك آيات ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ لأنّهم لم يجروا على ما تدلّ عليه تلك الآيات.[4]

ــ التّعليل:

و حرف (إنّ) من قوله تعالى :﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾[5] للاهتمام بالخبر و ليست لردّ الإنكار إذ لا ينكر أحد أنّهم لا يرجون حسابا و أنّهم مكذّبون بالقرآن ، و شأن (إنّ) إذا قُصد بها مجرّد الاهتمام أن تكون قائمة مقام فاء التّفريع مفيدة للتّعليل.[6]

ــ التّسبّب:

و افتتاح الكلام بحرف (إنّ) من قوله تعالى :﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾[1] الذي ليس هو للتّأكيد لأنّ هذا القول إلى المشركين لا تردّد فيه حتى يحتاج إلى

---

[1] - النّمل : 4.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 220 .

[3] - البقرة :164 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 2 ، ق1 ، ص: 76 .

[5] - النّبأ : 27 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 30 ، ص: 39 .

إلى التّأكيد فتعيّن كون (إنّ) لمجرّد الاهتمام بالخبر ، و هو إذا وقع مثل هذا الموقع أفاد التّسبّب و أغنى عن الفاء.فالمعنى : إنّا منتقمون منهم بالبطشة الكبرى لأنّهم لا يرتدعون بوعيد الآخرة لإنكارهم الحياة الآخرة ، فلم ينظروا إلاّ لما هم عليه في الحياة الدّنيا من النّعمة و القوّة فلذلك قدّر الله لهم الجزاء على سوء كفرهم جزاء في الحياة الدّنيا.[2]

سابعا:أغراض الخبر البلاغيّة:

ليس كلّ خبر مسوق في القرآن يراد منه تزويد السّامع بمعلومة خفيّة عنه ، و لكنّ الخبر قد ينصرف إلى معان بلاغيّة تزيده تمكّنا في النّفس ، ممّا يستدعي إعمال الفكر ، و تأمّل العقل لتذوّق النّصوص القرآنيّة ، و كشف اللّثام عن جواهر تستّرت خلف حجب الألفاظ ، و الأغراض البلاغيّة التي استوقفت ابن عاشور كثيرة ،جمعناها ضمن عناوين تجمع شتاتها ، و نذكر منها:

1ـــ التّسلية :

و من ذلك قوله:﴿ **إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ [3] ، فلو حمل على الظّاهر لكان إخبارا بأمر معلوم عند المخاطبين إذ هم مؤمنون ، و لا يجهل مؤمن أنّ الله إذا قدّر نصر أحد فلا رادّ لنصره ، و أنّه إذا قدّر خذله فلا ملجأ له من الهزيمة ، فإنّ مثل هذا المعنى محقّق في جانب الله ، لا يجهله معترف بإلهيّته ، مؤمن بوحدانيّته ، و هل بعد اعتقاد نفي الشّريك عن الله في ملكه مجال لاعتقاد وجود ممانع له في إرادته فيتعيّن أن يكون هذا الخبر مرادا به غير ظاهر الإخبار ، و أحسن ما يُحمل عليه أن يكون تقريرا لتسلية المؤمنين على ما أصابهم من الهزيمة ، حتى لا يحزنوا على ما فات لأنّ ردّ الأمور إلى الله تعالى عند العجز عن تداركها مسلاة للنّفس ، و عزاء على المصيبة ، و في ضمن ذلك تنبيه إلى أنّ نصر

---

[1] - الدّخان :34 - 35.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 307 .

[3] - آل عمران :160.

الله قوما في بعض الأيّام ، و خذلهم إيّاهم في بعضها ، لا يكون إلاّ لحِكم و أسباب ، فعليهم السّعي في أسباب الرّضا الموجب للنّصر ، و تجنّب أسباب السّخط الموجب للخذل.[1]

و كذلك قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [2] لمّا جرى ذكر إعراض المشركين عن آيات الله و هي آيات القرآن في قوله :﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ [3] ، استطرد إلى تسلية النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم ، بأنّ ما لقي من قومه هو نظير ما لقيه من قوم فرعون الذين أرسل إليهم ، فالخبر مستعمل في التّسلية بالتّنظير و التّمثيل.[4] أي بتنظير حال النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم و أصحابه مع الكفّار ، بحال موسى و من معه من المؤمنين مع فرعون .

ــ التّذكير و التّسلية:

و ذلك قوله تعالى :﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [5] فهو تذكير و تسلية ليزيح عنه كرب إعراضهم عن الإسلام ، لأنّ ما يحصل له من الكدر لإعراض قومه عن الإسلام يجعل في نفسه انكسارا كأنّه انكسار مَن عهِد إليه بعمل فلم يتسنّ له ما يريده من حسن القيام ، فذكّره الله تعالى بأنّه قد أدّى الأمانة و بلّغ الرّسالة و أنّه لم يبعثه مكرها لهم ليأتي بهم مسلمين ، و إنّما بعثه مبلّغا لرسالته فمن آمن فلنفسه و من كفر فعليها.[6]

ــ الشّماتة و التّوقيف على الخطأ :

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 2، ج 4، ص: 152 .

[2] - السّجدة : 23.

[3] - السّجدة :22.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 21، ص : 234 .

[5] - الأنعام :107.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص: 426 .

و ذلك قوله تعالى :﴿ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾[1] فالمقصود بهذه الآية ذكر شيء من أمر الآخرة . فيه نذارة و موعظة لجبابرة المشركين من العرب الذين كانوا يحقرون المستضعفين من المؤمنين ، و فيهم عبيد و فقراء فإذا سمعوا بشارات القرآن للمؤمنين بالجنّة سكتوا عمّن كان من أحرار المسلمين و سادتهم ، و أنكروا أن يكون أولئك الضّعاف و العبيد من أهل الجنّة ، و يقال لهم : ما أغنت عنكم كثرتكم التي تعتزّون بها ، و يحتمل أن يكون المعنى : ما أغنى عنكم ما جمعتم من المال و الثّروة .و الخبر مستعمل في الشّماتة و التّوقيف على الخطأ.[2]

2 ــ الإنشاء :

ــ إنشاء التّبشير :

و منه قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾[3] و جملة :﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ ﴾ هي خبر (إنّ) .

و الخبر مستعمل في إنشاء التّبشير كأنّه قيل : لِيَرْجُوا تجارة ، و زاده التّعليل بقوله:﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ﴾[4] قرينة على إرادة التّبشير.[5]

ــ إنشاء التّحذير :

و ذلك قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ

---

[1] - الأعراف : 48 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق2 ، ص: 145 – 146 .

[3] - فاطر : 29.

[4] - فاطر :30.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 22، ص: 307 .

ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ ﴾ [1] فهو خبر مستعمل في إنشاء التّحذير لظهور كون المخاطَب عليما بكلّ شيء .

و تأكيد الخبر بإنّ مراعاة لأصل الخبريّة ، تحقيقا لكون المولود أنثى؛ إذ هو بوقوعه على خلاف المترقَّب لها كان بحيث تشكّ في كونه أنثى ، و تخاطب نفسها بنفسها بطريق التّأكيد ، فلذا أكّدته.

ثمّ لّما استعملت هذا الخبر في الإنشاء استعملته برمّته على طريقة المجاز المركّب المرسل ، و معلوم أنّ المركّب يكون مجازا بمجموعه لا بأجزائه و مفرداته ، و هذا التّركيب بما اشتمل عليه من الخصوصيات يحكي ما تضمّنه كلامها في لغتها من المعاني : و هي الرّوعة و الكراهية لولادتها أنثى و محاولتها مغالطة نفسها في الإذعان لهذا الحكم ، ثمّ تحقيقها ذلك لنفسها و تطمينها بها ، ثمّ التّنقّل إلى التّحسير على ذلك ، فلذلك أودع حكاية كلامها خصوصيات من العربيّة تعبّر عن معان كثيرة قصدتها في مناجاتها بلغتها.[2]

ـــ إنشاء الدّعاء :

جملة :﴿وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [3] من قبيل الخبر في إنشاء الدّعاء ، و إن أمكن حمله على الإخبار بالنّسبة لولاية الدّنيا ، قيل لإثباته ذلك الشّيء لولاية الآخرة . فالمعنى : كن وليّي في الدّنيا و الآخرة.[4]

ـــ إنشاء الإشهاد :

---

[1] - آل عمران :36.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 2، ج 3، ص: 232 – 233 .

[3] - يوسف :101.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 13 ، ص: 59 .

و جملة :﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾ من قوله تعالى :﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [1] إنشاء لإشهاد الله بصيغة الإخبار لأنّ كلّ إنشاء لا يظهر أثره في الخلق ، من شأنه أن يقع بصيغة الخبر من قصد إعلام السّامع بما يضمره المتكلّم ، و لذلك كان معنى صيغ العقود إنشاء بلفظ الخبر.[2]

3 ـــ النّهي : و نفي الإكراه في قوله تعالى :﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [3] خبر في معنى النّهي ، و المراد نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام ، أي لا تُكرِهوا أحدا على اتّباع الإسلام قسرا ، و جيء بنفي الجنس لقصد العموم نصّا.[4]

و من ذلك قوله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [5] و الإتيان بصيغة لام الجحود تأكيد للنّفي ، و هو خبر مستعمل في النّهي فتأكيده يفيد تأكيد النّهي ، أي كونه نهيا جازما يقتضي التّحريم . و ذلك أنّه كما كان النّفر للغزو واجبا لأنّ في تركه إضاعة مصلحة الأمّة كذلك كان تركه من طائفة من المسلمين واجبا لأنّ في تمحّض جميع المسلمين للغزو إضاعة مصلحة للأمّة أيضا ، فأفاد مجموع الكلاميْن أنّ النّفر للغزو واجب على الكفاية أي على طائفة كافية لتحصيل المقصد الشّرعيّ منه ، و أنّ تركه متعيّن على طائفة كافية منهم لتحصيل المقصد الشّرعيّ ممّا أمروا بالاشتغال به من العلم في وقت اشتغال الطّائفة الأخرى بالغزو.[6]

ـــ مبالغة النّهي :

---

[1] - هود :54.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 12، ص : 99 .

[3] - البقرة :256.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 2، ج 3، ص : 26 .

[5] - التّوبة : 122.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 11، ص : 60 – 61 .

و في قوله تعالى :﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ ﴾[1] يقول : « هذا خبر مراد به مبالغة النّهي ، اقتضى أنّ الجماع في الحجّ حرام و أنّه مفسد للحجّ ، و قد بيّنت السّنّة ذلك بصراحة ، فالدّخول في الإحرام يمنع من الجماع إلى الإحلال بطواف الإفاضة ،و ذلك جميع وقت الإحرام».[2] و يرى صاحب إعراب القرآن : « أنّ النّهي في هذه الآية ضرب عجيب ، إذ إنّ تخصيص الحجّ بالنّهي عن الرّفث و الفسوق و الجدال فيه يُشعر بأنّ هذه الأعمال في غير الحجّ ، و إذ كانت منهيّا عنها و قبيحة ، إلاّ أنّ ذلك القبح الثابت لها في غير الحجّ كالأقبح بالنّسبة لوقوعها في الحجّ ، فاجتنابها متحتّم على كلّ حال و لكنّ اجتنابها في الحجّ أمر فوق الاجتناب ».[3]

4 ـــ الامتنان :

و قوله تعالى :﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾ [4] عطف على مزايا البيت و فضائله من الأمن فيه على العموم ، و امتنان بما تقرّر في ماضي العصور ، فهو خبر لفظا مستعمل في الامتنان ، فإنّ الأمن فيه قد تقرّر و اطّرد ، و هذا الامتنان كما امتنّ الله على النّاس بأنّه خلق لهم أسماعا و أبصارا فإنّ ذلك لا يُنقض بمن وُلد أكْمهَ ، أو عرض له ما أزال بعض ذلك.[5]

و الخبر في قوله تعالى:﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [6] مستعمل في الامتنان ، أو هو تعريض و

---

[1] - البقرة :197 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 2 ، ق 1، ص: 234 .

[3] - إعراب القرآن الكريم و بيانه : 1 / 261 .

[4] - آل عمران : 97.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 2، ج 4، ص: 18 .

[6] - آل عمران : 3 .

نكاية بأهل الكتاب : الذين أنكروا ذلك.[1]

و كذلك قوله تعالى :﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [2] و افتتاح الجملة بحرف (إنّ) مراعى فيه ما استعمل فيه الخبر من الامتنان . فيحمل حرف (إنّ) على الاهتمام بالخبر . و ما أريد به من التّعريض بالذين أنكروا أن يكون منزّلا من الله ، فيُحمل حرف (إنّ) على التّأكيد حملا للمشترك في معنييْه .[3]

5 ــ الوعيد و الإنذار:

و ذلك قوله تعالى :﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [4] فالمقصود بهذا الخبر المشركون ، أقبل الله على خطابهم أو أمر نبيّه بأن يخاطبهم ، لأنّ هذا الخطاب وعيد و إنذار . و يمكن أن يكون المقصود بهذا الخبر النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم ، فيكون وعدا له بالنّصر على مكذّبيه ، و إعلاما له بأنّ سنّته سنّة غيره من الرّسل بطريقة جعل سنّة أمّته كسنّة غيرها من الأمم.[5]

ــ التّعريض بالوعيد :

و مثاله قوله تعالى :﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ [6] و هو خبر مستعمل في التّعريض بالحثّ على الهجرة في الأرض فرارا بدينهم من الفتن ، بقرينة أنّ كون الأرض واسعة أمر معلوم لا يتعلّق الغرض

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 2، ج 3، ص : 147 .

[2] - الزّمر : 2.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 23، ص: 315 .

[4] - الأعراف :34.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق2 ، ص: 102 – 103 .

[6] - الزّمر : 10.

بإفادته ، و إنّما كنّي به عن لازم معناه،[1] كما قال إياس بن قبيصة الطّائيّ :

أَلَمْ تَرَ أنَّ الأرْضَ رَحْبٌ فَسِيحَةٌ   فَهَلْ تُعَجِّــزْنِي بُقْعَةٌ مِن بِقَاعِهَا

و منه قوله تعالى :﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[2] يجوز أن يكون هذا كلاما موجّها إليهم من جانب الله تعالى جوابا عن قولهم:﴿ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾[3] ، و الخبر مستعمل في التّعريض بالوعيد ، و يجوز أن يكون من تمام قولهم ، أي يقول بعضهم لبعض :﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾[4]

6 ــ التّوبيخ :

و ذلك قوله :﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾[5] و الكلام توبيخ للجنّ و إنكار ، أي كان أكثر الإنس طوعا لكم . و كان العرب يعتقدون أنّ الفيافي و الأودية المتّسعة بين الجبال معمورة بالجنّ ، و يتخيّلون أصوات الرّياح زجل الجنّ . قال الأعشى:

وَ بَلْدَةٍ مِثْلِ ظَهْرِ التُّرْسِ مُوحِشَةٍ   لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ في حَافَاتِهَا زَجَلُ[6]

و في الكلام تعريض بتوبيخ الإنس الذين اتّبعوهم و أطاعوهم ، و أفرطوا في مرضاتهم ، و لم يسمعوا من يدعوهم إلى نبذ متابعتهم ، كم يدلّ عليه قوله الآتي :﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 23، ص: 354 .

[2] - الصّافّات :21.

[3] - الصّافّات :20.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 23، ص: 101.

[5] - الأنعام : 121.

[6] - ديوان الأعشى ميمون بن قيس ، ص : 132 .

يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾[1] فإنّه تدرّج في التّوبيخ و قطع المعذرة.[2]

و قوله تعالى :﴿ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ ﴾[3]
و المقصود توجيه التّوبيخ إلى الأمم المهلَكة على طريقة توجيه النّهي و نحوه لغير المنهيّ ليجتنب المنهيّ أسباب المنهيّ عنه كقولهم لا أعرفنّك تفعل كذا ، و لا أرينّك هنا .المقصود منه التّوبيخ تخطئة للأمم الذين اتّخذوا الأصنام للنّصر و الدّفع و ذلك مستعمل تعريضا بالسّامعين المماثلين لهم في عبادة آلهة من دون الله استتماما للموعظة و التّوبيخ بطريق التّنظير و قياس التّمثيل ، و لذلك عقّب بقوله لأنّ التّوبيخ آل إلى معنى نفي النّصر.[4]

و المقصود من نزول القرآن بخبر الجنّ في قوله تعالى:﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾[5] توبيخ المشركين بأنّ الجنّ و هم من عالم آخر علموا القرآن القرآن و أيقنوا بأنّه من عند الله و المشركون و هم من عالم الإنس و من جنس الرّسول صلّى الله عليه

و سلّم المبعوث بالقرآن و ممّن تكلّم بلغة القرآن لم يزالوا في ريب منه و تكذيب و إصرار ، فهذا موعظة للمشركين بطريق المضادّة لأحوالهم بعد أن جرت موعظتهم بحال مماثليهم في الكفر من جنسهم.[6]

ـــ التّعريض بالتّوبيخ:

---

[1] - الأنعام :130.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق1 ، ص: 68 .

[3] - الأحقاف :28.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 55 .

[5] - الأحقاف :33.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 57 .

و ذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [1] بعد توبيخ المنافقين و الذين في قلوبهم مرض ، أقبل الكلام على خطاب المؤمنين في عموم جماعتهم ثناء على ثباتهم و تأسّيهم بالرّسول صلّى الله عليه و سلّم على تفاوت درجاتهم في ذلك الائتساء ، فالكلام خبر و لكنّ اقترانه بحرفي التّوكيد في (لقد)، يومئ إلى تعريض بالتّوبيخ للذين لم ينتفعوا بالأسوة الحسنة من المنافقين و الذين في قلوبهم مرض.[2]

7 ـــ التّنبيه و التّذكير :

و منه قوله تعالى :﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [3] يقول ابن عاشور : « و قوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ خبر مستعمل في التّنبيه و التّذكير بأنّ ما أعدّ لهم في الآخرة من الجزاء على الإنفاق في سبيل الله أعظم ممّا وعدوا به من الخير في الدّنيا ، و فيه تعريض بأنّ الممسك البخيل عن الإنفاق في سبيل الله محروم من خير كثير».[4]

ـــ التّنبيه على الخطأ:

و الخبر من قوله تعالى :﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [5] مستعمل في غير إفادة الحكم بل هو في التّنبيه على الخطأ بقرينة قوله عقبه:﴿ثُمَّ يَوْمَ

---

[1] - الأحزاب :21.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 21، ص : 302 .

[3] - البقرة :245.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 2 ، ق 2، ص: 483 .

[5] - العنكبوت :25.

﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا﴾.[1] و نظيره جملة صلة الموصول[2] في قول عبدة بن الطّيّب:

إنَّ الـــذينَ تَرَوْنَهُم إخْـــوَانَكُمْ   يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أنْ تُصْرَعُوا[3]

ــ التّوبيخ أو التّنبيه :

و منه قوله تعالى :﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[4] فهو إمّا أن يكون مسوقا مساق التّوبيخ أو مساق التّنبيه على الخطإ في الشّحّ ببذل المال في الجهاد الذي هو محلّ السّياق ، لأنّ المرء قد يبخل بُخلاً ليس عائدا بخله عن نفسه.و هذا لجواز حمل الآية قبله على محملين ، و هما أن يكون قوله تعالى :﴿هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ﴾[5] محمولا على دعوة التّرغيب التّرغيب فتكون الآية تمهيدا للآيات المقتضية إيجابا الإنفاق في المستقبل مثل آية :﴿وَجَـٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[6] و نحوها ، يجوز أن يكون إعلاما بأنّهم سيدعون إلى الإنفاق في سبيل الله فيما بعد هذا الوقت فيكون المضارع مستعملا في زمن الاستقبال و المضارع في أصل وضعه.[7]

8 ــ التّعجيب :

---

[1] - العنكبوت :25.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 20، ص : 236 .

[3] - شعر عبدة بن الطّيّب : د. يحي الجبوري ، دط ، دار التّربية ، دت ، ص : 12 . و فيه :" بدل: إخوانكم : خلاّنكم ، و بدل : يشفي غليل صدرورهم : يشفي صداع رؤوسهم" .

[4] - محمّد : 38.

[5] - محمّد : 38.

[6] - التّوبة : 41.

[7] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 136 – 137 .

و ذلك قوله تعالى :﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [1] و هو خبر مستعمل في التّعجيب من حالهم ، و تخطئة رأيهم في الدّنيا ، و سوء نظرهم في الآيات ، و إعراضهم عن التّدبّر في العواقب ، و قد رُتّب هذا الخبر على الخبر الذي قبله ، و هو اغترارهم بالحياة الدّنيا ، لأنّ ذلك الاغترار كان السّبب في وقوعهم في هذه الحال حتى استسلموا و شهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا في الدّنيا كافرين بالله .[2]

و كذلك تأكيد الكلام بلام القسم و (قد) من قوله تعالى :﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [3] مستعمل في التّعجيب من تصلّب فرعون في عناده ، و قصد منها بيان شدّته في كفره و بيان أنّ لموسى آياتٍ كثيرة أظهرها الله لفرعون فلم تُجْد في إيمانه.[4]

و مثله قوله تعالى :﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [5] فالخبر غير مقصود به الإفادة بل هو للتّعجيب من حالهم كيف قابلوا نعمة إنزال الفرقان بالجحد و الطّغيان ، و كيف أشركوا بالذي تلك صفاته آلهة أخرى صفاهم على الضّدّ من صفات من أشركوهم به ، و إلاّ فإنّ اتّخاذ المشركين آلهة أمر معلوم لهم و للمؤمنين فلا يقصد إفادهم لحكم الخبر.[6]

---

[1] - الأنعام :130.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق1 ، ص: 79 .

[3] - طه :56.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 16، ص : 242 .

[5] - الفرقان : 3.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18، ص : 319 .

و منه قوله تعالى :﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾[1] فالحجّة ناهضة على الذين كفروا لأنّ جميعهم عدا المانويّة يعترفون بأنّ الله هو الخالق و المدبّر للكون. و الخبر مستعمل في التّعجيب على وجه الكناية بقرينة موقع (ثمّ) و دلالة المضارع على التّجدّد ، فالتّعجيب من شأن المشركين ظاهر و أمّا المانوية فالتّعجيب من شأنهم في أنّهم لم يهتدوا إلى الخالق و عبدوا بعض مخلوقاته.[2]

و منه قوله تعالى :﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٌ دَانِيَةٌ﴾[3] و المقصود بالإخبار هنا التّعجيب من خروج القنوان من الطّلع و ما فيه من بهجة ، و بهذا يظهر وجه تغيير أسلوب هذه الجملة عن أساليب ما قبلها و ما بعدها إذ لم تُعطف أجزاؤها عطف المفردات ، على أنّ موقع الجملة بين أخواتها يفيد ما أفادته أخواتها من العبرة و المنّة.[4]

ـــ التّعجيب و التّحذير :

و ذلك مثل قوله تعالى :﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[5] فالآية تنادي على التّعجيب و التّحذير من فعل الأمم في التّقاتل للتّخالف ، حيث لم يبلغوا في أصالة العقول أو في سلامة الطّوايا إلى الوسائل التي يتفادون بها عن التّقاتل . فهم ملومون من هذه الجهة ، و مشيرة إلى أنّ الله تعالى لو شاء لخلقهم من قبل على صفة أكمل ممّا هم عليه حتى يستعدّوا بها إلى الاهتداء إلى الحقّ ، و إلى التّبصّر في العواقب قبل ذلك الإبّان.[6]

---

[1] - الأنعام : 1.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص: 128 .

[3] - الأنعام :99.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص: 400 .

[5] - البقرة : 253.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 2، ج 3، ص : 13 .

ـــ التّعجيب و التّوبيخ :

و منه قوله تعالى :﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [1] جملة :﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ من قوله تعالى : خبر مستعمل في التّعجيب و التّوبيخ .[2]

و قوله تعالى :﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [3]المعنى : إنّ في ذلك لآيات للمؤمنين و لمن يُرجى منهم الإيمان عند النّظر في الأدلّة .

و قريب من هذا المعنى قوله تعالى :﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.[4] و لهذا خولف بين ما هنا و بين ما في سورة يونس إذ قال:﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [5] لأنّ آية يونس مسوقة مساق الاستدلال و الامتنان ، فخاطب بها جميع النّاس من مؤمن و كافر فجاءت بصيغة الخطاب و جعلت دلالتها لكلّ من يسمع أدلّة القرآن فمنهم مهتد و ضالّ ، و لذلك جيء فيها بفعل المؤذن بالامتثال و الإقبال على طلب الهدى.

---

[1] - الإسراء : 67 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 15 ، ص: 159 .

[3] - النّمل :86.

[4] - التّكوير : 27 - 28.

[5] - يونس : 67.

و أمّا آية سورة النّمل فمسوقة مساق التّعجيب و التّوبيخ فجعل ما فيها آيات لمن الإيمان من شأنهم ليفيد بمفهومهم أنّه لا تحصل منه دلالة لمن ليس من شأنهم الإنصاف و الاعتراف و لذلك أوثر فيه فعل﴿ يُؤۡمِنُونَ ﴾.[1]

9 ـــ الدّعاء و الشّكاية :

و منه قوله تعالى :﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ [2] و الخبر مستعمل في الدّعاء و الشّكاية ،[3] كقوله :﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ [4]، و قد قال في آية سورة الأنبياء :﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [5]

و حرف (إنّ) في قوله تعالى :﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [6] ليس للتّأكيد لأنّ كونهم كذلك ممّا لا منازع فيه و إنّما هو الاهتمام بالخبر فلذلك تفيد التّعليل و الرّبط و تغني غناء فاء التّفريع.[7]

ـــ التّحسّر أو الشّكاية:

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 20، ص : 45 .

[2] - ص : 41.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 23، ص: 269 .

[4] - آل عمران : 36.

[5] - الأنبياء : 83 .

[6] - الصّافّات :35.

[7] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 23، ص: 107 .

و منه قوله تعالى :﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [1] هذا من استعمال الخبر في التّحسّر أو الشّكاية ، و هو خبر بمعنى الإنشاء مثل قوله تعالى :﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [2] ، أي لم يعلموا به فلم يؤمنوا .[3]

ــ الشّكاية و التّذمّر :

و من أمثلتها في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[4] و هو خبر مستعمل في الشّكاية و التّذمّر ، و هو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم و كبرائهم . فالمقصود الإفضاء إلى جملة :﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ .[5] و مقصود من هذا الخبر أيضا الاعتذار و التّنصّل من تبعة ضلالهم بأنّهم مغرورون مخدوعون ، و هذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به من الحقيقة إذ قالوا :﴿ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ . فيتّجه عليهم أن يقال لهم : لماذا أطعتموهم حتى يغرّوكم ، و هذا شأن الدّهماء أن يسوّدوا عليهم من يعجبون بأضغاث أحلامه ، و يُغرّون بمعسول كلامه ، و يسيرون على وقع أقدامه ، حتى إذا اجتنوا ثمار أكمامه ، و ذاقوا مرارة طعمه و حرارة أُوامه ، عادوا عليه باللاّئمة و هم الأحقّاء بملامه.[6]

ــ التّحسّر و التّوجّع:

---

[1] - الزّخرف :88.

[2] - الفرقان : 30.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 272 .

[4] - الأحزاب :67.

[5] - الأحزاب : 68 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 22، ص: 117 .

و ذلك قوله تعالى :﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [1] رتّبوا بالفاء انتفاء الشّافعين على جملة :﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ حيث أطمعوهم بشفاعة الأصنام لهم عند الله مثل المشركين من العرب﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [2] فتبيّن لهم أن لا شفاعة لها ، و هذا الخبر مستعمل في التّحسّر و التّوجّع.[3]

10 ـــ التّهويل :

و قوله تعالى :﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [4] خبر مستعمل في لازم الفائدة .

و هو أنّ المتكلّم علم بمضمون الخبر . و هو تعريض بأنّهم صادقون فيما ادّعوه لأنّهم يعلمون أباهم لا يصدّقهم فيه ، فلم يكونوا طامعين بتصديقه إيّاهم.[5]

و منه قوله تعالى :﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [6] فهو تعليل للنّهي عنه و تهويل للأمر ـــ فإنّه ظلم لحقوق الخالق ، و ظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبوديّة لأخسّ الجمادات و ظلم لأهل الإيمان الحقّ إذ يبعث على اضطهادهم و أذاهم ، و ظلم لحقائق الأشياء بقلبها و إفساد يعلّقها.[7]

ـــ زيادة التّهويل :

1 - الشّعراء :97 – 98 - 99.

2 - يونس : 18.

3 - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 154 .

4 - يوسف :17.

5 - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 12، ص : 237 .

6 - لقمان: 13.

7 - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 21، ص : 155 .

و الإخبار عن اليوم الآخر بقوله تعالى :﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٌ مَّشۡهُودٌ﴾[1] يؤذن بأنّهم يشهدونه شهودا خاصّا و هو شهود الشّيء المهول ، إذ من المعلوم أن لا يقصد الإخبار عنه بمجرّد كونه مرئيّا لكن المراد كونه مرئيّا رؤية خاصّة.و عطف هذه الجملة على قوله:﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٌ مَّجۡمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ لزيادة التّهويل لليوم بأنّه يشهد .[2]

ــ التّهديد و التّهويل :

ومنه قوله تعالى :﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾[3] و التّقليل هنا مستعمل في التّهكّم و التّخويف ، أي احذروا ودادتكم أن تكونوا مسلمين ، فلعلّها أن تقع نادرا كما يقول العرب في التّوبيخ : لعلّك ستندم على فعلك ، و هم لا يشكّون في تندّمه ، و إنّما يريدون أنّه لو كان النّدم مشكوكا فيه لكان حقّا عليك أن تفعل ما قد تندم على التّفريط فيه لكي لا تندم ، لأنّ العاقل يتحرّز من الضّرّ المظنون كما يتحرّز من المتيَقَّن.

و الكلام خبر مستعمل في التّهديد و التّهويل في عدم اتّباعهم دين الإسلام و المعنى : قد يودّ الذين كفروا لو كانوا أسلموا.[4]

و الكلام في جملة:﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من قوله تعالى :﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[5] تعريض بالتّهديد بأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم

---

[1] - هود :103.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 12، ص : 161 .

[3] - الحجر : 2 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص: 11 .

[5] - الحجر : 12 - 13.

الماضية معاملة بنظيره ، لأنّ كون سنّة الأوّلين مضت أمر معلوم غير مفيد ذكره ، فكان الخبر مستعملا في لازمه بقرينة تعذّر الحمل على أصل الخبريّة.[1]

11 ـــ التّهديد :

و ذلك قوله :﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [2] و هو خبر مستعمل في التّهديد للمشركين الذين وُجّه إليهم التّعريض في الآية الأولى و الذين قُصدوا من العموم .و قد ثلّث هنا بتمحيض التّوجيه إليهم .[3]

ـــ التّهديد و التّغليظ و التّنديم:

و الخبر في قوله تعالى :﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [4] مستعمل في التّهديد و التّغليظ و التّنديم على إنكارهم البعث.[5]

ـــ التّهديد و الوعيد :

و ذلك قوله تعالى :﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [6] ، فقوله :﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يجوز أن يكون تهديدا و وعيدا لهم ، إن لم يُقلعوا عمّا هم فيه ، بأنّ الله يحرمهم التّوفيق و يذرهم في غيّهم و عمههم ، فالله هدى كثيرا من المشركين هم الذين لم يكونوا بهذه المثابة في الشّرك ، أي لم يكونوا

[1] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص: 25 .
[2] - الأعراف : 4.
[3] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق2 ، ص: 19 .
[4] - الكهف : 48.
[5] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 15 ، ص: 336 .
[6] - الأنعام :144.

قادة و لا متصلّبين في شركهم ، و الذين كانوا بهذه المثابة هم الذين حرمهم الله الهدى ، مثل صناديد قريش أصحاب القليب يوم بدر.[1]

ـــ التّهديد و التّوبيخ :

و قوله :﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [2] البصير هنا بمعنى العليم كما في قول علقمة الفحل :

فَإنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ [3]

و هو خبر مستعمل في التّهديد و التّوبيخ لأنّ القدير إذا علم بما يجترحه الذي يعصيه ، و أعلمه بأنّه علم منه ذلك ، علم أنّ العقاب نازل به لا محالة،[4] و منه قول زهير :

فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى فَمَهْمَا يُكتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَومِ الحِسَابِ أوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ [5]

ـــ الوعيد :

و جملة :﴿ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾من قوله تعالى :﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [6] خبر مستعمل في الوعيد ، كقوله :

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق1 ، ص: 136 .

[2] - البقرة : 96.

[3] - شرح ديوان علقمة الفحل ، بقلم السّيّد : أحمد صقر ، المطبعة المحموديّة – القاهرة - ، ط 1 ، 1353 هـــ / 1935 م ص : 11 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ق 2 ، ص: 619 .

[5] - ديوان زهير بن أبي سلمى ،تحقيق : كرم البستانيّ ، دار بيروت ، دط ، 1402 هـــ / 1982 م ، ص :81 .

[6] - التّوبة :101 .

و إلاّ فإنّ الحكم معلوم للمخاطب فلا يحتاج إلى الإخبار به . و فيه إشارة إلى عدم الفائدة للرّسول صلّى الله عليه و سلّم في علمه بهم ، فإنّ علم الله بهم كاف.[1]

ــ التّعجيل بالإرهاب :

و الإخبار في قوله :﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾[2] إلى قوله :﴿سِخْرِيًّا﴾[3] مستعمل في كون المتكلّم عالما بمضمون الخبر بقرينة أنّ المخاطب يعلم أحوال نفسه . و تأكيد الخبر بـــ (إنّ) و ضمير الشّأن للتّعجيل بإرهابهم.[4]

12 ــ التّذكير:

و قوله تعالى :﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾[5] المقصود منها قرع أسماعهم بهذا الكلام .

و كون نار جهنّم أشدّ حرّا من حرّ القيظ أمر معلوم لا يتعلّق الغرض بالإخبار عنه . فتعيّن أنّ الخبر مستعمل في التّذكير بما هو معلوم تعريضا بتجهيلهم لأنّهم حُذّروا من حرّ قليل و أقحموا أنفسهم فيما يصير بهم إلى حرّ أشدّ. فيكون هذا التّذكير أشدّ كناية عن كونهم واقعين في نار جهنّم لأجل قعودهم عن الغزو في الحرّ ، و فيه كناية عرضيّة عن كونهم صائرين إلى نار جهنّم.[6]

ــ التّذكير و الاستدلال:

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 11، ص : 20 .

[2] - المؤمنون :109.

[3] - المؤمنون :110.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18، ص : 129 .

[5] - التّوبة :81 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 10، ص : 281 .

و منه قوله تعالى :﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[1] و فيه ضرب من الاستدلال على مكابرتهم ، فإنّهم لو أرادوا الحقّ لكان لهم في دلالة ما هو منهم غُنية عن تطلّب خوارق العادات .

و الخبر مستعمل في التّذكير و الاستدلال لأنّ مدلول هذه الأخبار معلوم لديهم.[2]

الإعلام :

و ذلك قوله تعالى :﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[3] هو إعلام للمخاطبين بأنّ تكذيبهم لا يلحقه منه ما فيه تشفٍّ منه؛ فإن كان من كلام إبراهيم فالمراد بالرّسول إبراهيم سلك مسلك الإظهار في مقام الإضمار لإيذان عنوان الرّسول بأنّ و اجبه إبلاغ ما أرسِل به بيّنا واضحا ، و إن كان من خطاب الله مشركي قريش فالمراد بالرّسول محمّد صلّى الله عليه و سلّم ، و قد غلب عليه هذا الوصف في القرآن مع الإيذان بأنّ عنوان الرّسالة لا يقتضي إلاّ التّبليغ الواضح.[4]

ـــ الإيقاظ و التّحذير :

و منه قوله تعالى :﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾[5] خبر مستعمل في الإيقاظ و التّحذير على وجه الكناية . فإنّ كون رسول الله صلّى الله عليه و سلّم بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يُخبر عنه فالمقصود تعليم المسلمين باتّباع ما شرع لهم رسول الله صلّى الله عليه

[1] - الحجر :16.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص: 27 .

[3] - العنكبوت :18.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 20، ص : 227 .

[5] - الحجرات : 7.

و سلّم من الأحكام و لو كانت غير موافقة لرغباتهم.[1]

ـــ التّنديم :

و ذلك قوله تعالى :﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [2] فهي خبر مستعمل في التّنديم على ما حلّ بالمكذّبين المخاطَبين من ضرّ ليعلموا أنّ ذلك عقاب من الله تعالى ، فيقلعوا عنه خشية أن يحيط بهم ما هو أشدّ منه ، كما يؤذن به قوله عقب ذلك﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .[3]

ـــ العتاب :

و ذلك قوله :﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [4] فصيغة الخبر مستعملة في العتاب على الغفلة عن المقصود الذي تضمّنه الخبر و هو اقتصار النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم على الاعتناء بالحرص على تبليغ الدّعوة إلى من يرجو منه قبولها مع الذّهول عن التّأمّل فيما يقارن ذلك من تعليم من يرغب في علم الدّين ممّن آمن ، و لما كان صدور ذلك من الله لنبيّه صلّى الله عليه و سلّم لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنّه المقصود بالكلام ، فوجّهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أوّل ما يقرع سمعه باعثا على أن يترقّب المعنيّ من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب و هذا تلطّف من الله برسوله ليقع العتاب في نفسه مدرجا و ذلك أهون وقعا .[5]

ـــ قطع العذر :

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 234 .

[2] - الرّوم :41.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 21، ص : 109 .

[4] - عبس : 1 - 2.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 30 ، ص: 105 .

و ذلك قوله تعالى :﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ [1] فهو خبر مستعمل في قطع العذر و ليس مستعملا في إفادة الحكم لأنّ كون ما سبق إنذارا أمر معلوم للمخاطَبين . و افتتح الخبر بحرف التّأكيد للمبالغة في الإعذار بتتريلهم مترلة من يتردّد في ذلك.

و جعل المسند فعلا مسندا إلى الضّمير المنفصل لإفادة تقوّي الحكم ، مع تمثيل المتكلّم في مثل المتبرّي من تبعة ما عسى أن يلحق المخاطَبين من ضُرّ ، إن لم يأخذوا حذرهم ممّا أنذرهم به كما يقول النّذير عند العرب بعد الإنذار بالعدوّ : " أنا النّذير العريان" .[2]

13 ــ أغراض متنوّعة :

ــ الجزع:

و قوله تعالى :﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ من الآية الكريمة:﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [3] أكّد هذا الخبر لشدّة الاهتمام به ، و هو مستعمل في معنى الجزع.[4]

ــ التّجهيل :

و ذلك قوله تعالى:﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ من الآية الكريمة:﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [5] تجهيل لهم و رغم لغرورهم و إعجابهم بالباطل.و جواب (لو) محذوف دلّ عليه ما قبله.و التّقدير : لو تشعرون لشعرتم بأنّ حسابهم على الله ، لا عليّ فَلَمَا سألتمونيه و دلّ على أنّه جهّلهم قوله في

[1] - النّبأ : 40.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 30 ، ص:55 .

[3] - الشّعراء : 61.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 19، ص : 135 .

[5] - الشّعراء :113.

سورة "هود" : ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ [1] . هذا هو التّفسير الذي يطابق نظم الآية و معناها من غير احتياج إلى زيادات و فروض.[2]

ـــ الاعتذار و التّمهيد:

و ذلك قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ من الآية الكريمة:﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [3] فهو خبر مستعمل في الاعتذار و التّمهيد،لأنّه يريد أن يسأل سؤالا لا يدري قبوله ، و لكنّه اقتحمه لأنّ المسؤولَ له من أهله فله عذر الشّفقة عليه .[4]

ـــ التّمثيل في التّيسير:

و ذلك قوله تعالى :﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [5] خبر غير مقصود منه إفادة الحكم بل هو مستعمل مجازا مركّبا في لازم معناه و هو الاستدلال على ضمان رزق المتوكّلين من المؤمنين . و تمثيله للتّقريب بضمان رزق الدّوابّ الكثيرة التي تسير في الأرض لا تحمل رزقها،و هي السّوائم الوحشيّة ، و القرينة على هذا الاستعمال هو قوله:﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ الذي هو استئناف بيانيّ لبيان و جه سوق قوله:﴿ وَكَأَيِّن مِّن

---

[1] - هود : 29.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 162 .

[3] - هود :45.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 12، ص : 84 .

[5] - العنكبوت :60.

دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ﴾ و لذلك عطف﴿وَإِيَّاكُمۡ ﴾ على ضمير ﴿دَآبَّةٍ ﴾. و المقصود : التّمثيل في التّيسير و الإلهام للأسباب الموصلة و إن كانت وسائل الرّزق مختلفة.[1]

ـــ التّلهّف و التّحسّر و الإشفاق:

إذ إنّ قول القرين من قوله تعالى :﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [2] مستعمل في التّلهّف و التّحسّر و الإشفاق لأنّه لّما رأى ما به من العذاب علم أنّه قد هُيّئ له[3] ، أو لّما رأى ما قدّم إليه قرينه علم أنّه لا حقٌ على أثره كقصّة الثّوريْن الأبيض و الأحمر اللّذيْن استعان الأسد بالأحمر منهما على أكل الثّور الأبيض ثمّ جاء الأسد بعد يوم ليأكل الثّور الأحمر ، فعلا الأحمر ربوة و صاح " ألاَ إِنَّمَا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ".[4]

ـــ التّذمّر و التّضجير و التّأييس:

و من ذلك الجملة:﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾ من قوله تعالى :﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [5] فهي خبر مستعمل في التّذمّر و التّضجير و التّأييس من الاقتناع ، أجابهم بالمبادرة لبيان العذاب ، لأنّ ذلك أدخلُ في الموعظة فبادر به ثمّ عاد إلى بيان مجادلته.[6]

ـــ الوعد :

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 21، ص : 25 .

[2] - ق : 23.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 311 .

[4] - جمهرة أمثال العرب : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ ، ضبطه و كتب هوامشه و نسّقه :د. أحمد عبد السّلام ، ط1 ، دار الكتب العلميّة ، 1408 هـــ / 1988 م ، 1 / 61 . و فيه بدل : الثّور الأبيض : الثّور الأسود .

[5] - هود :32.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 12، ص : 60 .

و منه قوله تعالى :﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[1]

الخبر مستعمل مجازا في وعد الرّسول صلّى الله عليه و سلّم بأنّ الله سيعاقب أعداءه.[2]

ـــ الإلهاب و تحريك الهمم :

و منه قوله تعالى :﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾[3] فالخبر في قوله:﴿ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾إلى قوله:﴿ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ مستعمل في الإلهاب و تحريك الهمم لمراعاة الإيمان و كراهة الكفر و الفسوق و العصيان ، أي إن كنتم أحببتم الإيمان و كرهتم الكفر و الفسوق و العصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدّين يصدّ عنه و كان الفسوق و العصيان يدعو إليه . و في هذا إشارة إلى أنّ الاندفاع إلى تحصيل المرغوب من الهوى دون تمييز بين ما يرضي الله و ما لا يرضيه أثر من آثار الجاهليّة من آثار الكفر و الفسوق و العصيان.[4]

ـــ الإلهاب و الإفحام :

و منه قوله تعالى :﴿ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[5]

إلهاب و إفحام لهم بأنّهم غير آتين بحجّة لا من جانب العقل و لا من جانب النّقل المسطور أو المأثور .[6]

---

[1] - ق : 45.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 333 .

[3] - الحجرات : 7 - 8.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 237 .

[5] - الأحقاف : 4.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 11 .

ـــ التّثبيت :

و منه قوله تعالى :﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [1] و تأكيد الخبر بـــ (إنّ) للاهتمام به لأنّ الخبر مستعمل في تثبيت قلب النبيّ صلّى الله عليه و سلّم بالشّهادة له بهذا المقام العظيم فالخبر مستعمل في لازم معناه ، على أنّه مستعمل أيضا للتّعريض بالمنكرين لهدْيه فيكون في التّأكيد ملاحظة تحقيقه و إبطال إنكارهم.

فكما أنّ الخبر مستعمل في لازمين من لوازم معناه فكذلك التّأكيد بـــ (إنّ) مستعمل في غرضين من أغراضه ، و كلا الأمرين ممّا ألحق باستعمال المشترك في معنييْه.[2]

ـــ التّشكيك :

و منه قوله تعالى :﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [3] هذا الخبر مستعمل في معنى التّشكيك أي لعلّه فعَلَه كبيرهم ، إذ لم يقصد إبراهيم نسبة التّحطيم إلى الصّنم الأكبر،لأنّه لم يدَّع أنّه شاهَد ذلك ، و لكنّه جاء بكلام يفيد ظنّه بذلك حيث لم يبق صحيحا من الأصنام إلاّ الكبير.[4]

التّشريع :

و منه قوله تعالى :﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [5] يقول ابن عاشور :

---

[1] - الشّورى :52.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 155 .

[3] - الأنبياء : 63 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 17، ص : 100 – 101 .

[5] - البقرة :233.

« و جملة :﴿يُرْضِعْنَ﴾ خبر مراد به التّشريع ، و إثبات حقّ الاستحقاق ، و ليس بمعنى الأمر للوالدات و الإيجاب عليهنّ ؛ لأنّه قد ذكر بعد أحكام المطلّقات ، و لأنّه عقّب بقوله :﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ﴾ [1] فإنّ الضّمير شامل للآباء و الأمّهات ، على وجه التّغليب ».[2]

و كذلك قوله تعالى :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [3] خبر مراد به التّشريع . و دخول حرف (إنّ) عليه لا ينافي إرادة التّشريع إذ موقع (إنّ) هنا مجرّد الاهتمام ، و الاهتمام يناسب كلاًّ من قصْد الإخبار و قصْد الإنشاء ، و لذلك عطفت على مفعول:﴿أَحْلَلْنَا﴾ معطوفات قُيّدت بأوصاف لم يكن شرعها معلوما من قبل.[4]

ثامنا:الخبر الكنائي:

يكثر في القرآن الكريم استعمال الأخبار بالمعنى الكنائي الذي يتغيّر من جملة إلى أخرى ، و تؤثّر المناسبة في توجيهه حسب المقام الذي ورد بشأنه ، و الكناية كما هو معلوم : لفظ أطلق و المراد لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصليّ[5] ، و من الأغراض التي استوقفت ابن عاشور في هذا الشّأن:

ــ الكناية عن الوعيد :

---

[1] - البقرة :233.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 2 ، ق 2، ص: 430 .

[3] - الأحزاب : 50.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 22، ص: 63 .

[5] - المطوّل : 630 .

و منه قوله تعالى :﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾[1] يقول ابن عاشور : «و هذا الخبر كناية عن الوعيد بجزائهم عن سوء صُنعهم لأنّ قول القادر ما أنا بغافل عن المجرم تحقيق لعقابه إذ لا يحول بين الجزاء إلاّ عدم العلم فلذلك كان وعيدا لهم و وعيدهم يستلزم في المقام الخطابيّ وعدا للمسلمين لدلالته على عظيم مترلتهم فإنّ الوعيد إنّما يترتّب على مخالفتهم للمؤمنين فلا جرم أن سَيلزم جزاءٌ للمؤمنين على امتثال تغيير القبلة ، و لأنّ الذي لا يغفل عن عمل أولئك لا يغفل عن عمل هؤلاء فيجازي كلاّ بما يستحقّ ».[2]

و مثله قوله تعالى :﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾[3] يقول ابن عاشور : « و جملة :﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ خبر مستعمل كناية عن الوعيد بالمؤاخذة بما يخفون و ما يظهرون من الإنكار و الاستكبار و غيرها مؤاخذة عقاب و انتقام فلذلك عقّب بجملة:﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ الواقعة موقع التّعليل و التّذييل لها ، لأنّ الذي لا يحبّ فعلا و هو قادر يجازي فاعله بالسّوء».[4]

ـــ الكناية عن التّحذير : و فائدة الإخبار في قوله تعالى :﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾[5] بأنّ الله يعلم ما توسوس به نفس كلّ إنسان التّنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلّها فإذا كان يعلم حديث النّفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم.

---

[1] - البقرة :144.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 2، ق1 ، ص: 35 .

[3] - النّحل : 23 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص: 129 .

[5] - ق : 16.

و الإخبار عن فعل الخلق بصيغة المضيّ ظاهر ، و أمّا الإخبار عن علم ما توسوس به النّفس بصيغة المضارع فللدّلالة على أنّ تعلّق علمه تعالى بالوسوسة متجدّد غير منقض و لا محدود إثبات عموم علم الله تعالى ، و الكناية عن التّحذير من إضمار ما لا يُرضي الله.[1]

ـــ الكناية عن الرّضى :

و تأكيد الخبر بأنّ الله يعلم أنّك تقوم في قوله تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾[2] مراد به الكناية عن الرّضى عنهم صلّى الله عليه و سلّم فيما فعلوا.[3]

الكناية عن المؤاخذة :

و منه قوله تعالى :﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[4] و الخبر كناية عن مؤاخذهم بما يقولون أي إنّا مُحصون عليهم أقوالهم و ما تسرّه أنفسهم ممّا لا يجهرون به فنؤاخذهم بذلك كلّه بما يكافئه من عقابهم و نصرك عليهم و نحو ذلك .[5]

ـــ الكناية عن الإعراض :

و ذلك قوله :﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[6] فهو خبر مستعمل كناية عن إعراضهم عن الشّريعة ، و أنّهم مع ما شدّد عليهم

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 299 .

[2] - المزّمّل : 20.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 29 ، ص: 282 .

[4] - يس : 76 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 23، ص: 72 .

[6] - المائدة :94.

في شأن القتل و لم يزالوا يقتلون ، كما أشعر به قوله :﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ، أي بعد أن جاءهم رسلنا بالبيّنات .[1]

و يجوز أن يكون العجب قد حصل من النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم لّما رأى إعراضهم و قلّة إنصافهم فيكون الخبر مستعملا في حقيقته .[2]

ــ الكناية عن التّفويض :

و منه قوله تعالى :﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[3] هذا الخبر يفيد كناية عن تفويض الأمر في العمل بجزائهم إلى الله ، كأنّه يقول : و ماذا أستطيع أن أعمل معكم فإنّي رسول من الله فحسابكم على الله .[4]

ــ الكناية عن التّحريض :

ومنه قوله تعالى :﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[5]

و تأكيد الخبر بـــ (إنّ) للاهتمام و مجرّد تحقيقه للنّبيّ صلّى الله عليه و سلّم و المؤمنين ، و هذا الاهتمام كناية عن التّحريض للحذر من مكرهم و عدم الرّكون إليهم لظهور عداوتهم لئلاّ يركنوا إليهم ، و لعلّ اليهود قد أخذوا يومئذ في تشكيك المسلمين و اختلطوا بهم في مكّة ليتطلّعوا حال الدّعوة المحمّديّة.[6]

ــ الكناية عن المساواة:

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 6 ، ص: 179 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 23، ص: 96 .

[3] - فصّلت : 6.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 24، ص: 237 .

[5] - الشّورى : 14 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 59 .

و من ذلك قوله تعالى :﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [1] فهو خبر مستعمل كناية عن المساواة في أصل النّوع الإنسانيّ ليتوصّل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل و المزايا التي ترفع بعض النّاس على بعض كناية بمرتبتيْن . و المعنى المقصود من ذلك هو مضمون جملة :﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [2] فتلك الجملة تتترّل من جملة : ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ مترل المقصد من المقدّمة و النتيجة من القياس و لذلك فصلت لأنّها بمترلة البيان.[3]

ـــ الكناية عن الإعجاب:

و تأكيد الفعل بلام القسم و بـــ (قد) في قوله تعالى :﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [4] مع أنّهم غير منكرين لمجيء الرّسل : إمّا لأنّه كناية عن الإعجاب بمطابقة ما وعدهم به الرّسل من النّعيم لما وجدوه مثل قوله تعالى : و قول النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم : « أعددْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأتْ وَ لاَ أذُنٌ سَمِعَتْ وَ لاَ خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ » ، و إمّا لأنّهم أرادوا بقولهم هذا الثّناء على الرّسل و الشّهادة بصدقهم جَمْعا مع الثّناء على الله ، فأتوا بالخبر في صورة الشّهادة المؤكّدة التي لا تردّد فيها.[5]

ـــ كناية التّعجيب :

---

[1] - الحجرات : 13.

[2] - الحجرات : 13.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص : 261 .

[4] - الأعراف :43.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ق2 ، ص: 133 .

و الخبر في قوله تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾[1] مستعمل كناية في التّعجيب من عنادهم و بهتانهم ، و ليس المقصود إفادة الإخبار عنهم بذلك لأنّه أمر معلوم من شأنهم .[2]

ـــ الإيذان :

و منه قوله تعالى :﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[3] و معنى الآية و رضيت لكم الإسلام دينا اليوم . و إذ قد كان رضى الإسلام دينا للمسلمين ثابتا في علم الله ذلك اليوم و قبله ، تعيّن التّأويل في تعليق ذلك الظّرف (رضيت) فتأوّله صاحب الكشّاف بأنّ المعنى : آذنتكم بذلك في هذا اليوم ، أي أعلمتكم : يعني أي هذا التّأويل مستفاد من قوله (اليوم) ، لأنّ الذي حصل في ذلك اليوم هو إعلان ذلك ، و الإيذان به ، لا حصول رضى الله به دينا لهم يومئذ ، لأنّ الرّضى به حاصل من قبل .[4] و إذا كان كذلك الخبر على معنى الإيذان من دلالته على لازم من لوازم معناه بالقرينة المعينة ، فيكون من الكناية في التّركيب . و لو شاء أحد أن يجعل هذا من استعمال الخبر في لازم الفائدة ، فكما استُعمل الخبر كثيرا في الدّلالة على كون المخبِر عالما به ، استعمل هنا في الدّلالة على الإعلام و إعلانه.[5]

---

[1] - الفرقان :60.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 19، ص : 62 .

[3] - المائدة : 3 .

[4] - الكشّاف : 1 / ص:239 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 6 ، ص: 108 .

الفصل الثّالث

بلاغة الجملتين (القصر)

تمهيد :

الأصل في كلّ جملة أن تتناول حكما واحدا إمّا بالإيجاب ، و إمّا بالسّلب فنقول – مثلا - : "حفظ زيدٌ الدّرس " فهذه الجملة تتضمّن حكما إيجابيّا و هو ثبوت حفظ الدّرس لزيد ، و إذا قلنا : " لم يحفظ عمرو الدّرس " ، فهذه الجملة تتضمّن حكما سلبيّا ، و هو نفي حفْظ الدّرس عن عمرو ، و في الأساليب العربيّة ثراء و سعة يمكّنان من أداء هذين الحكميْن المختلفيْن سلبا و إيجابا بجملة واحدة فنقول : " لم يحفظ الدّرس إلاّ زيدٌ " ، و بهذا نكون قد خصّصنا زيدا بحفظ الدّرس ، و نفينا ذلك الأمر عن عمرو بجملة واحدة أغنت عن التّكرار ، و أفادت المعنييْن في آن واحد .[1]

و يؤكّد ابن عاشور هذا الأمر متحدّثا عن تفسير قوله تعالى:﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[2] فيقول :"... و فيه جملة ذات قصر ، و القصر من الإيجاز لأنّه قائم مقام جملتين : جملة إثبات للمقصود ، و جملة نفيه عمّا سواه .[3]

و في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[4] أفادت (إنّما) القصر ، و لّما كان القصر يفيد مفاد خبريْن بإثبات شيء ، و نفي ضدّه كانت صيغة القصر هنا دالّة باعتبار أحد مفاديها على تأكيد جملة : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾[5] و قد كانت مُغنية عن الجملة المؤكّدة لولا أنّ المراد من تقديم تلك الجملة التّنويه بفضيلة المؤمنين ، فالكلام إطناب لقصد التّنويه

---

[1] - ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : 194 .

[2] - فاطر : 43 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22 ، ص : 336 .

[4] - التّوبة : 45.

[5] - التّوبة :44.

و التّنويه من مقامات الإطناب .[1]

و القصر في اللّغة الحبس ، و منه قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾[2] أي قد قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا يتعدّاه م إلى غيرهم ، و أمّا في الاصطلاح فهو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص[3] ، و لا بدّ في القصر من وجود مقصور و مقصور عليه[4]، و أداة القصر قيد و ليست شرطا لأنّ القصر قد يستفاد من غير أداة كالتّقديم و التّأخير ، و تعريف الجُزأين ، و هو عند علماء البلاغة إمّا قصر صفة على موصوف فلا تتعدّاه تلك الصّفة إلى غيره ، و إمّا قصر موصوف على صفة ، فليس يتّصف بغيرها ، و يكون هذا كلّه على سبيل الحقيقة فيكون القصر حقيقيّا ، و هو قسمان : حقيقيّ تحقيقيّ ، إذا كان يثبت صفة لأحد من دون أن يشاركه فيها أحد غيره ، أو حقيقيّ ادّعائيّ ، أي على سبيل المبالغة لشدّة اتّصاف ذلك الموصوف بها ، أو لعدم وجود من يدانيه فيها ، أو يكون على سبيل الإضافة ، أي بالنّسبة إلى آخرين فيكون القصر إضافيّا .[5] و ليست كلّ آية وافق ظاهرها أسلوب القصر فهي قصر كما في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[6] فلا يقوم إذ ليس ضدّ ذلك باعتقاد للمخاطَبين كيفما افترضتهم.[7]

افترضتهم.[7]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 212 .

[2] - الرّحمن : 72 .

[3] - مواهب الفتّاح : أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن محمّد بن يعقوب المغربيّ ، تحقيق : د . خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلميّة ، ط1 ، 1424 هـ / 2003 م ، 1 / 408 .

[4] - مفتاح العلوم : 156 .

[5] - دلالات التّراكيب (دراسة بلاغيّة) : د. محمّد محمّد أبو موسى ، ط3 ، مكتبة وهبة ، 1425 هـ / 2004 م ، ص : 46 – 47 .

[6] - الأنبياء : 35 .

[7] - التّحرير و التّنوير : م 7 ، ج 17 ، ص : 65 .

و ربّما اكتفى ابن عاشور بذكر الآية التي فيها قصر دون تحليلها ، و هو خلاف عادته مثل تفسيره قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ﴾[1] ، إذ صيغة القصر فيه لقصر الضّلال المفروض أي على نفسي لا عليكم لأنّهم كانوا يحاولون أن يقلع عمّا دعاهم إليه و لم يقتصروا على صدودهم .[2]

وكذلك قوله :﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ فالمقصود من القصر فيه أنّ قَبولهم النّذارة كان لفائدة أنفسهم ، ففيه تعريض بأنّ الذين لم يعبأوا بنذارته تركوا تزكية أنفسهم بها فكان تركهم ضرّا على أنفسهم.[3]

و جملة : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[4] تعليل لجملة :﴿ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾.و جيء بها في صيغة حصر لانحصار دعوته في الغاية المذكورة عقبها بلام العلّة كيلا يتوهّم أنّ دعوته تخلو من تلك الغاية و لو في وقت ما .

و مقتضى وقوع فعل (يدعو) في حيّز القصر أنّ مفعوله و هو قوله(حزبه) هو المقصود من القصر ، أي أنّه يدعو حزبه و لا يدعو غير حزبه ، و الشّيطان يدعو النّاس كلّهم سواء في ذلك حزبه و من لم يكن إلى دعوته إلاّ أنّ أثر دعوته لا يظهر إلاّ في الذين يركنون له فيصيرون حزبه[5]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[6] .

أوّلا: طرق القصر:

---

[1] - سبأ : 50 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 22 ، ص : 240 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 22 ، ص : 291 .

[4] - فاطر : 6 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 22 ، ص : 261 .

[6] - الحجر : 43 .

تتعدّد طرق القصر عند ابن عاشور خلافا لبعض العلماء الذين حصروها في أربعة طرق

و التّفتازاني سبق ابن عاشور إلى هذا الرّأي عندما قال : "و للقصر طرق و المذكور هاهنا أربعة و قد يحصل القصر بتوسيط ضمير الفصل و تعريف المسند ، و بنحو قولك : زيد مقصور على القيام و مخصوص به ، و ما أشبه ذلك فكأنّهم جعلوا القصر بحسب الاصطلاح عبارة عن تخصيص يكون بطريق من هذه الطّرق الأربعة (إنّما ، النّفي و الاستثناء ، لا ، و لكن) ، و يمكن أن يجعل الفصل و تعريف المسند أيضا من طرق القصر".[1] و قد زاد بعضهم ــ كما هو الشّأن مع ابن عاشور ــ مباحث التّقديم و جعلها طرقا فذكر من طرقه تقديم المسند إليه و تقديم المسند .

و تقديم المتعلّقات ، كلّ واحد منها طريق ، و هكذا حتى صار عند بعضهم أربعة عشر طريقا

و لكن ذلك كلّه غير مشهور ، و الذي عليه جمهور المتأخّرين هو هذه الطّرق الأربعة لا لأنّها وحدها تفيد القصر ، و لكن لأنّها هي التي يدور حولها البحث في هذا الباب ، و دلالة غيرها على القصر لا مشاحّة فيها .[2] و سوف نجد أنّ ما ذهب إليه ابن عاشور من تعدّد الطّرق قد استطاع أن يقم الدّليل على صحّته بتحليلاته العميقة ، و عنايته بالمناسبات و العلائق القائمة بين أجزاء الآية .

1 ــ التّقديم :

أ ــ تقديم المسند إليه :

الأصل في المسند إليه أن يقدّم ، و مع ذلك لاحظ ابن عاشور أنّ في تقديمه معنى الحصر ، و مثاله قوله تعالى : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[3] و الكلام يفيد القصر إمّا بطريق تقديم المسند إليه بأن أتِي به ضميرا بارزا مع أنّ مقتضى الظّاهر أن يكون ضميرا مستترا في اسم المفعول مقدّرا مؤخّرا عنه لأنّه

[1] - المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم : سعد الدّين مسعود بن عمر التّفتازانيّ ، تحقيق : د . عبد الحميد هنداوي ،دط، دار الكتب العلميّة ، 2013 م ، ص : 388 .

[2] - الإتقان في علوم القرآن : 2 / 50 . و ينظر : دلالات التّراكيب : 47 .

[3] - القلم : 27 .

لا يتصوّر إلاّ بعد سماع متحمّله. فلمّا أبرِز الضّمير و قُدّم كان تقديمه مؤذنا بمعنى الاختصاص ، أي القصر و هو قصر إضافيّ . و هذا من مستتبعات التّراكيب و التّعويل على القرائن .[1]

و كذلك تقديم المبتدأ على خبره في قوله تعالى :﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾[2] و الذي هو فعل يفيد القصر ، و هو قصر قلب للرّدّ عليها و كان مع العزيز رجل من أهل امرأته ، و هو الذي شهد و كان فطنا عارفا بوجوه الدّلالة.[3]

ب ــ تقديم المسند :

و تقديم المسند على المسند إليه في قوله تعالى :﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[4] لإفادة الحصر ، و هو حصر ادّعائيّ إذ لا اعتداد بما يجمعه الملوك و الفاتحون من الجنود لغلبة العدوّ بالنّسبة لما لله من الغلبة لأعدائه و النّصر لأوليائه .[5]

وتقديم المسند على المسند إليه في قوله تعالى :﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6] لإفادة تخصيصه بالمسند إليه ، أي قصر تعلّق لام الاستحقاق بالملك عليه تعالى ، فلا ملك لغيره و هو قصر ادّعائيّ مبنيّ على عدم الاعتداد بما لغير الله من ملك ، لنقصه و عدم خلوّه عن الحاجة إلى غيره من هو له بخلاف ملكه تعالى ، فهو الملك المطلق الدّاخل في سلطانه كلّ ذي ملك .[7]

[1] - التّحرير و التّنوير : م12 ، ج29 ، ص : 86 .
[2] - يوسف : 26 .
[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 12 ، ص : 257 .
[4] - الفتح : 4 .
[5] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 26 ، ص : 151 .
[6] - التّغابن : 1 .
[7] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج 28 ، ص :261 .

و صيغة :﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ [1] صيغة قصر بسبب **تعريف المسند** فتفيد قصر صفة الصّمديّة على الله تعالى ، و هو قصر قلب لإبطال ما تعوّده أهل الشّرك في الجاهليّة من دعائهم أصنامهم في حوائجهم و الفزع إليها في نوائبهم حتى نسوا الله .[2]

و تقديم المسنديْن على المسند إليهما في :﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾[3] لقصر المسند إليه على المسند ، أي : ما كسبت الأمّة لا يتجاوزها إلى غيرها و ما كسبتم لا يتجاوزكم ، و هو قصر إضافيّ لقلب اعتقاد المخاطَبين فإنّهم لغرورهم يزعمون أنّ ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي أو يحمله عنهم أسلافهم .[4]

ج ــ تقديم المفعول به :

تقديم المفعول به في قوله تعالى :﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[5] متعيّن للاختصاص ليحصل من الجملة إثبات و نفي ، و اختير من طرق القصر طريق التّقديم دون (ما و إلاّ) ليكون الحاصل بالمنطوق هو الأمر بِرهْبة الله تعالى ، و يكون النّهي عن رهبة غيره حاصلا بالمفهوم ، فإنّهم إذا رهِبوا الله تعالى حرصوا على الإيفاء بالعهد ، و لّما كانت رهبتهم أحبارهم تمنعهم من الإيفاء بالعهد ، أدمج النّهي عن رهبة غير الله مع الأمر برهبة الله تعالى في صيغة واحدة .

و تقديم المفعول مع اشتغال فعله بضميره آكد في إفادة التّقديم الحصر من تقديم المفعول على الفعل غير المشتغل بضميره ،(**فإيّاي فارهبون**) آكد من نحو (**إيّاي ارهبوا**) كما أشار إليه صاحب الكشّاف إذ قال : " و هو من قولك : زيدا رهبته و هو أوكد في إفادة الاختصاص من

[1] - الإخلاص : 2 .
[2] - التّحرير و التّنوير : م12، ج 30، ص : 618 .
[3] - البقرة : 134 .
[4] - التّحرير و التّنوير : م1، ج 1، ص : 735 .
[5] - البقرة : 40 .

إيّاك نعبد.[1] " و وجهه عندي أنّ تقيم المفعول يحتمل الاختصاص ، إلاّ أنّ الأصل فيه أن يدلّ على الاختصاص إلاّ إذا أقامت القرينة على التقوّي ... [2]

د ــ تقديم النّفي :

و في قوله تعالى :﴿ **مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾[3] إنّما قال في جانب السّيّئة :﴿ **فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا** ﴾ بصيغة الحصر لأجل ما في صيغته من تقديم جانب النّفي ، اهتماما به ، لإظهار العدل الإلهيّ ، فالحصر حقيقيّ ، و ليس في الحصر الحقيقيّ ردّ اعتقاد بل هو إخبار عمّا في نفس الأمر ، و لذلك كان يساويه أن يُقال :

"و من جاء بالسّيّئة فيُجْزى مثلها ، لولا الاهتمام بجانب نفي الزّيادة على المماثلة . و نظيره قول النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم حين سألته هند بنت عتبة فقالت :إنّ أبا سفيان رجل مَسِيك فهل عليّ حرج أن أطْعِم مِنَ الذي له عيالَنا ، فقال لها : "**أطْعِمِيهم بالمعْرُوفِ** ". و قد جاء على هذا المعنى قول النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم : " **وَ منْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِندَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، و إنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله سَيِّئَةً وَاحِدَةً**"[4] ؛ فأكّدها بواحدة تحقيقا لعدم الزّيادة في جزاء السّيّئة.[5]

هــ ــ تقديم الجارّ و المجرور :

[1] - الكشّاف : 1 / 159 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 454 – 455 .

[3] - الأنعام : 160 .

[4] - رواه البخاريّ عن أبي رجاء العطارديّ و ابن عبّاس ــ رضي الله عنهما ــ ، كتاب الرّقاق ، باب : من همّ بحسنة أو بسيّئة ، ص :1416 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ص : 196 .

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ﴾[1] و لإضافة الدّعوة إلى الحقّ إمّا من إضافة الموصوف إلى الصّفة إن كان الحقّ بمعنى مصادفة الواقع ، أي الدّعوة التي تصادف الواقع ، أي استحقاقه إيّاها ، و إمّا من إضافة الشّيء إلى منشئه كقولهم : برود اليمن ، أي الدّعوة الصّادرة عن حقّ و هو ضدّ الباطل فإنّ دعاء الله يصدر عن اعتقاد الوحدانيّة و هو الحقّ ، و عبادة الأصنام تصدر عن اعتقاد الشّرك و هو الباطل . و اللاّم للملك المجازي و هو الاستحقاق . و **تقديم الجارّ و المجرور** على المبتدأ لإفادة التّخصيص،أي دعوة الحقّ ملكه لا ملك غيره ، و هو قصر إضافيّ.[2]

و **تقديم المجرور** في قوله تعالى : ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[3] للاختصاص ، أي له من في السّماوات و الأرض لا لغيره و هو قصر إفراد ردّا على المشركين الذين جعلوا لله شركاء في الإلهيّة .[4]

و**تقديم المجرور** في قوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[5] لإفادة قصر القلب و هو قصر للازم قولهم لا لصريحه لأنّ المنافقين لمّا قالوا :﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾[6] حسبوا أنّهم إذا قطعوا الإنفاق على من عند رسول الله لا يجد الرّسول صلّى الله عليه و سلّم ما يُنفق منه عليهم ، فأعلم الله رسوله مباشرة و أعلمهم تبعا بأنّ ما عند الله من الرّزق أعظم و أبقى .[7]

---

[1] - الرّعد : 14 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م6 ، ج 13 ، ص : 108 .

[3] - الأنبياء : 19 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 7 ، ج 17 ، ص : 35 .

[5] - المنافقون : 7 .

[6] - المنافقون : 7 .

[7] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج 28 ، ص : 248 .

و تقديم متعلّق (تُحشرون) عليه من قوله تعالى :﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[1] لإفادة الاختصاص أي : إليه لا إلى غيره تُحشرون و هذا الاختصاص للكناية عن انعدام ملجإ أو مخبإ تلتجئون إليه من الحشر إلى الله فكنّي عن انتفاء المكان بانتفاء محشور إليه غير الله بأبدع أسلوب ، و ليس الاختصاص لردّ اعتقاد ، لأنّ المخاطَبين بذلك هم المؤمنون ، فلا مقتضى لقصر الحشر على الكون إلى الله بالنّسبة إليهم .[2]

و ـــ تقديم المجروريْن :

تقديم المجرورين في قوله تعالى :﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾[3] اختياريّ فلا بدّ له من غرض . و الغرض يحتمل مجرّد الاهتمام و يحتمل الاختصاص . و حيث تأتّى معنى الاختصاص هنا فاعتباره أليق بأبلغ كلام،و لذلك جرى عليه كلام الكشّاف.[4] و عليه فمعنى الكلام : قصر نفي حسابهم على النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم ، ليفيد أنّ حسابهم على غيره و هو الله تعالى . و ذلك هو مفاد القصر الحاصل بالتّقديم إذا وقع في سياق النّفي ، و هو مفاد خفيَ على كثير لقلّة وقوع القصر بواسطة التّقديم في سياق النّفي . و مثاله المشهور قوله تعالى :﴿لَا فِيهَا غَوۡلٌ﴾[5] فإنّهم فسّروه بأنّ عدم الغوْل مقصور على الاتّصاف بما في خمور الجنّة فالقصر قصر قلب .[6]

2 ـــ تعريف الجنس :

[1] - الأنفال : 24 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4، ج 9 ، ص : 316 .

[3] - الأنعام : 52 .

[4] - الكشّاف :

[5] - الصّافّات : 47 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص : 250 .

و من طرق القصر تعريف الجنس و هو من أبلغ طرقه و منه قوله تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1] يقول ابن عاشور : ردّ عليهم في غرورهم و حصرهم أنفسهم في الصّلاح فردّ عليهم بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه من الطّريق الذي قالوه لأنّ تعريف المسند يفيد قصر المسند على المسند إليه فيفيد قوله :﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ قصر الإفساد عليهم بحيث لا يوجد في غيرهم ، و ذلك ينفي حصرهم أنفسهم في الإصلاح و ينقضه و هو جار على قانون النّقض ، و على أسلوب القصر الحاصل بتعريف الجنس و إن كان الرّدّ قد يكفي فيه أن يقال : إنّهم مفسدون بدون صيغة قصر ، إلاّ أنّه قصر ليفيد ادّعاء نفي الإفساد عن غيرهم .

و قد يفيد ذلك أنّ المنافقين ليسوا ممّن ينتظم في عداد المصلحين ، لأنّ شأن المفسد عرفا أن لا يكون مصلحا إذ الإفساد هيّن الحصول ، و إنّما يصدّ عنه الوازع فإذا خلع المرء عنه الوازع و أخذ في الإفساد ، هان عليه الإفساد ثمّ تكرّر حتى يصبح سجيّة و دأبا لا يكاد يفارق موصوفَه .[2]

3 ــ ضمير الفصل :

و أمّا القصر في قوله :﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ المستفاد من **ضمير الفصل** فهو قصر ادّعائيّ لعدم الاعتداد بباطل غيرها حتى كأنّه ليس من الباطل . و هذا مبالغة في تحقير أصنامهم لأنّ المقام مقام مناضلة وتوعّد ، و إلاّ فكثير من أصنام و أوثان غير العرب باطل أيضا .[3]

و منه قوله تعالى :﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [4] و توسيط ضمير الفصل بقوله :﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ لزيادة تقوية الخبر ، و ليس بمفيد للقصر ، إذ لا مقتضى له

[1] - البقرة : 12 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 285 – 286 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 7 ، ج 17 ، ص : 316 .

[4] - طه : 14 .

هنا لأنّ المقصود الإخبار بأنّ المتكلّم هو المسمّى الله ، فالحمل حمل مواطاة لا حمل اشتقاق . و هو كقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[1]

و جملة خبر ثان عن اسم (إنّ) و المقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانيّة الله تعالى .[2]

و في قوله تعالى :﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3]

و الضّمير في قوله : **ضمير الفصل** ، لإفادة قصر المسند على المسند إليه ، فالأعلميّة بالضّالّين و المهتدين مقصورة على الله تعالى ، لا يشاركه فيها غيره ، و وجه هذا القصر أنّ النّاس لا يشكّون في أنّ علمهم بالضّالّين و المهتدين علم قاصر ، لأنّ كلّ أحد إذا علم بعض أحوال النّاس تخفى عليهم أحوال كثير من النّاس ، و كلّهم يعلم قصور علمه ، و يتحقّق أنّ ثمّة من هو أعلم من العالم منهم ، لكنّ المشركين يحسبون أنّ الأعلميّة وصف لله تعالى و لآلهتهم ، فنفى بالقصر أن يكون أحد يشارك الله في وصف الأعلميّة المطلقة.[4]

و ضمير (هي) **ضمير فصل** في قوله تعالى :﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [5] ، و هو هنا لتقوية الحكم لا الحصر .[6]

و **ضمير الفصل** في قوله :﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[7] توكيد للحصر الذي أفاده تعريف الجزأيْن ، و هو حصر ادّعائيّ لعدم الاعتداد بغنى غيره و لا بحمده ، أي هو الغنيّ عن

---

[1] - المائدة : 17 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 7 ، ج16 ، ص : 200 .

[3] - الأنعام : 117 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ص : 29 .

[5] - المزّمّل : 6 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م12 ، ج29 ، ص : 263 .

[7] - الممتحنة : 6 .

المتولّين لأنّ النّهي عمّا نهوا عنه إنّما لفائدتهم لا يفيد الله شيئا فهو الغنيّ عن كلّ شيء .[1]

و أفاد **ضمير الفصل** في قوله تعالى :﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [2] القصر و هو قصر إفراد إشارة إلى أنّ بينهم فريقا ليسوا براشدين ، و هم الذين تلبّسوا بالفسق حين تلبُّسِهم به فإن أقلعوا عنه التحقوا بالرّاشدين .[3]

4 ــ تعريف المسند باللاّم:

و في قوله تعالى :﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾[4] و تعريف **المسند باللاّم** مقتض تخصيصه بالمسند إليه ، أي قصر الغنى على الله ، و هو قصر ادّعائيّ باعتبار أنّ غنى غير الله تعالى لمّا كان غنى ناقصا نُزّل منزلة العدم ، أي ربّك الغنيّ لا غيره ، و غناه تعالى حقيقيّ .[5]

5 ــ القصر بإنّما:

و في قوله تعالى :﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[6] فالقصر المفاد من (إنّما) قصر إضافيّ مفاده أنّ الله حرّم الفواحش و ما ذكر معها لا ما حرّمتموه من الزّينة و الطّيّبات فأفاد إبطال اعتقادهم ، ثمّ هو يفيد بطريق التّعريض أنّ ما عدّه الله من المحرّمات الثّابت تحريمها

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج 28 ، ص : 150 .

[2] - الحجرات : 7 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 26 ، ص : 237 .

[4] - الأنعام : 133 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ص : 85 .

[6] - الأعراف : 33 .

و قد تلبّسوا بها ، لأنّه لّما عدّ أشياء ، و قد علم النّاس أنّ المحرّمات ليست محصورة فيها ، علم السّامع أنّ ما عيّنه مقصود به تعيين ما تلبّسوا به فحصل بصيغة القصر ردّ عليهم من جانبيْ ما في صيغة .

(إنّما) من إثبات و نفي : إذ هي بمعنى (ما — و إلاّ) ، فأفاد تحليل ما زعموه حراما و تحريم ما استباحوه من الفواحش و ما معها . [1]

و صيغة الحصر في قوله تعالى :﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[2] لإفادة نفي التردّد في اعتبارهم نجسا ، فهو للمبالغة في اتّصافهم بالنّجاسة حتى كأنّهم لا وصف لهم إلاّ النّجسيّة .[3]

و الحصر المفاد من (إنّما) في قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [4] حصر الفعل في مفعوله ، أي لا يبايعون إلاّ الله و هو قصر ادّعائي أنّ غاية البيعة و غرضها هو النّصر لدين الله و رسوله فنُزّل الغرض منزلة الوسيلة فادّعى أنّهم بايعوا الله لا الرّسول .[5]

و في قوله تعالى :﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[6] القصر المستفاد من (**إنّما**) قصر إضافيّ ، أي لا يخشاه الجهّال ، و هم أهل الشّرك فإنّ من أخصّ أوصافهم أنّهم أهل الجاهليّة ، أي عدم العلم ، فالمؤمنون يومئذ هم العلماء ، و المشركون جاهلون نُفيت عنهم خشية الله . ثمّ أنّ العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدّرجات تفاوتا كثيرا .

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 9 ، ص : 99 .

[2] - التّوبة : 28 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 160 .

[4] - الفتح : 10 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 26 ، ص : 157 .

[6] - فاطر : 28 .

و تقديم مفعول (**يخشى**) على فاعله لأنّ المحصور فيهم خشية الله هم العلماء في مراتب فوجب تأخيره على سنّة المحصور فيه .

و المراد بالعلماء : العلماء بالله و بالشّريعة ، و على حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية ، فأمّا العلماء بعلوم لا تتعلّق بمعرفة الله و ثوابه و عقابه معرفة على وجهها فليست علومهم بمقرّبة لهم من خشية الله ، ذلك لأنّ العالم بالشّريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشّرعيّة فهو يفهم مواقعها حقّ الفهم و يرعاها في مواقعها و يعلم عواقبها من خير أو شرّ ، فهو يأتي و يدع من الأعمال ما فيه مراد الله و مقصد شرعه ، فإن هو خالف ما دعت إليه الشّريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات لداعي شهوة أو هوى أو تعجّل نفع دنيويّ كان في حال المخالفة موقنا أنّه مورّط فيما لا تحمد عقباه ، فلذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال .[1]

و القصر المستفاد من (إنّما) في قوله تعالى :﴿**وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ**﴾[2] قصر قلب باعتبار لازم بخله لأنّ الباخل اعتقد أنّه منع من دعاه إلى الإنفاق و لكن لازم بخله عاد عليه بحرمان نفسه من منافع ذلك الإنفاق ، فالقصر مجاز مرسل مركّب .[3]

و (**إنّما**) في قوله تعالى :﴿**إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ**﴾[4] للحصر ، و (إنّ) التي هي جزء منها أيضا للتّعليل و قائمة مقام فاء التّفريع ، أي إنّما لم تكونوا مؤمنين لأنّ الإيمان ينافيه الارتياب.

و القصر إضافيّ ، أي المؤمنون الذين هذه صفاقم غير هؤلاء الأعراب .

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22 ، ص : 304 – 305 .

[2] - محمّد : 38 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 26 ، ص : 137 .

[4] - الحجرات : 15 .

فأفاد أنّ هؤلاء الأعراب انتفى عنهم الإيمان لأنّهم انتفى عنهم مجموع هذه الصّفات .

و إذ قد كان القصر إضافيّا لم يكن الغرض منه إلاّ إثبات الوصف لغير المقصور لإخراج المتحدَّث عنهم عن أن يكونوا مؤمنين ، وليس بمقتض أنّ حقيقة الإيمان لا تتقوّم إلاّ بمجموع تلك الصّفات لأنّ عدّ الجهاد في سبيل الله مع صفتي الإيمان و انتفاء الرّيب فيه يمنع من ذلك ، لأنّ الذي يقعد عن الجهاد لا ينتفي عنه وصف الإيمان ، إذ لا يكفر المسلم بارتكاب الكبائر عند أهل الحقّ . و ما عداه خطأ واضح ، و إلاّ لانتقضت جامعة الإسلام بأسرها إلاّ فئة قليلة في أوقات غير طويلة .[1]

فالحصر بـــ (إنّما) في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ ﴾[2] على أصحّ الرّوايتيْن في سبب نزول الآية حصر إضافيّ ، و هو قصر قلب لإبطال – أي نسخ – العقاب الذي أمر به الرّسول صلّى الله عليه و سلّم على العُرَنيّين

و على ما رواه الطّبريّ عن ابن عبّاس ، فالحصر أن لا جزاء لهم إلاّ ذلك ، فيكون المقصود من القصر حينئذ أن لا ينقص عن ذلك الجزاء و هو أحد الأمور الأربعة . و قد يكون الحصر لردّ اعتقاد مقدّر و هو اعتقاد من يستعظم هذا الجزاء و يميل إلى التّخفيف منه . و كذلك يكون إذا كانت الآية غير نازلة على سبب أصلا.

و أيّاً ما كان سبب النّزول فإنّ الآية تقتضي وجوب عقاب المحاربين بما ذكر الله فيها ، لأنّ الحصر يفيد تأكيد النّسبة . و التّأكيد يصلح أن يُعدّ في أمارات وجوب الفلّ المعدود بعضها في أصول الفقه لأنّه يجعل الحكم جازما .[3]

6 ـــ ضمير الفصل و تعريف المسند :

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 26 ، ص : 267 .

[2] - المائدة : 33 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 6 ، ص : 181 .

و قوله :﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾[1] الضّمير **ضمير منفصل** . و **التّعريف في (الهدى)** تعريف الجنس الدّال على الاستغراق ففيه طريقان من طرق الحصر هما ضمير الفصل و تعريف الجزأين ، و في الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر ، و تأكيده للعناية به فأيّهما اعتبرته طريق قصر كان الآخر تأكيدا للقصر و للخبر أيضا . و التّوكيد بـــ (أنّ) لتحقيق الخبر و تحقيق نسبته و إبطال تردّد المتردّد ، لأنّ القصر الإضافيّ لّما كان المقصود منه ردّ اعتقاد المخاطب قد لا يتفطّن المخاطب إلى ما يقتضيه من التّأكيد ، فزيد هنا مؤكّد آخر ، و هو حرف (إنّ) اهتماما بتأكيد هذا الحكم . فقد اجتمع في هذه الجملة عدّة مؤكّدات هي : حرف إنّ ، و القصر ، إذ القصر تأكيد على تأكيد كما في المفتاح فهو في قوّة مؤكّدين ، مع تأكيد القصر بضمير الفصل ، و هي تنحل إلى أربعة مؤكّدات ، لأنّ القصر بمترلة تأكدين ، و قد انضمّ إليهما تأكيد القصر بضمير الفصل و تأكيد الجملة بحرف (إنّ) .[2]

7ــ تعريف جزأي الجملة و ضمير الفصل:

و تعريف جزأي الجملة في قوله تعالى :﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾[3] و **ضمير الفصل** من قوله﴿لَنَحۡنُ﴾ يفيدان قصرا مؤكّدا فهو قصر قلب ، أي دون ما وصفتموه به من النّبوّة لله .[4]

---

[1] - البقرة : 120 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م1، ج 1، ص : 694 .

[3] - الصّافّات : 165 – 166 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 23 ، ص : 192 .

و القصر المستفاد من **ضمير الفصل** ، و من **تعريف الجزأين** في قوله تعالى :﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[1] قصر قلب ، أي كما تحسبون أنّكم تغيظونني بعدم إيمانكم فإنّي نذير مبين غير متقايض معكم لتحصيل إيمانكم .[2]

8 ـــ النّفي و الاستثناء :

و القصر المستفاد من النّفي و الاستثناء في قوله تعالى :﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾[3] قصر موصوف على صفة ، و هو يقتضي انحصار أوصاف الرّسول صلّى الله عليه و سلّم في النّذارة و البيان ، و ذلك قصر إضافيّ ، و هو قصر قلب ، أي هو نذير مبينٌ لا مجنون كما يزعمون ، و في هذا استغباء أو تسفيه لهم بأنّ حاله لا يلتبس بحال المجنون للبون الواضح بين حال النّذارة البيّنة و حال هذيان المجنون .فدعواهم جنونه : إمّا غباوة منهم بحيث التبست عليهم الحقائق المتمايزة ، و إمّا مكابرة و عناد و افتراء على الرّسول .[4]

و صيغة القصر في قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾[5] تفيد قلب اعتقاد أبي جهل و غيره ما توهّموه أو تظاهروا بتوهّمه أنّ المراد تسعة عشر رجلا فطمع أن يخلص منهم هو و أصحابه بالقوّة فقد قال أبو الأشدّ بن أسيد الجمحي : لا يبلغون ثوبي حتى أجهضهم عن جهنّم أي أنحّيهم .[6]

9 ـــ التّركيب من طريقيْن :

---

[1] - الحجر : 89 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص : 83 .

[3] - الأعراف : 184 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م4 ، ج 9 ، ص : 195 – 196 .

[5] - المدّثّر : 21 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 12 ، ج 29 ، ص : 314 .

و قد يتركّب القصر من طريقين ، فجملة :﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1] مبيّنة لجملة ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[2] ، أي ما علمت بذلك النّبأ إلاّ بوحي من الله ، و إنّما أوحى الله إليّ ذلك لأكون نذيرا مبينا .

و قد ركّبت هذه الجملة من طريقين للقصر : إحداهما طريق النّفي و الاستثناء ، و الآخر طريق (أَنَّمَا) المفتوحة الهمزة و هي أخت (إِنَّمَا) المكسورة الهمزة في معانيها التي منها إفادة الحصر ، و لا التفات إلى قول من نفوا إفادتها الحصر ، فإنّها مركّبة من (أنَّ) المفتوحة الهمزة و (ما) الكافّة

و ليست (أنّ) المفتوحة الهمزة إلاّ (إنّ) المكسورة ، تغيّرت كسرة همزتها إلى فتحة لتفيد معنى مصدريّا مشربا بـــ (أنّ) المصدريّة إشرابا بديعا ، جعل شعاره فتح همزتها لتشابه (أنْ) المصدريّة في فتح الهمزة و تشابه (أنّ) في تشديد النّون ، و هذا من دقيق الوضع في اللّغة العربيّة .[3]

و تكون (أنّما) مفتوحة الهمزة إذا جعلت معمولة لعامل في الكلام . و الذي يقتضيه مقام الكلام هنا أنّ فتح همزة (أنّما) لأجل لام تعليل مقدّرة مجرور بها (أنّما) . و التّقدير : إلاّ لأنّما أنا نذير أي إلاّ لعلّة الإنذار ، أي ما أوحي إليّ نبأ الملأ الأعلى إلاّ لأنذركم به ، أي ليس لمجرّد القصص .[4]

10 ـــ تعريف جزأي الجملة :

---

[1] - ص : 70 .

[2] - ص : 69 .

[3] - ينظر إيضاح الوقف و الابتداء ، أبو بكر محمّد بن القاسم بن محمّد بن بشّار بن الحسن الأنباري ، تحقيق : الشّيخ عبد الرّحيم الطّرهونيّ ، دط ، دار الحديث ـــ القاهرة ـــ ، 1428 هـــ / 2007 م ، ص : 180 و ما بعدها،و له كلام جيّد فيما يخص (إنّما) .

[4] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 23 ، ص : 298 – 299 .

و القصر المستفاد من تعريف جزأي الإسناد في قوله تعالى :﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾[1] تعريض بهم بأنّهم من شدّة جحودهم بمترلة مَن إذا رأوا الوعد حسبوه شيئا آخر على[2]، نحو قوله تعالى :﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾[3] .

و القصر المستفاد من **تعريف جزأيْ الجملة** في قوله تعالى :﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾[4] قصر قلب بتتريل المخاطَبين مترلة من يعتقد أنّ الأصنام خلقت الأرض لأنّ اعتقادهم إلهيتها يقتضي إلزامها بهذا الظّنّ الفاسد و إن لم يقولوه .[5]

قد أفاد تعريف الجزأيْن في قوله :﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾[6] قصرا إضافيّا لقلب زعم الكافرين أنّ محمّدا صلّى الله عليه و سلّم أتى من قِبل نفسه ، أي الله لا غيره أرسل محمّدا صلّى الله عليه و سلّم بالهدى و دين الحقّ . و أنّ شيئا تولّى الله فعله لا يستطيع أحد أن يزيله .[7]

وأفاد **تعريف جزأي جملة:**﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾[8] قصر المسند إليه ، أي قصر جنس يوم التّغابن على يوم الجمعة المشار إليه باسم الإشارة ، و هو من قبيل قصر الصّفة على الموصوف قصرا

---

[1] - الملك : 27 .
[2] - التّحرير و التّنوير : م12 ، ج29 ، ص : 51 .
[3] - الأحقاف : 24 .
[4] - الملك : 15 .
[5] - التّحرير و التّنوير : م12 ، ج29 ، ص : 32 .
[6] - الصّفّ : 9 .
[7] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج 28 ، ص : 192 .
[8] - التّغابن : 9 .

ادّعائيّا أي ذلك يوم الغبن لا أيّام أسواقكم و لا غيرها ، فإنّ عدم أهمّية غبن النّاس في الدّنيا جعل غبن الدّنيا كالعدم ، و جعل يوم القيامة منحصرا فيه جنس الغبن .[1]

و قد يفيد تعريف المسند مع تعريف المسند إليه المقدّر القصر ، كما في قوله تعالى :﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[2] أي هو عالم الغيب لا أنا.[3]

و التّعريف في (الحقّ) من قوله تعالى :﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[4] تعريف الجنس كما في قوله : (الحمد لله) و قولهم : "الكرم في العرب " هذا التّعريف لجزأي الجملة الظّاهر و المقدّر يفيد قصر الحقيقة على الذي يكتمونه و هو قصر قلب أي لا ما يظهرونه من التّكذيب و إظهار أنّ ذلك مخالف للحقّ .[5]

11 ـــ الاستثناء :

و القصر الذي أفاده **الاستثناء** في قوله تعالى :﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[6] قصر ادّعائيّ ، نُزّل انتظارهم ما يأملونه من المرغوبات في الدّنيا منزلة العدم لضآلة أمره أمره بعد أن نُزّلوا منزلة من ينتظرون فيما ينتظرون السّاعة ، لأنّهم لتحقّق حلوله عليهم جديرون بأن يكونوا من منتظريها .[7]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج 28 ، ص : 277 .

[2] - الجنّ : 26 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م12 ، ج29 ، ص : 246 .

[4] - البقرة : 147 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م1، ج 2، ص : 41 .

[6] - محمّد : 18 .

[7] - التّحرير و التّنوير : م10 ، ج 26 ، ص : 103 .

و **الاستثناء** في قوله :﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[1] استثناء من علل محذوفة ، أي : ما نعبدهم لشيء إلاّ لعلّة أن يقرّبونا إلى الله فيفيد قصرا على هذه العلّة قصر قلب إضافيّ ، أي دون ما شنّعتم علينا من أنّنا كفرنا نعمة خالقنا إذ عبدنا غيره . و قد يؤخذ من مجموع الكلام من أنّهم أرادوا به المعذرة ، و يكون في **أداة الاستثناء** استخدام لأنّ اللاّم المقدّرة قبل الاستثناء لام العاقبة لا لام العلّة ، إذ لا يكون الكفران بالخالق علّة لعاقل و لكنّه صائر إليه ، فالقصر لا ينافي أنّهم أعدوهم لأشياء أخر إذا عدّوهم شفعاء و استنجدوهم في النّوائب ، و استقسموا بأزلامهم للنّجاح كما هو ثابت في الواقع .[2]

ثانيا:انفتاح الدّلالة:

لا يمنع ابن عاشور أن تفهم الآية أكثر من فهم ، و أن تُحمل معانيها على أكثر من محمل ، إذا كان اللّفظ يحتمل ذلك ، و أقيمت الحجّة الدّامغة التي تؤكّد المعنيين ، و كان قد نظّر لهذا في مقدّمة تفسيره ، و ممّا قال به هنالك جواز ورود اللّفظ بأكثر من معنى ، بل عدّه لونا من ألوان الإعجاز .

و في قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾[3] يقول ابن عاشور : " و الرّؤية علميّة . و اختير فعل الرّؤية هنا دون (و يعلم) للتّنبيه على أنّه علم يقينيّ بمنزلة العلم بالمرئيّات التي علمُها ضروريّ ، و مفعولا ﴿ وَيَرَى ﴾﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ﴾و﴿ٱلۡحَقَّ ﴾ و ضمير (هو) فصل يفيد حصر الحقّ في القرآن حصرا إضافيّا ، أي : لا ما يقوله المشركون ممّا يعارضون به

[1] - الزّمر : 3 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 23 ، ص : 322 .

[3] - سبأ : 6 .

القرآن ، و يجوز أيضا أن يفيد قصرا حقيقيّا ادّعائيّا ، أي قصر الحقّيّة المحض عليه ، لأنّ غيره من الكتب خُلط حقّها بباطل.[1]

و قد يكون القصر ممّا يحتمل الوجهين معا اعتمادا على قاعدة ذكر المشترك اللّفظيّ في معنييه في آن واحد و من ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[2] يقول ابن عاشور : " و المقصود من أداة الحصر : أن ليس شيء من الصّدقات بمستحقّ للذين لمزوا في الصّدقات ، و هم المنافقون الذين طمعوا في تحصيل شيء من ذلك ، و قد ذُكروا في الآيات التي سبقت هذه الآية ،و حصر الصّدقات في كونها مستحقّة للأصناف المذكورة في هذه الآية فهو قصر إضافيّ أي الصّدقات لهؤلاء لا لكم .

و أمّا انحصارها في الأصناف الثّمانية دون صنف آخر فيُستفاد من الاقتصار عليها في مقام البيان ، إذ لا تكون صيغة القصر مستعملة للحقيقيّ و الإضافيّ معا إلاّ على طريقة استعمال المشترك في معنييه.[3]

و في قوله تعالى : ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[4] و جملة :﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ عطف على جملة : ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.و تقديم المجرور للدّلالة على القصر. أي له ذلك لا لغيره من أصنامكم إن جعلت القصر إضافيّا ، أو لعدم الاعتداد بغنى غيره و محموديّته إن جعلت القصر ادّعائيّا . ثمّ يقول:

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22 ، ص : 145 .

[2] - التّوبة : 60 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج10 ، ص: 235 .

[4] - الحجّ : 64 .

و في ضمير الفصل إفادة أنّه المختصّ بوصف الغنى دون الأصنام و بأنّه المختصّ بالمحموديّة ، فإنّ العرب لم يكونوا يوجّهون الحمد لغير الله تعالى . و أكّد الحصر بحرف التّوكيد و بلام الابتداء تحقيقا لنسبة القصر إلى المقصور كقول عمرو بن معد يكرب (**إنّي أنا الموت**). و هذا التّأكيد لتنزيل تحقّقهم اختصاصه بالغنى أو المحموديّة منزلة الشّكّ أو الإنكار ، لأنّهم لم يجروا على موجب علمهم حين عبدوا غيره و إنّما يُعبد من وَصْفه الغنى .[1]

و في قوله تعالى : ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ** ﴾[2] إذا كانت صيغة القصر مستعملة في ظاهرها و مسلّطة على متعلّقي الفعل المقصور ، كان القصر إضافيّا لقلب اعتقاد المخاطَبين ، فيتعيّن أن يكون ردّا على فريق من المشركين قالوا : هلاّ أنزل القرآن بلغة العجم .

و قد ذكر في الكشّاف في سورة "فصّلت" عند قوله تعالى : ﴿**وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**﴾[3] فقال : كانوا لتعنّتهم يقولون : هلاّ نُزّل القرآن بلغة العجم ؟[4]

و هو مرويّ في تفسير الطّبريّ هنالك عن سعيد بن جبير أنّ العرب قالوا ذلك .[5]

و إذا كانت صيغة القصر جارية على خلاف مقتضى الظّاهر و لم يكن ردّا لمقالة بعض المشركين يَكُنْ تنزيلا للمشركين منزلة من ليسوا بعرب ، لعدم تأثّرهم بآيات القرآن ، و لقولهم : ﴿**قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ**﴾[6] و كان مناط القصر هو ما بعد لام العلّة . و المعنى : ما أرسلناك إلاّ لتبيّن لهم و ما أرسلنا من رسول إلاّ ليبيّن لقومه ، و كان قوله : ﴿ **إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ** ﴾ إدماجا في الاستثناء

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م7 ، ج 17 ، ص : 320 .

[2] - إبراهيم : 4 .

[3] - فصّلت : 44 .

[4] - الكشّاف :4 / 208 .

[5] - التّحريرو التّنوير : م 6 ، ج13 ، ص : 185 .

[6] - فصّلت : 5 .

المتسلّط عليه القصر ، أو يكون متعلّقا بفعل﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ مقدّما عليه . و التّقدير : ما أٍسلناك إلاّ لتبيّن لهم بلسانهم ، و ما أرسلنا من رسول إلاّ ليبيّن لقومه بلسانهم ، فما لقومك لم يهتدوا بهذا القرآن و هو بلسانهم ، و بذلك يتّضح موضع التّفريع في قوله ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾[1]

و أفاد تقديم المسند إليه على الخبر الفعليّ في قوله : ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾[2] تقوية للحكم و تأكيدا ، لأنّ المقصود أن يعلّمه ، و لفت العقول إليه على رأي السّكّاكيّ في أمثاله . و ليس المقام مقام إفادة الحصر كما درج عليه الكشّاف ، إذ ليس ثمّة من يزعم الشّركة لله في ذلك أو يزعم أنّ الله لا يفعل ذلك فيقصد الرّدّ عليه بطريق القصر .[3]

و في قوله تعالى:﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [4] أخبر عن الذي أنزل بأنّه الحقّ بصيغة القصر ، أي هو الحقّ لا غيره من الكتب ، فالقصر إضافيّ بالنّسبة إلى كتب معلومة عندهم مثل قصّة رستم و غيره . فالمقصود الرّدّ على المشركين الذين زعموه كأساطير الأوّلين ، أو القصر حقيقيّ ادّعائيّ مبالغة لعدم الاعتداد بغيره من الكتب السّابقة ، أي هو الحقّ الكامل ، لأنّ غيره من الكتب لم يستكمل منتهى مراد الله من النّاس إذ كانت درجات موصلة إلى الدّرجة العليا، فلذلك ما جاء منها كتاب إلاّ و نُسخ العمل به أو عُيّن لأمّة خاصّة.[5]

خاصّة.[5]

---

[1] -- إبراهيم : 4 .

[2] - الرّعد : 26 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 13 ، ص : 134 .

[4] - الرّعد : 1 .

[5] - التّحريرو التّنوير : م6 ، ح 13 ، ص : 78 – 79 .

و في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[1] جيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الأخوّة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين فهو قصر ادّعائيّ أو هو قصر إضافيّ للرّدّ على أصحاب الحالة المفروضة الذين يبغون على غيرهم من المؤمنين ، و أخبر عنهم بأنّهم إخوة مجازا على وجه التّشبيه البليغ زيادة لتقرير معنى الأخوّة بينهم حتى لا يحقّ أن يقرن بحرف التّشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخوّة .[2]

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[3] إن كان محمل الفاسقين على ما يشمل المشركين و اليهود الذين طعنوا في ضرب المثل كان القصر في قوله :﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ بالإضافة إلى المؤمنين ليحصل تمييز المراد من المضلل و المهتدي . و إن كان محمل الفاسقين على اليهود ، كان القصر حقيقيّا ادّعائيّا أي يضلّ به كثيرا ، و هم الطّاعنون فيه و أشدّهم ضلالا هم الفاسقون ، و وجه ذلك أنّ المشركين أبعد عن الاهتداء بالكتاب لأنّهم في شركهم،و أمّا اليهود فهم أهل كتاب و شأنهم أن يعلموا أفانين الكتب السّماويّة و ضرب الأمثال فإنكارهم إيّاها غاية الضّلال فكأنّه لا ضلال سواه.[4]

و (أنت) من قوله تعالى :﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[5] ضمير فصل ، و توسيطه من صيغ القصر فالمعنى قصر العلم و الحكمة على الله قصر قلب ، لردّهم اعتقادهم أنفسهم أنّهم على جانب

---

[1] - الفتح : 10 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 26 ، ص : 243 .

[3] - البقرة : 26 – 27 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 367 .

[5] - البقرة : 32 .

من علم و حكمة حين راجعوا بقولهم :﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾[1] أو تتريلهم مترلة من يعتقد ذلك على الاحتماليْن المتقدّميْن أو قصر حقيقيّ ادّعائيّ مراد منه قصر كمال العلم و الحكمة عليه تعالى .[2]

و القصر في قوله :﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾[3] قصر حقيقيّ . و فيه إثبات الحساب و أنّه لله وحده في تخطئتهم و تهديدهم .

و يجوز أن يكون القصر إضافيّا تطمينا للنّبيّ صلّى الله عليه و سلّم بأنّ الله لا يؤاخذه باستمرارهم على الكفر[4]،كقوله :﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾[5]، و قوله:﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[6] و هذا أسعد بقوله :﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾[7].

ثالثا:القصر باعتبار الطّرفيْن :

سبق أن ذكرنا أنّ القصر قد يكون قصر صفة على موصوف ، أو قصر موصوف على صفة ، و هو ما يسمّيه علماء البلاغة : القصر باعتبار الطّرفين ، و معنى الصّفة عند علماء البلاغة هي المعنى القائم بالغير و ليس الصّفة النّحويّة لأنّه لا يُفصل بينها و بين موصوفها[8] ، و لذا لا يدخلها القصر بالإجماع إذا كانت مفردة ، و على الأرجح إذا كانت جملة ، و مثلها التّوكيد و المؤكّد و المفعول معه ، و المصدر المؤكّد ، أمّا قوله تعالى على لسان منكري البعث :﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا

---

[1] - البقرة : 30.
[2] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 416 .
[3] - المؤمنون : 117 .
[4] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 18 ، ص : 136 .
[5] - الشّورى : 48 .
[6] - الشّعراء : 3 .
[7] - المؤمنون : 118 .
[8] - ينظر : مفتاح العلوم : 193، و البحر المحيط : 8 / 51 .

قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[1] فقد حمل السّكّاكي التّنوين فيه على التّنويع أي ظنّا ضعيفا كما نقل أبو حيّان،[2] و قد ذهب الفخر الرّازي في تأويل هذه الآية إلى أنّ المذكورين فيها صنفان : صنف يكذّب بالسّاعة تكذيبا جازما ، و صنف متردّدون ، و هم الذين تتحدّث عنهم الآية ، و يضعّف ابن عاشور هذا الرّأي قائلا : "و أقول : هذا لا يستقيم لأنّه لو سلّم أنّ فريقا من المشركين كانوا يشكّون في وقوع السّاعة ، و لا يجزمون بانتفائه ، فإنّ جمهرة المشركين نافون لوقوعها فلا يناسب مقام التّوبيخ تخصيصه بالذين كانوا متردّدين في ذلك . و الوجه عندي في تأويله : إمّا يكون هذا حكاية لاستهزائهم بخبر البعث فإذا قيل لهم[3]:﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ﴾ قالوا استهزاء﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾و يدلّ عليه قوله عقبه : ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [4] و تأوّله ابن عطيّة بأنّ معناه:(**إن** نظنّ بعد قبول خبركم إلاّ ظنّا و ليس يُعطينا يقينا) [5] أي فهو إبطالهم لخصوص قول المسلمين : السّاعة لا ريب فيها .

و يعلّل ابن عاشور إشكالا آخر متعلّقا بنظم الآية فيقول : " و أمّا إشكاله من جهة النّظم فمرجع الإشكال إلى استثناء الظّنّ من نفسه في قوله :﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ فإنّ الاستثناء المفرغ لا يصحّ أن يكون مفرغا للمفعول المطلق لانتفاء فائدة التّفريغ . و الخلاص من هذا ما ذهب إليه ابن هشام في مغني اللّبيب أن مصحّح الاستثناء الظّنّ من نفسه أنّ المستثنى هو الظّنّ الموصوف بما دلّ عليه تنكيره من التّحقير المشْعرِ به التّنوينُ على حدّ قول الأعشى :

---

[1] - الجاثية : 32 .

[2] - المفتاح : 143 ، و البحر المحيط : 8 / 51 .

[3] - التّحريرو التّنوير : م 10 ، ج 25 ، ص :372 – 373 .

[4] - الجاثية : 33 .

[5] - المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمّد عبد الحقّ بن عطيّة الأندلسيّ ، دط ، دار ابن حزم ، دت ، ص: 1705 .

أحَـــلَّ بِهِ الشَّـــيْبُ أثـْقَالَهُ   و ما اغْتَرّهُ الشَّيّبُ إلاَّ اغْتِرَاراً[1]

أي ، إلاّ ظنّا ضعيفا .[2]

و هذا الوصف أو المعنى قد يكون خبرا أو حالا أو تمييزا ، أو فعلا أو جملة أو جملا متعاطفة أو جامدا في تأويل المشتقّ ، كقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾[3] و قال تعالى حكاية عن منكري البعث :﴿وَقَالُوٓاْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ و قولك : ما بكْر إلاّ أخوك ، بتأويل الكون أي كونه أخاك . ذلك أنّ الخبر وصف للمبتدأ في المعنى ، و لولا تأويلا .

و الموصوف ما قام بنفسه ، سواء كان ذاتا حقيقيّة ، أو معنى موصوفا كوصف الحركة بالشّدّة أو السّرعة أو البطء .[4]

فإذا كان الطّرفان موصوفين أُوِّل الثّاني بالصّفة ، و إذا كانا وصفيْن كقوله تعالى :﴿وَمَا يَعِدُهُمُ

---

[1] - ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرحه و قدّم له : مهدي محمّد ناصر الدّين ، ط 3 ، دار الكتب العلميّة – بيروت - ، 1424 هـــ - 2003 م ، ص : 73 . و فيه : و اعترّه ... إلاّ اغْترارا بمعنى : عرض له .

[2] - مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب : أبو محمّد عبد الله جمال الدّين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاريّ ، تحقيق : محمّد محي الدّين عبد الحميد ، دط ، المكتبة العصريّة ، 1411 هـــ / 1991 م ، : 2 / 324 .

[3] - المجادلة : 2 .

[4] - أساليب القصر في القرآن الكريم و أسرارها البلاغيّة : د . صبَّاح عَبيد دراز ، ط1 ، مطبعة الأمانة ـــ مصر ، 1406 هـــ / 1986 م ، ص : 24 .

ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1] و قوله سبحانه عن ريح عاد: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾[2] أوّل الثّاني بالموصوف فهو من قصر الصّفة على الموصوف .

غير أنّه لُوحظ في القرآن أنّ الطّرفين إذا كانا جامدين صحب المقصور عليه وصفٌ كاشف أو إضافة مبيّنة ، كقوله تعالى : ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[3]

و في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[4] يقول ابن عاشور : " و تقديم المسند إليه على الخبر الفعليّ في قوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ﴾ ، لإفادة الاختصاص ، أي أنت لا غيرك .

و إذ لم يكن في الفريقين من يعتقد أنّ الله يحكم بين النّاس في مثل هذا الاختلاف ، فيكون الرّدّ عليه بمفاد القصر ، تعيّن أنّ القصر مستعمل كناية تلويحيّة عن شدّة شكيمتهم في العناد و عدم الإنصاف و الانصياع إلى قواطع الحجج ، بحيث إنّ من يتطلّب حاكما فيهم لا يجد حاكما فيهم إلاّ الله تعالى . و هذا أيضا يومئ إلى العذر للرّسول صلّى الله عليه و سلّم في قيامه بأقصى ما كُلّف به ، لأنّ هذا القول إنّما يصدر عمّن بذل وسعه فيما وجب عليه ، فلمّا لقّنه ربّه أن يقوله ، كان ذلك في معنى : أنّك أبلغت و أدّيت الرّسالة فلم يبق إلاّ ما يدخل تحت قدرة الله تعالى التي لا يعجزها الألِدّاء أمثال قومك ، و فيه تسلية للرّسول صلّى الله عليه و سلّم و فيه وعيد للمعاندين .[5]

---

[1] - الإسراء : 64.

[2] - الذّاريات : 42 .

[3] - سبأ : 43 .

[4] - الزّمر : 46 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 24،ق2 ، ص : 31 – 32 .

و جعل السّكّاكيّ المقصور عليه في قوله تعالى :﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ** ﴾[1] هو وصف الرّسالة فيكون محطّ القصر هو قوله : ﴿**رَسُولٌ** ﴾دون قوله: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ** ﴾و يكون القصر إفرادا بتتريل المخاطَبين مترلة من اعتقد وصفه بالرّسالة مع التتزّه عن الهلاك ، حين رتّبوا على ظنّ موته ظنونا لا يفرضها إلاّ من يعتقد عصمته من الموت ، و يكون قوله : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ** ﴾على هذا الوجه استئنافا لا صفة ، و هو بعيد ، لأنّ المخاطَبين لم يصدر منهم ما يقتضي استبعاد خبر موته ، بل هم ظنّوه صدقا .[2]

و على كلا الوجهين فقد نُزّل المخاطبون مترلة من يجهل قصر الموصوف على هذه الصّفة و ينكره، فلذلك خوطبوا بطريق النّفي و الاستثناء ، الذي كثر استعماله في خطاب من يجهل الحكم المقصور عليه و ينكره دون طريق ، إنّما كما بيّنه صاحب المفتاح .[3]

1 ـــ قصر موصوف عل صفة :

و يقرّر ابن عاشور أنّ قصر الموصوف على الصّفة لا يكون حقيقيا ، و هذا الذي أكّده محمّد أبو موسى بقوله : " أمّا قصر الموصوف على الصّفة قصرا حقيقيّا تحقيقيّا فهذا يعني أن يكون للموصوف صفة واحدة لا ستجاوزها إلى غيرها على وجه الحقيقة ، و هذا حين تتأمّله تجده لا يكاد يقع ، لأنّه ما من موصوف إلاّ و له صفات كثيرة تتعذّر الإحاطة بها أو تعسر ".[4] و قد سجّل ابن عاشور أنّ القرآن ابتكر ما سمّاه القصر القائم مقام قصريْن ، ففي قوله تعالى : ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ** ﴾[5] هذه الآية أمر من الله

---

[1] - آل عمران : 144.

[2] - مفتاح العلوم : 289 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 2 ، ج 4 ، ص : 110 – 111 .

[4] - دلالات التّراكيب : 26 .

[5] - الأنبياء : 45.

تعالى لرسوله صلّى الله عليه و سلّم بالتّعريف بكنه الدّعوة الإسلاميّة ، و هي قصره على الإنذار بما سيحلّ بهم في الدّنيا و الآخرة إنذار من طريق الوحي المنزّل عليه من الله تعالى و هو القرآن ،أي فلا تُعرضوا عنه ، و لا تتطلّبوا منّي آية غير ذلك، و لا تسألوا عن تعيين آجال حلول الوعيد ، و لا تحسبوا أنّكم تغيظونني بإعراضكم و التّوغّل في كفركم .

فالكلام قصر موصوف على صفة،و قصره على المتعلّق بتلك الصّفة تبعا لمتعلّقه فهو قائم مقام قصرين. و لم يظهر لي مثال له من كلام العرب.[1]

و في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [2] يقول ابن عاشور : " القصر فيه: قصر موصوف على صفة ، لأنّ (إنّما) يليها المقصور ، و هنا قصر إضافيّ ، أي ليس الله بثلاثة".[3]

و الحصر في قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[4] قصر موصوف على الصّفة و هو إضافيّ للقلب . أي ما أنا إلاّ بشر لا أتجاوز البشريّة إلى العلم بالمغيّبات .[5]

فالقصر المستفاد من : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[6] قصر موصوف على صفة قصرا إضافيّا ، أي هو مقصور على صفة النّذارة لا تحوم حوله الأوصاف التي لمزتموه بها .[7]

2 ـــ قصر صفة على موصوف :

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م7، ج 17 ، ص :78.

[2] - النّساء : 171 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 6 ، ص : 58 .

[4] - الكهف : 110 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 7 ، ج 16 ، ص : 55 .

[6] - سبأ : 49 .

[7] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 22 ، ص : 235 .

و مفاد جملة : ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] قصر صفة الفلاح عليهم،أي على المؤمنين ، فهو إمّا قصر إضافيّ بالنّسبة لمن لم يقم بذلك مع المقدرة عليه ، و إمّا قصر أريد به المبالغة لعدم الاعتداد في هذا المقام بفلاح غيرهم ، و هو معنى قصر الدّلالة على معنى الكمال .[2]

و التّعريف باللاّم في : ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾و في : ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ تعريف الجنس ، من قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[3] و هو فيهما مؤذن بكمال الجنس في المخبَر عنه ، و لمّا وقعا خبريْن و هما معرفتان أفادا الحصر ، أي قصر الصّفة على الموصوف ، أي قصر جنس الغنى على الله ، و قصر جنس الفقراء على المخاطَبين بـــ (أنتم) و هو قصر ادّعائيّ فيهما مرتّب على دلالة (ال) على معنى كمال الجنس ، فإنّ كمال الغنى لله لا محالة لعمومه و دوامه ، و إن كان يثبت بعض جنس الغنى لغيره . و أمّا كمال الفقر للنّاس فبالنّسبة إلى غنى الله تعالى ، و إن كانوا قد يَغنون في بعض الأحوال ، لكن ذلك غنى قليل و غير دائم .[4]

و أفاد ضمير الفصل في قوله:﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[5] قصر صفة الخاسر على الذين يفعلون يفعلون ما نُهوا عنه ، و هو قصر ادّعائيّ للمبالغة في اتّصافهم بالخسران ، كأنّ خسران غيرهم لا يُعدّ خسرانا بالنّسبة إلى خسرانهم .[6]

و أفاد تعريف الجزأين من جملة :﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾[7] قصر صفة الخالقيّة على الله تعالى ، و هو قصر حقيقي قصد به الإشارة بالكناية بالرّدّ على المشركين ، إذ عمدوا إلى عبادة أصنام يعلمون أنّها لم

---

[1] - آل عمران : 104 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م2 ، ج 4، ص : 42 .

[3] - محمّد : 38 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 26 ، ص : 138 .

[5] - المنافقون : 9 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج 28 ، ص : 252 .

[7] - التّغابن : 2 .

تخلقهم فما كانت مستحقّة لأن تعبد ، لأنّ العبادة شكر . قال تعالى :﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .[1]

و جملة﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[2] إلى آخرها متّصلة بجملة﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[3] و ما تفرّع عليها من قوله :﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[4] إلى قوله :﴿ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[5] وقعت جملة﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾[6] بين الآيات معترضة ، ثمّ اتّصل الكلام بجملة﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. فموقع هذه الجملة موقع التّعليل للنّهي ، لأنّ ولايتهم لله و رسوله مقرّرة عندهم ، فمن كان الله وليّه لا تكون أعداء الله أولياءه . و تفيد هذه الجملة تأكيدا للنّهي عن ولاية اليهود و النّصارى . و فيه تنويه بالمؤمنين بأنّهم أولياء الله و رسوله بطريقة تأكيد النّفي أو النّهي بالأمر بضدّه ، لأنّ قوله :﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يتضمّن أمرا بتقرير هذه الولاية و دوامها ، فهو خبر مستعمل في معنى الأمر و القصر المستفاد من (إنّما) قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيّا .[7]

و في قوله :﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[8] قصر صفة إنزال القرآن على الله تعالى : لتكون

---

[1] - النّحل : 17 .

[2] - المائدة : 55 .

[3] - المائدة : 51.

[4] - المائدة : 52 .

[5] - المائدة : 53 .

[6] - المائدة : 54 .

[7] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 6 ، ص :239 .

[8] - آل عمران : 7 .

الجملة مع كونها تأكيدا و تمهيدا ، و إبطالا أيضا لقول المشركين : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[1] و قولهم : ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾.و كقوله :

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾[2]

و ذلك أنّهم قالوا : " هو قول كاهن ، و قول شاعر "، و اعتقدوا أنّ أقوال الكهّان و أقوال الشّعراء من إملاء الأرئياء (جمع رئيّ) .

و من بدائع البلاغة أن ذكر في القصر فعل (أنزل) ، الذي هو مختصّ بالله تعالى و لو بدون صيغة القصر إذ الإنزال يرادف الوحي ، و لا يكون إلاّ من الله بخلاف ما لو قال : هو الذي آتاك الكتاب.[3]

رابعا: القصر باعتبار المخاطَب:

يخاطَب بالقصر من كان يخالف المخاطِب الرّأيَ ، فيجيء الكلام بعكس ما كان يعتقد المخاطَب ،و هذا الذي سمّوه قصر قلب ، أمّا إذا كان المخاطَب يعتقد الشّركة بين أناس في أمر ما ، و ليس الأمر كذلك ، فإنّ القصر يفرد واحدا بذاته ، و ينفي الأمر عن غيره ، و يسمّى القصر قصرإفراد و إذا التبس الأمرعلى المخاطَب و لم يتعيّن له واحد من جماعة ،جاء القصر ليعيّن ، و لهذا سمّي هذا النّوع قصر تعيين .[4] و الحاصل أنّ تخصيص شيء بشيء دون آخر قصر إفراد ، وتخصيص

---

[1] - النّحل : 103 .

[2] - الشّعراء : 210 – 211 – 212 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م2، ج 3 ، ص : 153 .

[4] - البلاغة فنونها و أفنانها : 365 .

وتخصيص شيء بشيء مكان آخر إن اعتقد المخاطَب فيه العكس قصر قلب ، و إن تساويا عنده ، فهوقصر تعيين.[1]

1 ــ قصر إفراد :

اشترط علماء البلاغة في قصر الموصوف على الصّفة إفرادا عدم تنافي الوصفين ليصحّ اعتقاد المخاطَب اجتماعهما في الموصوف ، حتى المنفيّة في قولنا : ما زيد إلاّ شاعر كمونه كاتبا أو منجّما لا كونه مُفحما لامتناع اجتماع الشّاعريّة و المفحميّة؛لأنّ الإفحام هو وجدان الرّجل غير شاعر.[2]

و صيغة تعريف المسند إليه و المسند من قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾[3] أفادت الحصر ، أي هو لا غيره . و هذا قصر على خلاف مقتضى الظّاهر ، لأنّ المخاطَبين لا ينكرون ذلك ، و لا يدّعون له شريكا في ذلك ، و لكنّهم لمّا عبدوا أصناما لم تُنعم عليهم بذلك كان حالهم كحال من يدّعي أنّ الأصنام أنعمت عليهم بهذه النّعم فنُزّلوا منزلة من يدّعي الشّركة لله في الخلق ، فكان القصر **قصر إفراد** تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظّاهر .[4]

و في قوله تعالى :﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[5] يقول ابن عاشور : " و قوله : ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ جملة مبيّنة للحدّ الذي كان الغلوّ عنده ، فإنّه مجْمل ؛ و مبينة للمراد من قول الحقّ .

[1] - المطوّل : 385 .

[2] - المطوّل : 387 ، و ينظر : المعاني في ضوء أساليب القرآن : 203 .

[3] - النّحل : 10 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص : 113 .

[5] - النّساء : 171 .

و لكونها تتنزّل من التي قبلها منزلة البيان فصلت عنها . و قد أفادت الجملة قصر المسيح على صفات ثلاث : صفة الرّسالة ، و صفة كونه كلمة الله التي ألقاها إلى مريم ، و صفة كونه روحا من عند الله . فالقصر قصر موصوف على صفة . و القصد من هذا القصر إبطال ما أحدثه غلوّهم في هذه الصّفات غلوّا أخرجها عن كنهها ؛ فإنّ هذه الصّفات ثابتة لعيسى ، و هم مثبتون لها فلا ينكر عليهم وصف عيسى بها ، لكنّهم تجاوزوا الحدّ المحدود لها فجعلوا الرّسالة البُنُوّة ، و جعلوا الكلمة اتّحاد حقيقة الإلهيّة بعيسى في بطن مريم ، فجعلوا عيسى ابنا لله و مريم صاحبة لله ، و جعلوا معنى الرّوح على ما به تكوّنت حقيقة المسيح في بطن مريم من نفس الإلهيّة .

و القصر إضافيّ ، و هو **قصر إفراد** ، أي عيسى مقصور على صفة الرّسالة و الكلمة و الرّوح ، لا يتجاوز ذلك إلى ما يزاد على تلك الصّفات من كون المسيح ابنا لله و اتّحاد الإلهيّة به ، و كون مريم صاحبة .

و تصدير جملة القصر بأنّه ينادي على وصف العبوديّة إذ لا يرسل الإلهُ إلهاً مثله ، ففيه كفاية من التّنبيه على معنى الكلمة و الرّوح .[1]

و اعلم أنّ القصر المستفاد من (إنّما) هنا **قصر إفراد** لأحد نوعي القول . فالمقصود منه الثّناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم و ثبات طاعتهم في المنشط و المكروه . و فيه تعريض بالمنافقين إذ يقولون كلمة الطّاعة ثمّ ينقضونها بضدّها من كلمات الإعراض و الارتياب ، و نظير هذه الآية في طريق القصر بـــ (إلاّ) قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا** ﴾[2].

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج6 ، ص :51 – 52 .

[2] - آل عمران : 147 .

و من ذلك قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾[1] فالقصر المستفاد من (إنّما) قصر موصوف على صفة ...أي أنّ جنس المؤمنين أو الذين عُرفوا بوصف الإيمان هم الذين آمنوا بالله و رسوله ، و لم ينصرفوا حتى يستأذنوه . فالخبر هو مجموع الأمور الثّلاثة و هو قصر إضافيّ **قصر إفراد** ، أي لا غير أصحاب هذه الصّفة من الذين أظهروا الإيمان و لا يستأذنون الرّسول عند إرادة الانصراف ، فجعل هذا الوصف علامة مميّزة للمؤمنين الأحقّاء عن المنافقين يومئذ،إذ لم يكن في المؤمنين الأحقّاء يومئذ من ينصرف عن مجلس النّبيّ بدون إذنه ، فالمقصود : إظهار علامة المؤمنين و تمييزهم عن علامة المنافقين .[2]

و في قوله تعالى :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾[3]

و مورد الاستدلال المقصد من تعريف جزأي الجملة ، و هو **قصر إفراد** ، أي لا يشركه غيره في جعل اللّيل و النّهار . أمّا كون الجعل المذكور بخلق الله فهم يقرّون به ؛ و لكنّهم لمّا جعلوا له شركاء على الإجمال أُبْطِلت شركتُهم بقصر التّصرّف في الأزمان على الله تعالى ، لأنّه إذا بطل تصرّفهم في بعض الموجودات اختلّت حقيقة الإلهيّة ، إذ الإلهيّة لا تقبل التّجزئة .[4]

و في قوله تعالى :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾[5]
القصر المستفاد من تعريف الجزئين **قصر إفراد** لإبطال دعوى شركة الأصنام لله في الإلهيّة .[6]

---

[1] - النّور : 62 .
[2] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج18 ، ص : 306 .
[3] - الفرقان : 47 .
[4] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 19 ، ص : 44 .
[5] - الفرقان : 54 .
[6] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج19 ، ص : 55 .

و في قوله تعالى : ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [1] و القصر في قوله : ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾قصر موصوف على صفة ، و الموصوف هو (حسابهم) و الصّفة هي (على ربّي) ، لأنّ المجرور الخبر في قوّة الوصف،فإنّ المجرورات و الظّروف الواقعة أخبارا تتضمّن معنى يتّصف به المبتدأ و هو الحصول و الثّبوت المقدّر في الكلام بكائن أو مستقّر كما بيّنه علماء النّحو. و التّقدير : حسابهم مقصور على الاتّصاف بمدلول (على ربّي) . و كذلك قدّره السّكّاكيّ،و هو **قصر إفراد** إضافيّ،أي لا يتجاوز الكون على ربّي إلى الاتّصاف بكونه عليّ . و هو ردّ لما تضمّنه كلام قومه من مطالبته بإبعاد الذين آمنوا لأنّهم لا يستحقّون أن يكونوا مساوين لهم في الإيمان الذي طلبه نوح من قومه .[2]

و القصر المستفاد من تعريف المسند إليه و المسند في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾[3] **قصر إفراد** بتتريل المخاطَبين لشركهم مترلة من يعتقد أنّ الأصنام شاركت الله في الإنشاء و إعطاء الإحساس و الإدراك .[4]

و في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[5] و أفادت (إنّما) قصر النّبيّ - عليه الصّلاة و السّلام - على صفة النّذارة ، أي أي الرّسالة لا يتجاوزها إلى خلق الآيات أو اقتراحها على ربّه ، فهو **قصر إفراد** ردّا على زعمهم أنّ من حقّ الموصوف بالرّسالة أن يأتي بالخوارق المشاهدة .[6]

---

[1] - الشّعراء : 113 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 19 ، ص : 162 .

[3] - الملك : 23 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م12 ، ج29 ، ص : 47 .

[5] - العنكبوت : 50 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م8 ، ج 21 ، ص : 13 .

و في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1] طريق قصر لوجود ضمير الفصل ، أي : لا رازق ، و لا ذا قوّة ، و لا متين إلاّ الله ، و هو قصر إضافيّ ، أي دون الأصنام التي يعبدونها .

فالقصر **قصر إفراد** بتتريل المشركين في إشراكهم أصنامهم بالله مترلة من يدّعي أنّ الأصنام شركاء لله

في صفاته التي منها : الإرزاق ، و القوّة ، و الشّدّة ، فأبطل ذلك بهذا القصر [2]، قال تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ ﴾[3]

و قال :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾[4]

2 ـــ قصر قلب :

يشترط علماء البلاغة في قصر الموصوف على الصّفة قلبا تحقّق تنافيهما ، أي تنافي الوصفين ليكون إثباتهما مشعرا بانتفاء غيرها، مثل ما محمّد إلاّ ساجد، فينبغي أن تكون الصّفة المنفيّة كونه راكعا أو قائما ، أو غير ذلك ممّا تنافي الرّكوع .[5]

و أفادت (إنّما) من قوله تعالى :﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[6] قصرا هو قصر وقوع التّكوين على صدور الأمر به ، و هو **قصر قلب** لإبطال اعتقاد المشركين تعذّر

---

[1] - الذّاريات : 58 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م11 ، ج 27 ، ص : 29 – 30 .

[3] - العنكبوت : 17 .

[4] - الحجّ : 73 .

[5] - المعاني في ضوء أساليب القرآن : 203 .

[6] - النّحل : 40 .

إحياء الموتى ظنّا منهم أنّه لا يحصل إلاّ إذا سلمت الأجساد من الفساد ، فأرِيد بـــ﴿ قَوْلُنَا لِشَىْءٍ ﴾ تكويننا شيئا ، أي تعلّق القدرة بخلق شيء . و أريد بقوله:﴿ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ ﴾ إذا تعلّقت به الإرادة الإلهيّة تعلّقا تنجيزيّا ، فإذا كان سبب التّكوين ليس زائدا على قول (كن) فقد بطل تعذّر إحياء الموتى . و لذلك كان هذا قصر قلب لإبطال اعتقاد المشركين .[1]

و منه قوله تعالى :﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[2] يقول ابن عاشور : أمّا قوله:﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فصيغة القصر فيه لتنزيل الرّسول صلّى الله عليه و سلّم في أسفه على ضلالهم المفضي بهم إلى العذاب منزلة من يعود عليه من ضلالهم ضرّ فخوطب بصيغة القصر و هو **قصر قلب** على خلاف مقتضى الظّاهر . و لذلك اتّحدت الآيات الثّلاث في الاشتمال على القصر بالنّسبة لجانب ضلالهم فإنّ قوله في سورة النّمل:﴿ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[3] في معنى: فإنّما يَضِلّ عليها ، أي ليس ضلالكم عليّ ، فإنّما أنا من المُنذِرين . و هذه نُكت من دقائق إعجاز القرآن .[4]

و قوله تعالى :﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾[5] يقول ابن عاشور : " و الظّاهر أنّ جملة﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ صفة ﴿رَسُولٌ﴾ فتكون هي محطّ القصر : أي ما هو إلاّ رسول موصوف بخلوّ الرّسل قبله **أي**

[1] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص : 156 .
[2] - الزّمر : 41 .
[3] - النّمل : 92 .
[4] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج24 ، ص : 22 .
[5] - آل عمران : 144 .

انقراضهم . و هذا الكلام مسوق لردّ اعتقاد من يعتقد انتفاء خلوّ الرّسل من قبله ، و هذا الاعتقاد و إن لم يكن حاصلا لأحد من المخاطَبين ، إلاّ أنّهم لمّا صدر عنهم ما من شأنه أن يكون أثرا لهذا الاعتقاد ، و هو عزمهم على ترك نصرة الدّين و الاستسلام للعدوّ ، كانوا أحرياء بأن يترّلوا مترلة من يعتقد انتفاء خلوّ الرّسل من قبله ، حيث يجدون أتباعهم ثابتين على مللهم حتى الآن ، فكان حال المخاطَبين حال من يتوهّم التّلازم بين بقاء رسولها ، فيستدلّ بدوام الملّة على دوام رسولها ، فإذا هلك رسول ملّة ظنّوا انتهاء شرعه و إبطال اتّباعه .

فالقصر على هذا الوجه **قصر قلب** ، و هو قلب اعتقادهم لوازم ضدِّ الصّفة المقصور عليها و هي خلوّ الرّسل قبله ، و تلك اللّوازم هي الوهن و التّردّد في الاستمرار على نشر دعوة الإسلام[1] و بهذا يُشعر كلام صاحب الكشّاف .[2]

و مثله قوله تعالى :﴿**وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**﴾[3] و قولهم : ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**﴾ قصروا أنفسهم عل الاستهزاء قصرا إضافيّا **للقلب** ، أي مؤمنون مخلصون . و جملة :﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**﴾تقرير لقوله :﴿**إِنَّا مَعَكُمْ**﴾،و لمّا كان أمر هؤلاء عجيبا ، إذ كيف يدّعون البقاء على كفرهم ، و هم مع ذلك يظهرون المودّة للمؤمنين ، و كأنّ سائلا سألهم عن حالهم هذه فأجابوا :﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**﴾ و به يتّضح وجه الإتيان بأداة القصر لأنّ المنكِرَ السّائل يعتقد كذبهم في قولهم :﴿**إِنَّا مَعَكُمْ**﴾ و يدّعي عكس ذلك ، و إمّا أن تكون الجملة بدلا من "إنّا معكم" بدل اشتمال لأنّ من دام على الكفر و تغالى فيه (و هو مقتضى "معكم" أي في تصلّبكم) فقد حقّر الإسلام و أهله و استخفّ بهم.[4]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 2 ، ج 4 ، ص : 111 .

[2] - الكشّاف : 1 / ص: 449 – 450 .

[3] - البقرة : 14 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 292 .

و قوله تعالى :﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾[1]

و القصر المشتمل عليه كلامهم المستفاد من : (إنْ) النّافية و (إلاّ) **قصر قلب** ؛ زعموا به ردّ دعوى أنّ القرآن مترّل من عند الله .

و في قوله تعالى :﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[2] و تقديم المسند إليه على الخبر الفعليّ في قوله : دون أن يقول : فيهدين ، لتخصيصه بأنّه متولّي الهداية دون غيره ، لأنّ المقام لإبطال اعتقادهم تصرّفَ أصنامهم بالقصر الإضافيّ ، و هو **قصر قلب** . و ليس الضّمير ضمير فصل لأنّ ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف .[3]

و من ذلك قوله تعالى :﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾[4] يقول ابن عاشور : " فالمقصود من القصر أنّه **قصر قلب** لأنّ المقصود التّنبيه على أن لا يظنّ النّبيّ ـــ صلّى الله عليه و سلّم ـــ انتفاع الذين لا يؤمنون بنذارته ، و إن كانت صيغة القصر صالحة لمعنى القصر الحقيقيّ لكن اعتبار المقام يعين اعتبار القصر الإضافيّ .

و نظير هذه الآية قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.[5]

و قوله :﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[6] ، مع أنّ التّذكير بالقرآن يعمّ النّاس كلّهم .[7]

---

[1] - الفرقان : 4 .

[2] - الشّعراء : 78 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 19 ، ص : 142 .

[4] - فاطر : 18 .

[5] - يس : 18 .

[6] - ق : 45 .

[7] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 22 ، ص : 290 .

و في قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ [1] القصر المستفاد من (إنّما) قصر إضافيّ ، أي أنت نذير لا موكّل بإيقاع الإيمان في قلوبهم، إذ ليس ذلك إليك بل هو لله كما دلّ عليه قوله قبله :﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ فهو **قصر قلب** . و فيه تعريض بالمشركين بردّ اعتقادهم أنّ الرّسول يأتي بما يُسأل عنه من الخوارق فإذا لم يأتهم به جعلوا ذلك سندا لتكذيبهم إيّاه ردّا حاصلا من مستتبعات الخطاب ، كما تقدّم عند قوله تعالى :﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ ، إذ كثُر في القرآن ذكر نحو هذه الجملة في مقام الرّدّ على المشركين و الكافرين الذين سألوا الإتيان بمعجزات على وفق هواهم .[2]

و في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3] القصر المستفاد من جملة :﴿ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إلى آخرها **قصر قلب** لردّ اعتقاد من ظنّ أو شكّ في جواز صلة المشركين على الإطلاق . و الذين تحقّقت فيهم هذه الصّفات يوم نزول الآية هم مشركو أهل مكّة .[4]

و القصر في قوله :﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ [5] قصر موصوف على صفة ، أي الله مختصّ بصفة توحيد توحيد الإلهيّة ، و **قصر قلب** لإبطال دعوى تثنية الإله.[6] لأنّ الله نهى في الآيات التي قبلها عن

---

[1] - هود : 12 .
[2] - التّحرير و التّنوير : م5 ، ج 12 ، ص : 18 .
[3] - الممتحنة : 9 .
[4] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج 28 ، ص :153 .
[5] - النّحل : 51 .
[6] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص :173 .

اتّخاذ إلهيْن اثنيْن. و تفرّع على ذلك قوله تعالى :﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1] بصيغة القصر ، أي **قصر قلب** إضافيّا ، أي قصر الرّهبة التّامّة منه عليه ، فلا اعتداد بقدرة غيره على ضرّ أحد ، و هو ردّ على الذين يرهبون إله الشرّ ، فالمقصود هو المرهوب .

و الاقتصار على الأمر بالرّهبة و قصرها على كونها من الله ، يُفهم منه الأمر بقصر الرّغبة عليه لدلالة قصر الرّهبة على اعتقاد قصر القدرة التّامّة عليه تعالى ، فيفيد الرّدّ على الذين يطمعون في إله الخير بطريق الأولى ، و إنّما اقتصر على الرّهبة لأنّ شأن المزكية أن تكون عبادتهم عن خوف إله الشرّ ، لأنّ إله الخير هم في أمن منه فإنّه مطبوع على الخير .[2]

و (إنّما)﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [3] للقصر و هو لقصر النّكث على مدلول﴿ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ ليراد لا يضرّ بنكثه إلاّ نفسه و لا يضرّ الله شيئا ، فإنَّ نَكْث العهدِ لا يخلو من قصد إضرار بالمنكوث ، فجيء **بقصر القلب** لقلب قصد النّاكث على نفسه دون على النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم .[4]

و قوله :﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [5] **قصر قلب** لأنّهم ظنّوا أنفسهم رابحين ، و هو استعارة مكنيّة تمثيليّة تقدّمت[6] في قوله تعالى :﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [7]

---

[1] - النّحل : 51 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص : 174 .

[3] - الفتح : 10 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 26 ، ص : 160 .

[5] - البقرة : 27 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 372 .

[7] - البقرة : 16 .

و القصر في قوله :﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾[1] **قصر قلب** بناءً على ظاهر طلبهم ، حملا لكلامهم على ظاهره على طريقة مجاراة الخصم في المناظرة ، و إلاّ فإنّهم جازمون بتعذّر أن يأتيهم بما وعدهم ، لأنّهم يحسبونه كاذبا و هم جازمون بأنّ الله لم يتوعّدهم ، و لعلّهم كانوا لا يؤمنون بوجود الله . و قوله :﴿إِن شَآءَ﴾ احتراس راجع إلى حمل العذاب على عذاب الدّنيا .[2]

3 ـــ قصر تعيين :

و القصر في قوله تعالى :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[3] **للتعيين** : أي ما تحدّثنا إلاّ في خوض و لعب دون ما ظننته بنا من الطّعن و الأذى . و تقديم المعمول و هو﴿ أَبِاللَّهِ ﴾ على فعله العامل فيه لقصد **قصر التّعيين** لأنّهم لمّا أتوا في اعتذارهم بصيغة قصر تعيين جيء في الرّدّ عليهم بصيغة قصر تعيين لإبطال مغالطتهم في الجواب ، فأعلمهم بأنّ لعبهم الذي اعترفوا به ما كان إلاّ استهزاء بالله و آياته

و رسوله لا بغير أولئك ، فقَصْر الاستهزاء على تعلّقه بمن ذكر اقتضى أنّ الاستهزاء واقع لا محالة لأنّ القصر قيد في الخبر الفعليّ ، فيقتضي وقوع الفعل ، على ما قرّره عبد القاهر الجرجانيّ في معنى القصر الواقع في قول القائل : أنا سعيت في حاجتك . و أنّه يؤكّد بنحو : وحدي ، أو لا غيري و أنّه يقتضي وقوع الفعل فلا يقال : ما أنا قلت هذا و لا غيري ، أي و لا يقال : أنا سعيت في حاجتك و غيري[4] ،و كذلك هنا لا يصحّ أن يُفهم :أبالله كنتم تستهزئون أم لم تكونوا مستهزئين.[5]

---

[1] - هود : 33 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 12 ، ص : 61 .

[3] - التّوبة : 65 .

[4] - دلائل الإعجاز : ص : 328

[5] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 250 – 251

القصر للتّعيين كذلك في قوله تعالى:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[1] أي: ما تحدّثنا إلاّ في خوض و لعب ، دون ما ظننته بنا من الطّعن و الأذى.و التّقدير : لئن سألتهم عن حديثهم في خلواتهم ، أعلم الله رسولَه بذلك و فيه شيء من دلائل النّبوءة . و يجوز أن تكون الآية قد نزلت قبل أن يسألهم الرّسول ، و أنّه لّما سألهم بعدها أجابوا بما أخبرت به الآية .[2]

خامسا : القصر باعتبار الواقع :

1 ــ القصر الحقيقيّ :

ذهب علماء البلاغة إلى أنّ تخصيص الشّيء بالشّيء إذا طابق الحقيقة الخارجيّة كان حقيقيّا ، و إذا لم يطابق هذه الحقيقة كان ادّعائيّا، أي على سبيل المجاز و التّوسّع بالنّسبة لمن قد يشارك في ذلك الوصف ، فيكون القصر عندئذ قصرا ادّعائيّا ، أو مجازيّا – كمايسمّيه بعض العلماء – خاصّة إذا تعلّق الأمر بالقرآن الكريم .

و الذي قال بهذا الرّأي السّيّد الشّريف عنما قال : " و الظّاهر أنّ تخصيص الشّيء بالشّيء على معنى أنّه لا يتجاوزه إلى غيره أصلا إنّما يسمّى قصرا أو تخصيصا حقيقيّا ، لأنّه حقيقة التّخصيص و ما في معناه ، و أمّا تخصيص الشّيء بآخر على معنى أنّه لا يتجاوزه إلى بعض ما عداه فهو معنى مجازيّ للتّخصيص غير مناف للاشتراك و لذلك يحتاج في فهمه من لفظ التّخصيص إلى قرينة و يسمّى تخصيصا غير حقيقيّ ".[3]

و يكون القصر الحقيقيّ تحقيقيّا إذا طابق الحقيقة و الواقع دون زيادة أو نقصان،كأن يقول القائل : لم أقرأ اليوم إلاّ صفحة واحدة من الكتاب . و هذا إذا كان – بالفعل – لم يقرأ إلاّ صفحة

---

[1] - التّوبة : 65 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 250 .

[3] - حاشية الشّريف الجرجانيّ على كشّاف الزّمخشريّ ؛ دط ، طهران ، دت ، ص : 204 .

واحدة من ذلك الكتاب . و كذلك إذا قال : ما جاءني إلاّ عليّ ، كلّ هذا إذا طابقت النّسبة الكلاميّة النّسبة الخارجيّة مطابقة تامّة لا تزيّد فيها و لا ادّعاء .[1]

و قد تفرّد ابن عاشور باستكشاف نوع من القصر الحقيقيّ ، سمّاه القصر الحقيقيّ المقيّد ، ففي جملة :﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ من قوله تعالى :﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] تعليل لطلب التّقبّل منهما ، و تعريف جزأي هذه الجملة و الإتيان بضمير الفصل ،يفيد قصرين للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتتريل سمع غيره مترلة العدم.

و يجوز أن يكون قصرا حقيقيّا باعتبار متعلّق خاصّ ، أي السّميع العليم لدعائنا ، لا يعلمه غيرك و هذا قصر حقيقيّ مقيّد و هو نوع مغاير للقصر الإضافيّ لم ينبّه عليه علماء المعاني.[3]

أمّا الادّعاء أو القصر المبنيّ على المبالغة فالمراد به أن تثبت الشّيء للشّيء و تنفيه عن كلّ ما عداه أو عن بعضه نفيا يقوم على المبالغة و التّجوّز ، و لا يقوم على المطابقة الحقيقيّة للواقع ، فالنّسبة الكلاميّة -نعني المُفادة – من الكلام لا تطابقها النّسبة الخارجيّة مطابقة دقيقة ، لأنّ فيها فضل تزيّد و مبالغة ،كأن يقول المتحدّث عن مسألة علميّة معروفة : لم يتكلّم في هذه المسألة إلاّ زيد ، فتثبت الكلام له و تَنفيه عن كلّ ما عداه ، و الواقع أنّه تكلّم فيها آخرون ، و لكنّك لم تعتدّ بما قالوه استسقاطا له ، و استعظاما لكلام زيد ، و كأنّ ما قاله الآخرون ليس شيئا بالنّسبة لما قاله زيد .[4]

و مثل هذا أن نقول : ليس الرّثاء إلاّ ما قاله أبو ذؤيب ، و ليس الغزل إلاّ ما قاله ابن الدّمينة ، تريد نفي كلّ شعر في هذا الباب أو ذاك إلاّ شعر هو شعر فلان أو فلان ، و هذه الحقيقة تخالف

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص : 238 .

[2] - البقرة :127.

[3] - التّحرير و التّنوير : م1، ج 1 ق 2 ، ص : 719 .

[4] - ينظر البلاغة العالية (علم المعاني): عبد المتعال الصّعيدي ، قدّم له و راجعه و أعدّ فهارسه : د. عبد القادر حسين ، ط2 مكتبة الآداب ، 1411 هـــ / 1991 م ، ص : 49 .

الواقع فإنّ الرّثاء و الغزل كثير ، و لكنّك ترى أنّ رثاء أبي ذؤيب لم يكن يرثي فيه أولاده فحسب ، و إنّما كان يرثي الحياة و الأحياء ، و هذا طبع في الرّثاء لا يتوفّر كثيرا عند الشّعراء ، هكذا تزعم ، و هكذا في نسيب ابن الدّمينة... فالمسألة إذن مسألة إحساس و رؤية داخليّة خاصّة لحقيقة من الحقائق و ليس كذبا و لا قريبا منه .[1]

أ ــ القصر الحقيقيّ :

و قد ذكر البلاغيّون أنّ القصر الحقيقيّ التّحقيقيّ ، إذا كان المقصور فيه صفة يقع كثيرا في الكلام لأنّ الصّفات يمكن أن تكون مقصورة على موصوفِين قصرا حقيقيّا ، تقول : ما في الدّار إلاّ زيد فتقصر الكون في الدّار على زيد لأنّه ليس فيها سواه ،و يقول الله تعالى :﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[2] فيقصر إهلاك الغضب و الانتقام على القوم الظّالمين دون كلّ من عداهم لأنّ الله لا يهلك أحدا إهلاك غضب و انتقام إلاّ من كان ظالما .[3]

و في قوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4] يقول ابن عاشور : " و الحصر المستفاد من تقديم المعمول في قوله تعالى :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾**حصر حقيقيّ** لأنّ المؤمنين المُلقَّنين لهذا الحمد لا يعبدون إلاّ الله . و زعم ابن الحاجب في إيضاح المفصّل في شرح ديباجة المفصّل عند قول الزّمخشريّ : "اللهَ أحمدُ" أنّ التّقديم لا يفيد إلاّ الاهتمام دون حصر ، و أنّ قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تقديم المفعول للاهتمام دون قصر و أنّ تمسّكهم بقوله :﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾[5] ضعيف

---

[1] - البحث البلاغيّ عند العرب ، تأصيل و تقييم : د. شفيع السّيّد ، دط ، دار الفكر العربيّ ، دت ، ص : 151 .

[2] - الأنعام : 47 .

[3] - دلالات التّراكيب : 62 .

[4] - الفاتحة : 5 .

[5] - الزّمر : 66 .

لورود : ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[1] و إبطالُ رأيه مقرَّر في كتب المعاني .[2] و يرى ابن عاشور أنّ استدلاله بورود قوله تعالى :﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾لا يليق بمقامه العلميّ إذ لا يظنّ أنّ محامل الكلام متماثلة في كلّ مقام .[3]

و في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[4] و الحقّ المطابق للواقع ، أي الصّدق ،مأخوذ من حقّ الشّيء إذا ثبت . و المعنى : أنّه الحقّ في الإلهيّة . فالقصر المستفاد من ضمير الفصل **قصر حقيقيّ** .[5]

و في قوله تعالى :﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[6] القصر **حقيقيّ** لأنّه الأصل ، و لما دلّ عليه توكيده بعد في قوله:﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾[7] ، و القصر الحقيقيّ يشتمل على معنى الإضافيّ و زيادة لأنّ علم السّاعة بالتّحديد مقصور على الله تعالى .[8]

و قوله :﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[9] كلام معترض ، أمِر النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم أن يقوله لهم . كناية عن استبعاد حصول اهتدائهم ، و أنّ الله لم يهدهم ، لأنّ هدى غيره أي محاولته هدى النّاس لا يحصل منه المطلوب ، إذا لم يقدّره الله . **فالقصر حقيقيّ** : لأنّ ما لم يقدّره الله فهو

---

[1] - الزّمر : 2 .

[2] - الإيضاح في شرح المفصّل ، أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب النّحوي ، تحقيق و تقديم :د ، موسى بنّاي العليلي ، دط ، مطبعة العاني ــ بغدلد ــ ، 1983 ، ج 1 ، ص : 229 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 183 .

[4] - الحجّ : 62 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 7 ، ج 17 ، ص : 316 .

[6] - الأعراف : 187 .

[7] - الأعراف : 187 .

[8] - التّحرير و التّنوير : م4 ، ج 9 ، ص : 202 .

[9] - آل عمران : 73 .

صورة الهدى ، وليس بهدى و هو مقابل قولهم :﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾[1]ــ ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾[2] ، إذْ أرادوا صورة الإيمان ، و ما هو بإيمان ، و و في هذا الجواب إظهار الاستغناء عن متابعتهم .[3]

و تقديم المتعلّق على عامله في قوله تعالى:﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4] مفيد القصر و هو **قصر حقيقيّ حقيقيّ**

سيق للمخاطبين لإفادتهم ذلك ، إذ كانوا منكرين ذلك ، و فيه تأييس لهم من نفع أصنامهم إيّاهم إذ كان المشركون يُحاجّون المسلمين بأنّه إن كان بعْث و حشْر فسيجدون الآلهة ينصرونهم .[5]

و جملة :﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[6] صيغة قصر و هو **قصر حقيقيّ** سيق سيق للمخاطَبين من المشركين الذين لا شكّ عندهم في أنّ الله خالق ما في الأرض ، و لكنّهم نُزّلوا منزلة الجاهل بذلك ، فسيق لهم الخبر المحصور لأنّهم في كفرهم و انصرافهم عن شكره و النّظر في دعوته و عبادته كحال من يجهل أنّ الله خالق جميع الموجودات .[7]

و صيغة القصر في قوله تعالى :﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[8] تقتضي أنّه لا يعدوكونه يعدوكونه من أثر الكفر لمحبّة الاعتداء و الغارات فهو **قصر حقيقيّ** ، و يلزم من كونه زيادة في

---

[1] - آل عمران : 72.

[2] - آل عمران : 73 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م2 ، ج 3 ، ص : 280 .

[4] - البقرة : 28 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 376 .

[6] - البقرة : 29 .

[7] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 379 .

[8] - التّوبة : 37 .

الكفر أنّ الذين وضعوه ليسوا إلاّ كافرين و ما هم بمصلحين ، و ما الذين تابعوهم إلاّ كافرون كذلك و ما هم بمتّقين .[1]

ب ـــ القصر الادّعائيّ :

و في قوله تعالى:﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾[2] القصر إمّا أن يكون **للمبالغة** في اعتدائهم لأنّه اعتداء عظيم باطنيّ على قوم حالفوهم و عاهدوهم ، و لم يُلحقوا بهم ضرّا مع تمكّنهم منه و إمّا أن يكون قصر قلب أي : هم المعتدون لا أنتم ، لأنّهم بدأوكم بنقض العهد في قضيّة خزاعة و بني الدِّيل من بكر بن وائل ممّا كان سببا في غزوة الفتح .[3]

و القصر في قوله تعالى : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[4] **ادّعائي** فإنّ المسلم قد يستعين غير الله تعالى كيف و قد قال تعالى:﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[5] و لكنّه لا يستعين في عظائم الأمور إلاّ بالله ، و لا يعدّ الاستعانة حقيقة إلاّ الاستعانة بالله تعالى .[6]

و صيغة القصر في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[7] **قصر ادّعائيّ** للمبالغة لأنّهم لمّا بلغوا النّهاية في الفسوق جعل غيرهم كمن ليس بفاسق .[8]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 191 .

[2] - التّوبة : 10 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 127 .

[4] - الفاتحة : 5 .

[5] - المائدة : 2 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 1 ، ج 1 ، ص : 186 .

[7] - التّوبة : 67 .

[8] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 255 .

كذلك القصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله تعالى :﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [1] **قصر ادّعائيّ** للمبالغة في وصفهم بشدّة الفسق ، حتى كأنّ فسق غيرهم ليس بفسق في جانب فسقهم .[2]

[2].

و القصر المستفاد من (**إنّما**) في قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] قصر موصوف على صفة ، أي هذه الأربعة المذكورات مقصورة على الاتّصاف بالرّجس لا تتجاوزه إلى غيره ، و هو **ادّعائيّ** للمبالغة في عدم الاعتداد بما عدا صفة الرّجس من صفات هذه الأربعة . ألا ترى أنّ الله قال في سورة البقرة في الخمر و الميسر :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[4]، فأثبت لهما الإثم و هو صفة تساوي الرّجس . و أثبت لهما المنفعة ، و هي صفة تساوي نقيض الرّجس ، في نظر الشّريعة ، لأنّ المنفعة تستلزم حرس النّاس على تعاطيها ، فصحّ أنّ للخمر و الميسر صفتيْن . و قد قصر في آية المائدة على ما يساوي إحدى تينك الصّفتيْن أعني الرّجس ، فما هو إلاّ **قصر ادّعائيّ** يشير إلى ما في سورة البقرة من قوله : ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ ، فإنّه لّما نبّهنا إلى ترجيح ما فيهما من الإثم على ما فيهما من المنفعة فقد نبّهنا إلى دحْض ما فيهما من المنفعة قُبالة ما فيهما من الإثم حتى كأنّهما تمحّضا للاتّصاف بـــ ﴿ فِيهِمَآ إِثْمٌ ﴾ ، فصحّ في سورة المائدة أن يُقال في حقّهما ما يفيد انحصارهما في أنّهما :﴿ فِيهِمَآ إِثْمٌ ﴾

---

[1] - الحشر : 19 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م11 ، ج 28 ، ص : 114 .

[3] - المائدة : 90 .

[4] - البقرة : 219 .

أي انحصارهما في صفة الكون في هذه الظّرفيّة كالانحصار الذي في قوله :﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾[1] ، أي حسابهم مقصور على الاتّصاف بكونه على ربّي أي انحصر حسابهم في معنى هذا الحرف . و ذلك هو ما عبّر عنه بعبارة الرّجس .[2]

و قد أفادت صيغة :﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[3] قصر الحياة على اللّعب و اللّهو ، و هو قصر موصوف على صفة . و المراد بالحياة الأعمال التي يحبّ الإنسان الحياة لأجلها ، لأنّ الحياة مدّة و زمن لا يقبل الوصف بغير أوصاف الأزمان من طول أو قصر ، و تحديد أو ضدّه ، فتعيّن أنّ المراد بالحياة الأعمال المظروفة فيها . و اللّعب و اللّهو في قوّة الوصف ، لأنّهما مصدران أرِيد بهما الوصف للمبالغة كقول الخنساء :

فإنَّـــمَا هِيَ إقْـــبَالٌ وَ إدْبَـــارُ[4]

و هذا القصر ادّعائيّ يقصد به المبالغة ، لأنّ الأعمال الحاصلة في الحياة كثيرة ، منها اللّهو و اللّعب و منها غيرهما ، قال تعالى :﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾[5] فالحياة تشتمل على أحوال كثيرة منها الملائم كالأكل و اللّذات و منها المؤلم كالأمراض و الأحزان ، فأمّا المؤلمات فلا اعتداد بها هنا و لا التفات إليها لأنّها ليست ممّا

---

[1] - الشّعراء : 113 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص : 23 – 24 .

[3] - الأنعام : 32 .

[4] - ديوان الخنساء ، دط ، مطبعة التّقدّم التّجاريّة ،1348 هـــ ، ص : 58 .

[5] - الحديد : 20 .

يرغب فيه الرّاغبون،لأنّ المقصود من ذكر الحياة هنا ما يحصل فيها ممّا يحبّها النّاس لأجله و هو الملائمات.[1]

و ضمير (هو) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾[2] ضمير فصل ، و هو تأكيد لما أفاده تعريف المسند من القصر .

و التّعريف في (الحقّ) تعريف الجنس . و أفاد تعريف الجزأين ﴿ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ قصر المسند على المسند إليه ، أي قصر جنس الحقّ على (الذي أوحينا إليك) ، و هو **قصر ادّعائيّ** للمبالغة لعدم الاعتداد بحقّيّة ما عداه من الكتب .[3]

و القصر المستفاد من قوله :﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[4] **قصر ادّعائيّ** ، أي أنّ ظلمهم لشدّة وقوعه بعد النّهي الشّديد و التّنبيه على الأخطاء و العصيان ظلم لا يُغفر ، لأنّه اعتداء على حقوق الله و حقوق المسلمين و على حقّ الظّالم نفسه .[5]

و اقتضى ظاهر القصر المستفاد من (إنّما) في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[6] أنّ من لم يَجِل قلبه قلبه إذا ذُكر الله ، و لم تزده تلاوة آيات الله إيمانا مع إيمانه ، و لم يتوكّل على الله ، و لم يُقِم الصّلاة ، و لم يُنْفق ، لم يكن موصوفا بصفة الإيمان ، فهذا ظاهر مؤول بما دلّت عليه أدلّة كثيرة

[1] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص : 193 – 194 .

[2] - فاطر : 31 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22 ، ص : 309 .

[4] - الممتحنة : 9 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج 28 ، ص : 154 .

[6] - الأنفال : 2 .

من الكتاب و السّنّة من أنّ الإيمان لا ينقضه إلاّ إخلال ببعض الواجبات كما سيأتي عند قوله تعالى :﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗا ﴾ [1] فتعيّن أنّ القصر **ادّعائيّ** بتنزيل الإيمان الذي عَدِم الواجباتِ العظيمةَ منزلة العدم، و هو قصر **مجازيّ** لابتنائه على التّشبيه ، فهو استعارة مكنيّة : شُبّه الجانب المنفيّ في صيغة القصر بمن ليس بمؤمن ، و طُوي ذكر المشبّه به و رمز إليه بذكر لازمه ، و هو حصر الإيمان فيمن اتّصف بالصّفات التي لم يتّصف بها المشبّه به ، و يئول هذا إلى معنى : إنّما المؤمنون الكاملو الإيمان .[2]

و جملة :﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [3] مضمونها سبب لتسبيح الله ما في السّماوات و ما في الأرض ، إذ التّسبيح من الحمد فلا جرم أن كان حمد ذوي الإدراك مختصّا به تعالى ، إذ هو الموصوف بالجميل الاختياريّ المطلق فهو الحقيق بالحمد و التّسبيح .

فهذا **القصر ادّعائيّ** لعدم الاعتداد بحمد غيره لنقصان كمالاتهم و إذا أريد بالحمد ما يشمل الشّكر أو يفضي إليه كما في الحديث : " **الحَمْدُ رَأسُ الشُّكْرِ،لَمْ يَشْكُرِ الله عَبْدٌ لَمْ يَحْمَدْهُ** ".[4]

و هو مقتضى المقام من تسفيه أحلام المشركين في عبادتهم غيره فالشّكر أيضا مقصور عليه تعالى لأنّه المنعم الحقّ بنعم لا قِبَلَ لغيره بإسدائها ، و هو المفيض على المنعّمين ما ينعّمون به في الظّاهر [1] قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ .[2]

---

[1] - الأنفال : 4.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 9 ، ص : 255 .

[3] - التّغابن : 1.

[4] - شرح السّنّة : الحسين بن مسعود البغويّ ، حقّقه و علّق عليه و خرّج أحاديثه : شعيب الأرناؤوط ، ط1 ، المكتب الإسلاميّ 1403 هـــ / 1983 م ، 2 / 144 . و الحديث من طريق قتادة عن عبد الله بن عمرو مرفوعا به ، و هو حديث ضعيف كما في السّلسلة الضّعيفة و الموضوعة للألباني : (3 / 552) .

و الذي يظهر في تفسير هذه الجملة أنّ قولهما :﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾[3] **قصر ادّعائيّ** فجعلا كثرة افتتان النّاس بالسّحر الذي تصدّيا لتعليمه بمنزلة انحصار أوصافهما في الفتنة ، و وجه ابتدائهما لمن يعلّمانه بهذه الجملة أن يبيّنا له أنّ هذا العلم في مبادئه يظهر كأنّه فتنة و شرّ ، فيوشك أن يكفر متعلّمه عند مفاجأة تلك التّعاليم إيّاه إذا كانت نفسه قد توطّنت على اعتقاد أنّ ظهور خوارق العادات علامة على ألوهيّة من يظهرها .[4]

و تعريف المسند باللاّم في قوله تعالى :﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[5] مفيد للقصر ، و هو **قصر ادّعائيّ** للمبالغة في عظم فوزهم حتى إنّ فوز غيرهم بالنّسبة إلى فوزهم يعدّ كالمعدوم .[6]

2 ـــ القصر الإضافيّ :

و من ذلك قوله تعالى :﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ** ﴾[7] و جيء بصيغة الحصر بـــ (إنّما) لدفع أن يكون مخالف هذه الحالة في شيء من الإيمان ، و إن قال بلسانه إنّه مؤمن ، فهذا القصر إضافيّ ، أي هذا قول المؤمنين الصّادقين في إيمانهم ، لا كقول الذين أعرضوا عن حكم رسول الله حين قالوا :﴿**ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا**﴾[8] فلمّا دُعوا إلى حكم الرّسول عصَوا أمره فإنّ إعراضهم نقيض الطّاعة . و ليس

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 11 ، ج 28 ، ص :261 .

[2] - النّحل : 53 .

[3] - البقرة : 102 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م1، ج 1، ص : 643 – 644 .

[5] - التّوبة : 20 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 148 .

[7] - النّور : 51 .

[8] - النّور : 47.

قصرا حقيقيّا لأنّ أقوال المؤمنين حين يُدعون إلى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم ليحكم بينهم غيرُ منحصرة في قول و لا مرادفه ، فلعلّ منهم من يزيد على ذلك .[1]

و في قوله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[2] و جيء بصيغة القصر : لأنّ النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم لا يلحقه أذى و لا ضرّ من صدّهم النّاس عن اتّباعه و يلحق الضّرّ الماكرين ، في الدّنيا : بعذاب القتل و الأسر ، و في الآخرة : بعذاب النّار ، إن لم يؤمنوا . فالضّرّ انحصر فيهم على طريقة **القصر الإضافيّ** ، و هو قصر قلب .[3]

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[4] و قصر النّبيّ على صفة النّذارة **قصر إضافيّ** ، أي لستُ طالبا نِكايتكم و لا تزلُّفا، فمن آمن فلنفسه و من عمي فعليها .[5]

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[6] و القصر بـــ (إنّما) **إضافيّ** ، أي لاغير أولي الألباب . فهو تعريض بالمشركين بأنّهم لا عقول لهم ، إذ انتفت عنهم فائدة عقولهم .[7]

و في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[8] و قد ردّ الله اقتراحهم من أصله بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾،فقصر النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم على صفة الإنذار ، و هو **قصر إضافيّ**

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 18 ، ص : 274 .

[2] - الأنعام : 123 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ، ص : 51 .

[4] - الحجّ :49 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 7 ، ج 17 ، ص : 294 .

[6] - الرّعد : 19 .

[7] - التّحرير و التّنوير : م6 ، ج 13 ، ص : 123 .

[8] - الرّعد : 7 .

أي أنت منذر لا موجد خوارقِ عادةٍ . و بهذا يظهر وجه قصره على الإنذار دون البشارة لأنّه قصر إضافيّ بالنّسبة لأحواله نحو المشركين .[1]

و جملة :﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾[2] أفادت **قصرا إضافيّا** بالنّسبة إلى معالجة تسميعهم الحقّ ، أي أنت نذير للمشابهين مَنْ في القبور ، و لست بمُدْخِلِ الإيمان في قلوبهم ، و هذا مسوق مساق المعذرة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم و تسليته إذ كان مهتمّا من عدم إيمانهم .[3]

و في قوله تعالى :﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[4] يقول ابن عاشور " ...

و لذلك اجتُلبت صيغة الحصر بـــ (إنّما) ، أي ما أعظكم إلاّ بواحدة ، طيّا لبساط المناظرة

و إرساء على الخلاصة من المجادلات الماضية ، و تقريبا لشقّة الخلاف بيننا و بينكم .

و هو **قصر إضافيّ** ، أي لا بغيرها من المواعظ المفصّلة ، أي إن استكثرتم الحجج و ضجرتم من الرّدود و المطاعن فأنا أختصر المجادلة في كلمة واحدة فقد كانوا يتذمّرون من القرآن لأبي طالب : أما ينتهي ابن أخيك من شتم آلهتنا و آبائنا؟ و هذا كما يقول المناظر و الجدليّ بعد بسط الأدلّة فيقول : و الخلاصة أو الفذلكة كذا .[5]

و في قوله تعالى :﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[6] فمعنى﴿ أَتَّبِعُ ﴾ مجاز مرسل في الاقتصار على الشّيء و ملازمته دون غيره . لأنّ ذلك من لوازم معنى الاتّباع الحقيقيّ ، و هو المشي خلف المتّبَع

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م6 ، ج 13 ، ص : 95 .

[2] - فاطر : 23 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 22 ، ص : 296 .

[4] - سبأ : 49 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م9 ، ج 22 ، ص : 231 .

[6] - الأنعام : 50 .

أي لا أحيد عن تبليغ ما يوحى إليّ إلى إجابة المقترحات من إظهار الخوارق أو لإضافة الأرزاق أو إخبار بالغيب ، فالتّلقّي و التّبليغ هو معنى الاتّباع ، و هو كنه الرّسالة عن الله تعالى .فالقصر المستفاد هنا **إضافيّ** ، أي دون الاشتغال بإظهار ما تقترحونه من الخوارق للعادة . و الغرض من القصر قلب اعتقادهم أنّ الرّسول لا يكون رسولا حتى يأتيهم بالعجائب المسؤولة . و قد حصل بذلك بيان حقيقة الرّسالة ، تلك الحقيقة التي ضلّ عن إدراكها المعاندون . و هذا معنى قوله تعالى :﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[1] .

و إذ قد كان **القصر إضافيّا** كان لا محالة ناظرا إلى قلب اعتقادهم بالنّسبة لمطالبهم باتّباع مقترحاتهم ، أي لا أتّبع في التّبليغ إليكم إلاّ ما يوحى إليّ . فليس في هذا الكلام ما يقتضي قصر تصرّف الرّسول – عليه الصّلاة و السّلام – على العمل بالوحي حتى يحتجّ بها من ينفي من علمائنا جواز الاجتهاد للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في أمور الدّين لأنّ تلك مسألة مستقلّة لها أدلّة للجانبيْن و لا مساس لها بهذا القصر . و من توهّمه فقد أساء التّأويل .[2]

و **القصر إضافيّ** في قوله تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[3] للرّدّ على من زعموا أنّه إن لم يأتهم بآية كما اقترحوا فليس برسول من عند الله ، فهو قصر قلب ، أي لم نرسل الرّسول للإعجاب بإظهار خوارق العادات . و كنّى بالتّبشير و الإنذار عن التّبليغ ، لأنّ التّبليغ يستلزم الأمرين و هما التّرغيب و التّرهيب ، فحصل بهذه الكناية إيجاز ، إذ استغنى بذكر اللاّزم عن الجمع بينه و بين الملزوم .[4]

---

[1] - الأنعام : 48 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص : 242 – 243 .

[3] - الأنعام : 48 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 7 ، ص : 238 .

و القصر في قوله :﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾[1] **إضافيّ** لنفي الإثم عن الموصى ، و إلاّ فإنّ إثمه أيضا يكون على الذي يأخذ ما لم يجعله له الموصى مع علمه إذا حاباه منفّذ الوصيّة ، أو الحاكم فإنّ الحكم لا يُحِلّ حراما ، و قد قال النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم : " **فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْتَطِعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**"[2] ، وَ إنّما انتفى الإثم عن الموصى لأنّه استبرأ لنفسه حين أوصى بالمعروف فلا وِزْر عليه في مخالفة النّاس بعده لما أوصى به ، إذ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3] .

و المقصود من هذا القصر إبطال تعلُّل بعض النّاس بترك الوصيّة بعلّة خيفة ألاّ ينفّذها الموكول إليهم تنفيذها ، أي فعليكم الإيصاء و وجوب التّنفيذ متعيّن على ناظر الوصيّة فإنّ بدّله فعليه إثمه ، و قد دلّ قوله : أنّ هذا التّبديل يمنعه الشّرع و يضرب ولاة الأمور على يد من يحاول هذا التّبديل ؛ لأنّ الإثم لا يُقرَّر شرعا .[4]

و في قوله تعالى :﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[5] و مجيء صيغة القصر فيها مؤذن بأنّ المقصود إقصاء فرق أخرى عن أن يعمروا مساجد الله ، غير المشركين الذين كان إقصاؤهم بالصّريح ، فتعيّن أن يكون المراد من الموصول و صلته خصوص المسلمين لأنّ مجموع الصّفات المذكورة في الصّلة لا يثبت لغيرهم ، فاليهود و النّصارى آمنوا بالله و اليوم الآخر

---

[1] - البقرة : 181 .

[2] - صحيح البخاري : كتاب الأحكام ، باب موعظة الإمام للخصوم ، و الحديث من رواية أمّ سلمة ــ رضي الله عنها ــ ، ص : 1771 .

[3] - النّجم : 28 – 29 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م1، ج 2، ص : 152 .

[5] - التّوبة : 18 .

لكنّهم لم يقيموا الصّلاة و لم يؤتوا الزّكاة ، لأنّ المقصود بالصّلاة و الزّكاة العبادتان المعهودتان بهذين الاسمين و المفروضتان في الإسلام ، ألا ترى إلى قوله تعالى :﴿ **قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ** ﴾[1] كناية عن أن لم يكونوا مسلمين .

و قصر خشيتهم على التّعلّق بجانب الله تعالى بصيغة القصر ، ليس المراد منه أنّهم لا يخافون شيئا غير الله ، فإنّهم قد يخافون الأسد و يخافون العدوّ ، و لكن معناه إذا تردّد الحال بين خشيتهم الله و خشيتهم غيره ، قدّموا خشية الله على خشية غيره كقوله في آيات سبقت :﴿ **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ** ﴾[2] فالقصر إضافيّ باعتبار تعارض خشيتين .[3]

---

[1] - التّوبة : 43 – 44 .

[2] - التّوبة : 13 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 141 – 142 .

الفصل الرّابع

بلاغة الجمل (الإطناب)

تمهيد:

الجذع (طنب) و مايُشتقّ منه لغةً: الطّول و الامتداد في كلّ شيء ، يقول ابن منظور :

" و الإطناب البلاغة في المنطق و الوصف ، مدحا كان أو ذمّا . و أطنب في الكلام : بالغ فيه".[1]

و في الاصطلاح هو أن يزاد على أصل المراد ، هو المساواة لفائدة و يحصل بأوجه ، و من جملة أسراره بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب.[2]

و عرض الجاحظ للمفاضلة بين الإيجاز و الإطناب ، فتوصّل إلى أنّ الإيجاز في مواطنه محمود إذا لم يُخِلّ صاحبه بالمعنى ، كما أنّ الإطناب محبوب إذا لم يخرج إلى الإطالة و الإسفاف ، و كان من جملة ما قاله : " وجملة القول في التّرداد أنّه ليس فيه حدٌّ يُنتهى إليه ، و لايؤتى على وصفه

و إنّما ذلك على قدر المستمعين ، و من يحضره من العوامّ و الخواصّ ، و قد رأينا الله عزّ و جلّ ردّد ذكر قصّة هود ، و شعيب ، و هارون ، و إبراهيم ، و لوط ، و عاد ، و ثمود ، و كذلك الجنّة و النّار ، و أمور كثيرة ، لأنّه خاطب جميع الأمم من العرب و أصناف العجم ، و أكثرهم غبيّ غافل أو معاند مشغول ساهي القلب".[3]

---

[1] - لسان العرب : ابن منظور ، 1 / 514 .

[2] - مواهب الفتّاح في شرح تلخيص المفتاح : أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن محمّد بن يعقوب المغربيّ ، تحقيق : خليل إبراهيم خليل ط1 ، دار المتب العلميّة ،1424 هـــ /2003 م ، 1 / 652 .

[3] - البيان و التّبيين : 1 / 105 .

و يذهب التّفتازاني إلى أنّ الإطناب يكون إمّا بالإيضاح بعد الإبهام ، و ذلك يُرِي المعنى في صورتين مختلفتين ، الأولى مبهمة و الثّانية موضّحة ، و عنده أنّهما علمان و هما خير من علم واحد ، ثمّ بسط القول في هذا الأمر من النّاحية النّفسيّة ، فتحدّث عمّا يحدث للنّفس من السّرور عند معرفة الخفي من العلوم و المعاني.[1] و عدّد بعد ما يدخل في مسمّى الإطناب ، كما سنذكره .

و يقول ابن الأثير :"إنّ مثال الإيجاز و الإطناب و التّطويل مثال مقصد يسلك إليه في ثلاثة طرق ،فالإيجاز هو أقرب الطّرق الثّلاثة إليه ، و الإطناب و التّطويل هما الطّريقان المتساويان في البعد إليه، إلاّ أنّ طريق الإطناب تشتمل على متره من المنازه لا يوجد في طريق التّطويل ".[2]

و لم يُغفل البلاغيّون الاعتداد بالنّفس الإنسانيّة التي يوجّه إليها الخطاب ، و من ثمّ كانت وقفات البلاغيّين عند كثير من الأمور التي تحرّك النّفس الإنسانيّة و تناجيها ، و سنجد هذا في دفع التّوهّم عن النّفس ، و تمكّن الخطاب منها ، و الالتذاذ بما يلقى إليها .[3]

و قد يكون الإيجاز مُمَكّنا في مواطنه ، إلاّ أنّ القرآن يعدل عنه إلى الإطناب لما فيه من البلاغة كالثّناء و غيره . و من ذلك قوله تعالى :﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[4] يقول ابن عاشور : " و لمّا كانت هاتان الصّفتان من خصائص المسلمين صار المعنى : إنّما تُنذر المؤمنين ، فعدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم مع ما فيه من الإيجاز إلى استحضارهم بصِلتيْن مع ما فيهما من الإطناب ، تذرّعا بذكر هاتيْن الصّلتيْن إلى الثّناء عليهم بإخلاص الإيمان في الاعتقاد و العمل .[5]

1 ـــ التّنويه :

---

[1] - المطوّل : التّفتازاني ، ص : 491 – 492 .

[2] - المثل السّائر : ص : 217 – 218 .

[3] - بلاغة التّراكيب ـــ دراسة في علم المعاني ـــ : د. توفيق الفيل ، دط ، مكتبة الآداب ، 1991 م ، ص : 252 .

[4] - فاطر : 18 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 9 ، ج 22 ، ص : 291 .

كثُر التّنويه في القرآن الكريم ، و هو معدود في الإطناب كما لفت إليه ابن عاشور ، ففي قوله تعالى :﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [1] يقول : " و في الكلام تنويه بمعالي أخلاق المسلمين و غضّ من أخلاق أهل الشّرك و أنّ سبب ذلك الغضّ الإشراك الذي يفسد الأخلاق ، و لذلك جعلوا قوما لا يعلمون دون أن يُقال بأنّهم لا يعلمون : للإشارة إلى أنّ نفي العلم مطّرد فيهم فيشير إلى أنّ سبب اطّراده فيهم هو نشأته عن الفكرة الجامعة لأشتاتهم ، و هي عقيدة الإشراك". [2]

و في قوله تعالى :﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [3] يقول ابن عاشور :" و المقصود من تخصيصهم بالذّكر : التّنويه بخصلة وفائهم بما عاهدوا عليه و يتعيّن أن يكون هؤلاء عاهدوا النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم في عمرة القضاء عند المسجد الحرام ، و دخلوا في الصّلح الذي عقده مع قريش بخصوصهم ، زيادة على دخولهم في الصّلح الأعمّ ، و لم ينقضوا عهدهم ، و لا ظاهروا عدوّا على المسلمين ، إلى وقت نزول براءة . على أنّ معاهدتهم عند المسجد الحرام أبعد عن مظنّة النّكْث لأنّ المعاهدة عنده أوقع في نفوس المشركين من الحلف المجرّد". [4]

و قوله تعالى :﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [5] أي لم يفرّطوا في صلاة كما يؤذن به فعل الإقامة. و لّما كانت هاتان الصّفتان من خصائص المسلمين صار المعنى :

---

[1] - التّوبة : 6 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 120 .

[3] - التّوبة : 7 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 122 .

[5] - فاطر : 18 .

إنّما تنذر المؤمنين ، فعدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم مع ما فيه من الإيجاز إلى استحضارهم بصلتين مع ما فيهما من الإطناب، تدرّعا بذكر هاتين الصّلتيْن إلى الثّناء عليهم بإخلاص الإيمان في الاعتقاد و العمل .[1]

و في سورة الزّخرف يقول ابن عاشور مفسّرا قوله تعالى :﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [2] ابتُدئت السّورة بالتّنويه بالقرآن و وصفه بأنّه ذكر و بيان للنّاس و وصف عناد المشركين في الصّدّ عنه و الإعراض ، و أُعْلِموا بأنّ الله لا يترك تذكيرهم و محاجّتهم لأنّ الله يدعو بالحقّ و يعِد به.

و أطنب في وصف تناقض عقائدهم لعلّهم يستيقظون من غشاوتهم ، و في تنبيههم إلى دلائل حقيّة ما يدعوهم إليه الرّسول صلّى الله عليه و سلّم بهذا القرآن ، و فضحت شبهاتهم بأنّهم لا تعويل لهم إلاّ على ما كان عليه آباؤهم الأوّلون الضّالّون ، و أنذروا باقتراب انتهاء تمتيعهم و إمهالهم و تقضّى ذلك بمزيد البيان ، و أفضى الكلام إلى ما قالوه في القرآن و من جاء به بقوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [3] إلى قوله: ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [4] ، و ما ألحق به من التّكملات ، عاد الكلام هنا إلى عواقب صرفهم عقولهم عن التّدبّر في الدّعوة القرآنيّة فكان انصرافهم سببا لأن يسَخِّر الله شياطين لهم تلازمهم فلا تزال تصرِفهم عن النّظر في الحقّ و أدلّة الرّشد . و هو تسخير اقتضاه نظام تولّد الفروع من أصولها ، فلا يتعجّب من عمى بصائرهم عن إدراك الحقّ البيّن ، و هذا من سنّة الوجود في تولّد الأشياء من عناصرها فالضّلال ينمي و يتولّد في النفوس ، و يتمكّن منها مرّة بعد مرّة ، حتى يصير طبعا على القلب و أكنّة فيه

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 9 ، ج 22 ، ص : 291 .

[2] - الزّخرف : 36 .

[3] - الزّخرف : 30.

[4] - الزّخرف : 31.

و ختما عليه و لا يضعف عمل الشّيطان إلاّ بتكرّر الدّعوة إلى الحقّ و بالزّجر و الإنذار ، فمن زناد التّذكير تنقدح شرارات نور فربّما أضاءت فصادفت قوّة نور الحقّ حالة وهن الشّيطان فتتغلّب القوّة الملكيّة على القوّة الشّيطانيّة فيفيق صاحبها من نومة ضلاله.[1]

2 – الإيضاح بعد الإبهام :

يرى ابن عاشور أنّ قوله تعالى :﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ بيان لجملة :﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾[2] و هذه الآية مثال للجملة المبنيّة لغيرها في علم المعاني .[3]

و في قوله تعالى :﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[4] أعيد فعل ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ و هو مُستغْنىً عنه لو اقتصر على الموصول وصفا لاسم الجلالة لأنّ ظاهر النّظم أن يقال : فاتّقوا الله الذي أمدّكم بما تعلمون ، فعدل عن مقتضى الظّاهر و بنى الكلام على عطف الأمر بالتّقوى على الأمر الذي قبله تأكيدا له ، و اهتماما بالأمر بالتّقوى مع أنّ ما عرض من الفصل بين الصّفة و الموصوف بجملة :﴿وَأَطِيعُونِ﴾ قضى بأن يعاد اتّصال النّظم بإعادة فعل :(اتّقوا) .

و إنّما أتي بالفعل :(اتّقوا) معطوفا و لم يؤت به مفصولا ، لما في الجملة الثّانية من الزّيادة على ما في الجملة الأولى من التّذكير بإنعام الله عليهم ، فعلّق بفعل التّقوى في الجملة الأولى اسم الذّات المقدّسة للإشارة إلى استحقاقه التّقوى لذاته ، ثمّ علّق بفعل التّقوى في الجملة الثّانية اسم الموصول بصلته الدّالّة على إنعامه للإشارة إلى استحقاقه التّقوى لاستحقاقه الشّكر على ما أنعم به .

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 207 – 208 .

[2] - طه : 120 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 7 ، ج 16 ، ص : 325 .

[4] - الشّعراء : من : 131 إلى : 134 .

و قد جاء في ذكر النّعمة بالإجمال الذي يهيّء السّامعين لتلقّي ما يرد بعده فقال :﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ ثمّ فصل بقوله :﴿ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ و أعيد فعل :﴿ أَمَدَّكُم﴾ في جملة التّفصيل لزيادة الاهتمام بذلك الإمداد فهو للتّوكيد اللّفظيّ . و هذه الجملة بمنزلة بدل البعض من جملة :﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ فإنّ فعل﴿ أَمَدَّكُم﴾ أمدّكم الثّاني و إن كان مساويا لـــ ﴿ أَمَدَّكُم﴾ الأوّل فإنّما صار بدلا منه باعتبار ما يتعلّق به من قوله :﴿بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾ إلخ الذي هو بعض ممّا تعلمون .[1]

و لّما كان في قوله تعالى :﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [2] إبهام ما في المراد بالغَرور ، عقّب ذلك بيانه بأنّ الغَرور هو الشّيطان ليتقرّر المسند إليه بالبيان بعد الإبهام . فجملة:﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ [3] تتنزّل من جملة :﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ منزلة البيان من المبين فلذلك فصلت و لم تُعطف ،و هذا من دلالة ترتيب الكلام على إرادة المتكلّم إذ يعلم السّامع من وقوع وصف الشّيطان عقب وصف الغَرور أنّ الغَرور هو الشّيطان .[4]

و زيادة (لي) بعد (اشرح) و بعد (يسّر) من قوله تعالى :﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [5] إطناب كما أشار إليه صاحب المفتاح لأنّ الكلام مفيد بدونه . و لكن سلك الإطناب لما تفيده اللاّم من معنى العلّة ، أي اشرح صدري لأجلي و يسّر أمري لأجلي ، و هي اللاّم الملقّبة لام التّبيين التي تفيد تقوية البيان ، فإنّ قوله (صدري – و – أمري) واضح أنّ الشّرح و التّيسير

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 8 ، ج 19 ، ص : 169 – 170 .

[2] - فاطر : 5 .

[3] - فاطر : 6.

[4] - التّحرير و التّنوير :م 9 ، ج 22 ، ص : 259 .

[5] - طه : 25 - 26.

متعلّقان به ، فكان قوله "لي "فيهما زيادة بيان كقوله :﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [1] و هو هنا ضرب من الإلحاح في الدّعاء لنفسه . [2]

3 – ذكر الخاصّ بعد العامّ :

و عطف﴿ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ [3] على﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [4] من عطف الخاصّ على العامّ للاهتمام به و لأنّ التّقوى تتبادر في ترك المنهيّات فإنّها مشتقّة من وقى . فتقوى الله أن يقيَ المرء نفسه ممّا نهاه الله عنه ، و لمّا كان ترك المأمورات فيؤول إلى إتيان المنهيّات ، لأنّ ترك الأمر منهيّ عنه إذ الأمر بالشّيء نهي عن ضدّه . كان التّصريح به بخصوصه اهتماما بكلا الأمريْن لتحصل حقيقة التّقوى الشّرعيّة و هي اجتناب المنهيّات و امتثال المأمورات . [5]

4 – التّكرير لفائدة :

يرى ابن عاشور أنّ الجملة من قوله تعالى :﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [6] مؤكّدة لجملة ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [7] و فائدة هذا التّأكيد تحقيق اطّراد هذا الوعد و تعميمه لأنّه خبر عجيب . ثمّ يقول : و من من المقرّر أنّ المقصود من تأكيد الجملة في مثله هو تأكيد الحكم الذي تضمّنه الخبر . و لا شكّ أنّ الحكم المستفاد من هذه الجملة هو ثبوت التحاق اليسر بالعسر عند حصوله ، فكان التّأكيد مفيدا

---

[1] - الشّرح : 1.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 7 ، ج 16 ، ص :211.

[3] - التّغابن : 16 .

[4] - التّغابن : 16 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 288 . و ينظر : النّظم القرآني في كشّاف الزّمخشريّ :د. درويش الجندي ، دط ،دار النّهضة ـــ مصر ، 1969 م ، ص : 145 .

[6] - الشّرح : 6 .

[7] - الشّرح : 5 .

ترجيح أثر اليسر على أثر العسر ، و ذلك التّرجيح عبّر عنه بصيغة التّثنية في قوله (يسرْيْن) فالتّثنية هنا كناية رمزيّة عن التّغلّب و الرّجحان.[1]

و عطف على السّبع في قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [2] من عطف الكلّ عل الجزء لقصد التّعميم ليعلم أنّ إيتاء القرآن كلّه نعمة عظيمة .[3]

و عطف :﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قوله تعالى : ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [4] في هذا المعنى تنويه بشأن رسول الوحي من الملائكة و شأن المؤمنين الصّالحين .و فيه تعريض بأنّهما تكونان (على تقدير حصول هذا الشّرط) من غير الصّالحين .[5]

و في قوله تعالى :﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾ [6] كرّر تشبيه المشركين في إعراضهم عن الحقّ بأن شبّهوا في ذلك بالعمى بعد أن شُبّهوا بالموتى و بالصّمّ على طريقة الاستعارة إطنابا في تشنيع حالهم الموصوفة على ما هو المعروف عند البلغاء في تكرير التّشبيه.[7]

5 – الإيغال :

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 12 ، ج 30 ، ص : 415 – 416 .

[2] - الحجر : 87 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 6 ، ج 14 ، ص : 81 .

[4] - التّحريم : 4 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 358 .

[6] - النّمل : 81 .

[7] - التّحرير و التّنوير :م 8 ، ج 20 ، ص : 36 .

و يسمّى التّبليغ[1] ، و هو أن يأتي الشّاعر بالمعنى في البيت تامّا قبل انتهائه إلى قافيته ، ثمّ يأتي لحاجة الشّعر إليها ، لأنّ بها يصير الشّعرُ شعرا ، فيزيد البيت رونقا ، و المعنى بلوغا إلى الغاية القصوى .[2] و قال التَّوَّزيّ :" قلت للأصمعيّ : من أشعرُ النّاس ؟ قال : من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا ، أو يقصد المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا ، أو ينقضي كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أتى بها و أفاد معنى لم يكن قبلها".[3]

فقوله تعالى :﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[4] ،﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي و هم متّصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسّعادة الأبديّة ، و هم إنّما يدعونكم إلى أن تسيروا سيرتهم ، فإذا كانوا هم مهتدين فإنّ ما يدعونكم إليه من الاقتداء بهم دعوة إلى الهدى ، فتضمّنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين و على ما يدعون إليه و ترغيبا في متابعتهم .

و اعلم أنّ هذه الآية قد مثّل بها القزوينيّ في الإيضاح[5] و التّلخيص[6] للإطناب المسمّى بالإيغال و هو أن يؤتى بعد تمام المعنى المقصود بكلام آخر يتمّ المعنى بدونه لنكتة ، و قد تبيّن لك ممّا فسّرنا به أنّ قوله:﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ لم يكن مجرّد زيادة بل كان لتوقّف الموعظة عليها ، و كان قوله:

---

[1] - العمدة في محاسن الشّعر و آدابه و نقده : ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمّد محي الدّين عبد الحميد ، دط ، مطبعة السّعادة ـــ القاهرة ، 1963 ، 2 / 57 .

[2] - نضرة الإغريض في نصرة القريض : المظفّر بن الفضل العلويّ ، تحقيق : د . نهى عارف الحسن ، دط ، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة ـــ دمشق ، 1396 هـــ / 1976 م ، ص : 131 .

[3] - العمدة : 2 / 57 .

[4] - يس : 21 .

[5] – الإيضاح : ص : 115 .

3– التّلخيص في علوم البلاغة : جلال الدّين محمّد بن عبد الرّحمن الخطيب القزويني ، حقّقه و شرحه و أعدّ فهارسه : د. عبد الحميد هنداوي ، ط2 ، دار الكتب العلميّة ، 1430هـــ / 2009 م ، ص : 58 .

﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ كالتّوطئة له . و نعتذر لصاحب التّلخيص بأنّ المثال يكفي فيه الفرض و التّقدير .[1]

و تقييد الصّمّ في قوله تعالى :﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾[2] بزمان تولّيهم مدبرين لأنّ تلك الحالة أوغل في انتفاء إسماعهم لأنّ الأصمّ إذا كان مواجها للمتكلّم قد يسمع بعض الكلام بالصّراخ و يستفيد بقيّته بحركة الشّفتيْن فذلك أبعد له عن السّمع .[3]

و منه قوله تعالى :﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[4] يقول ابن عاشور :

وقوله :﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ زيادة تقرير لوقوع ما أوعدوه ، بأن شبّه بشيء معلوم كالضّرورة لا امتراء في وقوعه ، و هو كون المخاطَبين ينطقون . و هذا نظير قولهم : كما أنّ قبل اليوم أمس ،أو كما لأنّ بعد اليوم غدا . و هو من التّمثيل بالأمور المحسوسة ، و من تمثيل سرعة الوصول لقرب المكان في قول زهير :

فَهُنَّ وَ وَادِي الرَّسِّ كَاليَدِ لِلْفَمِ[5]

و قوله : مثل ما أنّك هاهنا ، و قولهم : كما أنّك ترى و تسمع .[6]

6 – التّذييل :

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22 ، ص : 367 . و ينظر : الطّاهر بن عاشور و جهوده البلاغيّة في ضوء تفسيره التّحرير و التّنوير " المعاني و البديع " رانية جهاد إسماعيل الشّوبكي ، إشراف : أ.د.محمّد شعبان علوان ، الجامعة الإسلاميّة ـــ غزّة 1430 هـــ / 2009 م، ص : 343 .

[2] - النّمل : 80 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 20 ، ص : 35 .

[4] - الذّاريات : 23 .

[5] - ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرحه و قدّم له: ذ . علي حسن فاعور ، ط1 ، دار الكتب العلميّة ـــ بيروت ، 1408 هـــ : 1998 م ، ص : 104 . و الشّطر الأوّل : بَكَرْنَ بُكُوراً و اسْتَرَحْنَ بِسُحْرَةٍ .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 10 ، ج 28 ، ص : 355 .

ذيل (ذال) الثّوب يَذِيل من باب : باع يَبِع : بمعنى طال حتى مسّ الأرض ، ثمّ أطلِق الذّيل على طرفه الذي يلي الأرض و إن لم يمسّها تسمية بالمصدر.[1] و هذا التّعريف يقرب من الاصطلاح ، إذ التّذييل يجيء في آخر الآية ، أو في آخر الكلام التّامّ ليلخّصه ، و ليكون بمثابة العود على البدء .

و عرّفه ابن حجّة بقوله : " أن يذيّل النّاظم أو النّاثر بعد تمامه و حسن السّكوت عليه بجملة تحقّق ما قبلها من الكلام و تزيده توكيدا و تجري مجرى المثل بزيادة تحقيق " . وعرّفه صاحب التّلخيص بقوله : « هو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتّأكيد . و هو ضربان : ضرب لم يخرج مخرج المثل ،و معناه أن يجري مجرى المثل من حكمة أو نعت أو غير ذلك ممّا يحسن التّمثيل به[2] نحو :﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [3] على وجه ، و ضرب أخرج مخرج المثل نحو : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [4]، و هو إمّا تأكيد منطوق كهذه الآية ، أو تأكيد مفهوم[5] كقوله :

و لَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لاَ تَلُمُّهُ عَلى شَعَثٍ أيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ[6]

و لقد أكثر ابن عاشور من ذكر الآيات في هذا الشّأن ، ملاحظا أنّ التّذييل له صلة وثيقة بمضمون الآية التي ورد فيها ، و بالرّوح العامّة التي نسجت على أساسها السّورة القرآنيّة .

[1] - المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير للرّافعيّ : أحمد بن محمّد بن علي المقري ، صحّحه : محمّد محي الدّين عبد الحميد ، دط مكتبة عيسى البابي الحلبي ، 1347 هـــ / 1929 م ، 1 / 258 .

[2]- معجم البلاغة العربيّة (نقد و نقض) : د . عبده عبد العزيز قلقيلة، ط1 ، دار الفكر العربيّ ، 1412 هـــ / 1991 م ، ص: 25 .

[3] - سبأ : 17.

[4] - الإسراء : 81 .

[5] – التّلخيص : ص : 58 .

[6] – ديوان النّابغة الذّبياني : ص : 18 .

و جملة :﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ من قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [1] تذييل يؤذن بأنّ الإجرام هو الذي أوقعهم في ذلك الجزاء ، فهم قد دخلوا في عموم المجرمين الذين يجزون بمثل ذلك الجزاء ، و هم المقصود الأوّل منهم ، لأنّ عقاب المجرمين قد شبّه بعقاب هؤلاء فلم يعلم أنّهم مجرمون ، و أنّهم في الرّعيل الأوّل من المجرمين ، حتى شبّه عقاب عموم المجرمين بعقاب هؤلاء و كانوا مثلا لذلك العموم .[2]

و الآية بعدها و هي قوله تعالى :﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ ذيّلها بقوله :﴿ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3] ليدلّ على أنّ سبب ذلك الجزاء بالعقاب : هو الظّلم ، و هو الشّرك ، و لمّا كان جزاء الظّالمين قد شبّه بجزاء الذين كذّبوا بالآيات و استكبروا عنها ، علم أنّ هؤلاء المكذّبين من جملة الظّالمين ، و هم المقصود الأوّل من هذا التّشبيه ،بحيث صاروا مثلا لعموم الظّالمين ، و بهذين العمومين كانت الجملتان تذييليْن .[4]

و جملة :﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[5] تذييل لما قبله لأنّ التّقطّع يقتضي التّحزّب فذيّل بأنّ كلّ فريق منهم فرح بدينه ، ففي الكلام صفة محذوفة لـــ ﴿ حِزْبٍۭ ﴾ أي كلّ حزب منهم بدلالة المقام .[6]

---

[1] - الأعراف : 40 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ب ، ص : 128 .

[3] - الأعراف : 41 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 4 ، ج 8 ب ، ص : 129 .

[5] - المؤمنون : 53 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 8 ، ج 18 ، ص : 73 .

وفي قوله تعالى :﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [1] جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تذييل لما اقتضته جملة﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ تصريحا و استلزاما . و المعنى لأنّ الله لا يحبّهم لأنّهم متّصفون بالخيانة ، فلا تستمرّ على عهدهم فتكون معاهدا لمن لا يحبّهم الله ؛ و لأنّ الله لا يحبّ أن تكون أنت من الخائنين[2] ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾. [3] و ذكر القرطبيّ عن النّحّاس لأنّه قال : "هذا من معجز ما جاء في القرآن ممّا لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره و كثرة معانيه".[4] فالتّذييل قد أفاد بعدا تربويّا ، يعدّ سنّة قرآنيّة لطالما لطالما تكرّرت و ذلك بأن يُتحدّث عن أناس و قبيح ما يفعلون ، و عظيم ما به يُتوعّدون ، و يكون المقصود بهذا الخطاب أيضا المؤمن الخائف الوجِل ، حتى يحذر ما وقعوا فيه، و إلا حلّ به ذلك الخطب الجسيم .

ـــ الموعظة:

و جملة :﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [5] تذييل أو موعظة . و يحيق : يترل بشيء مكروه حاق به ، أي نزل و أحاط إحاطة سوء ، أي لا يقع أثره إلاّ على أهله ، فإن كان التّعريف في﴿الْمَكْرُ﴾ للجنس كان المراد بـــ﴿ بِأَهْلِهِ ﴾ كلّ ماكر. و هذا هو الأنسب بموقع الجملة و

---

[1] - الأنفال : 58 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 53 .

[3] - النّساء : 107 .

[4] - إعراب القرآن : ص : 352 . و ينظر : الجامع لأحكام القرآن و المبيّن لما تضمّنه من السنّة و آي الفرقان ، : أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن أبو بكر القرطبيّ ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التّركيّ ، ط1،مؤسّسة الرّسالة ، 1427 هـــ / 2006 م 10 / 50 .

[5] - فاطر : 43 .

محملها على التّذييل ليعمّ كلّ مكر وكلّ ماكر ، فيدخل فيه الماكرون بالمسلمين من المشركين .و إذا كان تعريف﴿ٱلْمَكْرُ﴾ تعريف العهد كان المعنى : و لا يحيق هذا المكر إلاّ بأهله أي الذين جاءهم النّذير فازدادوا نفورا ، فيكون موقع قوله :﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ موقع الوعيد بأنّ الله يدفع عن رسوله صلّى الله عليه و سلّم مكرهم ،و يحيق ضرّ مكرهم بهم بأن يسلّط عليهم رسوله على غفلة منهم كما كان يوم بدر و يوم الفتح ، فيكون على نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.[1] فكم انهالت من خلال هذه الآية من آداب عمرانيّة و معجزات قرآنيّة و معجزات نبويّة خفيّة .[2]

ـــ المثل:

و جملة : ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾[3] تذييل جار مجرى المثل.و ذكر التّذييل عقب المذيَّل يؤذن بأنّ ما تضمّنه المذيّل داخل في التّذييل بادئ ذي بدء ، مثل دخول سبب العامّ في عمومه من أوّل وهلة دون أن يخصّ العامّ به ، فالمعنى : أنّ الذين خشوا ربّهم بالغيب و أقاموا الصّلاة هم ممّن تزكّى فانتفعوا بتزكيتهم ، فالمعنى : إنّما ينتفع بالنّذارة الذين يخشون ربّهم بالغيب فأولئك تزكّوا بها ، و من تزكّى فإنّما يتزكّى لنفسه.[4]

ـــ التّعريض بالتّهديد:

و في ذكر إمساك السّماوات عن الزّوال بعد الإطناب في محاجّة المشركين ، و تفظيع غرورهم وذلك قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ

[1] - آل عمران : 54 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22، ص : 335 – 336 .

[3] - فاطر : 18 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22، ص : 291 .

بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1] تعريض بأنّ ما يدعون إليه من الفظاعة ، من شأنه أن يزلزل الأرضين و يسقط السّماء كسفا لولا أنّ الله أراد بقاءهما لحكمة ، كما في قوله تعالى :﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴾[2] و هذه دلالة من مستتبعات التّراكيب باعتبار مثار مقامات التّكلّم بها ، و هو أيضا تعريض بالتّهديد.

و لذلك أتبع بالتّذييل بوصف الله تعالى بالحلم و المغفرة لما تشمله صفة الحليم من حلمه على المؤمنين أن لا يزعجهم بفجائع عظيمة ، و على المشركين بتأخير مؤاخذتهم ، فإنّ التّأخير من أثر الحلم ، و ما تقتضيه صفة الغفور من أنّ الإمهال إعذار للظّالمين لعلّهم يرجعون[3] ، كما قال النبيّ صلّى الله عليه و سلّم : « " **لَعَلَّ الله أن يُخرِجَ مِنْ أصْلاَبِهِم من يَعْبُدُهُ** » ، لمّا رأى مَلَكَ الجبال فقال له : «**إِنْ شِئْتَ أن أُطْبِقَ عليْهم الأخْشَبيْنِ** »[4]

ــ التّذييل الجامع :

حرس ابن عاشور على تفسير المناسبة الجامعة بين آية و أخرى ، كما اهتمّ لآيات التّعقيب ناظرا إلى مضمون ما سبقها من أغراض و مقاصد ، فاستكشف نوعا من التّذييل سمّاه التّذييل الجامع ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾[5] تذييل جامع لما تضمّنته الآيات قبله من تفضيل بعض عباد الله على بعض و من انطواء ضمائرهم على الخشية و عدمها ، و إقبال بعضهم على الطّاعات و إعراض بعضهم ، و من تفضيل بعض كتب الله على بعض المقتضي أيضا تفضيل بعض المرسَلين بها على بعض ، فموقع قوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ موقع إقناع

[1] - فاطر : 41 .
[2] - مريم : 89 – 90 .
[3] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22، ص : 329 .
[4] - صحيح مسلم : كتاب الجهاد و السّيَر : 2 / 486 .
[5] - فاطر : 31 .

السّامعين بأنّ الله عليم بعباده ، و هو يعاملهم بحسب ما يعلم منهم ،و يصطفي منهم من علم أنّه خلقه كُفْئا لاصطفائه ، فألقم بهذا الذين قالوا :﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ [1] حجَرا ، وكأولئك أيضا الذين ينكرون القرآن من أهل الكتاب بعلّة أنّه جاء مبطلا لكتابهم .[2]

و مثله قوله عزّ و جلّ : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3] تذييل يشير إلى أنّ الله سميع دعاء المسلمين طلب النّصر ، و سميع ما جرى من الحوار في شأن الخروج إلى بدر و من مودّتهم أن تكون غير ذات الشّوكة هي إحدى الطّائفتيْن التي يلاقونها و غير ذلك ، و عليم بما يجول في خواطرهم من غير الأمور المسموعة و بما يصلح بهم و يُبنى عليه مجد مستقبلهم .[4] فابن عاشور ههنا فسّر هذا التّعقيب بمضمون ما حوته السّورة من أمور ظاهرة و أخرى باطنة ، كان المسلمون يعيشونها قريب غزوة بدر و بعدها.

و في قوله تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [5] تذييلان للسّورة و فذلكتان افتتحا بحرف التّنبيه اهتماما بما تضمّناه .

فأمّا التّذييل الأوّل فهو جماع ما تضمّنته السّورة من أحوال المشركين المعاندين إذ كانت أحوالهم المذكورة فيها ناشئة عن إنكارهم البعث فكانوا في مأمن من التّفكير فيما بعد هذه الحياة فانحصرت مساعيهم في تدبير الحياة الدّنيا و انكبّوا على ما يعود عليهم بالنّفع فيها .

و أمّا التّذييل الثّاني فهو جامع لكلّ ما تضمّنته السّورة من إبطال لأقوالهم و تقويم لاعوجاجهم

---

[1] - ص : 8 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22، ص : 310 .

[3] - الأنفال : 42 .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 21 .

[5] - فصّلت : 54 .

لأنّ ذلك كلّه من آثار علم الله تعالى بالغيب و الشّهادة.[1]

و جملة : من قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾[2] تذييل و تنويه بشأن المؤمنين المهاجرين المجاهدين لأنّ مضمون هذه الجملة يعمّ مضمون ما قبلها و غيره ، و في هذا التّذييل إفادة أنّ ما ذُكر من عظيم درجات المؤمنين المهاجرين المجاهدين هو بعض ما عند الله من الخيرات فيحصل من ذلك التّرغيب في الازدياد من الأعمال الصّالحة ليزدادوا رفعة عند ربّهم ، كما قال أبو بكر رضي الله عنه على من دعي من جميع تلك الأبواب من ضرورة .[3]

ـــ تذييل الإخبار :

و جملة :﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ من قوله تعالى :﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[4] تذييل رُجّح فيه جانب الإخبار فعطف ، و كان مقتضى الظّاهر أن يكون مفصولا لإفادة أنّه يفتح و يمسك لحكمة يعلمها ، و أنّه لا يستطيع أحد نقض ما أبرمه في فتح الرّحمة و غيره من تصرّفاته ، لأنّ الله عزيز لا يمكن لغيره أن يغلبه ، فإنّ نقْض ما أبرم ضرب من الهوان و المذلّة . و لذلك كان من شعار صاحب السؤدد أنّه يبرم و ينقض[5] ، قال الأعشى :

عَلْقَمَ ، لاَ لَسْتَ إلى عَامِرٍ ، النَّاقِضِ الأَوْتَارَ وَ الوَاتِرِ[6]

[1] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 21 – 22 .

[2] - التّوبة : 22 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 150 . و ينظر : تحفة الأحوذي : ص : 2563 . لأنّ في الكلام إشارة إلى الحديث الشّريف الذي ذكره التّرمذي في باب مناقب أبي بكر ـــ رضي الله عنه ـــ و هو حديث حسن صحيح .

[4] - فاطر : 2 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 9 ، ج 22، ص : 253 .

[6] - ديوان الأعشى الكبير ، ص : 92 . و فيه : ...لا لستَ إلى عامرٍ

ـــ تعليل الزّيادة:

جملة :﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ من قوله تعالى :﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [1] تذييل و تعليل للزّيادة لقصد تحقيقها بأنّ الله كثيرة مغفرته لمن يستحقّها ، كثير شكره للمتقرّبين إليه . و المقصود بالتّعليل هو وصف الشّكور ، و أمّا وصف الغفور فقد ذكر للإشارة إلى ترغيب المقترفين السّيّئات في الاستغفار و التّوبة ليغفر لهم فلا يقنطوا من رحمة الله.[2]

ـــ إبطال وهم المشركين:

و جملة:﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [3] تذييل لجملة:﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [4] لإبطال وهم المشركين أنّ شركاءهم يشفعون لهم ، و لذلك جيء في هذه الجملة بصيغة القصر بضمير الفصل ، أي أنّ غير الله لا يغفر لأحد.[5]

ـــ التّعليل للأمر:

و جملة :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ من قوله تعالى :﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [6] تذييل في معنى التّعليل للأمر . بإتمام العهد إلى الأجل بأنّ ذلك من التّقوى ، أي امتثال الشّرع

---

[1] - الشّورى : 23 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 85 .

[3] - الشّورى : 5 .

[4] - الشّورى : 5 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 34 .

[6] - التّوبة : 4 .

الذي أمر الله به ، لأنّ الإخبار بمحبّة الله المتّقين عقب الأمر كناية عن كون المأمور به من التّقوى.[1]

و جملة :﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [2] تذييل للرّدّ عليهم ، و في هذا التّذييل ردّ ثان عليهم بأنّ المال الذي جعلوه عماد الاصطفاء للرّسالة هو أقلّ من رحمة الله فهي خير ممّا يجمعون من المال الذي جعلوه سبب التّفضيل حين قالوا :﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [3] فإنّ المال شيء جمعه صاحبه لنفسه فلا يكون مثل اصطفاء الله العبد ليرسله إلى النّاس.[4]

ــ التّنبيه و الحثّ:

و قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [5] تذييل أريد به حثّ المسلمين على عدم التّعرّض بالسّوء للذين يسلمون من المشركين ، و عدم مؤاخذتهم لما فرط منهم ، فالمعنى : اغفروا لهم لأنّ الله غفر لهم و هو غفور رحيم ، أو اقتدوا بفعل الله إذ غفر لهم ما فرط منهم كما تعلمون فكونوا أنتم بتلك المثابة في الإغضاء عمّا مضى .[6]

ــ مضمون جملتين:

و جملة :﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ من قوله تعالى :﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 113 .

[2] -الزّخرف :32.

[3] -الزّخرف :31.

[4] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 202 .

[5] - التّوبة : 5 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 117 .

﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] تذييل لمضمون الجملتيْن : لأنّ العزيز لا يغلبه شيء ، و الحكيم لا يفوته مقصد ، فلا جرم تكون كلمته العليا و كلمة ضدّه السّفلى .[2]

ـــ إعلام المسلمين:

و كذلك جملة :﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ من قوله تعالى :﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3] تذييل قُصد منه إعلام المسلمين بأنّ الله يعلم أحوال المنافقين الظّالمين ليكونوا منهم على حذر ، و ليتوسّموا فيهم ما وسمهم القرآن به ، و ليعلموا أنّ لاستماع لهم هو ضرب من الظّلم .[4]

ـــ مناسبة الدّعاء:

و جملة :﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ من قوله تعالى :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[5] تذييل مناسب للأمر بالدّعاء لهم . و المراد بالسّميع هنا المجيب للدّعاء . و ذكره للإشارة إلى قبول دعاء النّبيّ . ففيه إيماء إلى التّنويه بدعائه . و ذكر العليم إيماء إلى أنّه ما أمره بالدّعاء لهم ، إلاّ لأنّ في دعائه لهم خيرا عظيما و صلاحا في الأمور.[6]

---

[1] - التّوبة : 40 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 206 .

[3] - التّوبة : 47 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 218 .

[5] - التّوبة : 103 .

[6] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 11 ، ص : 23 .

ـــ الجعل العجيب:

و جملة :﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ من قوله تعالى :﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] تذييل مناسب لهذا الجعل العجيب و الإحكام الرّشيق . و هو أن يكون ذلك البناء سبب حسرة عليهم في الدّنيا و الآخرة .[2]

ـــ التّعريض بالوعيد:

و في قوله تعالى :﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3] فجملة:﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تذييل لجملة :﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي : و هو المطّلع على الأقوال ، العليم بما في الضّمائر ، و هذا تعريض بالوعيد لمن يسعى لتديل كلماته ، فالسّميع العالم بأصوات المخلوقات ، التي منها ما توحي به شياطين الإنس و الجنّ ، بعضهم إلى بعض ، فلا يفوته منها شيء ؛ و العالم أيضا بمن يريد أن يبدّل كلمات الله ،فلا يخفى عليه ما يخوضون فيه : من تبييت الكيد و الإبطال له .

و العليم أعمّ ، أي العليم بأحوال الخلق ، و العليم بمواقع كلماته ، و مَحَالِّ تمامها ، و المنظّم بحكمته لتمامها ، و الموقع لآجال وقوعها .

فذكر هاتين الصّفتيْن هنا : وعيد لمن شملته آيات الذّمّ السّابقة ، و وعد لمن أمِر بالإعراض عنهم و عن افترائهم ، و بالتّحاكم معهم إلى الله ، و الذين يعلمون أنّ الله أنزل كتابه بالحقّ .[4]

---

[1] - التّوبة : 110 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 11 ، ص : 36 .

[3] - الأنعام : 115 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ، ص : 22 .

و قوله تعالى :﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ من قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] تذييل ، و الخطاب للنّبيّ صلّى الله عليه و سلّم فإن كا ن قوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ من بقيّة المقول لأولياء الجنّ في الحشر كان قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ جملة معترضة بين الجمل المقولة ، لبيان أنّ ما رتّبه الله على الشّرك من الخلود رتّبه بحكمته و علمه ، و إن كان قوله : ﴿ خَٰلِدِينَ ﴾ إلخ كلاما مستقلاّ معترضا كان قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تذييلا للاعتراض ، و تأكيدا للمقصود من المشيئة من جعل استحقاق الخلود في العذاب منوطا بالموافاة على الشّرك . و جعل النّجاة من ذلك الخلود منوطة بالإيمان .

و الحكيم : هو الذي يضع الأشياء في مناسباتها ، و الأسباب لمسبّباتها . و العليم : الذي يعلم ما انطوى عليه جميع خلقه من الأحوال المستحِقّة للثّواب و العقاب . [2]

ــ الفذلكة:

و قوله تعالى :﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [3] تذييل جُعل فذلكة للكلام السّابق المشتمل على بيان ضلالهم في قتل أولادهم ، و تحجير بعض الحلال على بعض من أحلّ له . [4]

ــ الوعيد :

[1] - الأنعام : 128 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ، ص : 72 – 73 .

[3] - الأنعام : 140 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ، ص : 113 .

و جملة : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] تذييل للوعيد يتترّل مترلة التّعليل ، أي لأنّه لا يفلح الظّالمون ، ستكون عقبى الدّار للمسلمين ، لا لكم ، لأنّكم ظالمون .[2]

و مثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[3] تذييل و توعّد و المقصود منه: أنّ أولئك قوم مضوا بما عملوا و أنّ أمرهم إلى ربّهم كقوله :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ ﴾[4] ، و فيه إيماء إلى أنّ على الحاضرين اليوم أن يفكّروا في وسائل الخلاص من الضّلال و الوقوع في المؤاخذة يوم القيامة .[5]

ـــ التّعجيب :

و قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[6] تذييل للتّعجيب من استمرارهم على الكفر بعد ما ظهر لهم من الحجج و الآيات ، و تأييس من إيمانهم بإفادة أنّ انتفاء الإيمان عنهم بتقدير من الله تعالى عليهم فقد ظهر وقوع ما قدّره من كلمته في الأزل .[7]

ـــ التّعريض بالوعيد :

---

[1] - الأنعام : 135 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ، ص : 93 .

[3] - يونس : 93 .

[4] - البقرة : 134 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 11 ، ص : 283 .

[6] - يونس : 33 .

[7] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 11 ، ص : 159 .

و قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[1] تذييل و شمل عموم النّاس المشركين الذين يستمعون و لا يهتدون و ينظرون و لا يعتبرون . و المقصود من هذا التّذييل التّعريض بالوعيد بأن سينالهم ما نال جميع الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله.

و عموم (النّاس) الأوّل على بابه و عموم النّاس الثّاني مراد به خصوص النّاس الذين ظلموا أنفسهم بقرينة الخبر . و إنّما حسن الإتيان في جانب هؤلاء العموم تتريلا للكثرة مترلة الإحاطة لأنّ ذلك غالب حال النّاس في ذلك الوقت .[2]

ــ تذييل التّنهية :

و قوله تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[3] تذييل تنهية الكلام المتعلّق بصدق الرّسول و القرآن و ما جاء به من الوعيد و ترقّب يوم البعث و يوم نزول العذاب بالمشركين.و قد اشتمل هذا التّذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض ، و على تعليله بأنّ مَن هذه شؤونه لا يعجز عن تحقيق ما أخبر بوقوعه.

فكان افتتاحه بأنّ الله هو المتوحّد بملك ما في السّماوات و الأرض فهو يتصرّف في النّاس وأحوالهم في الدّنيا و الآخرة تصرّفا لا يشاركه فيه غيره ؛ فتصرّفه في أمور السّماء شامل للمغيّبات كلّها ، و منها إظهار الجزاء بدار الثّواب و دار العذاب ؛ و تصرّفه في أمور الأرض شامل لتصرّفه في النّاس .

---

[1] - يونس : 44 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 11 ، ص : 180 .

[3] - يونس : 55 – 56 .

ثمّ أعقب بتحقيق وعده ، و أعقب بتجهيل منكريه ، و أعقب بالتّصريح بالمهمّ من ذلك و هو الإحياء و الإماتة و البعث .

و افتتح هذا التّذييل بحرف التّنبيه ، و أعيد فيه حرف التّنبيه للاستيعاء لسماعه ، و للتّنبيه على أنّه كلام جامع هو حوصلة الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفا .[1]

ــ تذييل الكلام المفتتح :

و جملة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [2] تذييل للكلام المفتتح بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [3]. و فيه قطع لعذر المشركين ، و تسجيل عليهم بالتّمرّد بأنّ الله تفضّل عليهم بالرّزق و الموعظة و الإرشاد فقابلوا ذلك بالكفر دون الشّكر و جعلوا رزقهم أنّهم يكذّبون في حين قابله المؤمنون بالفرح و الشّكر فانتفعوا به في الدّنيا و الآخرة.[4]

7- الاحتراس :

الاحتراس هو التّوقّي و الاحتراز عن الشّيء ، و فيه توقٍّ عن إيهام خلاف المقصود ، و هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه.[5] و أشار إليه ابن سنان باسم التّحرّز فقال :

" و أمّا التّحرّز ممّا يوجبه الطّعن ، فأن يأتي بكلام لو استمرّ عليه لكان فيه طعن ، فيأتي بما يتحرّز من ذلك الطّعن ، كقول طرفة :

[1] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 11 ، ص : 198 – 199 .

[2] - يونس : 60 .

[3] - يونس : 57 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 11 ، ص : 211 .

[5] - المطوّل :497 – 498 .

فسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرَّبِيعِ وَ دِيمَةٌ تَهْمِي[1]

فلو لم يقل : " غير مفسدها" لظُنّ به أنّه يريد توالي المطر عليها ، و في ذلك فساد للدّيار و محو لرسومها".[2]

و ذكره ابن القيّم بقوله :" هو أن يُذكر لفظ ظاهره الدّعاء بالخير و النّفع ، و ذلك ما في ضمنه ممّا يوهم الشرّ ، فيذكر فيه كلمة تزيل ذلك الوهم و تدفع ذلك الوهن".[3]

فقوله تعالى :﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[4] **احتراس** باستثناء من (الإنسان) في قوله تعالى :﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾[5]. و المراد بالذين صبروا المؤمنون بالله ، لأنّ الصّبر من مقارنات الإيمان فكنّي بالذين صبروا عن المؤمنين ، فإنّ الإيمان يروض صاحبه على مفارقة الهوى و نبذ معتاد الضّلالة.[6]

ـــ الاستدراك و الاحتراس :

---

[1] - ديوان طرفة بن العبد : 79 .

[2] - سرّ الفصاحة :أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، ط1 ، دار الكتب العلميّة ، 1402 هـــ / 1982 م ، ص : 273 – 274 .

[3] - الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن و علم البيان : شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيّوب الزّرعيّ ، دط ، دار الكتب العلميّة ، دت ، ص : 152 .

[4] - هود : 11 .

[5] - هود :9 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 12 ، ص : 15 .

و قوله تعالى :﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ [1]

عطف على جملة :﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾ [2] أو على المجموع من جملة : ﴿ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [3] و من جملة :﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾.

و موقع معناها موقع الاستدراك و **الاحتراس** فإنّها تشير إلى جواب عن سؤال مقدّر في نفس السّامع إذا سمع أنّ الله يستجيب للذين آمنوا ، و أنّه يزيدهم من فضله أن يتساءل في نفسه : أنّ ممّا يسأل المؤمنون سعة الرّزق و البسطة فيه فقد كان المؤمنون أيّام صدر الإسلام في حاجة و ضيق رزق ، إذ منعهم المشركون أرزاقهم و قاطعوا معاملتهم ، فيجاب بأنّ الله لو بسط الرّزق للنّاس كلّهم لكان بسطه مفسدا لهم ، لأنّ الذي يستغني يتطرّقه نسيان الالتجاء إلى الله ، و يحمله على الاعتداء على النّاس فكان من خير المؤمنين الآجل لهم أن لا يبسط لهم في الرّزق ، و كان ذلك منوطا بحكمة أرادها الله من تدبير هذا العالم تطّرِد في النّاس مؤمنِهم و كافرِهم .[4]

ـــ الاستمرار على التّذكير:

و عطف :﴿ وَذَكِّرۡ ﴾ على :﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ ﴾ من قوله تعالى :﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [5] **احتراس** كي لا يتوهّم أحد أن الإعراض إبطال للتّذكير بل التّذكير باق ، فإنّ النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم ذكّر النّاس بعد أمثال هذه الآيات فآمن بعض من

---

[1] - الشّورى : 27 .

[2] - الشّورى : 26.

[3] - الشّورى : 26.

[4] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 92 .

[5] - الذّاريات : 54 – 55 .

لم يكن آمن من قبل ، و ليكون الاستمرار على التّذكير زيادة في إقامة الحجّة على المعرضين و لئلاّ يزدادوا طغيانا فيقولوا : ها نحن أولاء قد أفحمناه فكفّ عمّا يقوله .[1]

و في ذكر :﴿ إِذَا هَوَىٰ ﴾ من قوله تعالى :﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [2] **احتراس** من أن يتوهّم المشركون أنّ في القسم بالنّجم إقرارا لعبادة نجم الشِّعْرَى ، و أنّ القسم به اعتراف بأنّه إله ، إذ كان بعض قبائل العرب يعبدونها ، فإنّ حالة الغروب المعبّر عنها بالهُوِيّ ، حالة انخفاض و مغيب في تخيّل الرّائي لأنّهم يعدّون طلوع النّجم أوجا لشرفه ، و يعدّون غروبه حضيضا ، و لذلك قال الله تعالى :﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾[3]

ــ التّأدّب مع الله:

و جملة :﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[4] تأدّب مع الله كا**لاحتراس** في الدّعاء الوارد بصيغة الأمر و هو لمجرّد التّيمّن ، فوقوعه في الوعد و العزم و الدّعاء بمنزلة وقوع التّسمية في أوّل الكلام ، و ليس هو من الاستثناء الوارد النّهي عنه في الحديث : " **أنْ لاَ يَقُولَ أحَدُكُمْ : اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ ، فَإنَّهُ لاَ مُكْرِهَ لَهُ** "[5] .لأنّ ذلك في الدّعاء المخاطب به الله صراحة .[6]

ــ الأمر بقتال المشركين:

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 27 ، ص : 24 .

[2] - النّجم : 1 .

[3] - الأنعام : 76 .

[4] - يوسف : 99 .

[5] - اللّؤلؤ و المرجان فيما اتّفق عليه الشّيخان : محمّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربيّة ، دت ، ص : 221. و الحديث من رواية أبي هريرة ، و هو مذكور في باب العزم بالدّعاء و لا يقل إن شئت .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 6 ، ج 13 ، ص : 55 – 56 .

وفي قوله تعالى :﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[1] يقول بن عاشور : أحسب أنّ موقع هذه الآية موقع **الاحتراس** من ظنّ أنّ النّهي عن انتهاك الأشهر الحرم يقتضي النّهي عن قتال المشركين فيها إذا بدأوا بقتال المسلمين

و بهذا يؤذن التّشبيه التّعليليّ في قوله :﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ فيكون المعنى فلا تنتهكوا حرمة الأشهر الحرم بالمعاصي ، أو باعتدائكم على أعدائكم ، فإن هم بادأوكم بالقتال فقاتلوهم على نحو قوله تعالى:﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾[2] فمقصود الكلام هو الأمر بقتال المشركين الذين يقاتلون المسلمين في الأشهر الحرم ، و تعليله بأنّهم يستحلّون تلك الأشهر في قتالهم المسلمين .[3]

ــ مُستلزَم النّهي :

و ذلك قوله تعالى :﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[4] **احتراس ممّا** يستلزمه النّهي عن الصّلاة فيه من إضاعة عبادة في الوقت الذي رغبوه للصّلاة فيه فأمره الله بأن يصلّي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصّلاة في مسجد الضّرار أن يصلّي في مسجده أو في مسجد قباءِ لئلاّ يكون لامتناعه من الصّلاة من حظوظ الشّيطان أن يكون صرفه عن صلاة في وقت دُعي للصّلاة فيه ، و هذا أدب نفسانيّ عظيم .[5]

ــ عدم اقتصار الملك:

---

[1] - التّوبة : 36 .

[2] - البقرة : 194 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 187 .

[4] - التّوبة : 108 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 11 ، ص : 31 .

تحريم المكان : منْع ما يضرّ بالحالّ فيه . و تحريم الزّمان ، كتحريم الأشهر الحرم : منع ما فيه ضرّ للموجودين فيه . و هذا تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾[1]. و تعقيب هذا بجملة :﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ **احتراس** لئلاّ يتوهّم من إضافة ربوبيّته إلى البلدة اقتصار ملكه عليها ، ليعلم أنّ تلك الإضافة لتشريف المضاف إليه لا لتعريف المضاف بتعيين مظهر ملكه .[2]

ــ عدم ترك العمل :

و ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [3]

إذ ظاهر تعقيب جملة :﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ إلخ بجملة :﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أنّها متعلّقة بالتي وليتها فتكون **احتراسا** ، أي لا نكلّفكم تمام القسط في الكيل و الميزان بالحبّة و الذّرة و لكنّا نكلّفكم ما تظنّون أنّه عدل و وفاء . و المقصود من هذا الاحتراس أن لا يترك النّاس التّعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة ، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع جمّة . و قد عدل في هذا الاحتراس عن طريق الغيبة الذي بُني عليه المقول ابتداء من قوله :﴿تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [4] لما في الاحتراس من الامتنان ، فتولّى الله خطاب النّاس فيه بطريق التّكلّم مباشرة زيادة بالمنّة ، و تصديقا للمبلّغ ، فالوصاية بإيفاء الكيل و الميزان راجعة إلى حفظ مال المشتري من مظنّة الإضاعة ، لأنّ حالة الكيل و الوزن حالة غفلة للمشتري ، إذ البائع هو الذي بيده المكيال أو

---

[1] - النّمل : 91 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 8 ، ج 20 ، ص : 57 .

[3] - الأنعام : 152 .

[4] - الأنعام : 151 .

الميزان ، و لأنّ المشتري لرغبته في تحصيل المكِيل أو الموزون قد يتحمّل التّطفّف ، فأوصى البائع بإيفاء الكيل و الميزان .[1]

ـــ نفي شفاعة الآلهة:

و في قوله تعالى :﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [2] زيادة :﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾**احتراس** لإثبات شفاعة محمّد صلّى الله عليه و سلّم بإذن الله ، قال تعالى :﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [3]. و المقصود من ذلك نفي الشّفاعة لآلهتهم من حيث إنّهم شركاء لله في الإلهيّة ، فشفاعتهم عنده نافذة كشفاعة النّدّ عند ندّه .[4]

ـــ نفي التّوهّم :

إنّ جملة :﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ من قوله تعالى :﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [5] **احتراس** لأنّه لّما نفى أن يسألهم مالا ، و المال أجر ، نشأ توهّم أنّه لا يسأل جزاء على الدّعوة فجاء بجملة :﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ احتراسا . و المخالفة بين العبارتيّن في قوله (مالا) و (أجري) تفيد أنّه لا يسأل من الله مالا و لكنّه يسأل ثوابا . و الأجر : العوض على عمل . و يسمّى ثواب الله أجرا لأنّه جزاء على العمل الصّالح .[6]

[1] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ، ص : 165 – 166 .

[2] - يونس : 3 .

[3] - الأنبياء : 28 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 11 ، ص : 88 .

[5] - هود : 29 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 12 ، ص : 55 .

و كذلك قوله تعالى :﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ [1] احتراس من أن يغترّ الكافر بأنّ تخويله النّعم في الدّنيا يؤذن برضى الله فلذلك ذُكر العذاب هنا .[2]

8 – التّتميم :

التّتميم من تمّ الشّيء يتُمّ تَمّاً ، و تمام الشّيء و تَتِمَّتُه : ما تمّ به.[3] و عرّفه ابن المعتزّ بقوله:" اعتراض كلام في كلام لم يتمّ معناه ، ثمّ يعود المتكلّم فيتمّمه".[4] و عرّفه أبو هلال العسكريّ بقوله : " هو أن توفّي المعنى حقّه من الجودة ، و تعطيه نصيبه من الصّحّة ، ثمّ لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلاّ تورده ، أو لفظا يكون فيه توكيده إلاّ تذكره ".[5] و لقد فرّق المتأخّرون بين التّتميم و التكميل ، إذ الأوّل يرد على المعنى النّاقص فيتمّه ، و التّكميل يرد على المعنى التّامّ فيكمّله و الكمال أمر زائد على التّمام.[6] و مثاله قوله تعالى:﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [7] ، فقوله : " و هو مؤمن" تتميم .و قد ينصرف التّتميم إلى معان بلاغيّة تفهم من سياق الكلام ، و تؤدّي وظائف جماليّة و فنيّة وقف عليها ابن عاشور و نذكر منها :

ــ إبداء الفرق :

[1] - البقرة : 126 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 1 ، ص : 717 .

[3] - المعجم المفصّل في علوم البلاغة ــ البديع و البيان و المعاني ــ : د. إنعام فوّال عكّاري ، مراجعة : أحمد شمس الدّين ، ط 2 ، دار الكتب العلميّة ، 1417 هــ / 1996 م ، ص: 284 .

[4] - كتاب البديع : عبد الله بن المعتزّ ، اعتنى به و علّق عليه :اغناطيوس كراتشقوفسكي ، دط ، دت ، ص : 59 .

[5] - الصّناعتين :434 .

[6] - علم البديع : عبد العزيز عتيق ، دط ، دار الآفاق العربيّة ، 1424 هــ / 2004 م ، ص : 92 .

[7] - النّحل : 97.

في قوله تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [1] جملة :

﴿وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ **تتميم** و تنويه بشأن أهل الإيمان و مضادّة حالهم لحال أهل الكفر و مقابلة الحال بالحال .

و قوله تعالى :﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **تتميم** و احتراس و استطراد ، فهو **تتميم** لما يكمل المقصود من تقسيمهم إلى فرقين لإبداء الفرق بين الفريقيْن في الخير و الشرّ و هو عليم بأنّه يقع و ليس الله مغلوبا على وقوعه ، و لكنّ حكمته و علمه اقتضيا ذلك .[2]

ـــ المقصود من التّذييل:

و قوله تعالى :﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [3] عطف على جملة :﴿ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [4] فهو **تتميم** و هو المقصود من التّذييل ، و إذ قد كان حدود الله جمعا معرّفا بالإضافة كان مفيدا للعموم ، إذ لا صارف عن إرادة العموم بخلاف إضافة حدود الله السّابق .[5]

ـــ التّجهيل و التّذكير:

و جملة :﴿ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ من قوله تعالى :﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [6] تتميم للتّجهيل و التّذكير ، أي يقال لهم ذلك لو كانوا يفقهون الذّكرى ، و لكنّهم لا

[1] - التّغابن : 2 .
[2] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 262 .
[3] - الطّلاق : 1 .
[4] - الطّلاق : 1 .
[5] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 305 .
[6] - التّوبة : 81 .

يفقهون ، فلا تجدي فيهم الذّكرى و الموعظة ، إذ ليس المراد لو كانوا يفقهون أنّ نار جهنّم أشدّ حرّا لأنّه لا يخفى عليهم و لم كانوا يفقهون أنّهم صائرون إلى النّار و لكنّهم لا يفقهون ذلك .[1]

و أمّا وصف ذاته العليّة بقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [2] **فتتميم** للتّذكير بعظمة الله تعالى ، مع مناسبتها للتّرغيب و التّرهيب اللّذيْن اشتملت عليهما الآيات السّابقة كلّها.[3]

ـــ التّشبيه:

و ضمير :﴿وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ من قوله تعالى :﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [4] عائد إلى الصّمّ و هو **تتميم** للتّشبيه حيث شُبّهوا في عدم بلوغ الأقوال إلى عقولهم بصمّ ولّوا مُدْبرين ، فإنّ المدْبِر يبعد عن مكان من يكلّمه فكان أبعد عن الاستماع .[5]

9 ــ التّكميل :

يكون الإطناب بالتّكميل و يسمّى احتراسا أيضا ، أي زيادة على تسميّته بالتّكميل . أمّا تسميّته بالتّكميل فلتكميله المعنى بدفع خلاف المقصود عنه ، و أمّا تسميّته بالاحتراس فهو من باب حرس الشّيء : حفظه ، و هذا فيه حفظ المعنى ، و وقايته من توهّم خلاف المقصود .[6]

و قوله تعالى :﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [7] معطوف على العلّة و ليس علّة ثانية لأنّه ليس مقصودا بالذّات بل هو **تكميل** للشّهادة الأولى لأنّ جعلنا وسطا يناسبه عدم الاحتياج إلى

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 281 .

[2] - التّغابن : 18 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 290 .

[4] - النّمل : 80 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 8 ، ج 20 ، ص :36 .

[6] - مواهب الفتّاح : 1 / 670 .

[7] - البقرة : 143 .

الشّهادة لنا و انتفاء الشّهادة علينا ، فأمّا الدّنيويّة فشهادة الرّسول علينا فيها هي شهادته بذاته على معاصريه و شهادة شرعه على الذين أتوا بعده إمّا بوفائهم ما أوجبه عليهم شرعه و إمّا بعكس ذلك ، و أمّا الأخرويّة فهي ما روِي في الحديث[1] من شهادة الرّسول بصدق الأمّة فيما شهدت به[2] و ما روي في الحديث الآخر في الموطّأ و الصّحاح : " **فليُذَادَنَّ أقْوَامٌ عَنْ حَوْضِي فَأقُولُ يَا رَبِّ أمَّتِي فيُقَالُ : إنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أحْدَثُوا بَعْدَكَ إنَّهُمْ بَدَّلُوا وَ غَيَّرُوا فأقُولُ سُحْقاً سُحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي** ".[3]

و جملة : من قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[4] **تكميل** للدّلالة على استغناء الله تعالى عن إيمان المشركين و لكنّه يريد لهم الخير . و لمّا كان في هذا الوصف ضرب من الإعراض عنهم ممّا قد يحدث يأسا في نفوس المقاربين منهم ، ألّفت قلوبهم بإتباع و صف﴿عَزِيزٌ﴾ ، بوصف ﴿غَفُورٌ ﴾ أي فهو يقبل التّوبة منهم إن تابوا إلى ما دعاهم الله إليه على أنّ في صفة ﴿غَفُورٌ ﴾ حظّا عظيما لأحد طرفي القصر و هو العلماء أي غفور لهم .[5]

10 – الاعتراض :

[1] - سنن ابن ماجة :أبو عبد الله محمّد بن يزيد القزويني بن ماجة ،حقّق نصوصه ، و رقّم كتبه ، و أبوابه ، و أحاديثه و علّق عليه : محمّد فؤاد عبد الباقي ، دط ، مطبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، دت ، كتاب الزّهد ، باب صفة أمّة محمّد صلّى الله عليه و سلّم ، 2 / 1432 . الحديث من رواية أبي سعيد الخذري رضي الله عنه.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 2 ، ص : 21 .

[3] - موطّأ الإمام مالك : مالك بن أنس ، دط ، دار الحديث ـــ القاهرة ، 1425 هـــ 2004 م ، كتاب الطّهارة (باب جامع الوضوء) ، ص: 15 .

[4] - فاطر : 28 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 9 ، ج 22 ، ص : 305 .

يرى ابن عاشور أنّ الجملة الاعتراضية هي الواقعة بين جملتيْن شديدتي الاتّصال من حيث الغرض المسوق له الكلام ، و الاعتراض هو مجيء ما لم يسق الكلام له و لكن للكلام و الغرض به علاقة و تكميلا ، و تجيء الجملة المعترضة بالواو و بالفاء بأن يكون المعطوف اعتراضا .[1]

ـــ التّأنيس و الإنصاف و الاعتراف و التّبشير :

و في قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [2]

يقول ابن عاشور : توسّطت هاته الآية بين آيات ذكر بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم و بما قابلوا به تلك النّعم من الكفران و قلّة الاكتراث ، فجاءت **معترضة** بينها لمناسبة يدركها كلّ بليغ و هي أنّ ما تقدّم من حكاية سوء مقابلتهم لنعم الله تعالى ،قد جرّت عليهم ضرب الذّلّة و المسكنة و رجوعهم بغضب من الله تعالى عليهم ، و لّما كان الإنحاء عليهم بذلك من شأنه أن يفزعهم إلى طلب الخلاص من غضب الله تعالى ، لم يترك الله تعالى عادته مع خلقه من الرّحمة بهم و إرادته صلاح حالهم ، فبيّن لهم في هاته الآية أنّ باب الله مفتوح لهم ، و أنّ الملجأ إليه أمر هيّن عليهم و ذلك بأن يؤمنوا و يعملوا الصّالحات ، و من بديع البلاغة أن قرن معهم في ذلك ذكر بقيّة من الأمم ليكون ذلك تأنيسا لوحشة اليهود من القوارع السّابقة في الآيات الماضية ، و إنصافا للصّالحين منهم ، و اعترافا بفضلهم ، و تبشيرا لصالحي الأمم من اليهود و غيرهم الذين مضوا مثل الذين كانوا قبل عيسى و امتثلوا لأنبيائهم ، و مثل الحواريّين ، و الموجودين في زمن نزول الآية مثل عبد الله بن سلام و صهيب ، فقد وفّت الآية حقّ الفريقين من التّرغيب و البشارة ، و راعت

[1] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 1 ، ص : 671 . و ينظر : النّظم القرآني : درويش الجندي : 147 .
[2] - البقرة : 62 .

المناسبتيْن للآيات المتقدّمة مناسبة اقتران التّرغيب بالتّرهيب ، و مناسبة ذكر الضّدّ بعد الكلام على ضدّه .[1]

ـــ التّأنيس و التّمهيد للتّأييس:

و قوله تعالى :﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[2] جملة **معترضة** بين حكايات أحوال المشركين و أهل الكتاب القصد منها تأنيس الرّسول عليه الصّلاة و السّلام من أسفه على ما لقيه من أهل الكتاب ، ممّا يماثل ما لقيه من المشركين و قد كان يودّ أن يؤمن به أهل الكتاب ، فيتأيّد بهم الإسلام على المشركين فإذا هو يلقى منهم ما لقي من المشركين أو أشدّ ، و قد قال: لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلّهم ، فكان لتذكير الله إيّاه بأنّه أرسله تهدئةٌ لخاطره الشّريف ، و عذرٌ له إذ أبلغ الرّسالة ، و تطمينٌ لنفسه بأنّه غير مسئول عن قوم رضوا لأنفسهم بالجحيم . و فيه تمهيد للتّأييس من إيمان اليهود و النّصارى.[3]

ـــ زيادة البيان:

قوله تعالى :﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[4]

استئناف **اعتراضيّ** بين الجملتين ناشئ عن جملة :﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[5] لأنّ تلك الجملة تفرّعت على نهوض الحجّة ، فإن كانوا طالبين الحقّ و الفوز فقد استتبّ لهم ما يقتضي تمكّن الإسلام من نفوسهم ، و إن كانوا يطلبون الكبرياء و السّيادة في الدّنيا و يأنفون من أن يكونوا

[1] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج1 ، ق 2، ص : 531 .

[2] - البقرة : 119 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج1 ، ق 2 ، ص : 691 .

[4] - هود : 15 – 16 .

[5] - هود : 14.

تبعا لغيرهم فهم مريدون الدّنيا فلذلك حذروا من أن يغترّوا بالمتاع العاجل و أعلموا بأنّ وراء ذلك العذاب الدّائم و أنّهم على الباطل ، فالمقصود من هذا الكلام هو الجملة الثّانية ، أعني جملة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ ﴾ ، و ما قبل ذلك تمهيد و تنبيه على بوارق الغرور و مزالق الذّهول .

و لّما كان ذلك هو حالهم كان في هذا الاعتراض زيادة بيان لأسباب مكابرتهم و بعدهم عن الإيمان ، و فيه تنبيه المسلمين بأن لا يغترّوا بظاهر حسن حال الكافرين في الدّنيا ، و أن لا يحسبوا أيضا أنّ الكفر يوجب تعجيل العذاب فأوقِظوا من هذا التّوهّم .[1]

ـــ الإمهال:

وفي قوله تعالى :﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾[2] جملة : ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ ﴾ معترضة بين جملة :﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾[3] و بين جملة : ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ ، جُعلت مقدّمة لجملة :﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ . أمّا جملة:﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ فهي معترضة بين جملة :﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ و بين جملة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[4] لأنّ قوله تعالى :﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾[5] يثير في نفوس المسلمين تساؤلا عن مدى إمهال المشركين ، فكان قوله تعالى :

[1] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 12 ، ص : 22 .

[2] - الأنبياء : 37 .

[3] - الأنبياء : 36 .

[4] - الأنبياء :38 .

[5] - الأنبياء : 36 .

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [1] استئنافا بيانيّا جاء معترضا بين الجمل التي تحكي أقوال المشركين و ما تفرّع عليها . إلى المسلمين الذين كانوا يستبطئون حلول الوعيد الذي توعّد الله تعالى به المكذّبين .

و مناسبة موقع الجملتين أنّ ذكر استهزاء المشركين بالنّبيّ صلّى الله عليه و سلّم يهيّج حنق المسلمين عليهم فيودّوا أن يترل بالمكذّبين الوعيد عاجلا فخوطبوا بالترّيّث و أن لا يستعجلوا ربَّهم لأنّه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد و ما في تأخير نزوله من المصالح للدّين . و أهمّها مصلحة إمهال القوم حتى يدخل منهم كثير في الإسلام . و الوجه أن تكون الجملة الأولى تمهيدا للثّانية .[2]

ـــ الاستدلال:

وقوله تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [3] جملة معترضة بين جملة :﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [4] و جملة :﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ [5] جاءت مجيء الاستدلال على فساد ظنّهم و خرصهم بشواهد خلق اللّيل و النّهار المشاهد في كلّ يوم من العمر مرّتين و هم في غفلة عن دلالته ، و هو خلق نظام النّهار و اللّيل.

---

[1] - الأنبياء :38 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 7 ، ج 17 ، ص : 67 .

[3] - يونس : 67 .

[4] - يونس : 66 .

[5] - يونس : 68 .

و كيف كان النّهار وقتا ينتشر فيه النّور فيناسب المشاهدة لاحتياج النّاس في حركات أعمالهم إلى إحساس البصر الذي به تتبيّن ذوات الأشياء و أحوالها لتناول الصّالح منها في العمل ، و نبذ غير الصّالح للعمل .

وكيف كان اللّيل وقتا تغشاه الظّلمة ، فكان مناسبا للسّكون لاحتياج النّاس فيه إلى الرّاحة من تعب الأعمال التي كدحوا لها في النّهار . فكانت الظّلمة باعثة النّاس على الرّاحة و محدّدة لهم إبّانها بحيث يستوي في ذلك الفطن و الغافل .

و لّما قابل السّكون في جانب اللّيل بالإبصار في جانب النّهار ، و اللّيل و النّهار ضدّان دلّ ذلك على أنّ علّة السّكون عدم الإبصار يقتضي الحركة فكان في الكلام احتباك .[1]

ـــ التّذكير:

و قوله تعالى :﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [2] اعتراض في آخر الكلام فالواو اعتراضيّة تذكيرا للمؤمنين بالأجل لكلّ روح عند حلولها حين يؤمر الملك الذي ينفخ الرّوح يكتب أجله و عمله و رزقه و شقيّ أو سعيد . فالأجل هو المدّة المعيّنة لحياته لا يؤخّر عن أمده ، فإذا حضر الموت كان دعاء المؤمن الله بتأخير أجله من الدّعاء الذي استجاب لأنّ الله قدّر الآجال .[3]

ـــ التّهويل:

[1] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 11 ، ص : 226 – 227 .

[2] - المنافقون : 11 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 255 .

و منه قوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ ﴾[1] الذي هو اعتراض بين جملة﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ ﴾[2] بمتعلّقها ، و بين جملة﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾[3] اعتراضا يفيد تهويل هذا اليوم تعريضا بوعيد المشركين بالخسارة في ذلك اليوم : أي بسوء المنقلب .[4]

ـــ المبادرة بالتّنبيه:

الواو اعتراضيّة في قوله تعالى :﴿ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ﴾[5] و الجملة معترضة بين جملة :﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ ﴾[6] ، و جملة :﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾[7] أريد بهذا الاعتراض المبادرة بالتّنبيه إلى إقامة الأحكام المذكورة من أوّل السّورة إقامة لا تقصير فيها و لا خِيَرة لأحد في التّسامح بها ، و خاصّة المطلّقة و المطلّق أن يحسبا أنّ ذلك من حقّهما انفرادا أو اشتراكا .[8]

ـــ توكيد الوعيد :

و جملة :﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴾[9] اعتراض عائد إلى ما سبق من قوله :﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ ﴾[10] توكيدا للوعيد و تحذيرا من

---

[1] - التّغابن : 9 .

[2] - التّغابن :7 .

[3] - التّغابن : 9 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 275 .

[5] - الطّلاق : 1 .

[6] - الطّلاق : 1 .

[7] - الطّلاق : 1 .

[8] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 304 .

[9] - الزّخرف :11.

[10] - الشّورى : 22 .

الدّوام على الكفر بعد فتح باب التّوبة لهم.[1]

ـــ تحديد الانتصار و التّرغيب:

و قوله تعالى :﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] فيه ثلاث جمل معترضة الواحدة تلو الأخرى بين جملة:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ ﴾[3] و جملة : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ ﴾[4].و فائدة هذا الاعترض تحديد الانتصار و التّرغيب في العفو ثمّ ذمّ الظّلم و الاعتداء ، و هذا انتقال من الإذن في الانتصار من أعداء الدّين إلى تحديد إجرائه بين الأمّة بقرينة تفريع﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ ﴾على جملة :﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ إذ سمّي ترك الانتصار عفوا و إصلاحا و لا عفو و لا إصلاح مع أهل الشّرك.[5]

ـــ التّسلية:

و قوله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾[6] جملة معترضة لتسلية النبيّ صلّى الله عليه و سلّم على تمسّك المشركين بدين آبائهم و الإشارة إلى المذكور من قولهم :﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ ﴾[7]، أي و مثل قولهم ، قال المترفون من أهل القرى المرسَل إليهم الرّسل من قبلك.

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25، ص : 91 .

[2] - الشّورى : 40 .

[3] - الشّورى : 39.

[4] - الشّورى : 41 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25، ص : 114 .

[6] - الزّخرف : 23.

[7] - الزّخرف : 22.

و الواو للعطف أو للاعتراض (و ما الواو الاعتراضيّة في الحقيقة إلاّ تعطف الجملة المعترضة على الجملة التي قبلها عطفا لفظيّا).

و المقصود أنّ هذه شنشنة أهل الضّلال من السّابقين و اللاّحقين ، قد استووا فيه كما استووا في مثاره و هو النّظر القاصر المخطئ ، كما قال تعالى :﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [1] ، أي بل هم اشتركوا في سببه الباعث عليه و هو الطّغيان.

و يتضمّن هذا تسلية للرّسول صلّى الله عليه و سلّم على ما لقيه من قومه ، بأنّ الرّسل من قبله لقوا مثل ما لقي. [2]

و مثله قوله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [3] اعتراض قصد منه تسلية الرّسول صلّى الله عليه و سلّم و الواو واو الاعتراض ، لأنّ الجملة بمترلة الفذلكة ، و تكون للرّسول صلّى الله عليه و سلّم تسلية بعد ذكر ما يُحزنه من أحوال كفّار قومه ، و تصلّبهم في نبذ دعوته ، فأنبأه الله : بأنّ هؤلاء أعداؤه ،و أنّ عداوة أمثالهم لمثله سنّة من سنن الله تعالى في ابتلاء لأنبيائه كلّهم ، فما منهم أحد إلاّ كان له أعداء ، فلم تكن عداوة هؤلاء للنّبيّ علي الصّلاة و السّلام بدعا من شأن الرّسل . فمعنى الكلام : ألست نبيّا و قد جعلنا لكلّ نبيّ عدوّا إلى آخره.[4]

ـــ التّحذير من العجب:

---

[1] - الذّاريات :53.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25، ص :188.

[3] - الأنعام : 112 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ، ص : 8 .

و جملة﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ من قوله تعالى :﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[1] اعتراض بين جملة﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ ﴾ [2] وجملة﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾[3] ، و الفاء لتفريع الاعتراض ، و هو تحذير للمؤمنين من العجب بأعمالهم الحسنة عجبا يحدثه المرء في نفسه أو يدخله أحد على غيره بالثّناء عليه بعمله .[4]

ـــ التّنبيه:

و جملة :﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [5] معترضة لفائدة التّنبيه على أنّ الله مطّلع على أسرار المؤمنين إذ هم المراد بالمتّقين،[6] كما تقدّم في قوله في سورة البقرة :﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[7]

و كذلك جملة :﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾من قوله تعالى :﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [8] اعتراض للتّنبيه على أنّ بغيهم الفتنة أشدّ خطرا على المسلمين لأنّ في المسلمين

---

[1] - النّجم :32.

[2] - النّجم : 32 .

[3] - النّجم : 33 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 27 ، ص : 125 .

[5] - التّوبة : 44 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 212 .

[7] - البقرة : 3 – 4 .

[8] - التّوبة : 47 .

فريقا تنطلي عليهم حيلهم و هؤلاء هم سذّج المسلمين الذين يعجبون من أخبارهم و يتأثّرون و لا يبلغون إلى تمييز التّمويهات و المكائد عن الصّدق و الحقّ .[1]

ـــ تمهيد التّهديد:

و جملة :﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ [2] معترضة ، و الاعتراض بها تمهيد للتّهديد و تقريب تقريب له بأنّ عقاب هؤلاء أيسر من عقاب الذين من قبلهم في متعارف النّاس[3] مثل قوله تعالى :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [4]

ـــ تخلّل الوعيد بالاستدلال:

قوله تعالى :﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [5] جملة معترضة بين جملة:﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾[6] و جملة :﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾[7] ليتخلّل الوعيد بالاستدلال فتكون الدّعوة إلى الحقّ بالإرهاب تارة و استدعاء النّظر تارة أخرى .[8]

ـــ الارتفاق بالمؤمنين:

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 218 .

[2] - سبأ : 45 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 9 ، ج 22 ، ص : 229 .

[4] - الرّوم : 27 .

[5] - النّمل : 86 .

[6] - النّمل : 85 .

[7] - النّمل : 87 .

[8] - التّحرير و التّنوير :م 8 ، ج 20 ، ص : 43.

و جملة :﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ من قوله تعالى :﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [1] معترضة بين المسند إليه

و المسند على طريقة الإدماج .و فائدة هذا الإدماج الارتفاق بالمؤمنين ، لأنّه لّما بشّرهم بالجنّة على فعل الصّالحات أطمن قلوبهم بأن لا يُطلبوا من الأعمال الصّالحة بما يخرج عن الطّاقة ، حتى إذا لم يبلغوا إليه أيسوا من الجنّة ، بل إنّما يُطلبون منها بما في وسعهم ، فإنّ ذلك يرضي ربّهم .[2]

و قوله تعالى :﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [3] استئناف جاء معترضا بين ذكر دلائل وحدانيّة الله تعالى بذكر عظيم قدرته على تكوين أشياء لا يشاركه غيره في تكوينها فالجملة معترضة بين جملة :﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [4] و جملة :﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾[5] جرى هذا الاعتراض على عادة القرآن في انتهاز فرص تهيّؤ القلوب للذّكرى .[6]

ــ التّنويه:

---

[1] - الأعراف : 42 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ب ، ص : 130 .

[3] - الأعراف : 55 .

[4] - الأعراف : 54 .

[5] - الأعراف : 57 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ب ، ص : 170 – 171 .

و جملة :﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾ [1] معترضة و الغرض منها التّنويه بشأن الذين آمنوا بأنّ حبّهم لله صار أشدّ من حبّهم الأنداد التي كانوا يعبدونها و هذا كقول عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – : " لأنْتَ أحَبُّ إليّ منْ نفْسِي التي بيْنَ جَنْبَيَّ ". [2]

ـــ الاعتراض المطنِب:

و قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴾ [3] جمل معترضة بين قوله تعالى : ﴿ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ [4] و ما اتّصل به من تعليله بقوله :﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ ﴾ [5] و ما عُطف عليه من قوله :﴿ وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ ﴾ [6] إل قوله : ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [7] و بين قوله:﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ [8] لأنّ ذلك وقع تكملة لدفع المطاعن في شأن تحويل القبلة فله أشدّ اتّصال بقوله : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ ﴾ المتّصل بقوله :﴿ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾

---

[1] - البقرة : 165 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 2، ص : 94 . و الحديث رواه البخاري : كتاب الأيْمان و النّذور ، باب : كيف كانت يمين النبيّ صلّى الله عليه و سلّم ،ص : 1466 .

[3] - البقرة : 153 – 154 .

[4] - البقرة : 144.

[5] - البقرة : 150 .

[6] - البقرة : 150 .

[7] - البقرة : 152 .

[8] - البقرة :177.

و هو اعتراض مطنب ابتُدئ به إعداد المسلمين لما هم أهله من نصر دين الله شكرا له على ما خوّلهم من النّعم المعدودة في الآيات السّالفة ، من جعلهم أمّة وسطا و شهداء على النّاس وتفضيلهم بالتّوجّه إلى استقبال أفضل بقعة ، و تأييدهم بأنّهم على الحقّ في ذلك ، و أمرهم بالاستخفاف بالظّالمين و أن لا يخشوهم ، و تبشيرهم بأنّه أتمّ نعمته عليهم و هداهم ، و امتنّ عليهم بأنّه أرسل فيهم رسولا منهم ، و هداهم إلى الامتثال للأحكام العظيمة كالشّكر و الذّكر فإنّ الشّكر و الذّكر بهما تهيئة النّفوس إلى عظيم الأعمال ، من أجل ذلك كلّه أمرهم هنا بالصّبر و الصّلاة ، و نبّههم إلى أنّهما عون للنّفس على عظيم الأعمال ، فناسب تعقيبها بها ، و أيضا فإنّ ما ذكر من قوله :﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ مُشعر بأنّ أناسا متصدّون لشغبهم و تشكيكهم و الكيد لهم ، فأمروا بالاستعانة عليهم بالصّبر و الصّلاة .[1]

ـــ اعتراض استطراد:

و قوله تعالى :﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [2] جملة معترضة بين جملة:﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [3] إلخ،و بين بين جملة :﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [4] إلخ اعتراض استطراد بمناسبة ذكر مطاعن أهل الكتاب في القبلة الإسلاميّة ، فإنّ طعنهم كان عن مكابرة مع علمهم بأنّ القبلة الإسلاميّة حقّ كما دلّ عليه قوله :﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [5] فاستطرد بأنّ طعنهم في القبلة

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 2، ص : 52 .

[2] - البقرة : 146 .

[3] - البقرة : 145.

[4] - البقرة :148.

[5] - البقرة :144.

الإسلاميّة ما هو إلاّ من مجموع طعنهم في الإسلام و في النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم ، و الدّليل على الاستطراد قوله بعده :﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ فقد عاد الكلام إلى استقبال القبلة .[1]

9- وضع الظّاهر مكان المضمر :

قد يكون حقّ الكلام من حيث الظّاهر أن لا يُعاد ذكر لفظ بعينه ، لأنّ فيما ذكر قبله غناء عنه ، ثمّ يمكن الاكتفاء بالضّمير العائد على المذكور ، إلاّ أنّ القرآن يؤثر استعمال اللّفظ الظّاهر ، و استعماله في هذه الحالة صورة من صور الإطناب . و قد يستفاد منه معان بلاغيّة نذكر منها:

ـــ الإغاظة:

وفي قوله تعالى :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ [2] أظهر في مقام الإضمار لأنّ ضميري الغيبة اللّذيْن قبله عائدان إلى مجموع الفريقين ، على أنّ في صلة الذين اتّبعوا تنبيها على إغاظة المتبوعين و إثارة حسرتهم و ذلك عذاب نفسانيّ يضاعف العذاب الجثماني[3] و قد نبّه عليه قوله :﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [4]

ـــ دفع التّوهّم:

و جاء بالظّاهر في قوله تعالى:﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾[5] في موضع المضمر و لم يقل : عليهم ، لئلاّ يتوهّم أنّ الرِّجْز عمّ جميع بني إسرائيل ، و بذلك تنطبق الآية على ما ذكرته التّوراة تمام الانطباق.

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 2، ص : 39 – 40 .

[2] - البقرة : 167 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 2، ص : 98 .

[4] - البقرة : 167 .

[5] - البقرة : 59 .

و فائدة إظهار لفظ القول دون أن يقال فبدّلوه لدفع توهّم أنّهم بدّلوا لفظ حطّة خاصّة و امتثلوا ما عدا ذلك ، لأنّه لو كان كذلك لكان الأمر هيّنا .

و قوله تعالى :﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾[1] و قوله أيضا :﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ اعتنى فيهما بالإظهار في موضع الإضمار ليعلم أنّ الرِّجز خَصّ الذين بدّلوا القول و هم العشرة الذين أشاعوا مذمّة الأرض ، لأنّهم كانوا السّبب في شقاء أمّة كاملة .و في هذا موعظة و ذكرى لكلّ من ينصّب نفسه لإرشاد قوم ليكون على بصيرة بما يأتي و يذر ، و عِلْم بعواقب الأمور فمن البِرّ ما يكون عقوقا ، و في المثل " على أهْلِهَا تَجْنِي بَرَاقِش "[2] و هي اسم كلبة قوم كانت تحرسهم فدلّ نبحها أعداءهم عليهم فاستأصلوهم فضُربت مثلا .[3]

ـــ الشّمول:

و في قوله تعالى :﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾[4] هم الذين اتّخذوا من دون الله أندادا ، أي المذكورون قبل هذه الآية ، فهو من الإظهار في مقام الإضمار ليكون شاملا لهؤلاء المشركين و غيرهم ، و جعل اتّخاذهم الأنداد ظلما لأنّه اعتداء على عدّة حقوق.[5]

ـــ المثل:

---

[1] - البقرة : 59 .

[2] - مجمع الأمثال : أبو الفضل أحمد بن محمّد المعروف بالميداني ، دط ، مؤسّسة الطّبع و النّشر الآستانة ، 1344 هـــ ،1 / 475 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 1 ، ق 2، ص : 516 – 517 .

[4] - البقرة : 165 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 1 ، ج 2، ص : 94 .

و افتتاح الجملة باسم الجلالة في قوله تعالى :﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[1] إظهار في مقام الإضمار إذ لم يقل : "هو لا إله إلاّ هو" لاستحضار عظمة الله تعالى بما يحويه اسم الجلالة من معاني الكمال و لتكون الجملة مستقلّة بنفسها فتكون جارية مجرى الأمثال و الكلم الجوامع .[2]

في ذكر اسم الجلالة من قوله تعالى :﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3] إظهار في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلّة جارية مجرى المثل و الكلم الجوامع ، و لأنّ الاسم الظّاهر أقوى دلالة من الضّمير لاستغنائه عن تطلّب المعاد.و فيه من تربية المهابة ما في قول الخليفة:" أمير المؤمنين يأمركم بكذا".[4]

ــ دفع الاحتمال:

و في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[5] وقع الإظهار في مقام الإضمار لدفع احتمال أن يكون الضّمير عائدا إلى الطّائفتين المتحاورتيْن في النّار ، و اختير من طرق الإظهار التّعريف بالموصول إيذانا بما تومئ إليه الصّلة من وجه بناء الخبر ، أي إنّ ذلك لأجل تكذيبهم بآيات الله و استكبارهم عنها .[6]

ــ الإيماء إلى وجه بناء الخبر:

---

[1] - التّغابن : 13 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 282 .

[3] - التّغابن : 8 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 273 .

[5] - الأعراف : 40 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ب ، ص : 126 .

و التّعبير بالموصول في قوله تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾[1] إظهار في مقام الإضمار لتكون الصّلة إيماء إلى أنّ وجه بناء الخبر الوارد بعدها ، أي سبب إلحاق ذرّياهم بهم في نعيم الجنّة هو إيمانهم و كون الذّريّات آمنوا بسبب إيمان آبائهم لأنّ الآباء المؤمنين يُلقّنون أبناءهم الإيمان .[2]

ــ التّوبيخ و التّحقير و التّهكّم:

و في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴾[3] عدل عن الإضمار إلى الإظهار ، و كان مقتضى الظّاهر أن يعبّر عن المردود عليهم بضمير الغيبة تبعا لقوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾[4] ، فعدل عن الإضمار إلى الإظهار بالموصوليّة ، لما تؤذن به الصّلة من التّوبيخ و التّحقير لعقائدهم إذ كفروا بالآخرة ، و قد تواتر على ألسنة الرّسل و عند أهل ألديان المجاورين لهم من اليهود و النّصارى و الصّابئة ، فالموصوليّة هنا مستعملة في التّحقير و التّهكّم نظير حكاية الله عنهم :﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾[5] إلاّ أنّ التّهكّم المحكيّ المحكيّ هنالك تهكّم المبْطِل بالمحِقّ لأنّهم لا يعتقدون وقوع الصّلة ، و أمّا التّهكّم هنا فهو تهكّم المحق بالمبطل لأنّ مضمون الصّلة ثابت لهم .[6]

ــ التّعميم في الحكم:

---

[1] - الطّور : 21 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 27 ، ص : 48 .

[3] - النّجم : 47 .

[4] - النّجم :23.

[5] - الحِجر : 6 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 27 ، ص : 114 – 115 .

و ذكر المحسنين في قوله تعالى :﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1] وضع للظّاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظّاهر أن يقال : فإنّ الله لا يضيع أجرهم. فعدل عنه إلى المحسنين للدّلالة على أنّ ذلك من الإحسان ، و للتّعميم في الحكم ليكون كالتّذييل ، و يدخل في عمومه هو وأخوه .

ثمّ إنّ هذا في مقام التّحدّث بالنّعمة و إظهار الموعظة سائغ للأنبياء لأنّه من التّبليغ [2] كقول النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم : " **إنّي لأتْقَاكُمْ لله وَ أعْلَمُكُمْ بِهِ** ".[3]

و مثله قوله تعالى :﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [4] إظهار في مقام الإضمار لقصد التّعميم الذي يشملهم و غيرهم أي : هذا شأن الله في جميع الكافرين .[5]

ـــ معنى التّعليل في المشتقّ:

و العدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله تعالى:﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾[6] دون أن يقال : و ما كنّا عنكم غافلين ، لما يفيده المشتقّ من معنى التّعليل ، أي ما كنّا عنكم غافلين لأنّكم مخلوقاتنا فنحن نعاملكم بوصف الرّبوبيّة ، و في ذلك تنبيه على وجوب الشّكر و الإقلاع عن الكفر .[7]

ـــ بيان السّببيّة:

---

[1] - يوسف : 90 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 6 ، ج 13 ، ص : 49 .

[3] - صحيح البخاري : كتاب الإيمان ، باب قوله صلّى الله عليه و سلّم : أنا أعلمكم بالله ... ، ص :15 .

[4] - التّوبة : 37 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص :195 .

[6] - المؤمنون : 17 .

[7] - التّحرير و التّنوير :م 8 ، ج 18، ص : 28 .

و في قوله تعالى :﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[1] عدل عن ضمير الخطاب أن يقال : فما لكم من نصير ، إلى الاسم الظّاهر بوصف(الظّالمين) لإفادة سبب انتفاء النّصير عنهم ، ففي الكلام إيجاز ، أي لأنّكم ظالمون و ما للظّالمين من نصير ، فالمقصود ابتداء نفي النّصير عنهم و يتبعه التّعميم نفي النّصير عن كلّ من كان مثلهم من المشركين .

و يجوز أن يكون كلاما مستقلاّ مفرّعا على القصّة ذُيّلت بها للسّامعين من قوله :﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾[2] ، فليس فيه عدول عن الإضمار إلى الإظهار لأنّ المقصود إفادة الشّمول هذا الحكم لكلّ ظالم فيدخل الذين كفروا المتحدَّث عنهم في العموم .[3]

وذكر﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من قوله تعالى:﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[4] إخراج على خلاف مقتضى الظّاهر : لأنّ مقتضى الظّاهر أن يقول : و إنّ الله مخزيكم ، و وجه تخريجه على الإظهار الدّلالة على سببيّة الكفر في الخزي .[5]

ـــ قطع المعاذير بالإطناب:

و في السّورة نفسها جاء التّصريح بفعل البراءة مرّة ثانية دون إضمار و لا اختصار في قوله تعالى:﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ

[1] - فاطر : 37 .

[2] - فاطر : 36 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 9 ، ج 22 ، ص : 320 .

[4] - التّوبة : 2 .

[5] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 107 .

وَرَسُولُهُۥ﴾[1] بأن يقال : و أذان إلى النّاس بذلك ، أو بها ، أو بالبراءة : لأنّ المقام مقام بيان و إطناب لأجل اختلاف أفهام السّامعين فيما يسمعونه ، ففيهم الذّكيّ و الغبيّ ، ففي الإطناب و الإيضاح قطع لمعاذيرهم و استقصاء في الإبلاغ لهم .[2]

ـــ زيادة التّشنيع :

و المراد بأئمّة الكفر من قوله تعالى :﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[3] المشركون الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، فوضع هذا الاسم موضع الضّمير حين لم يقل : فقاتلوهم ، لزيادة التّشنيع عليهم ببلوغه هذه المترلة من الكفر ، و هي أنّهم قدوة لغيرهم ، لأنّ الذين أضمروا النّكث يبقون متردّدين بإظهاره ، فإذا ابتدأ بعضهم بإظهار النّقض اقتدى بهم الباقون ، فكان النّاقضون أئمّة للباقين .[4]

ـــ التّقرير في الذّهن:

و في قوله تعالى :﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾[5] إظهار في مقام الإضمار في قوله :﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ دون أن يقال : وعدهم الله : لتقريرهم في ذهن السّامع ليتمكّن تعلّق الفعل بهم فضل تمكّن في ذهن السّامع .و قوله :﴿عَدۡنٍ﴾ معناه الخلد و الاستقرار المستمرّ ، فجنّات عدن هي الجنّات

---

[1] - التّوبة : 3 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 109 .

[3] - التّوبة : 12 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 130 .

[5] - التّوبة : 72 .

المذكورة قبل ، فذكرها بهذا اللّفظ من الإظهار في مقام الإضمار مع التّفنّن في التّعبير و التّنويه بالجنّات .[1]

ـــ التّذكير و زيادة التّشهير:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2] و أظهر في مقام الإضمار في قوله :﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لأنّ في هذه الصّلة تذكيرا بأنّ المشركين يكذّبون بآيات الله ، فهم ممّن يُتجنّب اتّباعهم ، و قيل : أريد بالذين كذّبوا اليهود ، بناء على ما تقدّم من احتمال أن يكونوا المراد من قوله:﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾[3] و سمّي دينهم هوى لعدم استناده إلى مستند و لكنّه إرضاء للهوى .

و كان مقتضى الظّاهر أن لا يعاد اسم الموصول في قوله تعالى :﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّ حرف العطف مغن عنه ، و لكن أجري الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر لزيادة التّشهير بهم ، كما هو بعض نكت الإظهار في مقام الإضمار . و قيل : أريد بالذين كذّبوا بالآيات : الذين كذّبوا الرّسول صلّى الله عليه و سلّم و القرآن ، و هم أهل الكتابيْن ، و بالذين لا يؤمنون بالآخرة و هم بربّهم يعدلون : المشركون .[4]

ـــ العناية:

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 264 .

[2] - الأنعام : 150 .

[3] - الأنعام : 147 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ، ص : 154 – 155 .

و جملة :﴿ وَرَبُّكَ ﴾ من قوله تعالى :﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [1] إظهار في مقام الإضمار و مقتضى الظّاهر أن يقال : و هو الغنيّ ذو الرّحمة ، فخولف مقتضى الظّاهر لما في اسم الرّبّ من دلالة على العناية بصلاح المربوب ، و لتكون الجملة مستقلّة بنفسها فتسير مسرى الأمثال و الحكم ، و للتّنويه بشأن النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم .[2]

ـــ التّنبيه على التّردّد:

كان مقتضى الظّاهر في قوله تعالى :﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [3] أن يُؤتى بضمير (هم) مضافا إليه الظّنّ إمّا ضمير خطاب أو غيبة . فيقال : و ما ظنّكم أو ما ظنّهم ، فعدل عن مقتضى الظّاهر إلى الإتيان بالموصول بالصّلة المختصّة بهم للتّنبيه على أنّ التّردّد بين أن يكون الله أذن لهم فيما حرّموه و بين أن يكونوا مفترين عليه قد انحصر في القسم الثّاني ، و هو كونهم مفترين ، إذ لا مساغ لهم في ادّعاء أنّه أذن لهم ، فإذا تعيّن أنّهم مفترون فقد صار الافتراء حالهم المختصّ بهم . و في الموصول إيذان بعلّة التّعجيب من ظنّهم بأنفسهم يوم القيامة.[4]

ـــ الاستحقاق: و في قوله تعالى :﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [5] إظهار في قوله:﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في مقام الإضمار ، و مقتضى الظّاهر أن يقال : و لننبّئنّهم بما عملوا فعدل إلى الموصول و صلته لما تؤذن به الصّلة من علّة استحقاقهم الإذاقة بما

---

[1] - الأنعام : 133 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ، ص : 85 .

[3] - يونس : 60 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 11 ، ص : 210 .

[5] - فصّلت : 50 .

عملوا و إذاقة العذاب.[1]

11 – الإدماج :

عرّفه أبو هلال بقوله : " هو أن يتضمّن الكلام معنييْن : معنى مصرّح به ، و معنى كالمشار إليه " . و سمّاه(المضاعفة) و مثّل له بقوله تعالى :﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [2] فالمعنى المصرّح به في الكلام أنّه لا يقدر أن يهدي من عمِي عن الآيات ، و صُمّ عن الكلم البيّنات ، بمعنى أنّه صرف قلبه عنها فلم ينتفع سماعها و رؤيتها".[3]

و أن يكون الشّاعر في غرض من أغراض الشّعر يوهِم أنّه مستمرّ فيه ثمّ يخرج منه إلى غير مناسبة بينهما . و لا بدّ من التّصريح باسم المستطرَد به ، بشرط أن لا يكون قد تقدّم له ذكر ، ثمّ يرجع إلى الأوّل و يقطع الكلام ، فلا يكون المستطرَد به آخر كلامك.[4] و يلاحظ في هذا الشّأن أنّ ابن عاشور سجّل رأيه بخصوص الإدماج مراعيا المناسبة ، و السّياق اللّغويّ الذي وردت فيه الآيات و جد أنّه لا يدمج كلام في آخر إلاّ للطيفة بلاغيّة، نذكر منها:

ـــ الامتنان:

قوله تعالى :﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [5] **إدماج** امتنان على النّاس بأنّهم مع ما خلقوا عليه من ملابسة الحقّ على وجه الإجمال و ذلك من الكمال ، و هو ما اقتضته الحكمة الإلهيّة ،فقد خلقوا في أحسن تقويم ، إذ كانت صورة الإنسان مستوفية الحُسْن متماثلة فيه ، لا يعتورها من فظاعة

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 13 .

[2] - يونس : 42 – 43 .

[3] - الصّناعتين : 477 .

[4] - معجم البلاغة العربيّة : د . بدوي طبانة ، ط3 ، دار المنارة ، 1408 هـــ / 1988 م ، ص: 372 .

[5] - التّغابن : 3 .

بعض أجزائها و نقصان الانتفاع بها ما يناكد محاسن سائرها ، بخلاف محاسن أحاسن الحيوان من الدّوابّ و الطّير و الحيتان من مشي على أربع مع انتكاس الرّأس غالبا ، أو زحف ، أو نقز في المشي في البعض .[1]

ـــ الاستهزاء:

و قوله تعالى :﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [2] إنّما هو على سبيل الاستهزاء ، و ذكر إنكار البعث هنا **إدماج** بذكر أحوال الإنسان المشترك في عموم أحوال الإنسان .و جيء في حكاية قوله:﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ بحرف (إنْ) الشّرطيّة التي يغلب وقوعها في الشّرط المشكوك وقوعه لأنّه جعل رجوعه إلى الله أمرا مفروضا ضعيف الاحتمال.[3]

ـــ التّسوية:

و جملة :﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من قوله تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [4] **إدماج** . و التّشبيه بالنّسبة إليه على أصله ، أي مثل وحيه إليك وحيه إلى الذين من قبلك ، فالتّشبيه مستعمل في كلتا طريقتيْه كما يُستعمل المشترك في معنييْه . و الغرض من التّشبيه إثبات التّسوية ، أي ليس وحي الله إليك إلاّ على سنّة وحيه إلى الرّسل من قبلك ، فليس وحيه إلى الرّسل من قبلك بأوضح من وحيه إليك.[5]

ـــ إعادة الإثبات:

---

[1] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص : 265 .

[2] - فصّلت : 50 .

[3] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 12 .

[4] - الشّورى :45.

[5] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 26 .

و عطف :﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ على جملة :﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ من قوله تعالى :﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [1] **إدماج** لإعادة إثبات البعث ترسيخا لعلم المسلمين و إبلاغا لمسامع المنكرين ، لأنّهم أنكروا ذلك في ضمن اتّخاذهم أولياء من دون الله ، فلمّا أبطل معتقدهم إلهيّة غير الله أردف بإبطال ما هو من علائق شركهم و هو نفي البعث ، و ليس ذلك استدلالا عليهم لإبطال إلهيّة آلهتهم لأنّ وقوع البعث مجحود عنهم .[2]

ــ المثل الجامع:

و قوله تعالى :﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [3] بدل من جملة :﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [4] بدل اشتمال لأنّ خلقه ما يشاء يشتمل على هبته لمن يشاء ما يشاء.

و هذا الإبدال **إدماج** مَثَل جامع لصور إصابة المحبوب و إصابة المكروه فإنّ قوله :﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ [5] هو من المكروه عند غالب البشر و يتضمّن ضربا من ضروب الكفران و هو اعتقاد بعض النّعمة سيّئة في عادة المشركين من تطيّرهم بولادة البنات لهم ، و قد أشير إلى التّعريض بهم في ذلك بتقديم الإناث على الذّكور في ابتداء تعداد النّعم الموهوبة على عكس العادة في تقديم الذّكور على الإناث حيثما ذُكرا في القرآن في نحو :﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ [6]

[1] - الشّورى : 9 .

[2] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 40 .

[3] - الشّورى :49.

[4] - الشّورى :49 .

[5] - الشّورى : 50.

[6] - الحجرات : 13.

و قوله :﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[1] فهذا من دقائق هذه الآية .[2]

ــ التّحذير :

و في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[3] تذييل لأنّ في تعميم أحوال الأولاد بعد أن ذكر حال خاصّ ببعضهم .و **أدمج** فيه الأموال لأنّها لم يشملها طلب الحذر و لا وصف العداوة .و وجه إدماج الأموال هنا أنّ المسلمين كانوا قد أصيبوا في أموالهم من المشركين فغلبوهم على أموالهم ، و لم تُذكر الأموال في الآية السّابقة ، لأنّ الغرض هو التّحذير من أشدّ الأشياء اتّصالا بهم ، و هي أزواجهم و أولادهم . و لأنّ فتنة هؤلاء مضاعفة لأنّ الدّاعي إليها يكون من أنفسهم و من مساعي الآخرين و تسويلهم .ثمّ يقول بعد ذلك : ففي هذه الآية من خصوصيات علم المعاني التّذييل و الإدماج ، و كلاهما من الإطناب ، و الاكتفاء و هو من الإيجاز و فيها القصر ، و فيها التّعليل ، و هو من خصوصيات الفصل .[4]

ــ التّنويه:

من ذلك قوله تعالى :﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[5] ، إذ فيه **إدماج** للتنويه للتّنويه بالمؤمنين و تهديد المشركين لأنّ المشركين لا يجدون في موازين الأعمال الصّالحة شيئا[6]،قال تعالى :﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[7]

---

[1] - القيامة :39.

[2] - التّحرير و التّنوير :م 10 ، ج 25 ، ص : 138 .

[3] - التّغابن : 15 .

[4] - التّحرير و التّنوير :م 11 ، ج 28 ، ص :285 – 286 .

[5] - المؤمنون : 102 .

[6] - التّحرير و التّنوير :م 8 ، ج 18 ، ص : 126 .

[7] - الفرقان : 23 .

ـــ التّشنيع:

و في قوله تعالى :﴿ **وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾[1] جيء في نهيهم عن البطر و الرّئاء بطريقة النّهي عن التّشبّه بالمشركين ، **إدماجا** للتّشنيع بالمشركين و أحوالهم ، و تكريها للمسلمين تلك الأحوال ، لأنّ الأحوال الذّميمة تتّضح مذمّتها ، و تنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين ، و ذلك أبلغ في النّهي ، و أكشف لقبح المنهيّ عنه .[2]

ـــ الرّدّ على المشركين:

و في قوله تعالى :﴿ **قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً** ﴾[3] افتتاح الكلام المأمور بأن يقوله بقوله :﴿ **لَّآ أَجِدُ** ﴾ **إدماج** للرّدّ على المشركين في خلال بيان ما حرّم على المسلمين ، و هذا الرّدّ جار على طريقة كناية الإيماء ، بأن لم ينف تحريم ما ادّعوا تحريمه من الله في شرعه ، لأنّه لا طريق إلى تحريم شيء ممّا يتناوله النّاس إلاّ بإعلام من الله تعالى ، لأنّ الله هو الذي يحلّ ما شاء و يحرّم ما شاء على وفق علمه و حكمته ، و ذلك الإعلام لا يكون إلاّ بطريق الوحي أو ما يستنبط منه .[4]

---

1 - الأنفال : 47 .

2 - التّحرير و التّنوير :م 5 ، ج 10 ، ص : 32 – 33 .

3 - الأنعام : 145 .

4 - التّحرير و التّنوير :م 4 ، ج 8 ، ص : 137 .

الفصل الخامس

بلاغة السّورة القرآنيّة

تمهيد :

كثر حديث ابن عاشور في تفسيره عن المناسبات و الوشائج الرّابطة بين الآيات القرآنيّة ، و هو ممّن يرى أنّ العلاقة وثيقة بين آي الذّكر الحكيم ، و إن نزلت هذه الآيات متفرّقة في أزمنة شتّى حسب ظروف و مناسبات مختلفة.

أ ـــ التّناسب لغة :

و المناسبة في اللّغة هي المقاربة ، و فلان يناسب فلانا أي يقرب منه و يشاكله ، و منه النّسيب الكبير الذي هو المتّصل كالأخوين و ابن العمّ و نحوه ، و إن كانا متناسبين بمعنى بينهما رابط و هو القرابة ، و منه المناسبة في العلّة في باب القياس : الوصف المقارب للحكم لأنّه إذا حصلت مقاربته له ظنّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم ، و لهذا قيل : المناسبة في فواتح الآي و خواتمها .[1]

ب ـــ التّناسب اصطلاحا :

أمّا في الاصطلاح فهي الرّابطة بين شيئين بأيّ وجه من الوجوه ، و في كتاب الله تعني ارتباط السّورة بما قبلها و ما بعدها . و في الآيات تعني وجوه الارتباط في كلّ آية بما بعدها و ما قبلها .[2]

ولقد وقف العلماء منها موقفين بين مؤيّد و رافض ،أمّا المؤيّدون فمنهم : أبو بكر النّيسابوري و فخر الدّين الرّازي ، و برهان الدّين البقاعي ، و الزّركشي ، و السّيوطي . و يرى هؤلاء العلماء

[1]- لسان العرب لابن منظور :1 / 755، 756 ، و القاموس المحيط للفيروز آبادي ، ط1، دار إحياء التّراث العربيّ ـــ بيروت ، 1422 هـــ / 2001 م ، ص : 140 .

[2] - مباحث في التفسير الموضوعي : د.مصطفى مسلم ، دار القلم ـــ دمشق ، ط 3 ،1421 هـــ / 2000 م 1421ه - 2000 م ، ص : 58.

و من حذا حذوهم أنّ علم المناسبات علم شريف ، و نسبته إلى التّفسير نسبة علم البيان من النّحو و أنّ الجهل به نقص في مراتب العلماء .[1]

يقول البقاعي : «فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه،و هو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال ، و تتوقّف الإجادة فيه على معرفة مقصود السّورة المطلوب ذلك فيها و يفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها ، فلذلك كان هذا العلم في غاية النّفاسة ... »[2]

و قال في موضع آخر : «و بهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب و يتمكّن من اللّبّ ، و ذلك أنّه يكشف أنّ للإعجاز طريقين : أحدهما : نظم كلّ جملة على حيالها بحسب التّركيب ، و الثّاني نظمها مع أختها بالنّظر إلى التّرتيب ... ».[3]

و قال الزّركشي : « و اعلم أنّ المناسبة علم شريف تحرز به العقول و يعرف به قدر القائل فيما يقول ... ».[4]

و لقد أكثر الفخر الرّازي في تفسيره من ذكر اللّطائف المتعلّقة بهذا العلم ، و المودعة في التّرتيبات و الرّوابط ...[5]

---

[1]- تناسق الدرر في تناسب السور: جلال الدّين عبد الرّحمن السيوطي ، د ط ، مطبعة عا لم التراث ـــ دمشق ، 1404هـــ / 1983 م ، ص: 17.

[2] - نظم الدّرر في تناسب الآيات و السّور :1 / 5 .

[3] - نظم الدّرر في تناسب الآيات و السّور :1 /7.

[4] - البرهان في علوم القرآن: بدر الدّين بن محمّد بن عبد الله الزّركشي ، تحقيق أبو الفضل الدّمياطيّ ، دط، دار الحديث ـــ مصر 1427 هـــ / 2006 م ، ص : 36.

[5] - مفاتيح الغيب : 10 / 113 .

و قال السّيوطي : «و علم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسّرين به لدقّته ... و فائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا ببعض ،فيقوى بذلك الارتباط و يصير التّاليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء ... ».[1]

أمّا المعارضون و منهم الإمام عزّ الدّين بن عبد السّلام و الشّوكاني و من نهج نهجهما ، فإنّهم يرون عكس ما ذهب إليه الفريق الأوّل .

فعزّ الدّين بن عبد السّلام يرى أنّ المناسبة في الكلام علم حسن بشرط أن يكون الكلام مرتبطا أوّله بآخره ، و لكن إن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، و ما دام القرآن الكريم نزل منجّما في أكثر من عشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت في أسباب مختلفة ، فإنّ ربط بعضه ببعض لا يمكن و من طلب المناسبة فيه فقد تكلّف .

و قد أورد السّيوطي كلامه في الإتقان فقال : « و قال الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام : المناسبة علم حسن ، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوّله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، و من ربط ذلك فهو متكلّف بما لا يقدر عليه إلاّ بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث ؛ فضلا عن أحسنه ؛ فإنّ القرآن نزل في نيّف و عشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، و ما كان كذلك لا يتأتّى ربط بعضه ببعض» .[2]

و صرّح الشّوكاني برأيه تجاه علم المناسبات عند تفسيره قوله تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[3] فاعتبر الانشغال بهذا العلم من باب التكلّف و الرّأي المذموم ، و مضيعة للأوقات من غير فائدة ، بل ردّ على البقاعي و اعتبره من القائلين بالرّأي المنهيّ عنه ، و ممّا ذكره في ذلك قوله : « اعلم أنّ كثيرا من المفسّرين

---

[1] - الإتقان في علوم القرآن : 3 / 322 – 323 .

[2] - الإتقان في علوم القرآن : 3 / 322 – 323 .

[3] - البقرة : 40 .

جاءوا بعلم متكلّف ، و خاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته ، و استغرقوا أوقاتهم في فنّ لا يعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم في التّكلّم بمحض الرّأي المنهيّ عنه في الأمور المتعلّقة بكتاب الله سبحانه و ذلك أنّهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنيّة المسرودة على هذا التّرتيب الموجود في المصاحف ، فجاءوا بتكلّفات ، و تعسّفات يتبرّأ منها الإنصاف ، و يتنزّه عنها كلام البلغاء ، فضلا عن كلام الرّبّ سبحانه ، حتّى أفردوا ذلك بالتّصنيف ، و جعلوه المقصد الأهمّ من التّأليف ، كما فعله البقاعي في تفسيره ، و من تقدّمه ، حسب ما ذكر في خطبته ، و إنّ هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أنّ هذا القرآن ما زال ينزل مفرّقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي ، و كلّ عاقل – فضلا عن عالم – لا يشكّ أنّ هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ، بل قد يكون متناقضة ، كتحريم أمر كان حلالا و تحليل أمر كان حراما ... و هل هذا إلاّ من فتح أبواب الشّكّ ، و توسيع دائرة الرّيب على من في قلبه مرض ، أو كان مرضه مجرّد الجهل ، و القصور ؟ فإنّه إذا وجد أهل العلم يتكلّمون في التّناسب بين جميع آي القرآن بليغا معجزا إلاّ إذا ظهر الوجه المقتضي للمناسبة ...

و ما أقلّ نفع مثل هذا و أنزر ثمرته و أحقر فائدته بل هو عند من يفهم ما يقول ، و ما يقال له من تضييع الأوقات ، و إنفاق السّاعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله ، و لا على من يقف عليه من النّاس ... »[1] ، و لا ريب أنّ بعض من اشتغل بهذا الشّأن من بيان مراد الله قد تكلّف كثيرا من التّخريجات ،و تعسّف في إيجاد بعض العلاقات بين آي الذّكر الحكيم ، إلاّ أنّ العلماء قد بيّنوا ذلك كلّه ، و ناقشوه بالأدلّة العلميّة .

أوّلا: تفرّدات ابن عاشور :

[1] - فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية و الدّراية من علم التّفسير : محمّد بن عليّ بن محمّد الشّوكاني ؛ تحقيق : د . عبد الرّحمن عميرة ، درا الوفاء للطّباعة النّشر ـــ المنصورة ـــ مصر ، ط1 ، 1415 هـــ / 1994 م ، 1 / 133 – 134 .

و لقد تفرّد ببعض الآراء و هو يبحث عن العلاقات الموجودة بين بعض الآيات فأبدع و أجاد[1] و من ذلك قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [2] فبيّن مناسبة هذه الآية لما قبلها ، مستعينا في ذلك بسبب نزولها ، فقال : « قد يبدو في بادئ النّظر عدم التّناسب بين مساق الآيات السّالفة و مساق هذه الآية ، فبينما كانت الآية السّابقة ثناء على هذا الكتاب المبين ، ووصف حالي المهتدين بهديه و النّاكبين عن صراطه و بيان إعجازه و التّحدّي به مع ما تخلّل و أعقب ذلك من المواعظ و الزّواجر النّافعة و البيانات البالغة و التّمثيلات الرّائعة إذا بالكلام قد جاء يخبر بأنّ الله تعالى لا يعبأ أن يضرب مثلا بشيء حقير أو غير حقير ، فحقيق بالنّاظر عند التّأمّل أن تظهر له المناسبة لهذا الانتقال ، ذلك أنّ الآيات السّابقة اشتملت على تحدّي البلغاء بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، فلمّا عجزوا عن معارضة النّظم سلكوا في المعارضة طريقة الطّعن في المعاني فلبّسوا على النّاس بأنّ في القرآن من سخيف المعنى ما يتره عنه كلام الله ، ليصلوا بذلك إلى إبطال أن يكون القرآن من عند الله بإلقاء الشّكّ في نفوس المؤمنين و بذر الخصيب في تنفير المشركين و المنافقين .

و روى الواحدي في " أسباب النّزول "[3] عن ابن عبّاس أنّ الله تعالى لمّا أنزل قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾[4] و قوله :﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ

---

[1] - تفرّدات الطّاهر بن عاشور في تحريره عن الزّمخشري في كشّافه و ابن عطيّة في محرّره و البيضاوي في أنواره (دراسة مقارنة تقويميّة) : ناطور الضّيف ، إشراف : د . سر الختم سعيد محمّد ، و د . سميع الحقّ ابن المفتي عبد الدّيّان ،الجامعة الإسلاميّة العالميّة إسلام آباد ــ باكستان ، 1430 هــ / 2009 م ، ص : 165 .

[2] - البقرة : 26.

[3] - أسباب النّزول : الواحديّ : ص : 32 .

[4] - الحجّ : 73.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[1] قال المشركون أرأيتم أيّ شيء يصنع بهذا فأنزل الله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[2] و روي عن الحسن و قتادة أنّ الله لمّا ذكر الذّباب و العنكبوت في كتابه و ضرب بها المثل ضحك اليهود و قالوا ما يشبه أن يكون هذا كلام الله[3] فأنزل الله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

و الوجه أن نجمع بين الرّوايتين و نبيّن ما انطوتا عليه بأنّ المشركين كانوا يفزعون إلى يهود يثرب في التّشاور في شأن نبوءة محمّد صلّى الله عليه و سلّم ، و خاصّة بعد أن هاجر النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم إلى المدينة ، فيتلقّون منهم صورا من الكيد و التّشغيب ، فيكون قد تظاهر الفريقان على الطّعن في بلاغة ضرب المثل بالعنكبوت و الذّباب ، فلمّا أنزل الله تعالى تمثيل المنافقين بالذي استوقد نارا و كان معظمهم من اليهود ، هاجت أحناقهم و ضاق خناقهم فاختلقوا هذه المطاعن فقال كلّ فريق ما نسب إليه في إحدى الرّوايتين و نزلت الآية على الفريقين ووضح الصّبح لذي عينين ».[4]

وما ينبغي ملاحظته من كلام ابن عاشور ربطه بين الآيات و إن طال أمد نزولها ، و تأخرّ الرّدّ عن الشّبهات التي طعن بها اليهود و لفيفهم من المشركين و المنافقين على القرآن في ضربه تلك الأمثال و وصل ذلك كلّه بأسباب النّزول ، معتبرا أنّ نزول هذه الآية المدنيّة عقب التي قبلها لمناسبة غفل

---

[1] - العنكبوت : 41.

[2] - البقرة : 26.

[3] - تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ الدّمشقيّ ، ط 1 ، دار ابن حزم ــ بيروت ــ 1420 هــ / 2000 م ، ص : 104 و ما بعدها . و فيه أنّ هذا المثل ضربه الله للدّنيا ؛ إذ البعوضة تحيا ما جاعت،فإذا سمنت ماتت و كذلك مثل الذين ضرب لهم المثل في القرآن ، إذا امتلأوا من الدّنيا رِيّاً أخذهم الله تعالى عند ذلك ثمّ تلا : ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (الأنعام : 44) .

[4] - التّحرير و التّنوير : م1 ، ج 1 ، ق 1 ، ص : 358 .

عن بيانها المفسّرون فقال : « فإن قيل : لم يكن الرّدّ عقب نزول الآيات الواقع فيها التّمثيل الذي أنكروه فإنّ البدار بالرّدّ على من في مقاله شبهة رائجة يكون أقطع لشبهته من تأخيره زمنا .

قلنا : الوجه في تأخير نزولها أن يقع الرّدّ بعد الإتيان بأمثال معجبة اقتضاها مقام تشبيه الهيآت فذلك كما يمنع الكريم عدوّه من عطاء فيلمزه الممنوع بلمز البخل ، أو يتأخّر الكميّ عن ساحة القتال مكيدة فيظنّه ناس جبنا ، فيسرّها الأوّل في نفسه حتّى يأتيه القاصد فيعطيه عطاء جزلا و الثّاني حتّى يكرّ كرّة تكون القاضية على قرنه . فكذلك لمّا أتى القرآن بأعظم الأمثال و أروعها و هي قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾[1] و قوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] و قوله : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[3] أتى إثر ذلك بالرّدّ عليهم فهذا يبيّن لك مناسبة نزول هذه الآية عقب التي قبلها و قد غفل عن بيانه المفسّرون ».[4]

و لعلّ الرّجوع إلى من تأثّر بهم ابن عاشور ، و هم الزّمخشريّ و ابن عطيّة و البيضاوي يكشف لنا أنّه جاء في تعليل ارتباط هذه الآية بما قبلها بما لم يصل إليه أولئك النّفر من العلماء ، فقد ذكروا مناسبة هذه الآية لما قبلها في ضرب الأمثال . و لكنّهم سكتوا عن بيان مناسبة نزول هذه الآية عقب التي قبلها ، و لم يبيّنوا سرّ تأخّر الرّدّ على المشركين و اليهود الذين سخروا من ضرب المثل بالذّباب و العنكبوت ، و الحقّ أنّ ما ذكره ابن عاشور في منتهى الدّقّة و النّفاسة حيث استطاع أن يربط هذه الآية بما قبلها و يبيّن مناسبتها لآيتي الحجّ و العنكبوت، و يوضّح سرّ تأخّرها عنهما في النّزول.

---

[1] - البقرة :17.

[2] - البقرة :19.

[3] - البقرة :18.

[4] - التّحرير و التّنوير : م1 ، ج 1 ، ق 1 ، ص : 359.

و ممّا تفرّد به ابن عاشور في هذا الباب بيانه للمناسبة في قول الله عزّو جلّ : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] إذ بيّن مناسبتها لما قبلها من الآيات بقوله : «مناسبة هذه الآية للآيات قبلها أنّ اليهود اعتذروا عن إعراضهم عن الإيمان بالنّبيّ صلّى الله عليه و سلّم بقولهم : ﴿ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾[2] وأرادوا به أنّهم يكفرون بغيره ، وهم في عذرهم يدّعون أنّ شريعتهم لا تُنسخ ، و يقولون إنّ محمّدا وصف التّوراة بأنّها حقّ و أنّه جاء مصدّقا لها فكيف يكون شرعه مبطلا للتّوراة . و يموّهون على النّاس بما سمّوه البِداء و هو لزوم أن يكون الله تعالى غيْر عالم بما يحسن تشريعه و أنّه يبدو له الأمر ثمّ يُعرض عنه و يبدّل شريعة بشريعة .

و قد قدّمنا أنّ الله ردّ عليهم عذرهم و فضحهم بأنّهم ليسوا متمسّكين بشرعهم حتّى يتصلّبوا فيه و ذلك من قوله : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] و قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾[4] و غيرها من الآيات، و بأنّهم لا داعي لهم غير الحسد بقوله : ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾[5] إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[6] المنبّئ أنّ العلّة هي الحسد ، فلمّا بيّن الرّدّ عليهم في ذلك كلّه أراد نقض تلك السّفسطة أو الشّبهة التي راموا ترويجها على النّاس بمنع النّسخ . و المقصد الأصلي من هذا هو تعليم المسلمين أصلا من أصول الشّرائع و هو أصل النّسخ الذي يطرأ على شريعة بشريعة بعدها

[1] - البقرة :91.

[2] - البقرة : 26.

[3] - البقرة :91.

[4] - البقرة :94.

[5] - البقرة :105.

[6] - البقرة :105.

و يطرأ على بعض أحكام شريعة بأحكام تبطلها من تلك الشّريعة . و لكون هذا هو المقصد الأصلي عدل عن مخاطبة اليهود بطريق المساواة لأنّه إذا ظهرت حكمة تغيير بعض الأحكام تظهر حكمة تغيير بعض الشّرائع ».[1]

و عند تفسيره قول الله عزّ و جلّ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [2] بيّن مناسبة هذه الآية لما سبقها بقوله :« و المناسبة أنّ قوله : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ تحذير من الجرأة على مخالفة حكم الصّيام بالإفطار غير المأذون فيه و هو ضرب من الأكل الحرام فعُطف عليه أكل آخر محرّم و هو أكل المال بالباطل ، و المشاكلة زادت المناسبة قوّة ، و هذا من جملة عداد الأحكام المشروعة لإصلاح ما اختلّ من أحوالهم في الجاهليّة ، ولذلك عطف على نظائره و هو مع ذلك أصل تشريع عظيم للأموال في الإسلام ».[3]

و أمّا قوله تعالى عقب آية الكرسيّ :﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [4] ذكر أنّ لهذه الآية علاقة بما قبلها ، فقال :« و تعقيب آية الكرسيّ بهاته الآية بمناسبة أنّ ما اشتملت عليه الآية السّابقة من دلائل الوحدانيّة و عظمة الخالق و تنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأمم ، و من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدّين الواضح العقيدة ، المستقيم الشّريعة ، باختيارهم دون جبر و لا إكراه ،و من شأنه أن يجعل دوامهم على الشّرك بمحلّ السّؤال:

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م1 ، ج 1 ، ق 2 ، ص : 655-654.

[2] - البقرة :188.

[3] - التّحرير و التّنوير : م1 ، ج 2 ، ص : 187 .

[4] - البقرة :256.

أيتركون عليه أم يُكرهون على الإسلام ؟ فكانت الجملة استئنافا بيانيّا ».[1] و يظهر بهذا التّحليل أنّ ابن عاشور استطاع أن يوفّق بين الآيات ، و يوجد الوشائج التي تربط بعضها ببعض .

ثانيا: بناء السّور :

لاحظ ابن عاشور أنّ جلّ سور القرآن الكريم مبنيّة على أفكار محوريّة ،تعدّ المبدأ و المنتهى

و منها المنطلق و إليها الرّجوع بالاعتراضات ، و الاستطرادات و غيرها ، فسورة المائدة امتازت باتّساع نطاق المجادلة مع النّصارى ، و اختصار المجادلة مع اليهود ، عمّا في سورة النّساء . ممّا يدلّ على أنّ أمر اليهود أخذ في تراجع و وهن،و أنّ الاختلاط مع النّصارى أصبح أشدّ منه من ذي قبل.[2]

و خُصّ بالذّكر في سورة الشّعراء نوحٌ عليه السّلام في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[3] لأنّ هذا الموقف من مواقفه أنسب بغرض السّورة في تسلية الرّسول صلّى الله عليه و سلّم بذكر مماثل حاله مع قومه . و الأخ مستعمل في معنى القريب من القبيلة .[4]

و في موطن آخر من تفسيره لسورة الشّعراء ، يقول : « و معنى لتكون من المنذرين لتكون من الرّسل . و اختير من أفعاله النّذارة لأنّها أخصّ بغرض السّورة فإنّها افتتحت بذكر إعراضهم و بإنذارهم .[5]

و عن سورة الأنبياء يقول : «أقيمت على عماد إثبات الرّسالة لمحمّد صلّى الله عليه و سلّم و تصديق دعوته . فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم و وشك حلول وعد الله فيهم و إثبات رسالة

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م2 ، ج 3 ، ص :25 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 3، ج 6 1 ، ص : 71 .

[3] - الشّعراء : 105 - 106.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 158 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 190 .

محمّد صلّى الله عليه و سلّم ، و أنّه لم يكن بدعا من الرّسل ، و ذكروا إجمالا ، ثمّ ذكرت طائفة منهم على التّفصيل . و تخلّل ذلك بمواعظ و دلائل» .[1]

و أقيمت سورة الرّعد على أساس إثبات صدق الرّسول صلّى الله عليه و سلّم فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهيّة و البعث و إبطال أقوال المكذّبين فلذلك تكرّرت حكاية أقوالهم خمس مرّات موزّعة على السّورة بدءا و نهاية .[2]

ثالثا: أغراض السّور :

دأب الإمام ابن عاشور في تفسيره على وضع محاور للسّورة التي يريد تفصيل القول فيها ، و لا عجب في ذلك ، إذ كان الإمام حريصا على تعليل العلاقات بين آيات السّورة الواحدة ، و هذا لا يتأتّى بأن تدرس كلّ آية على حدة ،و كما قال عبد الله دراز :«... أنّ السّياسة الرّشيدة في دراسة النّسق القرآني تقتضي بأن يكون هذا النّحو من الدّرس هو الخطوة الأولى فيه ، فلا يتقدّم النّاظر إلى البحث في الصّلات الموضعيّة بين جزء و جزء منه – و هي تلك الصّلات المبثوثة في مثاني الآيات و مطالعها و مقاطعها – إلاّ بعد أن يحكم النّظر في السّورة كلّها بإحصاء أجزائها و ضبط مقاصدها على و جه يكون معوانا له على السّير في تلك التّفاصيل عن بيّنة ؛ فقديما قال الأئمّة : " إنّ مهما تعدّدت قضاياها فهي كلام واحد يتعلّق آخره بأوّله ، و أوّله بآخره ، و يترامى بجملته إلى غرض واحد ، كما تتعلّق الجمل بعضها ببعض في القضيّة الواحدة . و إنّه لا غنى لمتفهّم نظم السّورة عن استيفاء النّظر في جميعها ، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضيّة »[3]

فتارة نجد ابن عاشور يسمّي هذه الأغراض محتويات كما هو الشّأن في سورة البقرة عندما قال : « هذه السّورة مترامية أطرافها ، و أساليبها ذات أفنان . قد جمعت من وشائج أغراض السّور ما كان

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 17 ، ص : 164 – 165 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 6، ج 13 ، ص : 76 .

[3] - النّبأ العظيم : 108 – 109 .

مصداقا لتلقيبها فسطاط القرآن . فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان ، و على النّاظر أن يترقّب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها ، و لكن هذا لا يحجم بنا عن التّعرّض إلى لائحات منها ، و قد حيكت بنسج المناسبات و الاعتبارات البلاغيّة من لحمة محكمة في نظم الكلام ، و سدى متين من فصاحة الكلمات».[1] و الشّأن نفسه فيما يخصّ سورة إذ المائدة ، فابن عاشور لا يضع لها عنوانا بعينه ، و إنّما يشرع مباشرة في الحديث عن محتوياتها فيقول : « و لقد احتوت هذه السّورة على تشريعات كثيرة تنبّئ بأنّها أُنزلت لاستكمال شرائع الإسلام ، و لذلك افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود ، أي ما عاقدوا الله عليه حين دخولهم في الإسلام من التزام ما يؤمرون به فقد كان صلّى الله عليه و سلّم يأخذ البيعة على الصّلاة و الزّكاة و النّصح لكلّ مسلم ... ».[2] و أمّا سورة " التّوبة " فقد شرع في الحديث عن أغراضها مباشرة ، فقال : (فافتتحت السّورة بتحديد مدّة العهود التي بين النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم و بين المشركين و ما يتبع ذلك من حالة حرب و أمن و في خلال مدّة الحرب مدّة تمكينهم من تلقّي دعوة الدّين و سماع القرآن».[3]

وأمّا في سورة الرّعد فيستعمل ابن عاشور مصطلح المقاصد (أي مقاصد السّورة) فيقول : «أقيمت هذه السّورة على أساس إثبات صدق الرّسول صلى الله عليه و سلّم فيما أوحى إليه من إفراد الله بالإلهيّة و البعث و إبطال أقوال المكذّبين فلذلك تكرّرت حكاية أقوالهم خمس مرّات موزّعة على السّورة بدءا و نهاية».[4] و الأمر نفسه يتكرّر مع سورة الحجر حيث كان الحديث في بدايتها عن المقاصد .[5] و قد خالف ابن عاشور طريقته عند تصدّيه لتفسير سورة غافر ، إذ وجدناه يحدّد للسّورة أغراضا في بدايتها فيقول : « تضمّنت هذه السّورة أغراضا من أصول الدّعوة إلى

[1] - التّحرير و التّنوير : م1 ، ج 1 ، ق 1 ، ص : 203 .
[2] - التّحرير و التّنوير : م 3 ، ج 6 ، ص : 72 .
[3] - التّحرير و التّنوير : م 5 ، ج 10 ، ص : 99 .
[4] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 13 ، ص : 76 .
[5] - التّحرير و التّنوير : م 6 ، ج 14 ، ص : 7 .

الإيمان ، فابتدئت بما يقتضي تحدّي المعاندين في صدق القرآن كما اقتضاه الحرفان المقطّعان (حم) في فاتحتها...إلخ ».[1] فإذا أتمّ تفسيرها ختم ذلك بحديث عن أسلوبها فقال : « أسلوبها أسلوب المحاجّة

و الاستدلال على صدق القرآن و أنّه منزل من عند الله ، و إبطال ضلالة المكذّبين ، و ضرب مثلهم بالأمم المكذّبة ، و ترهيبهم من التّمادي في ضلالهم و ترغيبهم في التّبصّر ليهتدوا.

و افتتحت بالحرفين المقطّعين من حروف الهجاء لأنّ أوّل أغراضها أنّ القرآن من عند الله ففي حرفي الهجاء رمز إلى عجزهم عن معارضته بعد أن تحدّاهم ، لذلك فلم يفعلوا».[2] و يلاحظ أنّ ما ذكره في أغراض هذه السّورة هو عين ما ذكر في الأسلوب ، إلاّ أنّه بسط القول فيه ،و كان مقتضبا في الأوّل. و لاشكّ أنّ مؤدّى هذه المصطلحات عند ابن عاشور واحد ، فمحتويات السّورة ، أو مقاصدها أو أغراضها بمعنى واحد و المراد من ذلك تلخيص محتوى السّورة ، و إعطاء نظرة شاملة عنها تعين القارئ على فهم الفكرة العامّة التي قد أفاضت السّورة في ذكرها ، ثمّ إقامة العلائق بين بدايات السّور و نهاياتها ، و ما تخلّل ذلك من تنويع يخدم روح السّورة ، و يجعل محتواها منتظَما في سلك واحد سيمته الائتلاف و التّآخي . و في أغلب الأحيان و جدنا ابن عاشور يتحدّث عن هذه المقاصد أو الأغراض ، أو المحتويات على شكل رؤوس أقلام ، أو عناوين قصيرة تغطّي جلّ ما ورد في السّورة ، وهذا حال أغلب السّور القرآنيّة ،إلاّ أنّه في بعض الأحيان ينثر الكلام نثرا و يطيل كما في سورة البقرة و آل عمران و المائدة و غيرها .

رابعا: علاقة الأغراض بمضامين السّور:

لاشكّ أنّ مقاصد السّور أو أغراضها تنسجم انسجاما كلّيا مع مضامينها ، و هذا يساعد الدّارس لكتاب الله على فهم مراده ـــ جلّ و علا - ، و يدرك الفكرة التي بُنيت عليها كل سورة . و إذا أردنا أن نستجلي الأمر ، و نقف على حقيقته فإنّنا سنمثّل له بسورة الأنبياء .

[1] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 24 ، ص : 77 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 24 ، ص : 224 .

يرى ابن عاشور أنّ هذه السّورة ابتدئت بقوله تعالى : ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾[1] و هو : « افتتاح الكلام بهذه الجملة أسلوب بديع في الافتتاح لما فيه من غرابة الأسلوب و إدخال الرّوع على المنذَرين،فإنّ المراد بالنّاس مشركو مكّة ، و الاقتراب مبالغة في القرب،فصيغة الافتعال الموضوعة للمطاوعة مستعملة في تحقيق الفعل أي اشتدّ قرب وقوعه بهم».[2]

وعندما يعرض ابن عاشور لتفسير قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3] يسجّل أنّ السّورة : «أقيمت على عماد إثبات الرّسالة لمحمّد صلّى الله عليه و سلّم و تصديق دعوته . فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ، و وشك حلول وعد الله فيهم ، و إثبات رسالة محمّد صلّى الله عليه و سلّم ، و أنّه لم يكن بدعا من الرّسل ، و ذكروا إجمالا ، ثمّ ذكرت طائفة منهم على التّفصيل . و تخلّل ذلك بمواعظ و دلائل ».[4]

و لقد أشار ابن عاشور إلى هذا في حديثه عن الأغراض إذ جعل منها:« التّحذير من التّكذيب بكتاب الله تعالى و رسوله . و التّذكير بأن هذا الرّسول ما هو إلاّ كأمثاله من الرّسل ، و ما جاء إلاّ بمثل ما جاءت به الرّسل».[5]

أمّا إثباتها لرسالة محمّد ، و أنّه على سنن إخوانه من الرّسل و الأنبياء ، فقد توزّع على السّورة ففي مطلعها دلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ

---

[1] - الأنبياء : 1.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 17 ، ص :8.

[3] - الأنبياء : 107.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 17 ، ص :164 – 165 .

[5] - المصدر نفسه : ص : 7 .

﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾[1] ثمّ قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] أمّا الذين ذكروا إجمالا فهم: نوح ، و لوط و إسماعيل و إدريس و ذو الكفل ، و عيسى، و أمّا الذين ذكروا بشيء من التّفصيل فهم :موسى و هارون ، و داود و ابنه سليمان ، و أيّوب ، و يونس ، و زكريّاء ، و أمّا قصّة إبراهيم فقد جاءت مفصّلة في هذه السّورة تنظيرا بها بحال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم مع قومه . و في آخر السّورة يجيء قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3] فقد وصفت بعثته إجمالا ، ثمّ فُصّل القول في حقّه صلّى الله عليه و سلّم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[4]

و تذكير المكذّبين بمصائر الظّالمين من الأمم السّالفة إجمالا، و من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾[5] ، و كذلك تنبيههم إلى عظيم خلقه و بديع صنعه ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[6] و ما بعدها من الآيات .ثمّ ذكّرهم بالنعمة الكبرى عليهم و هي نعمة الحفظ ، و ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم

---

[1] - الأنبياء :2.

[2] - الأنبياء :7 .

[3] - الأنبياء : 107.

[4] - الأنبياء :108 .

[5] - الأنبياء : 11.

[6] - الأنبياء :30 .

بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾[1] ، و تُخلّل ذلك كلّه بمواعظ من شأنها ترقيق القلوب و سوقها إلى الله ، عسى أن تؤمن بالله و برسوله و يعمل أهلها صالحا ، و من هذا القبيل قوله تعالى : ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[2]، و قوله كذلك : ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[3] ، إذ منهج القرآن أن يتعهّد النّاس بالموعظة الحسنة ، و أن يدمجها و غيرها من الحكم في ضمن حديثه عن التّشريع ، أو عند دعوة النّاس إلى التزام صراط الله المستقيم .

خامسا :براعة الاستهلال:

لاحظ الدّارسون أنّ صدور سور القرآن الكريم مؤثّرة في لفظها ، جامعة في معناها ، مشيرة في مغزاها ، تحدّثك عن مضمون السّورة قبل أن تطالع فحواها .

و لئن كان البلاغيّون يمدحون الشّاعر أو الأديب عموما لأنّه أحسن اختيار مطلع قصيدته ، فإنّ القرآن في مطالعه قد فاق كلّ أديب ، و بزّ كلّ أريب .

و لقد عرّف الطّيّبي براعة الاستهلال بقوله : « ينبغي للمتكلّم أن يتأنّق فيما يورده من كلامه في أربعة مواضع ، حتى يكون جيّد السّبك ، عذب اللّفظ ، بديع المعنى .

أوّلها المطلع : و في حسنه شرطان:

[1] - الأنبياء :42 .

[2] - الأنبياء :46 .

[3] - الأنبياء :97 .

أحدهما : أن يضمّن معنى ما سيق الكلام لأجله ، ليكون الابتداء دالاّ على الانتهاء ،و يسمّى هذا براعة الاستهلال ،و إذا تأمّلت فواتح السّور كالتّحميدات و النّداء سيّما حروف التّهجّي ، وجدتها من البلاغة بمكان ، فإنّها توقظ السّامعين للإصغاء إلى ما يرد بعدها ،لأنّهم إذا سمعوها من مثله صلوات الله عليه علموا أنّها و المتلوّ بعدها من جهة الوحي ، أو أن يتنبّهوا على أنّ المتلوّ عليهم و قد عجزوا عنه من جنس ما ينظمون منه كلامهم».[1]

فحتى يقع الكلام موقعه من القبول ، لا بدّ فيه من إشارة تدلّ على المضمون ، و تبيّن الغرض الذي من أجله كان النّزوع إلى ذلك المنحى من الكلام.

و قد أشار السّيوطي إلى أنّ من "الابتداء الحسن" نوعا يسمّى "براعة الاستهلال" ،و النّاظم البارع مَن إذا وافق بين حسن الابتداء و براعة الاستهلال، و هذا ما وقّعه ابن أبي الإصبع في تفريع حسن الابتداء ، فقال : « و اعلم أنّ المتأخّرين فرّعوا على حسن الابتداء براعة الاستهلال. و هو أن يكون أوّل الكلام دالاّ على ما يناسب حال المتكلّم متضمّنا لما سبق الكلام لأجله من غير تصريح ، بل بألطف إشارة يدركها الذّوق السّليم ».[2]

و يذكر ابن عاشور سرّ ابتداء سورة النّساء بهذه الآية :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[3] أنّ هذا الخطاب موجّه لجميع النّاس،مؤمنهم و كافرهم، برّهم و فاجرهم ،فقد نودي جميع النّاس ، و دُعوا إلى التّذكّر بأنّ أصلهم واحد ، إذ قال : « اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة " دعوة تظهر فيها المناسبة بين وحدة النّوع و وحدة الاعتقاد ، فالمقصود من التّقوى في "اتّقوا ربّكم"اتّقاء غضبه، و مراعاة حقوقه،و ذلك حقّ توحيده و الاعتراف له بصفات

[1] - التّبيان في البيان : الإمام الطّيّبيّ ، تحقيق و دراسة : عبد السّتّار حسين مبروك زموط ، رسالة دكتوراه ، إشراف : د. كامل إمام الخولي ، دط ، 1397 هـ / 1977 م ، ص : 268 .

[2] - تحرير التّحبير في صناعة الشّعر و النّثر و بيان إعجاز القرآن : ابن أبي الأصبع المصريّ ، تقديم و تحقيق : د . حنفي محمّد شرف ، دط ، دت ، ص : 168 .

[3] - النّساء : 1.

الكمال، و تتريهه عن الشّركاء في الوجود و الأفعال و الصّفات ». ثمّ يقول : « و في هذه الصّلة براعة استهلال مناسبة لما اشتملت عليه السّورة من الأغراض الأصليّة، فكانت بمترلة الدّيباجة ».[1]

و قوله تعالى من سورة المائدة:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾[2] : « تصدير للسّورة بالأمر بالإيفاء بالعقود مؤذن بأن سترد بعده أحكام و عقود كانت من الله على المؤمنين إجمالا

و تفصيلا ، ذكّرهم بها لأنّ عليهم الإيفاء بما عاقدوا الله عليه . و هذا كما تفتتح الظّهائر السّلطانية بعبارة : هذا ظهير كريم يُتقبّل بالطّاعة و الامتثال . و ذلك براعة استهلال».[3]

و في سورة الأعراف يبيّن ابن عاشور أنّ ابتداء السّورة بقوله تعالى :﴿ الٓمٓصٓ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[4] من بديع الإعجاز فيقول : « ...أي هو كتاب أنزل إليك فكن منشرح الصّدر به، فإنّه أنزل إليك لتنذر به الكافرين و تذكّر المؤمنين، و المقصود تسكين نفس النبيّ و، و إغاظة الكافرين ، و تأنيس المؤمنين ، أي : هو كتاب أنزل لفائدة ، و قد حصلت الفائدة فلا يكن في صدرك حرج إن كذّبوا و بهذه الاعتبارات و بعدم منافاة بعضها لبعض يُحمل الكلام على إرادة جميعها و ذلك من مطالع السّور العجيبة البيان ».[5]

و في قوله تعالى من سورة التّوبة : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[6] يقول ابن عاشور :« افتتحت السّورة كما تُفتتح العهود و صكوك العقود بأدلّ كلمة على الغرض

[1] - التّحرير و التّنوير : م 2، ج 4 ، ص :214 .

[2] - المائدة : 1.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 3، ج 6 ، ص :74 .

[4] - الأعراف : 1- 2.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 4، ج 8 ، ق 2 ، ص :12 .

[6] - التّوبة: 1.

الذي يراد منها كما في قولهم : هذا ما عهد به فلان، و هذا ما اصطلح عليه فلان و فلان ،و قول الموثّقين :« باع أو وكّل أو تزوّج ، و ذلك هو مقتضى الحال في إنشاء الرّسائل و المواثيق و نحوها».[1]

وقوله تعالى سورة الأنبياء: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾[2] : « افتتاح الكلام بهذه الجملة أسلوب بديع في الافتتاح لما فيه من غرابة الأسلوب و إدخال الرّوع على المنذرين ، فإنّ المراد بالنّاس مشركو مكّة ، و الاقتراب مبالغة في القرب ،فصيغة الافتعال الموضوعة للمطاوعة مستعملة في تحقّق الفعل أي اشتدّ قرب وقوعه بهم ».[3]

وقوله تعالى:﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[4] :«افتتاح بديع لأنّه من جوامع الكلم فإنّ الفلاح غاية كلّ ساع إلى عمله ، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلّق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنّه قيل: قد أفلح المؤمنون في كلّ ما رغبوا فيه.

و لّما كانت همّة المؤمنين منصرفة إلى تمكّن الإيمان و العمل الصّالح من نفوسهم كان ذلك إعلاما بأنّهم نجحوا فيما تعلّقت به هممهم من خير الآخرة ، و للحقّ من خير الدّنيا،و يتضمّن بشارة برضى الله عنهم ، و وعدا بأنّ الله مكمّلٌ لهم ما يتطلّبونه من خير».[5]

و في سورة لقمان يبين ابن عاشور سبب ابتداء السورة بقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[6] ثمّ يقول: « و في وصف "الكتاب" بهذا الوصف براعة استهلال للغرض من ذكر

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 10 ، ص :102 .

[2] -الأنبياء: 1.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 17 ، ص : 8 .

[4] - المؤمنون: 1.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص : 8 .

[6] - لقمان: 1- 2.

حكمة لقمان».و كان قد بيّن قبل هذا أنّ :« السّورة إذا كانت نزلت بسبب سؤال قريش عن لقمان وابنه فهذه الآيات إلى قوله :" و لقد آتينا لقمان الحكمة ".بمترلة مقدّمة لبيان أنّ مرمى القرآن من قصّ القصص ما فيها من علم و حكمة و هدى ، و أنّها مسوقة للمؤمنين لا للذين سألوا عنها فكان سؤالهم نفعا للمؤمنين ».[1]

و قوله تعالى:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2] « ...في هذا التّحميد براعة استهلال الغرض من السّورة , و تقديم المجرور لإفادة الحصر ، أي لا حمد في الآخرة إلاّ له،فلا تتوجّه النّفوس إلى حمد غيره لأنّ النّاس يومئذ في عالم الحقّ فلا تلتبس عليهم الصّور» . و هذا بعد أن بيّن أنّ :« اقتضاء صلة الموصول أنّ ما في السّماوات

و الأرض مِلك لله تعالى يجعل هذه الصّلة صالحة لتكون علّة لإنشاء الثّناء عليه لأنّ مِلكه لما في السّماوات و ما في الأرض مِلك حقيقيّ لأنّ سببه إيجاد تلك المملوكات و ذلك الإيجاد عمل جميل يستحقّ صاحبه الحمد ، و أيضا هو يتضمّن نعما جمّة .و هي أيضا تقتضي حمد المُنعم ،لأنّ الحمد يكون للفضائل و للفواضل ؛فما في السّماوات فإنّ منه مهابط أنوار حقيقيّة و معنويّة ، فيها هدى حسيّ و نفسانيّ ، و إليه معارج للنّفوس في مراتب الكمالات التي بها استقامة السّير، و إزالة الغِيَر ، و نزول الغيوث بالمطر . و ما في الأرض مسارح أنظار المتفكّرين ، و منابت أرزاق المرتزقين ، و ميادين نفوس السّائرين ».[3]

و في قوله تعالى من سورة الجمعة :﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[4] يقول ابن عاشور : « افتتاح السّورة بالإخبار عن تسبيح أهل السّماوات و الأرض

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 21 ، ص : 140 .

[2] - الجمعة : 1.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 23 ، ص : 135 – 136 .

[4] - سبأ : 1.

الأرض لله تعالى براعة استهلال لأنّ الغرض الأوّل من السّورة التّحريض على شهود الجمعة و النّهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها و زجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصا على الابتياع من عِيرٍ وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة ».[1]

و في سورة " القيامة " يقول ابن عاشور: «افتتاح السّورة بالقسم مؤذن بأنّ ما سيذكر بعده أمر مهم لتستشرف له نفس السّامع كما تقدّم في عدّة مواضع من أقسام القرآن .

و كون القسم بيوم القيامة براعة استهلال لأنّ غرض السّورة وصف بيوم القيامة .

وفيه أيضا كون المقسَم به هو المقسَم على أحواله تنبيها على زيادة مكانته عند المقسم ».[2] كقول أبي تمّام :

و ثَـــنايَاكِ إنّـــها إغــريضُ وَ لآلٍ تُومٌ و برقٌ وَميضُ [3]

و سورة "الملك":«افتتحت بما يدلّ على منتهى كمال الله تعالى افتتاحا يؤذن بأنّ ما حوته يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النّقص الذي افتراه المشركون لمّا نسبوا إليه شركاء في الرّبوبيّة و التّصرّف معه و التّعطيل لبعض مراده .

ففي الافتتاح بقوله تعالى :﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [4] براعة الاستهلال كما تقدّم في طالع سورة الفرقان».[5]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 11، ج 28 ، ص : 206 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 29 ، ص : 337 .

[3] - شرح ديوان أبي تمّام : الخطيب التّبريزيّ ، قدّم له و وضع هوامشه و فهارسه : راجي الأسمر ، ط 2 ، دار الكتاب العربيّ ـــ بيروت ، 1414 هـــ / 1994 م ،ج 1 / ص : 381 .

[4] - الملك: 1.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 29 ، ص :9 .

وقوله تعالى من سورة النّبأ:﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [1] :«افتتاح الكلام فيه بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبإ عظيم افتتاح تشويق ثمّ تهويل لما سيذكره بعد ، فهو من الفواتح البديعة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف و من تشويق بطريقة الإجمال ثمّ التّفصيل المحصّلة لتمكّن الخبر الآتي بعده في نفس السّامع أكمل تمكّن .

و إذا كان هذا الافتتاح مؤذنا بعظيم أمر ، كان مؤذنا بالتّصدّي لقول فصلٍ فيه، و لمّا كان في ذلك إشعار بأهمّ ما فيه خوضُهم يومئذ يُجعل افتتاح الكلام به من براعة الاستهلال ».[2]

سادسا : ردّ الأعجاز على الصّدور :

أوّل من تحدّث عن هذا الفنّ البلاغيّ ابن المعتزّ عندما قال: «...و هو ردّ أعجاز الكلام علّة ما تقدّمها و قسّمه ثلاثة أقسام ».[3] و عرّفه أبو هلال العسكريّ بقوله : « أوّل ما ينبغي أن تعلمه ... أنّك إذا قدّمت ألفاظا تقتضي جوابا فالمرضيّ أن تأتي بتلك الألفاظ في الجواب ، و لا تنقل عنها إلى غيرها ما هو في معناها ، كقوله تعالى : و كتب بعض الكتّاب في خلاف ذلك : من اقترف ذنبا عامدا أو اكتسب جرما قاصدا ، لزمه ما جناه و حاق به ما توخّاه ...، و الأحسن أن يقول : لزمه ما اقترف و حاق به ما اكتسب . هذا يدلّك على أنّ لردّ الأعجاز على الصّدور موقعا جليلا من البلاغة ، و له في المنظوم محلاّ خطيرا ».[4]

---

[1] - النّبأ: 1- 2 - 3.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 30 ، ص : 6 .

[3] - كتاب البديع : عبد الله بن المعتزّ ، نشر و تعليق : إغناطوس كراتشوفسكي ، دار المسيرة ، ط2 ، 1979 ، ص : 47 .

[4] - كتاب الصّناعتين : 429 .

و يرى ابن عاشور أنّ اختتام سورة الشّورى بقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[1] مع افتتاحها بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] فيه محسّن ردّ العجز على الصّدر .[3]

و قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[4] استئناف ابتدائيّ و هو انتقال إلى التّنويه بعلم الله تعالى مُفيضِ العلم على رسوله صلّى الله عليه و سلّم ، و لّما ابتدئت هذه السّورة بالتّنويه بشأن القرآن ثمّ أفيض فيها من أفانين الإرشاد و الإنذار و الوعد و الوعيد ، و ذكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة و موعظة ، و ما هو خفيّ من أحوال الأمم ، حوّل الكلام إلى الإيذان بأنّ كلّ ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى .

و لّما سأل المشركون عن أشياء يظنّونها مفحمة للرّسول و أن لا قِبل له بعلمها ، علّمه الله إيّاها ، و أخبر عنها أصدق خبر ، و بيّنها بأقصى ما تقبله أفهامُهم ، و بما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسّؤال عنها ، و كان آخرها خبر ذي القرنين ، أتبع ذلك بما يعلم منه سعة علم الله تعالى و سعة ما يجري على وفق علمه من الوحي إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله .

و في هذا ردّ عجز السّورة على صدرها .[5]

و قوله تعالى من سورة مريم :﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ

---

[1] - الشّورى : 52.

[2] - الشّورى :3.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 152 .

[4] - الكهف : 109.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 16 ، ص :51 .

بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ [1] إيذان بانتهاء السّورة ، فإنّ من شأن الإتيان بكلام جامع بعد أفنان الحديث أن يؤذن بأنّ المتكلّم سيطوي بساطه.و ذلك شأن التّذييلات و الخواتم ، و هي ما يؤذن بانتهاء الكلام. فلمّا احتوت السّورة على عبر و قصص و بشارات و نُذُر، جاء هنا في التّنويه بالقرآن و بيان بعض ما في تتزيله من الحكم .[2]

و قوله تعالى : ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [3] من ردّ العجز على الصّدر فهي مرتبطة بجملة : ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ ﴾ [4] و هي تتترّل منها مترلة البيان لما تضمّنه معنى الإشارة في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ﴾ من التّعجيب ، و ما تضمّنه معنى ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ ﴾ [5] من الاستدلال على أنّه وحي من الله مع دلالة الأمّيّة .[6]

و جملة : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [7] من آخر سورة المعارج فذلكة ، لما تضمّنته السّورة في أوّل أغراضها من قوله: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [8] إلى قوله :﴿ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ﴾ [9] الآيات ، و هي هي مفيدة مع ذلك تأكيد جملة . و فيها محسّن ردّ العجز على الصّدر .[10]

ـــ براعة المقطع:

---

[1] - مريم : 97.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 7، ج 16 ، ص : 175 .

[3] - يوسف : 111.

[4] - يوسف :102.

[5] - يوسف :102.

[6] - التّحرير و التّنوير : م 6، ج 13، ص : 71 .

[7] - المعارج : 44.

[8] - المعارج :1.

[9] - المعارج : 4.

[10] - التّحرير و التّنوير : م 12، ج 29، ص : 184 .

و ممّا يتّصل بهذا الفنّ ما يسمّى لدى علماء البلاغة براعة المقطع ، و هو جودة القطع و براعة القطع و الانتهاء[1] ، كما في آخر سورة يونس عليه السّلام ، يقول ابن عاشور مفسّرا قوله تعالى : ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[2] :

«و الأخيريّة من الحاكمين أخيريّة وفاء الإنصاف في إعطاء الحقوق . و هي هنا كناية عن معاقبة الظّالم ، لأنّ الأمر بالصّبر مشعر بأنّ المأمور به معتدى عليه ، ففي الإخبار بأنّ الله خير الحاكمين إيماء بأنّ الله ناصر رسوله صلّى الله عليه و سلّم و المؤمنين على الذين كذبوا و عاندوا . و هذا كلام جامع فيه براعة مقطع .[3]

و في خاتمة سورة الدّخان ، و هي قوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ [4] ردّ العجز على الصّدر إذ كان صدر السّورة فيه ذكر إنزال الكتاب المبين ، و أنّه رحمة من الله بواسطة رسالة محمّد صلّى الله عليه و سلّم ، و كان في صدرها إنذار بارتقاب يوم تأتي السّماء بدخان مبين ، و ذكر البطشة الكبرى .

فكانت خاتمة هذه السّورة خاتمة عزيزة المنال ، اشتملت على حسن براعة المقطع ، و بديع الإيجاز .[5]

[5] .

سابعا : المقارنة بين السّور :

إنّ من أشهر من ألّف في تأويل الآيات المتشابهات لفظا ، الخطيب الإسكافي صاحب "درّة التّزيل" ، و الإمام الكرماني صاحب أسرار التّكرار في القرآن الكريم ، و ابن الزّبير الغرناطيّ

---

[1] - المعجم المفصّل في علوم البلاغة : إنعام فوّال : 267 .

[2] - يونس : 109.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 5، ج 11، ص : 310 .

[4] - الدّخان : 58 - 59.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 25، ص : 322 .

صاحب "ملاك التّأويل" ، و قد حاول هؤلاء تتبّع الآيات المتشابهة ألفاظها ، و تفسيرها مستصحبين سياقاتها المختلفة التي وردت بشأنها .

ولاحظ ابن عاشور بدوره هذا الأمر فراح يُعمل فكره و ثقافته الكبيرة و المتنوّعة في توجيه ما تشابهت ألفظه من آي الذّكر الحكيم ، و من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [1] أعقب الثّناء على النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم بتسليته على تكذيب قومه ، و تأنيسه بأنّ تلك سنّة الرّسل مع أممهم .

و إذ قد كان سياق الحديث في شأن الأمم جعلت التّسلية في هذه الآية بحال الأمم مع رسلهم عكس ما في آية آل عمران : ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [2] لأنّ سياق آية آل عمران كان في ردّ محاولة أهل الكتاب إفحام الرّسول لأنّ قبلها : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾ [3] و قد خولف أيضا في هذه الآية أسلوب آية آل عمران إذ قرن كلّ من (الزّبر و الكتاب المنير) هنا بالباء ، و جُرّدا منها في آية آل عمران و ذلك لأنّ آية آل عمران جرت في سياق زعم اليهود أن لا تقبل معجزة قربان تأكله النّار ، فقيل في التّفرّد ببهتاهم : قد كذّبت الرّسل الذين جاء الواحد منهم بأصناف المعجزات مثل عيسى عليه السّلام و من معجزاتهم قرابين تأكلها النّار فكذّبتموهم ، فترك إعادة الباء هنالك لإشارة إلى أنّ الرّسل جاءوا بالأنواع الثّلاثة.[4]

---

[1] - فاطر : 25.

[2] - آل عمران : 184 .

[3] - آل عمران : 183.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 298 .

و عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[1] لاحظ أنّ سورة الأحزان قد وقع فيها نظير هذا و هو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[2]فزيد في صفات النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم هنالك﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾و لم يذكر مثله في الآية هذه التي في سورة الفتح . و وجه ذلك أنّ هذه الآية التي في سورة الفتح وردت في سياق إبطال شكّ الذين شكّوا في أمر الصّلح ، و الذين كذّبوا بوعد الفتح و النّصر ، و الثّناء على الذين اطمأنّوا لذلك فاقتصر من أوصاف النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم على الوصف الأصليّ و هو أنّه شاهد على الفريقين و كونه مبشّرا لأحد الفرقين و نذيرا للآخر ، بخلاف آية الأحزاب ، فإنّها وردت في سياق تتريه النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم عن مطاعن المنافقين و الكافرين في تزوّجه زينب بنت جحش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة بزعمهم أنّها زوجة ابنه ، فناسب أن يزاد في صفاته ما فيه إشارة إلى التّمحيص بين ما هو من صفات الكمال ، و ما هو من الأوهام النّاشئة عن مزاعم كاذبة مثل التّبنّي ، فزيد كونه ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ أي لا يتّبع مزاعم النّاس و رغباهم ، و أنّه سراج منير يهتدي به من همّته في الاهتداء دون التّقعير.[3]

و قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[4] قد خولف بين ختامه و ختام الآية من سورة إبراهيم ، و هي قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا

---

[1] - الفتح : 8.

[2] - الأحزاب : 44 – 45 – 46 .

[3] - - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26، ص: 157 .

[4] - النّحل : 18.

تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾[1]، لأنّ هذه وقعت بعد في سياق وعيد و تهديد عقب قوله تعالى :﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا ﴾ [2] ، ثمّ قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [3] ثمّ ذكر إنعامه على عباده في قوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ ﴾[4] إلى قوله : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ ﴾ [5] فناسب ما ذكره تعالى من توالي إنعامه و درور إحسانه و مقابلة ذلك من العبيد بالتّبديل و جعل الأنداد ، وصف الإنسان بأنّه ظلوم كفّار .[6] فكان المناسب المناسب لها تسجيل ظلمهم و كفرهم بنعمة الله .

و أمّا آية النّحل فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النّعم المعدودة عليهم منتفِعا بها كلاهما.

فلم يتقدّمها غير ما نبّه سبحانه عباده المؤمنين من متوالي آلائه و إحسانه ،و ما ابتدأهم به من نعمه من لدن قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ [7] ثمّ توالي ذكر النّعم التي بلغت في هذه السّورة بضعا و عشرين من أمّهات النّعم .[8]

---

[1] - إبراهيم : 34.

[2] - إبراهيم :28.

[3] - إبراهيم :30.

[4] - إبراهيم :32.

[5] - إبراهيم :34.

[6] - ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد و التّعطيل في توجيه المتشابه اللّفظ من آي التّتزيل : أحمد بن إبراهيم بن الزّبير الثّقفي العاصميّ الغرناطيّ ؛ تحقيق: سعيد الفلاّح ،ط2 ، دار الغرب الإسلاميّ ،1428 هـــ / 2007 م ، ص : 719.

[7] - النّحل : 4.

[8] - ملاك التّأويل : 720 .

ثمّ كان من اللّطائف أن قوبل الوصفان اللّذان في آية إبراهيم﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ بوصفين هنا ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾إشارة إلى أنّ تلك النّعم كانت سببا لظلم الإنسان و كفره ، و هي سبب لغفران الله و رحمته . و الأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان .[1]

ثامنا : تناسب السّور :

يرى ابن عاشور أنّ سرّ تحدّي الله عباده بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن ، راجع إلى أنّ السّورة القرآنيّة بناءِ متكامل ، وأنّها كثيرا ما تبدأ بمقدّمة مؤثّرة ، تأخذ بمجامع القلوب من حيث حسن ابتدائها ، ثمّ تنتهي بخاتمة كأنّها عود على بدء ، من أجل ترسيخ بعض القيم ، و التّركيز على بعض المبادئ ، من باب ردّ العجز على الصّدر ، و فيما بين المقدّمة و الخاتمة أغراض نُسجت نسجا محكما تتناغم أجزاؤه و تتلاءم أطرفه ، خدمة لفكرة قد رمت إليها هذه السّورة . يقول ابن عاشور : « و إنّما وقع التّحدّي بسورة ، أي و إن كانت قصيرة دون أن يتحدّاهم بعدد من الآيات ، لأنّ من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام ، و صوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام و خواتمه ، و انتقال الأغراض ، و الرّجوع إلى الغرض ، و فنون الفصل، و الإيجاز و الإطناب، و الاستطراد و الاعتراض ».[2]

و لا أكون مبالغا إذا زعمت أنّ العلائق القائمة بين آيات القرآن الكريم مظهر من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز ، على حدّ قول عبد الله دراز :« أجل إنّك لتقرأ السّورة الطّويلة المنجّمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حشيت حشوا،و أوزاعا من المباني جمعت عفوا؛فإذا هي - لو تدبّرت - بنيةٌ متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلّيّة على أسس و أصول ، و أقيم على كلّ أصل منها شعب و فصول ، و امتدّ من كلّ شعبة منها فروع تقصر أو تطول : فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات و أفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرّة واحدة : لا تحسّ بشيء من تناكر الأوضاع

[1] - التّحرير و التّنوير : م 6، ج 14 ، ص : 124 .
[2] - التّحرير و التّنوير : م 1، ج 1 ، ق 1 ، ص : 104 .

في التّقسيم و التّنسيق ، و لا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق ؛ بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التّضامّ و الالتحام . كلّ ذلك بغير تكلّف و لا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها ، و إنّما هو حسن السّياقة و لطف التّمهيد في مطلع كلّ غرض و مقطعه و أثنائه ، يريك المنفصل متّصلا ، و المختلف مؤتلفا ».[1]

و يؤيّد ابن عاشور هذا الرّأي و يراه أنّه من أبرز وجوه الإعجاز إذ يقول : « و إنّما كان التّحدّي بسورة و لم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن ، لأنّ من جملة وجوه الإعجاز أمورا لا تظهر خصائصها إلاّ بالنّظر إلى كلام مستوفى في غرض من الأغراض ، و إنّما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام ، و خواتمه بحسب الغرض ، و استيفاء الغرض المسوق له الكلام ، و صحّة التّقسيم ، و نكت الإجمال و التّفصيل ، و أحكام الانتقال من فنّ إلى آخر من فنون الغرض ، و مناسبات الاستطراد و الاعتراض و الخروج و الرّجوع ، و فصل الجمل و وصلها ، و الإيجاز و الإطناب ، و نحو ذلك ممّا يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام ، و تلك لا تظهر مطابقتها جليّة إلاّ إذا تمّ الكلام و استوفى الغرض حقّه ، فلا جرم كان لنظم القرآن و حسن سبكه إعجازٌ يفوت قدرة البشر، هو غير الإعجاز الذي لجمله و تراكيبه و فصاحة ألفاظه. فكانت السّورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب و قصيدة الشّاعر لا يحكم لها بالتّفوّق إلاّ باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها . قال الطّيبيّ في حاشية الكشّاف عند قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [2] في سورة الأنفال ، و لسرّ النّظم القرآنيّ كان التّحدّي بالسّورة و إن كانت قصيرة دون الآيات و إن كانت ذوات عدد ».[3]

و يندبنا دراز إلى أيّ سورة من سور القرآن الكريم ، أن نعمد إليها فنجدها تتناول أكثر من معنى واحد ، و لعلّ جلّ القرآن على هذه الشّاكلة، و لو أنّنا تنقّلنا بفكرنا مع سورة واحدة مرحلة

---

[1] - النّبأ العظيم : 155 .

[2] - الأنفال : 17 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م1 ، ج 1 ، ق 1 ، ص :337 .

مرحلة ، و تأمّلنا كيف بدئت هذه السّورة ؟ و كيف ختمت ؟ و كيف تقابلت أوضاعها و تعادلت ؟ و كيف تلاقت أركانها و تعانقت ؟ و كيف ازدوجت مقدّماتها بنتائجها و وطّأت أولاها لأخراها ؟ فسوف لن نجد في هذا النّظام ما يدلّنا على أنّها نزلت نجوما مفرقة ، بل سيتبيّن لنا أنّ السّبع الطّوال التي نزلت في أزمنة متراخية ،كأنّها نزلت جملة واحدة ، في زمن واحد .كلّ هذا يؤكّد أنّ سور القرآن قد تناسبت آياتها حتّى إنّها لتبدو كجسم الإنسان الذي تلاحمت أعضاؤه فبين كلّ قطعة و جارتها رباط موضعي من أنفسها ، كما يلتقي العظمان عند المفصل و من فوقهما تمتدّ شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب ، كما يشتبك العضوان بالشّرايين و العروق و الأعصاب ، و من وراء ذلك كلّه يسري في جملة السّورة اتّجاه معيّن ، وتؤدّي بمجموعها غرضا خاصّا ، كما يأخذ الجسم قواما واحدا ، و يتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضويّة .[1]

ومن الذين سلكوا مسلك دراز و رأوا رأيه مصطفى مسلم بقوله : «و لاشكّ أنّ هذا العلم دقيق المسالك خفيّ المدارك ، و هو من العلوم التي تحتاج إلى بذل الجهد في التّتبّع و الاستقصاء اللّغوي لدلالات الألفاظ القرآنيّة ، و الإحاطة بأسباب النّزول ، و التّوسّع في أفانين علم البلاغة و الأساليب البيانيّة ، و فوق كلّ ذلك ينبغي أن يكون الباحث ذا حسّ مرهف و نفس شفّافة و ذكاء لّماح ليدرك سرّ هذا التّرتيب للآيات التي وضعت بجوار بعضها ، و قد أكّدت الأخبار الصّحيحة عن المعصوم أنّ الفاصل الزّمني يتجاوز السّنوات العديدة أحيانا . »[2]

و مهما يكن فإنّ ابن عاشور قد أسهم بقسط وافر في بيان العلائق الموجودة بين آيات القرآن الكريم ، و هو يوقن أنّ هذا من التّدبّر الذي أمِر به آحاد المسلمين فضلا عن علمائهم و خواصّهم عملا بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا

[1] - النّبأ العظيم : ص : 155 .

[2] - مباحث في التّفسير الموضوعي : د. مصطفى مسلم ، ط 3، دار القلم ـــ دمشق ـــ ،1421 هــ / 2000 ، ص : 65 – 66 .

﴿كَثِيرًا﴾[1] فلا اختلاف في كتاب الله ، و لا تناقض و هذا هو الذي اضطلع العلماء ببيانه ، و كشف اللّثام عنه ، و لقد امتدح ابن عاشور صنيع الفخر الرّازي و البقاعي في هذا الشّأن ، و إن كانا قد جانبهما الصّواب في كثير ممّا ذهبا إليه .

تاسعا : تناسب سورة الفرقان :

1 ـــ تسمية السّورة :

سميت سورة الفرقان بهذا الاسم لورود كلمة " الفرقان " فيها ثلاث مرّات ، في أوّلها و وسطها و آخرها ، و قد وردت هذه التّسمية في حديث رسول الله، فعن عمر بن الخطّاب أنّه قال : « سمعت حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقْرئنيها رسولُ الله فكِدْت أُساورُه في الصَّلاة فتَصبَّرْتُ حتى سَلَّمَ فلبَّبْتُهُ بردائه فانطلقت به أقوده إلى رسول الله فقلت:إنّي سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقْرئْنِيها ... ».[2]

و أسلوب السّورة و أغراضها يدلاّن على أنّها مكيّة ، و هو رأي الجمهور ، و إن زعموا أنّ ابن عباس استثنى منها ثلاث آيات نزلت بالمدينة و هي قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله :﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3] . و الصّحيح أنّ هذه الآيات الثلاث مكيّة كما في صحيح البخاري في تفسير سورة الفرقان.[4]

2 ـــ أغرض السّورة :

---

[1] - النّساء : 82.

[2] - صحيح مسلم : باب بيان أنّ القرآن نزل على سبعة أحرف ، و بيان معناه ، ص : 366 .

[3] - الفرقان : 68.

[4] - صحيح البخاري : كتاب التّفسير ، باب : تفسير قوله : " و الذين لا يدعون مع الله إلها آخر ... ، ص : 1194 .

أمّا عن أغراض هذه السّورة فإنّها قد اشتملت عل الابتداء بتحميد الله تعالى و إنشاء الثناء عليه و وصفه بصفات الإلهيّة و الوحدانية فيها . وأدمج في ذلك التّنويه بالقرآن ، و جلال منزلته ، و ما فيه من الهدى ، و تعريض بالامتنان على النّاس بهديه و إرشاده إلى اتّقاء المهالك ، و التّنويه بشأن النبي .

قال الطّيبي : مدار هذه السّورة على كونه مبعوثا إلى النّاس كافة ينذرهم ما بين أيديهم و ما خلفهم و لهذا جعل براعة استهلالها:﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.[1] و ذكر بدائع من صنعه تعالى جميعا بين الاستدلال و التّذكير ، و أعقب ذلك بتثبيت الرّسول على دعوته و مقاومته الكافرين ، وضرب الأمثال للحليْن ببعثة الرّسل السّابقين و ما لقوا من أقوامهم مثل قوم موسى و قوم نوح و عاد و ثمود و أصحاب الرّسّ و قوم لوط ؛ ثم الإرشاد إلى التّوكّل على الله ، و الثّناء على المؤمنين به ، و مدح خصالهم و أخلاقهم ، و الإشارة إلى عذاب قريب يحل بالمكذّبين .

و في تسميّته فرقانا وجهان :

أحدهما: لأنّه فرّق بين الحقّ و الباطل .

الثّاني : لأنّ فيه بيان ما شرع من حلال و حرام . حكاه النّقّاش .[2]

3 ـــ دعائم السّورة :

أُقيمت هذه السّورة على ثلاث دعائم :

أ ـــ الدّعامة الأولى :

[1] ـ الفرقان :1.

[2] ـ النُّكَتُ و العيون (تفسير الماوردي) : أبو الحسن عليّ بن محمّد بن حبيب الماوردي البصريّ ، راجعه و علّق عليه : عبد المقصود بن عبد الرّحيم ،دط ، دار الكتب العلميّة ـــ بيروت ـــ ، دت ، ص : 131 .

إثبات أنّ القرآن مترل من عند الله ، و التّنويه بالرّسول المترّل عليه ، و دلائل صدقه ، و رفعة شأنه عن أن يكون له حظوظ الدّنيا ، و أنّه على طريقة غيره من الرّسل ، و من ذلك تلقّى قومه دعوته بالتّكذيب .[1]

ب ـــ الدّعامة الثّانية :

إثبات البعث و الجزاء ، و الإنذار بالجزاء في الآخرة ، و التّبشير فيها بالثّواب للصّالحين ، و إنذار المشركين بسوء حظّهم يومئذ ، و تكون لهم النّدامة على تكذيبهم الرّسول و على إشراكهم و اتّباع أئمّة الكفر .[2]

ج ـــ الدّعامة الثّالثة :

الاستدلال على وحدانيّة الله ، و تفرّده بالخلق ، و تتريهه عن أن يكون له ولد أو شريك ، و إبطال إلهيّة الأصنام ، و إبطال ما زعموه من بنوّة الملائكة لله تعالى .[3]

4 ـــ مضمون السّورة :

و لقد تضمّنت هذه السّورة من النّعي على الكفّار و التّعريف ببهتهم و سوء مرتكَبهم ما لم يتضمّن كثير من نظائرها كقولهم :﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾[4] و قولهم :﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾[5] و قولهم :﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾[6] و

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص :314 .
[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص :314 .
[3] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص :314 .
[4] - الفرقان :7.
[5] - الفرقان :21.
[6] - الفرقان :32.

قولهم :﴿ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾[1] إلى ما عضد هذه و تخلّلها ، و لهذا ختمت بقاطع الوعيد و أشدّ التّهديد ،[2]

و هو قوله :﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾[3] .

و مقصودها : إظهار شرف الدّاعي صلّى الله عليه و سلّم بإنذار المكلّفين عامّة بما له سبحانه من القدرة الشّاملة ، المستلزم العلم التّامّ ، المدلول عليه بهذا القرآن المبين ، المستلزم لأنّ لا موجود على الحقيقة سوى من أنزله فهو الحقّ ، و ما سواه باطل .

و تسميتها بالفرقان، واضح الدّلالة على ذلك ، فإنّ الكتاب ما أنزل إلاّ للتّفرقة بين الملتبسات

و تمييز الحقّ من الباطل ، ليهلك من هلك عن بيّنة ،و يحي من حيي عن بيّنة ، فلا يكون لأحد على الله حجّة ،و لله الحجّة البالغة .[4]

5 ــ علائقيّة السّورة:

لقد حرص ابن عاشور على تفسير الآيات من هذه السّورة ناظرا إلى مضمونها و الأغراض التي نسجت عليها ، و قد أبان عن اقتدار في استكناه أسرار النّصّ القرآنيّ و ربط أجزائه بعضها ببعض .

---

[1] - الفرقان :60.

[2] - البرهان في تناسب سور القرآن : أحمد بن إبراهيم بن الزّبير الثّقفي ، تحقيق و تقديم : د . سعيد بن جمعة الفلاّح ،ط 1 ، دار ابن الجوزيّ ، 1428 هـــ ، ص : 134 .

[3] - الفرقان :77.

[4] - مصاعد النّظر للإشراف على مقاصد السّور : برهان الدّين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعيّ الشّافعيّ ، قدّم له ، و علّق عليه و خرّج أحاديثه : د . عبد السّميع محمّد أحمد حسنين ، ط 1 ، مكتبة المعارف ـــ الرّياض ـــ ، 1408 هـــ / 1987 م ص : 317 .

أ ــ براعة الاستهلال :

وعن مطلع سورة الفرقان و هو قوله تعالى :﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[1] يقول ابن عاشور:«افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب لأنّ غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجرّدة أو مقترنة بحرف غير منفصل ، مثل قول طرفة :

لِخَوْلَةَ أطْلاَلٌ بِبُرْقَةَ ثَهْمَدِ[2]

أو بأفعال المضارعة و نحوها كقول امرئ القيس :

"قِفَا نَبْكِ" البيت.[3]

أو بحروف التأكيد أو الاستفهام أو التّنبيه مثل (إنّ) و (قد) و الهمزة و (هل). و من قبيل هذا الافتتاح قول الحارث بن حلّزة :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسْمَاءُ[4]

و قول النّابغة :

كَتَمتُكَ لَيْلاً بالجَمُومَين سَاهِرا ‏ ‏ ‏ ‏ وَ هَمَّيْنِ: همّاً مُسْتَكِنًّا وَ ظَاهِرا[5]

---

[1] - الفرقان: 1.

[2]- ديوان طرفة بن العبد : ص :19 .

[3] - ديوان امرئ القيس ، ضبطه و صحّحه :ذ . مصطفى عبد الشّافي ، ط 5 ، دار الكتب العلميّة ــ بيروت ــ ، 1425 هــ / 2004 م ، ص : 110 .

[4] - ديوان الحارث بن حلّزة ، جمعه و حقّقه و شرحه : إميل بديع يعقوب ،ط 1 ، دار الكتاب العربيّ ت بيروت ــ ، 1411 هــ / 1991 م ، ص : 19 .

[5] - ديوان النّابغة الذّبيانيّ : ص : 63 .

و بهذه النّدرة يكون في طالع هذه السّورة براعة المطلع لأنّ النّدرة من العزّة ، و العزّة من محاسن الألفاظ و ضدّها الابتذال».[1]

هذا و ليعلم كما قال صاحب اللّباب : «أنّه تعالى تكلّم في هذه السّورة في التّوحيد و النبوّة و أحوال القيامة ثمّ ختمها بذكر العباد المخلصين المؤمنين ».[2]

ب ـــ فنّ التّقابل :

التّقابل كثير في القرآن الكريم ، و صوره متعدّدة ، و يكثر مجيئه في مقامات التّرغيب و التّرهيب و الوعد و الوعيد ، و في عرض مشاهد القيامة ، و في الصّور البيانيّة و تركيب الأمثال ، و ذكر صفات المؤمنين و الكافرين و أحوال النّفس البشريّة .

و يمكن تصنيف تلك الصّور في نوعين من التّقابل :

ـــ تقابل بين مفردين ، و هو ما سمّاه أحد الدّارسين بالتّقابل البسيط .

ـــ تقابل بين مركّبين ، و هو ما اقترح تسميّته بالتّقابل المركّب .

و النّوع الأوّل كثير في القرآن الكريم لا تكاد سورة تخلو من أمثلته ، و يدخل فيه المقابلة بين السّماء و الأرض ، و اللّيل و النّهار ، و الشّمس و القمر ، و الظّلمات و النّور ... و غيرها .[3]

---

1 - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص : 315 .

2 - اللّباب في علوم الكتاب : أبو حفص عمر بن عليّ بن عادل الدّمشقيّ الحنبليّ ، تحقيق و تعليق : عادل أحمد عبد الموجود ، و عليّ محمّد عوض ، ط1 ، دار الكتب العلميّة ، 1419 ه ـــ / 1998 م ، 14 / 472 .

3 - التّناسب البيانيّ في القرآن ـــ دراسة في النّظم المعنويّ و الصّوتيّ ـــ ، أحمد أبو فريد ، دط ، مطبعة النّجاح الجديدة ـــ الدّار البيضاء ـــ 1990 م ، ص : 137 .

و لقد التفت ابن عاشور إلى هذا الجانب الفنّي في القرآن الكريم ، فسجّل آراءه بخصوصه، فعند تصدّيه لتفسير الآيات من سورة الزّمر وجدناه يقول : « و قد قوبل كلام النّفس من قوله تعالى :

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [1]

بجواب يقابله على عدد قرائنه الثّلاث ، و ذلك بقوله :﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ [2]

و هذا مقابل :﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ [3] ثمّ بقوله :﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ [4] و هو مقابل قولها :﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [5] ، أي ليست نهاية أمرك التّفريط ، بل أعظم منه و هو الاستكبار ثمّ بقوله :﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [6] و هذا مقابل قول النّفس :﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [7] فهذه قرائن ثلاث».[8]

و أمّا سورة محمّد فقد قامت من بدايتها على هذا الفنّ ، فقوله تعالى :﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [9] مقابل فريق الذين كفروا و هو فريق الذين آمنوا و عملوا الصّالحات .

و قد جاء في مقابلة الأوصاف الثّلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدّها للمسلمين

---

[1] - الزّمر : 56.

[2] - الزّمر :59.

[3] - الزّمر :57.

[4] - الزّمر :59.

[5] - الزّمر : 56.

[6] - الزّمر :59.

[7] - الزّمر :57.

[8] - التّحرير و التّنوير : م 9، ج 24 ، ص : 48 .

[9] - محمّد : 2.

و هي : الإيمان مقبل الكفر ، و الإيمان بما نزّل على محمّد صلّى الله عليه و سلّم مقابل الصّدّ عن سبيل الله ، و عمل الصّالحات مقابل بعض ما تضمّنه﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [1] و﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ مقابل بعض آخر ممّا تضمّنه ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ، و ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ مقابل بقيّة ما تصمّنه﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ و زيد في جانب المؤمنين التّنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة قوله : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ و هو نظير لوصفه بسبيل الله [2] في قوله :﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ﴾ [3] و في موطن آخر من السّورة يقول ابن عاشور: و في اطّراد أساليب السّورة إذ افتتحت بالمقابلة بين الذين كفروا و الذين آمنوا ، و أعقب باتّباع الكافرين الباطل ، و اتّباع المؤمنين الحقّ .[4]

و في سورة الفرقان نجد جملة ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ [5] مقابلة جملة ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [6] و جملة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [7] مقابلة جملة ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [8] لأنّ ولد الخالق يجب أن يكون متولّدا منه فلا يكون مخلوقا . و جملة ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا

---

[1] - محمّد :1.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26 ، ص : 74 .

[3] - محمّد :1.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 10، ج 26 ، ص : 95 .

[5] - الفرقان:3.

[6] - الفرقان:2.

[7] - الفرقان:3.

[8] - الفرقان:2.

نَفۡعٗا﴾[1] مقابلة جملة ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾[2] لأنّ الشّركة في الملك تقتضي الشّركة الشّركة في التّصرّف .و جملة:﴿ وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾[3]

مقابلة جملة ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾[4] لأنّ أعظم مظاهر تقدير الخلق هو مظهر الحياة و الموت ، و ذلك من المشاهدات .و قد تقابل آية في آخر السّورة آية في أوّلها ، و هو ما يقطع بعلائقيّة السّور القرآنيّة ، كما في قوله تعالى :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾[5] هذه الجملة مقابلة جملة

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾[6] فهي المقصود من افتتاح الكلام كما آذنَتْ بذلك فاتحة السّورة . و إنّما أخّرت هذه الجملة التي تقابل الجملة الأولى مع أنّ مقتضى ظاهر المقابلة أن تُذكر هذه الجملة قبل جملة ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ ﴾[7] اهتماما بإبطال الكفر المتعلّق بصفات الله كما تقدّم آنفا . و يفسّر ابن عاشور قوله تعالى : ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾[8] أنّه استئناف ابتدائيّ جيء به لمقابلة حال المشركين في الآخرة بضدّها بضدّها من حال أصحاب الجنّة و هم المؤمنون لأنّه لّما وصف حال المشركين في الآخرة علم أن لا حظّ لهم في الجنّة فتعيّنت الجنّة لغير المشركين يومئذ و هم المؤمنون ، إذ أهل مكّة في وقت نزول

---

[1] - الفرقان:3.

[2] - الفرقان:2.

[3] - الفرقان:3.

[4] - الفرقان:2.

[5] - الفرقان:4.

[6] - الفرقان: 1.

[7] - الفرقان:3.

[8] - الفرقان:24.

هذه الآية فريقان مشركون و مؤمنون .فمعنى الكلام : المؤمنون يومئذ هم أصحاب الجنّة و هم خير مستقرّ و أحسن مقيلا .[1]

ج ــ تناسب أجزاء السّورة :

1 ــ :تعظيم الله و الثّناء عليه

ابتُدئت السّورة بقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[2] ظاهر قوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ أنّه إخبار عن عظمة الله و توفّر كمالاته فيكون المقصود به التّعليم و الإيقاظ ، و يجوز مع ذلك أن يكون كناية عن إنشاء ثناء على الله تعالى ، أنشأ الله به ثناء على نفسه كقوله على طريقة الكلام العربي في إنشاء التعجّب من صفات المتكلّم في مقام الفخر و العظمة ، أو إظهار غرائب صدرت ، كقول امرئ القيس :

وَ يَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي   فَيَا عَجَبًا مِنْ كَوْرِهَا الْمُتَحَمِّلِ[3]

و إنّما يتعجّب من إقدامه على أن جعل كور المطيّة يحمله هو بعد عقرها .

و في هذه الآية جمع بين التّنويه بشأن القرآن و أنّه مترل من الله و تنويه بشأن النّبيّ عليه الصّلاة و السّلام و رفعة مترلته عند الله و عموم رسالته .[4]

و أمّا قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ﴾[5] فقد أجريت على اسم الله تعالى هذه الصّفات الأربع

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 9 .

[2] - الفرقان: 1.

[3] - ديوان امرئ القيس : 112 . وفيه بدل (كورها) ، (رحلها) .

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص : 316 – 317 .

[5] - الفرقان:2.

بطريق الموصوليّة لأنّ بعض الصّلات معروف عند المخاطبين اتّصاف الله به ، و هما الصّفتان الأولى و الرّابعة ؛ و إذا قد كانتا معلومتين كانت الصّلتان الأخريان المذكورتان معهما في حكم المعروف لأنّهما أجريتا على من عُرف بالصّلتين الأولى و الرّابعة فإنّ المشركين ما كانوا يمترون في أنّ الله هو مالك السماوات و الأرض و لا في أنّ الله هو خالق كل شيء كما في قوله : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[1] ،و لكنّهم يثبتون لله ولدا و شريكا في الملك . و من بديع النّظم أن جُعل الوصفان المختلف فيهما معهم متوسّطيْن بين الوصفين اللّذين لا مرية فيهما ، حتى يكون الوصفان المسلَّميْن كالدّليل أوّلا و النّتيجة آخرا ، فإنّ الذي له ملك السّماوات و الأرض لا يليق به أن يتّخذ ولدا و لا أن يتّخذ شريكا لأنّ ملكه العظيم يقتضي غناه المطلق فيقتضي أن يكون اتّخاذه ولدا شريكا عبثا، إذ لا غاية له و إذا كانت أفعال العقلاء تُصان عن العبث فكيف بأفعال أحكم الحكماء تعالى و تقدّس . و ما جاء من أوّل السّورة إلى هنا براعة استهلال بأغراضها ، و هو يترل مترلة خطبة الكتاب أوالرّسالة .[2]

و أمّا قوله تعالى :﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[3] فهو استطراد لانتهاز الفرصة لوصف ضلال أهل الشّرك و سفالة تفكيرهم ، فهو عطف على جملة ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4] و ما تلاها ممّا هو استدلال على انفراده تعالى بالإلهيّة ، و أُردفت بقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[5] الشّامل لكون ما اتّخذوه من الآلهة مخلوقات ، فكان ما تقدّم مهيّئا للتّعجيب من

---

[1] - المؤمنون : 86 - 87.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص : 318 .

[3] - الفرقان:3 .

[4] - الفرقان:2 .

[5] - الفرقان:2 .

من اتّخاذ المشركين آلهة دون ذلك الإله المنعوت بصفات الكمال و الجلال . أمّا وصف نفسه بصفات الجلال و العزّة و العلوّ أردفه بتزييف مذهب عبدة الأوثان من وجوه : أنّها ليست خالقة للأشياء و الإله يجب أن يكون قادرا على الخلق و الإيجاد ، و منها أنّها مخلوقة، و المخلوق محتاج ، و الإله يجب أن يكون غنيّا . و منها أنّها لا تملك لأنفسها نفعا و لا ضرّا، و من كان كذلك لا يملك موتا و لا حياة و لا نشورا ، أي : لا يقدر على الإحياء و الإماتة ، و من كان كذلك كيف يسمّى إلها ، و كيف يستحقّ العبادة.[1]

فالخبر ليس مقصودا منه الإفادة بل هو للتّعجيب من حالهم كيف قابلوا إنزال الفرقان بالجحد و الطّغيان و كيف أشركوا بالذي تلك صفاته آلهة أخرى صفاتهم على الضّدّ من صفات من أشركوهم به ، و إلاّ فإنّ اتّخاذ المشركين آلهة أمر معلوم لهم و للمؤمنين فلا يقصد إفادتهم لحكم الخبر . و قد ذكر في هذه الآية من أقوالهم المقابلة للجمل الموصوف بها الله تعالى اهتماما بإبطال كفرهم المتعلّق بصفات الله لأنّ ذلك أصل الكفر و مادّته .[2]

2 ــ عناوين متنكّبي الصّراط :

أ ــ عنوان الكفر :

أقيمت سورة الفرقان على ثلاث دعائم كما أشارنا إليه سابقا ، و عُنون فيها للخارجين عن نهج الاستقامة بثلاثة عناوين أوّلها عنوان الكفر.

و قد انتقل السّياق من ذكر كفرهم في أفعالهم إلى ذكر كفرهم بأقوالهم الباطلة في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾[3]

---

[1] - اللّباب في علوم الكتاب : 14 / 476 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص :319 .

[3] - الفرقان:4.

و هذه الجملة مقابلة جملة :﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[1] فهي المقصود من افتتاح الكلام كما آذنت بذلك فاتحة السّورة . و إنّما أُخّرت هذه الجملة التي تقابل الجملة الأولى مع أنّ مقتضى ظاهر المقابلة أن تُذكر هذه الجملة قبل جملة:﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾[2] اهتماما بإبطال الكفر المتعلّق بصفات الله .[3]

و قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[4]

انتقال من حكاية مطاعنهم في القرآن و بيان إبطالها إلى حكاية مطاعنهم في الرّسول .

و الضّمير عائد إلى الذين كفروا ، فمدلول الصّفة مراعى كما تقدّم .

ب ــ عنوان الظّلم :

و ذلك قوله تعالى :﴿وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[5] فيه انتقال من وصفهم بالكفر هنالك إلى وصفهم بالظّلم هاهنا ، و هم هم أنفسهم المتحدّث عنهم ، و إنّما أوثر وصفهم بهذه النّعوت لتناسب أخلاقهم و سلوكاتهم التي عرفوا بها.

[1] - الفرقان:1.

[2] - الفرقان:3.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص : 326 .

[4] - الفرقان:7 - 8.

[5] - الفرقان:8 - 9.

والظّالمون : هم المشركون ، فغيّر عنوانهم الأوّل إلى عنوان الظّلم ، و هم هم تنبيها على أنّ في هذا القول اعتداء على الرّسول بِنبْزه بما هو بريء منه ، و هم يعلمون أنّه ليس كذلك ، فظلمهم له أشدّ ظلم .

و فُرّع على هذا التّعجيب إخبار عنهم بأنّهم ضلّوا في تلفيق المطاعن في رسالة الرّسول فسلكوا طرائق لا تصل بهم إلى دليل مُقنِع على مرادهم ، ففعل (ضلّوا) مستعمل في معنييه المجازيْن هما : معنى عدم التّوفّق في الحجّة ، و معنى عدم الوصول للدّين الحقّ ، و هو هنا تعجيب من خطلهم و إعراض عن مجاوبتهم .[1]

ج ــ عنوان عدم رجاء لقاء الله :

و هذا ثالث عنوان يعنون به للذين حادّوا الله و رسوله ، فهو من قبيل المعاملة لهم بخلاف ما يعتقدون ، فقوله تعالى :﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾[2]

حكاية مقالة أخرى من مقالات تكذيبهم الرّسول عليه الصّلاة و السّلام ، و قد عنْوَن عليها في هذه المقالة بــ (الذين لا يرجون لقاءنا) و عنْون عليهم في المقالات السّابقة بــ (الذين كفروا) و بــ (الظّالمون) ، لأنّ بين هذا الوصف و بين مقالتهم انتقاض ، فهم كذّبوا بلقاء الآخرة بما فيه من رؤية الله و الملائكة أو من الله مباشرة ، فكان في حكاية قولهم و ذكر وصفهم تعجيب من تناقض مداركهم .[3]

3 ــ بيان مصائر المذكورين :

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص : 329 – 330 .

[2] - الفرقان:21.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 5 .

و لّما عرض ابن عاشور إلى تفسير قوله تعالى :﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٖ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾[1] قال بأنّ العرب كانوا في الجاهليّة يعدّون الأعمال الصّالحة مَجلبَة لخير الدّنيا ، لأنّها تُرضي الله تعالى فيجازيهم بنعم في الدّنيا إذ كانوا لا يؤمنون بالبعث . و قد قالت خديجة للنبيّ حين تحيّر في أمر ما بدأه من الوحي و قال لها (لقد خَشِيتُ على نَفْسِي) ، فقالت (و الله لاَ يُخْزِيكَ الله أبداً . إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ و تَقْرِي الضَّيْفَ و تُعينُ على نَوَائب الحَقِّ)[2] . فالظّاهر أنّ المشركين إذا سمعوا آيات الوعيد يقولون في أنفسهم : لئن كان البعث حقّا لنجدنّ أعمالا عملناها من البرّ تكون سببا لنجاتنا ، فعلم الله ما في نفوسهم فأخبر بأنّ أعمالهم تكون كالعدم يومئذ .[3]

إلى أن بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[4]

و هو عطف على أقوال المشركين و مناسبته لقوله أنّ الذّكر هو القرآن ، فحُكِيت شكاية الرّسول إلى ربّه قومه من نبذهم القرآن بتسويل زعمائهم ، و سادتهم الذين أضلّوهم عن القرآن ، أي عن التّأمّل فيه بعد أن جاءهم و تمكّنوا من النّظر ، و هذا القول واقع في الدّنيا و الرّسول هو محمّد صلّى الله عليه و سلّم . و هو خبر مستعمل في الشّكاية .[5]

ثمّ تجئ الآيات بعدها ، و هي قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾[6] ، إذ لّما جرى الوعيد و التّسلية بذكر حال المكذّبين للرّسول عليه الصّلاة

[1] - الفرقان:23.

[2] - صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى الرّسول صلّى الله عليه و سلّم ، ص : 83 – 84 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 8 .

[4] - الفرقان:30.

[5] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 17.

[6] - الفرقان:35.

و السّلام ، عطف على ذلك تمثيلهم بالأمم المكذّبين رسلهم ، ليحصل من ذلك موعظة هؤلاء و زيادة تسلية الرّسول و التّعريض بوعده بالانتصار له .

و ابتدئ بذكر موسى و قومه لأنّه أقرب زمنا من الذين ذكروا بعده و لأنّ بقايا شرعه و أمّته لم تزل معروفة عند العرب فإن صحّ ما رُوي أنّ الذين قالوا :﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [1] اليهود فوجْه الابتداء بذكر ما أُوتي موسى أظهر .

و الذين كذّبوا بآياتنا وصف للقوم و ليس هو من المقول لموسى و هارون لأنّ التّكذيب حينئذ لمّا يقعْ منهم ، و لكنّه وصف لإفادة قرّاء القرآن أنّ موسى و هارون بلّغا الرّسالة و أظهر الله منها الآيات ، فكذّب بها قوم فرعون ، فاستحقّوا التّدمير تعريضا بالمشركين في تكذيبهم محمّدا و تمهيدا للتّفريع بـــ ﴿ فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾ [2] الذي هو المقصود من الموعظة و التّسلية .

2 : الإقبال على خطاب الرّسول :

أمّا قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾ [3] فيذكر ابن عاشور أنّ السّورة ابتدئت بتعظيم الله و ثنائه على أن أنزل الفرقان على رسوله ، و أعقب ذلك بما تلقّى به المشركون هذه المزيّة من الجحود و الإنكار النّاشئ عن تمسّكهم بما اتّخذوه من آلهة من صفاتهم ما ينافي الإلهيّة ، ثمّ طعنوا في القرآن و الذي جاء به بما هو كفران للنّعمة و من جاء بها .

[1] - الفرقان:32.

[2] - الفرقان:36.

[3] - الفرقان:10 .

فلمّا أريدَ الإعراض عن باطلهم و الإقبال على خطاب الرّسول بتثبيته و تثبيت المؤمنين ، أعيد اللّفظ الذي ابتدئت به السّورة على طريقة وصل الكلام بقوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ [1] و هذه الجملة استئناف واقع موقع الجواب عن قولهم الخ ، أي إن شاء جعل لك خيرا من الذي اقترحوه، أي إن شاء عجّله لك في الدّنيا ، فيجوز أن يكون المراد بالجنّات و القصور جنّات في الدّنيا و قصورا فيها ، أي خيرا من الذي اقترحوه دليلا على صدقك في زعمهم بأن تكون عدّة جنّات و فيها قصور . و بهذا فسّر جمهور المفسّرين .[2]

أي أنّه لم يشأ و لو شاء لفعله ،و لكنّ الحكمة اقتضت عدم البسط للرّسول في هذه الدّنيا و لكنّ المشركين لا يدركون المطالب العالية .

و قال ابن عطيّة : يحتمل أن يكون المراد بالجنّات و القصور ليست التي في الدّنيا ، أي هي جنّات الخلد و قصور الجنّة وعْدٌ من الله لرسوله .[3]

و أصل المعنى :تبارك الذي جعل لك خيرا من ذلك جنّات ... الخ . و يساعد هذا قراءة ابن كثير و ابن عامر و أبي بكر عن عاصم ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [4] برفع (يجعَلُ) على الاستئناف دون إعمال حرف الشّرط ، و قراءة الأكثر بالجزم عطفا على فعل الشّرط ، و فعل الشّرط محقّق الحصول بالقرينة ، و هذا المحمل أشدّ تبكيتا للمشركين و قطعا لمجادلتهم و قرينة ذلك قوله بعده و هو ضدّ و مقابل لما أعدّه لرسوله و المؤمنين .[5]

---

[1] - الفرقان:10 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص : 330 .

[3] - المحرّر الوجيز : ص : 1376 .

[4] - الفرقان:10 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص : 331 . و ينظر : تقريب النّشر في القراءات العشر : ابن الجزريّ ، تحقيق : إبراهيم عطوة عوض ، دط ، دار الحديث ـــ القاهرة 1425 هـــ / 2004 م ، ص : 226 .

و عطف﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ إمّا على جملة: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ إن كان المراد : قل للمشركين ، أو عطف على جملة:﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾[1] على جواز أنّ المراد : قل للمؤمنين .

وتقديره : اذكر ذلك اليوم لأنّه لّما توعّدهم بالسّعير و ما يلاقون من هولها بيّن لهم حال ما قبل ذلك و هو حالهم في الحشر مع أصنامهم . و هذا مظهر من مظاهر الهول لهم في المحشر إذ يشاهدون خيبة آمالهم في آلهتهم ، إذ يرون حقارتها بين يدي الله و تبرّؤها من عُبَّادها و شهادتها عليهم بكفرانهم نعمة الله و إعراضهم عن القرآن ، و إذ يسمعون تكذيب من عبدوهم من العقلاء من الملائكة و عيسى عليهم السّلام ، و الجنّ و نسبوا إليهم أنّهم أمروهم بالضّلالات .[2]

ثالثا:الجوانب الفنيّة:

1 ــ تخييل المحكيّ واقعا:

و ذلك قوله تعالى : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾[3] يرى ابن عاشور أنّ الفاء فصيحة ، أي هي إفصاح عن حجّة بعد تهيئة ما يقتضيها و هو إفصاح رائع و زاده الالتفات في قوله : ﴿كَذَّبُوكُم﴾

و في الكلام حذف فعل قول يدلّ عليه المقام . و التّقدير : إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذّبوكم

و قد جاء التّصريح بما يدلّ على القول المحذوف في قول عبّاس بن الأحنف :

[1] - الفرقان:16.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 18 ، ص :336- 337 .

[3] - الفرقان:16.

قَالُوا "خُرَاسَانُ: أقْصَى مَا يُرادُ بِنَا   ثُمَّ القُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا "خُراسَانَا".[1]

أي إن قلتم ذلك فقد جئنا خراسان . و في حذف فعل القول في هذه الآية استحضار لسورة المقام كأنّه مشاهد غير محكيّ ، و كأنّ السّامع آخرَ الآية قد سمع لهذه المحاورة مباشرة دون حكاية فقرع سمعه شهادة الأصنام عليهم ثمّ قرع سمعه توجّهُ خطاب التّكذيب إلى المشهود عليهم ، و هو تفنّن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكيّ واقعا ، و منه قوله تعالى :﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [2] فجملة ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ الخ ، مستأنفة ابتدائيّة هو إقبال على خطاب الحاضرين و هو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾ [3] بعد قوله ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ [4]

2 ــ التّمثيل و التّنظير :

و ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [5]،إذ لمّا جرى الوعيد و التّسلية بذكر حال المكذّبين للرّسول عليه الصّلاة و السّلام ، عُطف على ذلك تمثيلهم بالأمم المكذّبين رسلهم ليحصل من ذلك موعظة هؤلاء و زيادة تسلية الرّسول

و التّعريض بوعده بالانتصار له .

---

[1] - ديوان العبّاس بن الأحنف ؛ شرح و تحقيق : عاتكة الخزرجيّ ، دط ، مطبعة دار الكتب المصريّة ــ القاهرة ــ ، 1373 هــ / 1954 م ، ص : 279 .

[2] - القمر :48.

[3] - يوسف : 29.

[4] - يوسف : 29.

[5] - الفرقان : 35 – 36 .

و الموصول في قوله:﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ للإيماء إلى علّة الخبر عنهم بالتّدمير .

و قد حصل بهذا النّظم إيجاز عجيب اختُصرت به القصّة فذُكر منها حاشيتاها : أوّلها و آخرها لأنّهما المقصود بالقصّة و هو استحقاق الأمم التّدمير بتكذيبهم رسلهم . و قد ابتدئ بذكر قصّة موسى لأنّها أشبه ما تكون بقصّة النّبيّ محمّد صلّى الله عليه و سلّم ، أو لأنّه من أواخر ما أرسل و كانت بقايا بعثته موجودة إل زمن النّبوّة ، و إن صحّ أنّ الذين قالوا : " لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة " هم اليهود ، فوجه الابتداء بما أوتي موسى أظهر.[1]

و في هذه السّورة عُومل الكفّار بأسلوبين ، أوّلهما : تخويفهم ممّا أصاب الأمم الأولى أن يحيق بهم ، فحكى لهم مصير الفراعنة ، و مصير عاد و ثمود ، و أصحاب الرّسّ ــ و هم قوم كانوا يفلحون الأرض حول بئر لهم ــ .... و الأسلوب الثّاني و هو إثارة العقل حتى يرعوي .[2]

3 ــ عطف الخاصّ على العام:

كان ما تقدّمت حكايته من صنوف أذاهم الرّسول عليه الصّلاة و السّلام أقوالا في مغيبه ، فجاء قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[3] ليعطف عليها أذى خاصّا، و هو الأذى حين يرونه .و هذا صنف من الأذى تبعثهم إليه مشاهدة الرّسول في غير زيّ الكبراء و المترفين لا يجرّ المطارف ، و لا يركب النّجائب ، و لا يمشي مرحا ، و لا ينظر خيلاء

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص :25 .

[2] - نحو تفسير موضوعيّ لسور القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) : محمّد الغزاليّ ،ط2 ، دار الشّروق ، 1413 هــ / 1992 م ، ص : 131 .

[3] - الفرقان:41.

و يجالس الصّالحين و يُعرض عن المشركين ، و يرفق بالضّعفاء و يواصل الفقراء ، و أولئك يستخفّون بالخُلق الحسن ، لما غلب على آرائهم من أَفن ،لذلك لم يخل حاله من الاستهزاء به إذا رأوه بأنّ حاله ليست حال من يختارها الله لرسالته دونهم ، و لا هو أهل لقيادهم و سياستهم . و هذا الكلام صدر من أب جهل و أهل ناديه .[1]

أمّا قوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2]

فهو جواب قولهم المتضمّن أنّهم على هدى في دينهم ، و كان الجواب بقطع مجادلتهم و إحالتهم على حين رؤيتهم العذاب يترل بهم ، فتضمّن ذلك وعيدا بعذاب . و الأظهر أنّ المراد عذاب السّيف النّازل بهم يوم بدر ، و ممّن رآه أبو جهل سيّد أهل الوادي و زعيم القالة في ذلك النّادي .

و لّما كان الجواب بالإعراض عن المحاجّة ارتكب فيه أسلوب التّهكّم بجعل ما ينكشف عنه المستقبل هو معرفة من هو أشدّ ضلالا من الفريقين على طريقة المجاراة و إرخاء العنان للمخطئ إلى أن يقف على خطئه و قد قال أبو جهل يوم بدر و هو مثخن بالجراح في حالة النّزع لّما قال له عبد الله بن مسعود : أنْتَ أبو جهل ؟ فقال : " وَ هَلْ أعْمَدُ مِنْ رَجُلٍ قَتَلَهُ قَوْمُه " .[3]

4 ــ تعدّد الاعتبارات:

و قوله تعالى :﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾[4] استئناف خوطب به الرّسول فيما يخطر بنفسه من الحزن على تكرار إعراضهم عن دعوته إذ كان حريصا على هداهم و الإلحاح في دعوقم ، فأعلمه بأنّ مثلهم لا يرجى اهتداؤه لأنّهم جعلوا هواهم إلههم فالخطاب للرّسول .

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص : 32 .

[2] - الفرقان:41.

[3] - صحيح البخاري : كتاب المغازي ، باب قتْل أبي جهل ، ص : 973 .

[4] - الفرقان:41.

إذ إنّ قوله تعالى ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [1] إذا أجري على التّرتيب كان معناه جعل إلهه الشّيء الذي يهوى عبادته ، أي ما يحبّ أن يكون إلها له ، أي لمجرّد الشّهوة لا لأنّ إلهه مستحقّ للإلهيّة ، فالمعنى : من اتّخذ ربّا له محبوبه فإنّ الذين عبدوا الأصنام كانت شهوتهم في أن يعبدوها و ليست لهم حجّة على استحقاقها العبادة . فإطلاق (إلهه) على هذا الوجه إطلاق حقيقيّ .و هذا يناسب قوله قبله، و معناه منقول عن سعيد بن جبير . و اختاره ابن عرفة في تفسيره و جزم بأنّه الصّواب دون غيره و ليس جزمه بذلك بوجيه و قد بحث معه بعض طلبته .

و إذا أجرِي على اعتبار تقديم المفعول الثّاني كان المعنى : من اتّخذ هواه قدوة له في أعماله لا يأتي عملا إلاّ إذا كان وفاقا لشهوته فكأنّ هواه إلهه . و على هذا يكون معنى (إلهه) شبيها بإلهه في إطاعته على طريقة التّشبيه البليغ .

و هذا المعنى أشمل في الذّمّ لأنّه يشمل عبادتهم الأصنام و يشمل غير ذلك من المنكرات

و الفواحش من أفعالهم.و نحا إليه ابن عبّاس ، و إلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشّاف و ابن عطيّة . و كلا المعنيين ينبغي أن يكون محملا للآية . [2]

5 ـــ الاستئناف البيانيّ:

و جملة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [3] مستأنفة استئنافا بيانيّا ، لأنّ ما تقدّم إنكار أنّهم يسمعون يثير في نفس السّامعين سؤالا عن نفي فهمهم لما يسمعون مع سلامة حواسّ السّمع منهم ، فكان تشبيههم بالأنعام تبيينا للجمع بين حصول اختراق أصوات الدّعوى آذانهم ، مع عدم انتفاعهم بها لعدم تهيّئهم للاهتمام بها ، فالغرض من التّشبيه التّقريب و الإمكان كقول أبي الطّيّب :

[1] - الفرقان:41.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19، ص :36 .

[3] - الفرقان:41.

فَإنْ تَفُقِ الأنَامَ وَ أنتَ مِنْهُم   فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

و ضمائر الجمع عائدة إلى أكثرهم باعتبار معنى لفظه كما عاد عليه ضمير (يسمعون)

و انتقل في صفة حالهم إلى ما هو أشدّ من حال الأنعام بأنّهم أضلّ سبيلا من الأنعام . و ضلال السّبيل عدم الاهتداء للمقصود لأنّ الأنعام تَفْقَه بعض ما تسمعه من أصوات الزّجر و نحوها من رعاتها و سائقها ، و هؤلاء لا يفقهون شيئا من أصوات مرْشِدهم و سائسهم و هو الرّسول عليه الصّلاة و السّلام . و هذا كقوله تعالى : ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [1]

6 ــ مستتبعات التّراكيب :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [2]

استئناف ابتدائيّ فيه انتقال من إثبات صدق الرّسول صلّى الله عليه و سلّم ، و إثبات أنّ القرآن من عند الله أنزله على رسوله ، و صفات الرّسل و ما تخلّل ذلك من الوعيد و هو من هذا الاعتبار متّصل بقوله :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [٣] قال السّدّيّ : قبضا خفيّا،حتى لا يبقى في الأرض ظلّ إلاّ تحت سقف ، أو تحت شجرة و قد أظلّت الشّمس ما فوقه.[4]

---

[1] - البقرة : 74.

[2] - الفرقان:45.

[3] - الفرقان:32.

[4] - تفسير السّدّيّ الكبير :أبو محمّد إسماعيل بن عبد الرّحمن السّدّيّ الكبير ، جمع و دراسة و توثيق : محمّد عطا يوسف ، ط1 ، 1414 هـــ / 1993 م ، دار الوفاء للطّباعة و النّشر ـــ مصر ـــ ، ص : 364 – 365 .

و فيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم و إثبات الوحدانيّة لله و هو من هذه الجهة متّصل بقوله في أوّل السّورة ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾[1]

أ ــ حكمة التّدرّج :

و توجيه الخطاب إلى النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم يقتضي أنّ الكلام متّصل بنظيره من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [2] و ما عُطف عليه (﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ [3] ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [4] ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾[5] فكلّها مخاطبات للنّبيّ. و قد جعل مدّ الظّلّ و قبضَه تمثيلا لحكمة التّدريج في التّكوينات الإلهيّة و العدول بها عن الطّفرة في الإيجاد ، ليكون هذا التّمثيل بمنزلة كبرى القياس للتّدليل على أنّ تنزيل القرآن منجّما جار على حكمة التّدرّج لأنّه أمكنُ في حصول المقصود ، و ذلك ما دلّ عليه قوله سابقا

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾. [6] فكان في قوله ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [7]

[7] زيادة في التّعليل على ما في قوله:﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾

ب ــ التّمثيل:

---

[1] - الفرقان:3 .

[2] - الفرقان:6 .

[3] - الفرقان:15.

[4] - الفرقان:20 .

[5] - الفرقان:31 .

[6] - الفرقان:32 .

[7] - الفرقان:45.

و يستتبع هذا إيماء إلى تمثيل نزول القرآن بظهور شمس في المواضع التي كانت مظلّلة إذ قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[1] فإنّ حال النّاس في الضّلالة قبل نزول القرآن تشبّه بحال امتداد ظلمة الظّلّ ، و صار ما كان مظلّلا ضاحيا بالشّمس ، و كان زوال ذلك الظّلّ تدريجا حتى ينعدم الفيء .

فنظم الآية بما اشتمل عليه من التّمثيل أفاد تمثيل هيئة تتريل القرآن منجّما بهيئة مدّ الظّلّ مدرجا و لو شاء لجعله ساكنا .

و كان نظمها بحمله على حقيقة تركيبه مفيدا العبرة بمدّ الظّلّ و قبضه في إثبات دقائق قدرة الله تعالى ، و هذان المفادان من قبيل استعمال اللّفظ في حقيقته و مجازه . و كان نظم الكلام بمعنى ما فيه من الاستعارة التّصريحيّة من تشبيه الهداية بنور الشّمس . و بهذه النّكتة عُطف قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

و الاستفهام التقريري فهو صالح لطبقات السّامعين : من غافل يسأل عن غفلته ليُقِرّ بها تحريضا على النّظر ، و من جاحد ينكر عليه إهماله النّظر ، و من موفّق يُحثّ على زيادة النّظر .[2]

7 ــ دلائل العظمة:

و قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾[3]

مناسبة الانتقال فيه من الاستدلال باعتبار أحوال الظّلّ و الضّحاء ، إلى الاعتبار بأحوال اللّيل و النّهار ظاهرة فاللّيل يشبه الظّلّ في أنّه ظلمة تعقب نور الشّمس .

---

[1] - الفرقان:45.

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص : 38 – 39 .

[3] - الفرقان:45 .

و مورد الاستدلال المقصد المستفاد من تعريف جزأي الجملة و هو قصر إفراد ، أي لا يشركه غيره في جعل اللّيل و النّهار . أمّا كون الجعل المذكور بخلق الله فهم يُقرّون به ؛ و لكنّهم لمّا جعلوا شركاء على الإجمال ، أُبطلت شركتهم بقصر التّصرّف في الأزمان على الله تعالى لأنّه إذا بطل تصرّفهم في بعض الموجودات اختلّت حقيقة الإلهيّة عنهم إذ الإلهية لا تقبل التّجزئة .[1]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[2]

استدلال على الانفراد بالخلق و امتنان بتكوين الرّياح و الأسحبة و المطر.و مناسبة الانتقال من حيث ما في الاستدلال الذي قبله من ذكر حال النّشور و الامتنان به فانتقل إلى ما في الرّياح من النّشور بذكر وصفها بأنّها نشر على قراءة الجمهور، أو لكونها كذلك في الواقع على قراءة عاصم. و مردود الاستدلال قصر إرسال الرّياح و ما عُطف عليه على الله تعالى إبطالا لادِّعاء الشّركاء له في الإلهيّة بنفي الشّركة في التّصرّف في هذه الكائنات و ذلك ما لا يُنكره المشركون.[3]

8 ــ الاعتراض:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[4]

جملة اعتراض بين ذكر دلائل تفرّد الله بالخلق و ذكر مِنّته على الخلق . و مناسبة موقع هذه الجملة و تفريعها بموقع الآية التي قبلها خَفِيّةٌ . و قال ابن عطيّة في قوله:﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص : 44 .

[2] - الفرقان:47 .

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص : 46 .

[4] - الفرقان : 51 – 52.

قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ "اقتضاب يدلّ عليه ما ذُكر . تقديره : و لكنّا أفردناك بالنِّذارَة و و اصطفيناك فلا تطع الكافرين "[1]

فإن كان عنى بقوله : اقتضاب ، معنى الاقتضاب الاصطلاحي بين علماء الأدب و البيان ، و هو عدم مراعاة المناسبة بين الكلام المنتَقَل منه و الكلام المنتقل إليه ، كان عدولا عن التزام تطلّب المناسبة بين هذه الآية و الآية التي قبلها ، و ليس الخلوُّ عن المناسبة بِبِدْع فقد قال صاحب تلخيص المفتاح : " و قد ينقل منه (أي ممّا شبّب به الكلام) إلى ما لا يلائمه (أي لا يناسب المنتقل منه) و يسمّى الاقتضاب و هو مذهب العرب و من يَلِيهم من المخضرمين" إلخ . و إذا كان ابن عطيّة عنى بالاقتضاب معنى القطع(أي الحذف من الكلام) أي إيجاز الحذف كما يُشْعِر به قوله (يدلّ عليه ما ذُكر تقديره) ، كان لم يعرّج على اتّصال هذه الآية بالتي قبلها .

و في الكشّاف : " لو شئنا لخفّفْنا عنك أعباء نِذَارة جميع القرى و لبعثنا في كلّ قرية نبيّا يُنْذرها ، و إنّما قَصَرْنا الأمر عليك و عظّمناك به و فضّلناك على سائر الرّسل(أي بعموم الدّعوة)فَقابِلْ ذلك بالتّصبّر" .[2] و قد قال الطّيبيّ : " و مدار السّورة على كونه صلّى الله عليه و سلّم مبعوثا إلى النّاس كافّة و لذلك افتُتِحت بما يثْبِت عموم رسالة محمّد إلى جميع النّاس بقوله تعالى:﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.[3]

و ليس في كلام الكشّاف و الطّيبيّ إلاّ بيان مناسبة الآية لمهم أغراض السّورة ، دون بيان مناسبتها للتي قبلها .[4]

[1] - المحرّر الوجيز: 1385 .

[2] - الكشّاف : 3 / 292 .

[3] - الفرقان :1.

[4] - الكشّاف : 3 / 292 .

و الذي أختاره أنّ هذه الآية متّصلة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [1] الآية ، فبعد أنّ بين إبطال طعنهم فقال ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [2] انتقل إلى نظير القرآن بالكتاب الذي أُوتِيَه موسى عليه السّلام و كيف استأصل الله من كذّبوه ، ثمّ استطرد بذكر أمم كذّبوا رسلهم ، ثمّ انتقل إلى استهزاء المشركين بالنّبيّ و أشار إلى تحرّج النّبيّ من إعراض قومه عن دعوته بقوله : ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. [3]

و تسلسل الكلام بضرب المَثَل بمدّ الظّلّ و قبضه ، و بحال اللّيل و النّهار ، و بإرسال الرّياح .أمارة على رحمة غيثه الذي تحيا به الموات ، حتى انتهى إلى قوله : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [4] و يؤيّد ما ذكرنا اشتمال التّفريع على ضمير القرآن في قوله : ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾. [5]

9 ــ العود إلى الاستدلال:

و ذلك قوله تعالى :﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [6] ، إذ هو عود إلى الاستدلال على تفرّده تعالى بالخلق . جمعت هذه الآية استدلالا و تثبيتا و وعدا، فصريحها استدلال على شيء عظيم من آثار القدرة الإلهيّة و هو التقاء الأنهار و الأبحر كما سيأتي،و في ضمنها تمثيل لحال دعوة الإسلام في مكّة يومئذ و اختلاط المؤمنين مع المشركين بحال تجاور البحرين : أحدهما عذب فرات و الآخر مِلْح أُجاج .

[1] - الفرقان :32.

[2] - الفرقان :32.

[3] - الفرقان :43.

[4] - الفرقان :51.

[5] - الفرقان :52.

[6] - الفرقان :53.

و تمثيل الإيمان بالعذْب الفُرات و الشّرك بالملح الأُجاج ، و أنّ الله تعالى كما جعل بين البحرين برزخا يحفظ العذب مِن أن يكدّره الأجاج و كذلك حجز بين المسلمين و المشركين أن يدُسّوا كفرهم بين المسلمين.و في هذا تثبيت للمسلمين بأنّ الله يحجِز عنهم ضرّ المشركين لقوله: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى**﴾.[1] و في ذلك تعريض كنائيّ بأنّ الله ناصر هذا الدّين مِن أن يكدّره الشّرك .[2]

و أمّا قوله تعلى : ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾ [3]

و مناسبة موقع هذا الاستدلال بعد ما قبله أنّه استدلال بدقيق آثار القدرة في تكوين المياه و جعلها سبب حياة مختلفة الأشكال و الأوضاع . و من أعظمها دقائق الماء الذي خلق منه أشرف الأنواع التي على الأرض ، و هو نطفة الإنسان ، بأنّها سبب تكوين النّسل للبشر ، فإنّه يكون أوّلَ أمرِه ماءً ، ثمّ يتخلّق منه البشر العظيم .[4]

10 ــ الكلام الجامع:

﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا**﴾ [5] و لّما أفضى الكلام بأفانين انتقالاته إلى التّعجيب من استمرارهم على أن يعبدوا ما لا يضرّهم و لا ينفعهم ، أعقِب بما يومئ إلى استمرارهم على تكذيبهم ــ محمّدا صلّى الله عليه و سلّم ــ في دعوى الرّسالة بنسبة ما بلّغه إليهم إلى الإفك ، و أنّه أساطير الأوّلين ، و أنّه سِحْر ، فأبطلت دعاويهم كلّها بوصف النّبيّ بأنّه مرسل من الله ، و قصْره على صفتي التّبشير و النّذارة .

---

[1] - آل عمران : 111 .

[2] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص : 54 .

[3] - الفرقان : 54.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص : 55 .

[5] - الفرقان : 56 - 57.

و هذا الكلام الوارد في الرّدّ عليهم جامع بين إبطال إنكارهم لرسالته و بين تأنيس الرّسول عليه الصّلاة و السّلام بأنّه ليس بمضلّ و لكنّه مبشّر و نذير . و فيه تعريض بأن لا يحزن لتكذيبهم إيّاه .

ثمّ أمره بأن يخاطبهم بأنّه غير طامع من دعوتهم في أن يعتزّ باتّباعهم إيّاه حتى يحسبوا أنّهم إن أعرضوا عنه فقد بلغوا من النّكاية به أملهم ، بل ما عليه إلاّ التّبليغ بالتّبشير و النّذارة لا يريد منهم الجزاء على عمله ذلك .[1]

11 ــ مبتكرات السّورة :

لقد سبقت الإشارة إليها في المدخل بأنّها من تفرّدات القرآن عن كلام العرب، و تعدّ وجها من وجوه الإعجاز . فجملة ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [2] تركيب جرى بمادّته و هيئته مجرى المثل في الإخبار عن تصميم المخبر عنه على ما بعد حرف الاستثناء ، و ذلك يقتضي وجود الصّارف عن المستثنى ، أي فصمّموا على الكفور لا يرجعون عنه ، لأنّ الاستثناء من عموم أشياء مبهمة جعلت كلّها ممّا تعلّق به الإباء ، كأنّ الآبين قد عُرضت عليهم ــ من النّاس أو من خواطرهم ــ أمور ، و راجعوا فلم يقبلوا منها إلاّ الكفور ، و إن لم يكن هنالك عرض و لا إباء و إن كان ــ كما قال الغزاليّ ــ : " الإيمان قريب المصادر ، إنّه تحت العين لمن يبصر ، و مع ذلك فما أكثر الملاحدة ".[3] و منه قوله تعالى في سورة "براءة" ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [4] ألا ترى أنّ ذلك استعمل هنا في مقام معارضة المشركين للتّوحيد و في سورة "براءة" في مقام معارضة أهل الكتاب للإسلام.[5]

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص :57 – 58 .

[2] - الفرقان:50 .

[3] - نحو تفسير موضوعيّ : 132 .

[4] - التّوبة : 32 .

[5] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص : 50 .

و شدّة الفريقين في كفرهم معلومة مكشوفة ، و لم يستعمل في قوله تعالى في سورة الصّفّ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [1] و يلاحظ الإسكافيّ أنّ آية التّوبة تعلّقت فيها الإرادة بإطفاء نور الله بأفواههم ، و إطفاء نور الله إنّما هو بما حاولوه من دفع الحقّ بالباطل ، و أمّا آية الصّفّ فاللاّم الدّاخلة على الفعل المنصوب تكون مبيّنة عن العلّة التي لها أنشئ الفعل ، و اللاّم على هذا التّحقيق ، و المراد : يريدون افتراء الكذب ليطفئوا نور الله .[2]

و كذلك الأمر في آيات بعد هذه الآية ، إذ بعد ذكر خلق السّموات و الأرض ، و أنّ ذلك دليل رحمة الله تعالى بعباده، فرّع على وصفه بـــ (الرّحمن) قوله ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [3] للدّلالة على أنّ في رحمته من العظمة و الشّمول ما لا تفي فيه العبارة فيعدل عن زيادة التّوصيف إلى الحوالة على العليم بتصاريف رحمته مجرّب لها متلقّ أحاديثها ممّن علِمها و جرّبها .

و هذا يجري مجرى المثَل ، و لعلّه من مبتكرات القرآن نظير قول العرب (على الخبير سقطتَ)[4] يقولها العارف بالشّيء إذا سئل عنه . و المَثلان و إن تساويا في عدد الحروف المنطوق بها ، فالمثل القرآنيّ أفصح لسلامته من ثقَل تلاقي القاف و الطّاء و التّاء في (سقطت) . و هو أيضا أشرف لسلامته من معنى السّقوط،لأنّها إنّما يقولها الواجد المعين و قريب من معنى قول النّابغة : ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾

هلاَّ سَألْتِ بني ذُبْيَانَ مَـــا حَـــسَبِي   إذا الدُّخَانُ تَغَشَّى الأَشْمَطَ البَرِمَا

إلى قوله:

---

[1] - الصّفّ : 8.

[2] - درّة التّتريل و غرّة التّأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز : أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الخطيب الإسكافيّ اعتنى به : الشّيخ خليل مأمون شيحا ، ط1 ، دار المعرفة ، 1422 هـــ / 2002 م ، ص : 140 – 141 .

[3] - الفرقان : 74.

[4] - جمهرة أمثال العرب : 2 / 41 .

يُخْبِرْكَ ذُو عِرْضِهِمْ عَنِّي وَ عَالِمُهُمْ وَ لَيْسَ جَاهِلُ شَيْءٍ مِثْلَ مَنْ عَلِمَا[1]

12 ـــ حسن التّخلّص :

يعرّف ابن الأثير براعة التّخلّص بقوله : " فأمّا التّخلّص فهو أن يأخذ في معنى من المعاني ، فبينا هو فيه إذ أخذ معنى آخر و جعل الأوّل سببا إليه ، فيكون بعضه آخذا برقاب بعض ، من غير أن يقطع المؤلّف كلامه و يستأنف كلاما آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنّما أُفْرِغ إفراغا ، و ذلك ممّا يدلّ على حِذق الشّاعر و قوّة تصرّفه و طول باعه و اتّساع قدرته".[2]

و قوله تعالى :﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ استئناف ابتدائيّ جُعل تمهيدا لقوله : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [3] الآيات التي هي محصول الدّعامة الثّالثة من الدّعائم الثّلاث التي أُقيم عليها بناء هذه السّورة ، و افتُتحت كلّ دعامة منها بـــ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى ﴾ ، و افتُتح ذلك بإنشاء الثّناء على الله بالبركة و الخير لما جعله للخلق من المنافع .[4]

و بمناسبة ذكر من أراد أن يذّكر تخلّص إلى خصال المؤمنين أتباع النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم حتى تستكمل السّورة أغراض التّنويه بالقرآن و من جاء به و من اتّبعوه . و هذا من أبدع التّخلّص إذ كان مفاجئا للسّامع ، مطمعا أنّه استطراد كسوابقه حتى يفاجئه ما يؤذن بالختام و هو قوله تعالى :﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى ﴾ [5]

---

[1] - ديوان النّابغة :ص : 102 .و فيه في البيت الثّاني : عوض (يخبرك) ، (ينبّئك) .

[2] - المثل السّائر : 3 / 121 .

[3] - الفرقان : 74.

[4] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص : 64 .

[5] - الفرقان : 77 .

و إذ قد أُجرِيَت عليهم تلك الصّفات في مقام الثّناء و الوعد بجزاء الجنّة ، عُلم أنّ من اتّصف بتلك الصّفات موعود بمثل ذلك الجزاء و قد شرّفهم الله بأن جعل عُنوانهم عباده ،(أي عباد الرّحمن)

و اختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسمَ الرّحمن لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين قيل لهم : اسجدوا للرّحمن .

و في الإطناب بصفاتهم الطّيّبة تعريض بأنّ الذين أبوا السّجود للرّحمن و زادهم نفورا هم على الضّدّ من تلك المحامد ، تعريضا تُشْعر به إضافة (عباد) إلى (الرّحمن).[1]

13 : حسن الخاتمة :

و أمّا قوله تعالى في آخر السّورة : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾[2]

فإنّه لمّ استوعبت السّورة أغراض التّنويه بالرّسالة و القرآن ، و ما تضمّنته من توحيد الله ، و من صفة كبرياء المعاندين و تعلّلاتهم ، و أحوال المؤمنين ، و أقيمت الحجج الدّامغة للمعرضين ،

خُتمت بأمر الله رسوله عليه الصّلاة و السّلام أن يخاطب المشركين بكلمة جامعة يُزال بها غرورهم و إعجابهم بأنفسهم ، و حسبانهم أنّهم قد شَفَوا غليلهم من الرّسول بالإعراض عن دعوته و تورّكهم في مجادلته ؛ فبيّن لهم حقارتهم عند الله تعالى و أنّه ما بعث إليهم رسوله

و خاطبهم بكتابه إلاّ رحمة منه بهم لإصلاح حالهم و قطعا لعذرهم فإذا كذبوا فسوف يحلّ بهم العذاب .[3]

أي لا يبالي بكم و لا يبقيكم إلاّ إذا عبدتموه و آمنتم به وحده . فالدّعاء بمعنى العبادة .

---

[1] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص : 67 .

[2] - الفرقان: 77.

[3] - التّحرير و التّنوير : م 8، ج 19 ، ص :85 .

ثمّ أشار إلى أنّه كيف يمكن العبء بهم ، أو يُتصوّر ، و قد وجد منهم ما ينافيه ، بقوله تعالى : ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي بما جاءكم من الحقّ .و قد تلى عليكم سنّة من كذّب و أصرّ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي سوف يكون هذا النّبأ أو الذّكر الحكيم ، أو الأمر الجليل أمر الرّسالة ، لازما و ثابتا . يفتح من الحقّ رتاجا . و تدخل النّاس في دين الله أفواجا .

و لقد صدق الله وعده .و نصر عبده .و أعزّ جنده . و هزم الأحزاب وحده .[1]

و نستنتج من كلّ هذا الذي ذكره ابن عاشور أنّ سورة الفرقان قد تناسبت آياتها ، و أحكم نسجها ، و تقابلت معانيها ، لتؤدّي معنى عزيزا ، و هو أنّ الله نزّل الفرقان على عبده و نبيّه و مصطفاه ، ففرّق به بين الحقّ و الباطل ، فسعد به عباد الرّحمن ، و شقي به الظّلمة الكافرون .

و عرفنا بهذا الأنموذج التّطبيقي كيف تناسبت سور القرآن ، و حبكت حبكة متقنة عزّ نظيرها .

[1] - تفسير القاسميّ المسمّى : محاسن التّأويل : محمّد جمال الدّين القاسميّ ، وقف على طبعه و تصحيحه ، و رقّمه ، و خرّج آياته و أحاديثه و علّق عليه : محمّد فؤاد عبد الباقي ، ط1 ، 1376 هـــ / 1957 م ، ص : 4600 .

الخاتمة

حاولت في بحثي هذا الوقوف على جهود محمّد الطّاهر بن عاشور في إثراء الدّرس الإعجازيّ البلاغيّ ، من خلال تتبّع بعض قضايا علم المعاني ، حيث يتقاطع النّحو مع البلاغة ، و كيف استطاع هذا العالم أن يوظّف ثقافته البينيّة الواسعة ، و يستثمرها في استقراء النّصّ القرآني للتّدليل على سبقه و حجّيّته التي يتبيّن منها أنّه الحقّ .

و قصدت من عملي أيضا إعطاء النّموذج التّطبيقيّ لمسائل علم المعاني ، التي يستصعبها كثير من الدّارسين ، فتحصل لهم بذلك الحُسنيان معا ، فهْمُ كلام الله تعالى و سبر أغواره ، ثمّ التّمكّنُ من علم التّراكيب تنظيرا و تطبيقا .

فإذا تحقّق هذا الأمر لطالبه ، وضع قدمه على باب إعجاز القرآن في جانبه التّطبيقيّ التّفصيليّ المعلّل . و قد خلصت في دراستي هاته إلى النّتائج التّالية :

أوّلا : تعدّ كلمات القرآن الكريم اللّبنات الأساسة التي بني عليها الكلام ، ويميّزها أنّها بلفظها ومضمونها قد وفّت بالغرض ، و أنّ لفظا آخر ــ كيفما كان ــ لن يستطيع أن ينوب منابها،و أنّ القرآن لا يذكر كلمة أو حتى حرفا حيث يذكر ، و لا يحذف حيث يحذف إلاّ لمعنى بلاغيّ و لا يقدّم و لا يؤخّر ، و لا يذكّر و لا يؤنّث ، و لا يُفرد و لا يثنّي و لا يجمع ، إلاّ حيث يقتضي المقام ذلك و تستدعي المناسبة أن يكون ،و قد استطاع ابن عاشور بحسّه المرهف ، ونظره النّافذ أن يستكشف ذلك كلّه، و يستخرج لطائف بلاغيّة تدلّ على براعة النّظم القرآنيّ.

ثانيا : لئن كان ابن عاشور قد اهتمّ بالكلمة القرآنيّة و بيّن قيمتها، فلأنّها الرّكيزة التي تتشكّل منها الجمل ، و لا قيمة للّفظ ــ كما قال عبد القاهر ــ إلاّ إذا استعمل في سياق يُظهر شرفه وتمكُّنه ، و لّما كانت الآية القرآنيّة إنّما هي جمل يشدّ بعضها بعضا ، و تربطها رابطة التّناغم والتّآخي ، و جدنا ابن عاشور يحرص على تحليل الجمل ، ويظهر ما فيها من معان بلاغيّة .

وكثيرا ما كان يقرأ هذه الآيات قراءة تصلها بما جاورها من كلام ، و ينظر إليها من خلال الأساس الذي بنيت عليه السّورة ، فقد تكون السّورة مبنيّة على أساس إبطال شُبه أهل الكتاب فيقتضي المقام أن تخرج الجملة الخبريّة مخرجا معيّنا ، و لئن كان الزّمخشريّ سبق إلى هذا ، فإنّ ابن عاشور زاد عليه ، و ناقش آراءه في غير ما مناسبة ، كما توصّل إلى إيجاد تفسير لبعض الآيات التي تبدو معضَلة في مواضعها التي ذُكرت فيها .

ثالثا: لقد أكثر من الحديث عن القصر ، و نبّه إلى أنّه يقوم مقام جملتين مؤكِّدتين

و تفرّد بأن نبّه إلى نوع لم يذكره علماء المعاني ، و هو القصر الحقيقيّ المقيّد و هو نوع مغاير للقصر الإضافيّ.

و كذلك القصر على المتعلّق بتلك الصّفة تبعا لمتعلّقه ، و الذي يقوم مقام قصرين .و لم تعرف العرب له مثالا.

و لم يمنع ابنُ عاشور تعدّدَ الأنواع المفادة من القصر، إذا كانت العبارة تسمح بذلك ، فأبدع أيّما إبداع و هو يورد الرّأي و مثله بشأن الآية .

رابعا :التفت ابن عاشور في مناسبات كثيرة إلى ظاهرة الرّعاية على الفواصل ، و هو أمر يتعلّق بالجانب الصّوتيّ ، فبيّن أنّه و إن روعيت الفاصلة ، فإنّ التّقديم أو التّأخير في أجزاء الكلم ما جاء إلاّ لمعنى بلاغيّ ، تحقّق منه جمال الصّوت ، و الوفاء بالمعنى ، و قلّ أن تجتمع هاتان الغايتان لأديب مهما يكن .

خامسا : اهتمّ بمطالع السّور و نهاياتها ، مؤمنا بأنّ في بداية كلّ سورة إشارة إلى مضمونها ، و في الخاتمة عود على بدء ، يكون أحيانا ردّ عجز على صدر ، أوحسن مقطع ، و يؤكّد الفكرة التي أقيمت عليها السّورة ، و في السّورة ذاتها من فنون التّنقّلات و التّقابل و حسن التّخلّص و الذّكر و الحذف ما يجعلها وحدة فنّية يقع بها التّحدّي .

سادسا : اعتنى كثيرا بالتّناسب في القرآن الكريم ، فراح يفسّر الآية و علاقتها بما يسبقها و ما يلحق بها ، بل و علاقتها بموضوع السّورة ، كما بيّن تناسب التّعقيبات القرآنيّة مع الآية التي سيقت لها و مع السّورة كذلك ،و كان يعدّ التّناسب مظهرا من مظاهر الإعجاز .

سابعا : سجّل ابن عاشور رأيه بخصوص التّراكيب التي خرج فيها القرآن عن سنن العرب وعدّها من المبتكرات التي لم يعهدوها ، فقد قال في الآية من سورة النّساء ـــ و هو يفسّر معنى اسم الإشارة فيها :« و هؤلاء إشارة إلى الذين دعاهم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لحضورهم في ذهن السّامع عند سماعه اسم الإشارة . و أصل الإشارة يكون إلى مشاهد في الوجود أو منزّل منزلته . وقد اصطلح القرآن على إطلاق إشارة (هؤلاء) مرادا بها المشركون و هذا معنى أُلهِمنا إليه ».

و في الأخير نستطيع أن نقول إنّ ابن عاشور تدارك على الزّمخشريّ وغيره من المفسّرين فيما يتعلّق بموضع بعض الآيات و مناسبتها للسّياق اللّغويّ الذي وردت بشأنه ، بل لقد أضاف أشياء لم يلتفتوا إليها ، مثل استكشافه للقصر المقيّد ، و قد بسط القول في تعليل التّراكيب و مستتبعاتها أكثر من الزّمخشري و البيضاوي و ابن عطيّة ، و نلفت الانتباه إلى أنّ كلّ فنّ من فنون علم المعاني في تفسير " التّحرير و التّنوير " حقيق بأن يُخصّ بدراسة ، لوفرة الشّواهد فيها و تنوّعها مع عمق تحليلها و استنباط اللّطائف منها ، خاصّة ما تعلّق بالأسلوبيّة في الدّراسات الحديثة ، أو بعض فروع علم اللّغة الأخرى .

وللعلم، فإنّ هذه الدراسات التي ميّزت أعمال الطاهر بن عاشور، تلتقي مع أحدث الدراسات اللغوية البينية التي تعتمد على علوم كثيرة لملامسة معانٍ لم يعهدها القدامى في الفراغات التركيبية الدّالة ، كما هو الحال في المُشار إليه أعلاه من الآية التي ركزت فيها على اسم الإشارة "هؤلاء"، وغيرها من ما يستدعي فنونا كلامية تقف على حدودها المعاني البلاغية في مثل الدراسات الصوتية " قسمة ضيزى"، ثم في مثل الصور " كأنها حمر مستنفرة فرت من قسورة" ،

إشارة إلى تدخل عدد من المجالات العلمية والاستفادة من الحقول المعرفية للوقوف على هذا التفسير.....

ولذلك ، نعتقد أنّ هذا العمل يحتاج إلى معالجات من زوايا متعددة، تمثل اختلاف وجهات النظر التي تضع لمساتها وفق متطلبات و خلفيات معرفية غير محددة.

هذا ، و ما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت و إليه أنيب .

الفهارس العامّة

1 ـــ فهرس الآيات القرآنيّة .

2 ـــ فهرس الأحاديث النّبويّة .

3 ـــ فهرس القوافي .

4 ـــ فهرس المصادر و المراجع .

5 ـــ فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات [1]

سورة الفاتحة:

219/5، 222/5،224/5 .

سورة البقرة:

8/24، 26/2،35 - 58 /27،41/143، 55/166 . 63/20 . 77/93 . 84/119. 90/2 . 100/7. 102/167. 103/223

104/80، 107/8، 114/158، 83- 119/272، 228/ 120 ، 130/164، 135/256، 197/ 136،

140/245، 143/253، 150/96، 158/233. 233 /159 . 160/144، 134 -171/40، 175/12، 181/120 ،

26-27-30-32/190 ، 181، 192/127، 134/256-178/ 102. 14/206، 16-27 /209. 127/212، 28-29/215،

217/219، 102/ 220 .181/224، 134/250، 194/256، 126/ 259، 143/ 261، 62/263 . 119/264،

3-271/4، 144-150-152-153-154/274، 59-167/276، 59-165/277. 40/293، 26/295. 26/296، 17-18-

19/297 26-91-94-105/298، 188/299. 91-94-105/300 . 256/301. 74/345. 77-74/354.

سورة آل عمران :

172 - 104/15، 14/57، 188/80، 128/ 80، 23/85، 106/88، 10/92، 133/94 . 24/104

181/112، 160/131، 36/134، 3– 97/136، 36/145، 63/162، 184/187، 144/194، 104/196، 7/198.

147/201، 144/205، 72-73/214، 54/241، 183- 184/316.

سورة النساء :

---

[1] – رقم الآية قبل الخطّ ، و رقم الصّفحة بعده .

13/157،14/83، 30/29، 46/1 - 47، 49/176، 50/90 ، 63/9، 66/171، 68/46، 71/38-37، 74/90، 79/6،

82/128، 85/34، 89/26، 92/17، 94/6، 200/171، 240/107، 307/1.

سورة المائدة

3/6، 66/117، 74/13، 77/3 – 164، 114/64، 161/94، 176/17، 180/33، 51- 52 - 53 - 54 - 198/55

222/2، 216/2، 217/90، 1 / 308.

سورةالأنعام :

27/139، 111 - 38/113 ، 42/150، 43/147 ، 54/94، 74/16، 90/155 ، 101/46، 110/163،

132/107، 139/130- 143/1، 172/160، 174/52، 176/117. 177/133، 213/47، 218/32، 221/123،

224/48، 248/115، 128- 249/140، 250/135، 151 - 257/152، 270/112 ، 147-

283/150، 284/133، 289/145 .

سورةالأعراف :

47/155، 52/80، 87/59 ، 99/57، 44 / 110 ، 115/54، 116/153، 122/52، 10 - 123/53، 133/48، 137/34

4 / 149 ، 33 / 177 ، 184 / 182 ، 163/43، 214/187، 40-239/41، 42- 54- 55- 273/57، 278/40، 1-

308/2 .

سورة الأنفال :

15/24، 80/51، 82/65، 174/24، 2- 219/4، 240/58، 243/42، 289/47.

سورة التوبة :

14/114، 16/80، 39/3، 12 -37 - 40/72، 41/2، 59/47، 60/11، 65/69، 69/62، 84/95، 79/95 ،

84/59، 85/45، 14 - 88/15، 39 - 95/72، 108/11، 123/124، 135/122، 141/41، 101/ 150، 151/81، 44-

166/45، 178/28، 187/60، 210/65، 215/37، 10 - 67 /216، 20 /221، 18- 43 - 225/44، 226/13،

227/45، 229/6 ، 230/7، 244/22، 245/4، 24/5، 247/103 - 47 - 40، 248/110، 256/108 - 36، 260 /81، 271/47 - 44، 280 /37، 281/2، 282/72 - 12 - 3، 351/32.

سورة يونس :

41/33، 43/60، 78/94، 81/12، 91/58 - 3 -1 ، 123/6، 258/3، 266/68 - 67-66، 284/60، 285/43-42، 315/109.

سورة هود:

22/48، 36/11، 95/97، 90/13، 95/97، 108/103، 109/45، 125 /37، 126 / 7، 135/54 148/103، 29-14 -15 -16/264...

سورة يوسف:

2/2، 9/80، 13/42، 14/23، 49/85، 55/35، 67/18 ، 83/70 - 55، 89/ 72، 95/76، 134/101. 170/26، 255/99، 280/90، 314/111-102، 340/29.

سورة الرعد:

76/3، 79 -86 /17، 93/5، 173/14، 189/26 -1، 222/19 -7.

سورة إبراهيم :

37/25، 189 - 188 /4، 318/34-32-30-28.

سورة الحجر:

9/94، 99/22، 126/95، 148/ 13 -12 -2، 152/16، 168/43، 182/89 ، 235/87، 279/6.

سورة النحل :

8/90 ،44/37 ،96/48، 101/108، 102/77 ، 160/23 ، 197/17 ، 198/103، 200/10، 204/40، 208/51.

220/53، 259/97، 317/18، 318/4 .

سورة الإسراء:

74/104، 102/36، 144/67، 193/64، 238/81.

سورة الكهف :

78 - 82 - 97 /45 ، 52/48، 72/79، 75/14، 149/48، 196/110، 313/109.

سورة مريم :

89- 90/242، 97/ 314 .

سورة طه :

84/12، 117/54، 121/37-36، 54 / 124 ، 142/56، 127/14، 232/120، 25- 233/26

سورة الأنبياء :

38/23، 64/17، 145/83، 167/35، 173/19، 195/45، 28/ 258، 265/38-37-36، 266/38

1- 304/107، 2- 7- 11 - 30 - 107- 305/108، 42- 46 -306/97.

سورة الحج :

37/4، 40 - 48/41 ، 126/77، 187/64، 204/73، 214/62، 222/49، 295/73.

سورة المؤمنون:

41/17، 124/12، 1 / 126 ، 127/10، 109- 151/110، 117 - 191/118، 239/53، 280/17، 288/102،

309/1، 86- 332/87.

سورة النور :

.221/51-47،201/62

سورة الفرقان :

5- 4/ 8، 20/40، 90/15، 142/3، 146/30، 164/60، 206/4، 23/288، 68/ 322، 1 / 323

7-21 - 32/324، 60- 77/325، 1/326، 2-3/329، 1-2- 3- 4 - 24/330، 1- 2/331، 2-3/332، 4/333، 1-7- 8 - 9 /334، 8- 21/335، 23 - 30 - 35 /336، 10- 32- 36/337، 10/338، 16/339، 35- 36/340، 41/342 ،42/343، 32- 45 – 74/344، 3 - 6 - 15 - 20 - 31 - 32 - 35 /345، 45/346، 47-51- 52/347، 1/348، 32 - 43 - 51 - 52 - 53/349، 54- 56 - 57/350، 50/351، 74/352، 74- 77/353، 77/354 .

سورة الشعراء :

111 /51، 91- 92/57، 61 / 154 ، 97-98- 99/147، 61- 113/154، 210-211-212/199 ، 78/207 113/217، 131-132- 133- 134/232، 105- 106/300.

سورة النمل :

73/23، 16/118، 4/129، 86/144، 92/205، 81/235، 80/237، 80/261، 85- 86-87/272.

سورة القصص :

50/30، 23- 24/61.

سورة العنكبوت :

49/14، 43/31، 18/152، 50/203، 41/296.

سورة الروم :

16/27، 17/19، 2- 3- 109/4، 153/41، 272/27.

سورة لقمان :

1-309/2.

سورة السجدة :

23 - 22 /132.

سورة الأحزاب :

60/35. ، 37- 83/64، 111/17، 121/18، 128/72، 140/21، 44- 45- 317/46.

سورة سبأ :

75/11، 167/50، 186/6، 194/43، 223-196/49، 238/17 ، 272/45، 310/1.

سورة فاطر :

37/6، 36- 42/37، 50/41، 29- 133/30، 166/43، 168/6، 178/28، 207/18 - 230 - 241، 223/23 ، 5-

233/6، 236/18 ، 31 - 242/41، 2 / 244 ، 262/28 ، 36-281/37 ، 316/25.

سورة يس :

21/60 ، 161/76 ، 207/18 ، 237/21.

سورة الصافات :

11-120/12 ، 20-138/21 ، 145/35، 174/47، 165- 181/166.

سورة ص:

69- 183/70 ، 8/243.

سورة الزمر:

8- 70/9 ، 75/42 ، 124/42 ، 2 - 137/10 ، 194/46 ، 205/41 ،2 - 66/ 213

56-57- 328/59.

سورة غافر:

62 / 87 ، 88/61 ، 122/34 ، 47/129.

سورة فصلت:

39/50 ، 47/13 ، 14/ 64 ، 76/50 ، 162/6 ، 5- 188/44 ، 243/54 ، 286/50 .

سورة الشورى :

37/24، 38/45 ، 81/15 ، 18/ 82 ، 86/25 ، 32-118/35 ، 158/52 ، 162/14 ، 191/48 ، 5- 245/23.

26 - 254/27 ، 268/22، 39-40-269/41 ، 9- 40- 287/50 ،3- 313/52.

سورة الزخرف:

128/73 ، 77/45 ، 165/89 ، 30- 31 - 231/36، 31-246/32 ، 268/11 ، 22-269/23.

سورة الدخان:

115/3، 34 - 35 /130 ، 58- 315/59.

سورة الجاثية:

102/23 ، 124/3 ، 191/32 ، 192/33 .

سورة الأحقاف :

101/26 ، 99/27 ، 157/4 ، 28 - 139/33 ، 24/ 184 .

سورة محمّد :

67/21 ، 141/38 - 179 ، 185/18 ، 141/38-179 ، 197/38. 328/2 . 329/1

سورة الفتح :

170/4 ، 178/10 ، 189/10 ، 317/8 .

سورة الحجرات :

3/11 ، 117/18 ، 7- 8/ 152 - 157، 163/13 ، 177/7 ، 179/15، 287/13 .

سورة ق :

16/15، 102/22 ، 125/7 ، 156/23 ، 157/45.

سورة الذاريات :

193/42 ، 203/58 ، 237/23 ، 54-254/55 ، 270/53.

سورة الطور :

279/21 .

سورة النجم :

43 /60 ، 102/17 ، 28- 225/29 ، 255/1 ، 33 - 271/32 ، 23-279/47.

سورة القمر :

8/2 ، 340/48 .

سورة الرحمان :

70/5 ، 76/24 ، 167/72 .

سورة الواقعة :

57/83، 97/41 .

سورة الحديد :

218/20 .

سورة المجادلة :

19/22-19 .

سورة الحشر :

216/10 .

سورة الممتحنة :

176/6 ، 219/9 .

سورة الصف :

184/9 ، 352/8 .

سورة الجمعة :

310/1 .

سورة المنافقون :

173/7، 197/9، 267/11 .

سورة التّغابن :

14/16 ، 108/9 ، 170/1 ، 184/ 9 ، 197/ 2 ، 220/1 ، 234/16 ، 260/2 ، 261/18 ، 7- 9/268.

8- 278/13 ، 285/3 ، 15/ 288.

سورة الطلاق :

1/ 260- 268 .

سورة التّحريم :

27/4 ، 235/4 .

سورة الملك :

3- 103/4، 15-184/27، 203/23، 311/1.

سورة القلم :

20/25، 169/23.

سورة المعارج :

96/40 ، 36-99/37 ، 105/10، 1- 4 - 314/44 .

سورة نوح :

5- 6 - 113/26 ، 129/1 .

سورة الجنّ:

185/26.

سورة المزّمل:

8- 97/9، 161/20، 176/6.

سورة المدّثر:

8/24 ، 182/21 .

سورة القيامة:

56/26، 288/39 .

سورة الإنسان :

23 - 24 / 111

سورة النّبأ:

21- 22-31- 32- /17،34- 35/18، 130/27، 154/40، 1- 2- 3/ 312 .

سورة النّازعات:

15- 26/16، 102/12 .

سورة عبس:

1-153/2 .

سورة التكوير :

. 144/27-27

سورة الأعلى :

. 63/7-6

سورة الضحى :

كاملة /59

سورة الشرح :

. 234/6 -5 -1

سورة النصر :

. 32/1

سورة الإخلاص :

. 171/2

فهرس الأحاديث النبويّة[1]

الحديث — **الصّفحة**

الحديث	الصّفحة
ـــ قسَمْتُ الصَّلاَةَ (أي سورة الفاتحة) بَيْني وَ بيْنَ عَبْدي نصْفَيْن ...	11
ـــ ما منعك أن تجيبني ؟ فقلت : يا رسول الله كنت أصلّي...	15
ـــ يُحشر النّاس يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، كما بدأنا أوّل خلق نُعيده	16
ـــ خيّرني ربّي و سأزيد على السّبعين ...	16
ـــ إنّ أحدَكُم ليَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنّةِ ...	65
ـــ وَ اسْتفْتِ قلبَكَ...	78
ـــ نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ...	110
ـــ أطْعِمِيهم بالمعْرُوفِ ...	172
ـــ وَ منْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِندَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً...	172
ـــ الحَمْدُ رَأ سُ الشُّكْرِ،لَمْ يَشْكُرِ الله عَبْدٌ لَمْ يَحْمَدْهُ...	220
ـــ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أخيهِ فَإنَّمَا ...	225
ـــ لَعَلَّ الله أن يُخرِجَ مِنْ أصْلاَبِهِم من يَعْبُدُهُ .	242
ـــ أنْ لاَ يَقُولَ أحَدُكُمْ : اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ ، فَإنَّهُ لاَ مُكْرِهَ لَهُ...	255
ـــ فليُذَادَنَّ أقْوَامٌ عَنْ حَوْضِي فَأقُولُ يَا رَبِّ أمَّتِي فيُقَالُ ...	262
ـــ إنّي لأتْقَاكُمْ لله وَ أعْلَمُكُمْ بِهِ ...	280
ـــ إنّي سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقْرِئْنِيها ...	322

[1] – الأحاديث مرتّبة حسب ورودها في البحث .

فهرس القوافي

أ ــ الأبيات: **الصّفحة:**

(الهمزة)

مَا أَدْرِي	... أمْ نِسَاءُ	زهير بن أبي سلمى	3

(الباء)

لَئِنْ كُنْتَ	...وَ أَكْذَبُ	النّابغة الذّبياني	58
و لَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ	...المُهَذَّبُ	النّابغة الذّبياني	238
فَإنْ تَسْأَلُونِي	...طَبِيبُ	علقمة الفحل	150
وَ مَنْ يَكُ	...لَغَرِيبُ	ضابئ بن الحارث	69

(الحاء)

و مَا الدَّهْــرُ	...أَكْدَحُ	ابن مقبل	68

(الدّال)

سَبَقْتَ الرِّجَالَ	...الطَّوَارِدِ	النّابغة الذّبياني	110
وَ إنْ شِئْتَ	...يَشْهَدِ	أبو العلاء المعرّي	64

(الرّاء)

أحَــلَّ بِهِ	...اغْتِرَاراً	الأعشى	192
عَلْقَمَ ، لاَ	...وَ الوَاتِرِ	الأعشى	244
لَكَ الخَيْرُ	... عَــاثِراً	النّابغة الذّبياني	3
أمَاوِيَّ مَا يُغْنِي	...الصَّدْرُ	حاتم الطّائي	56
كَتَمتُكَ لَيْلاً	...وَ ظَاهِرا	النّابغة الذّبياني	326

(الضّاد)

و ثَــــنايَاكِ	...وَميضُ	أبو تمّام	311

(العين)

إنَّ الذينَ تَرَوْنَهُم	...تُصرَعُوا	عبدة بن الطّيّب	141
وَ لَوْ شِئْتُ	...أوْسَعُ	إسحاق الخريمي	64

(القاف)

فَذَاكَ وَ لَمْ يُعْجِزْ	...لاَ يَتأَبَّقُ	الأعشى	4

(اللاّم)

فَإنْ تَفُقِ الأنَامَ	...الغَزَالِ	المتنبّي	344
فَكُلُّنا مُغْرَمٌ	...و مُحْتَبِلُ	الأعشى	4
وَ بَلْدَةٍ مِثْلِ	... زَجَلُ	الأعشى	138
وَ يَوْمَ عَقَرْتُ	...المُتَحَمِّلِ	امرؤ القيس	327
أَسْتَغْفِرُ اللهَ	...و العَمَلُ	غير منسوب	48
فَظَلُّوا وَ مِنْهُمْ	...بِالهَمْلِ	ذو الرُّمّة	68
سَلِي إنْ جَهِلْتِ	...وَ جَـــهُولُ	السّموأل	86

(الميم)

فَلَقَدْ أَرَانِي	...وَأَمَامِي	قطريّ بن الفُجاءة	99
هلاَّ سَأَلْتِ	...البَرِمَا	النّابغة الذّبياني	353
يُخْبِرْكَ ذُو	...مَنْ عَلِمَا		
تَكْتُمُنَّ اللهَ	...اللهُ يَعْلَمِ	زهير بن أبي سلمى	150

يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ	...فَيُنْقَمِ		
ألاَ يَا سَنَا	... كَـــرِيمُ	غير منسوب	339
فسَقَى دِيَارَكَ	...تَهْمِي	طرفة بن العبد	253

(النّون)

قَالُوا "خُرَاسَانُ	... خُراسَانَا	عبّاس بن الأحنف	340
نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ	...أنْ تَشْتُمُونَا	عمرو بن كلثوم	50

(الهاء)

مَتَى يَأتِ	...قَضَاءَهَا	قيس بن الخطيم	90
أَلَمْ تَرَ أنَّ	...مِن بِقَاعِهَا	إياس بن قبيصة	138

ب ــ أنصاف الأبيات :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسْمَاءُ	الحارث بن حلّزة	326
لِخَوْلَةَ أطْلاَلٌ بِبُرْقَةَ ثَهْمَد	طرفة بن العبد	326
فإنَّـــمَا هِيَ إقْــبَالٌ وَ إدْبَــارٌ	الخنساء	218
و لَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ	غير منسوب	21
فَهُنَّ وَ وَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ	زهير بن أبي سلمى	243
سَلِي إنْ جَهِلْتِ النّاسَ عَنَّا وَ عَنْهُم	السّموأل	77
سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشِدَّتِنَا	زيد الخيل	78

فهرس المصادر

*** القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.**

1 ـــ ابن الأثير ضياء الدّين ، المثل السّائرفي أدب الكاتب و الشّاعر ، قدّمه و علّق عليه : د. أحمد الحوفي ، و د . بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ـــ القاهرة ، دط ، دت.

2 ـــ الإسكافي أبو عبد الله محمّد بن عبد الله ، درّة التّتزيل و غرّة التّأويل ، اعتنى به خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ـــ بيروت ـــ ط1 ، 1422 هـــ/ 1002 م .

3 ـــ ابن أبي الأصبع المصريّ ، تحرير التّحبير في صناعة الشّعر و النّثر و بيان إعجاز القرآن ، تقديم و تحقيق : د . حنفي محمّد شرف ، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة ـــ لجنة إحياء التّراث العلميّ دط ، دت.

4 ـــ الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، الدّيوان ، شرحه و قدّم له : مهدي محمّد ناصر الدّين ، دارالكتب العلميّة — بيروت - ، ط 3 ، 1424 هـــ - 2003 م.

5 ـــ الأنباري أبو بكر محمّد بن القاسم بن محمّد بن بشّار بن الحسن،إيضاح الوقف و الابتداء تحقيق:الشّيخ عبد الرّحيم الطّرهونيّ ، دار الحديث ـــ القاهرة ـــ ، دط ، 1428 هـــ/ 2007 م.

6 ـــ ابن أنس مالك ، الموطّأ ، دط ، دار الحديث ـــ القاهرة ، 1425 هـــ 2004 م.

7 ـــ الأنصاريّ أبو محمّد عبد الله جمال الدّين بن هشام ،مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب ، دار الجيل ـــ بيروت ـــ ، ط1 ،1411 هـــ / 1991 م .

8 ـــ الباقلاّني أبو بكر ، إعجاز القرآن ، تحقيق : محمّد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ـــ بيروت ط1 ، 1411 هـــ / 1991 م.

9 ــ البخاري أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل ،صحيح البخاري ، دار ابن كثير ــ دمشق ــ ط1 1423 هــ / 2002 م .

10 ــ البغداديّ عبد الكريم ، الإكسير في علم التّفسير ، تحقيق:د . عبد القادر حسين ، المطبعة النّموذجيّة،دط ، 1977م .

11 ــ البغويّ الحسين بن مسعود ، شرح السّنّة ، حقّقه و علّق عليه و خرّج أحاديثه : شعيب الأرناؤوط ، المكتب الإسلاميّ ، ط1 ، 1403 هــ / 1983 م.

12 ــ البقاعيّ برهان الدّين أبو الحسن إبراهيم بن عمر ، مصاعد النّظر للإشراف على مقاصد السّور ، قدّم له ، و علّق عليه و خرّج أحاديثه : د . عبد السّميع محمّد أحمد حسنين ، مكتبة المعارف ــ الرّياض ، ط 1 ، 1408 هــ / 1987 م .

– نظم الدّرر في تناسب الآيات و السّور عني بطبعه مجلس دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد بالهند ، دط ، 1969 م .

13 ــ التّبريزيّ يحي بن الخطيب ، شرح ديوان أبي تمّام ، قدّم له و وضع هوامشه و فهارسه : راجي الأسمر ، دار الكتاب العربيّ ــ بيروت ــ ، ط 2 ، 1414 هــ / 1994 م.

– شرح القصائد العشر ، قدّم له و وضع هوامشه و فهارسه : فوّاز الشّعار ، مؤسّسة المعارف ــ بيروت ــ ، دط ،1427 هــ / 2006 م.

14 ــ التّفتازاني سعد الدّين مسعود بن عمر ، المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم ، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلميّة ، ط3 ، 1434 هــ / 2013 م .

15 ــ ابن ثابت حسّان ، الدّيوان ، دار بيروت للطباعة و النشر دط،دت .

16 ــ الجرجاني عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرّحمن ، دلائل الإعجاز ، قرأه و علّق عليه ، أبو فهر محمود محمّد شاكر ، مكتبة الخانجي ــ القاهرة ، ط5 ، 1424 هــ / 2004 م .

ــ الرّسالة الشّافية (ضمن ثلاث رسائل) ، تحقيق و وتعليق محمّد خلف الله أحمد ، و الدّكتور محمّد زغلول سلام ، دار المعارف ــ مصر ، ط 3 ، 1976 م.

17 ــ الجرجاني عليّ بن محمّد السّيّد الشّريف ، الإشارات و التّنبيهات في علم البلاغة ، مكتبة الآداب ، دط ، 1418 هــ / 1997 م .

ــ التّعريفات ، اعتنى به مصطفى أبو يعقوب ، مؤسّسة الحسنى ، ــ المغرب ، ط1، 1427 هــ / 2006 م.

ــ حاشية الشّريف الجرجانيّ على كشّاف الزّمخشريّ ؛ دط ، طهران ، دت .

18 ــ ابن الجزريّ محمّد بن محمّد بن عليّ بن يوسف، تقريب النّشر في القراءات العشر ، قدّم له و علّق عليه : جمال الدّين محمّد شرف ، دار الصّحابة للتّراث بطنطا، دط ، د ت.

19 ــ ابن جزيّ أبو القاسم أحمد بن محمّد ، التّسهيل لعلوم التّنزيل ، ضبطه و صحّحه و خرّج آياته : محمّد سالم هاشم ، دار الكتب العلميّة ، ط 1 ، 1415 هــ / 1995 م.

20 ــ ابن جعفر أبو الفرج قدامة بن قدامة بن زياد ، نقد الشّعر ، تحقيق : كمال مصطفى مكتبة الخانجي ــ القاهرة، ط3 ، 1398 هــ / 1978 م .

21 ــ ابن جنّي أبو الفتح عثمان ، الخصائص ، تحقيق : محمّد عليّ النّجّار ، دط ، المكتبة العلميّة ، 1376 هــ / 1957 م.

ــ المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات و الإيضاح عنها دراسة و تحقيق : محمّد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلميّة — بيروت ، ط1، 1419 هــ — 1998 م.

22 ــ ابن الجوزيّ أبو الفرج جمال الدّين عبد الرّحمن بن علي بن محمّد ، زاد المسير في علم التّفسير ، دار ابن حزم ، ط1 ،1423 هـ / 2002 م.

23 ــ ابن الحاجب أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف ، الإيضاح في شرح المفصّل ، تحقيق و تقديم :د . موسى بنّاي العليلي ، مطبعة العاني ــ بغداد ، دط ،1983 م.

24 ــ ابن الحجّاج أبو الحسين مسلم صحيح مسلم المسمّى : المسند الصّحيح المختصر من السّنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : ، اعتنى به : أبو قتيبة نظر محمّد الفاريابي، دار طيبة ، ط1 ، 1427 هـ / 2006 م.

25 ــ بن حلّزة الحارث ،الدّيوان ، جمعه و حقّقه و شرحه : إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربيّ بيروت ــ ، ط 1 ،1411 هـ / 1991 م.

26 ــ الحمْوي تقيّ الدّين أبو بكر عليّ المعروف بابن حجّة،خزانة الأدب و غاية الأرب ، شرح: عصام شعيتو ، دار و مكتبة الهلال ــ بيروت ــ ، ط1 ، 1987م..

27 ــ ابن حنبل أحمد ، المسند ، حقّقه و خرّج أحاديثه و علّق عليه : شعيب الأرناؤوط و عادل مرشد، مؤسّسة الرّسالة ، ط1 ،1416 هـ / 1995 م.

28 ــ أبو حيّان الأندلسيّ أثير الدّين أبو عبد الله محمّد بن يوسف ،البحر المحيط ، ط1 ، مطبعة السّعادة ــ مصر ، 1328 هـ .

29 ــ ابن خالويه أبو عبد الله الحسين بن أحمد،مختصر في شواذّ القرآن من كتاب البديع ، مكتبة المتنبّي ــ القاهرة ، دط ، دت.

30 ــ الخطّابي أبو سليمان حمد بن محمّد ، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) ، تحقيق

و وتعليق : محمّد خلف الله أحمد ، و الدّكتور محمّد زغلول سلام ، دار المعارف ـــ مصر ، ط3 1976م.

31 ـــ ابن الخطيم قيس ، الدّيوان تحقيق : د ناصر الدّين الأسد ، دار صادر ـــ بيروت ، دت.

32 ـــ الخفاجي أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن سعيد بن سنان ، سرّ الفصاحة ، ط1 ، دار الكتب العلميّة ، 1402 هـــ / 1982 م.

33 ـــ ابن خلدون وليّ الدّين عبد الرّحمن بن محمّد ، مقدّمة ابن خلدون ، حقّق نصوصه و خرّج أحاديثه و علّق عليه: عبد الله محمّد الدّرويش ، دار يعرب ، ط 1 ، 1425 هـــ / 2004 م.

34 ـــ الخنساء تماضر بن عمرو بن الحرْث بن الشّريد بن رياح بن امرئ القيس،الدّيوان،دط مطبعة التّقدّم التّجاريّة ـــ مصر ، دط ،1348 هـــ.

35 ـــ الدَّامَغاني الحسين بن محمّد ، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه و النّظائر في القرآن الكريم حقّقه و رتّبه و أكمله و أصلحه : عبد العزيز سيّد الأهدل،دار العلم للملايين ،ط4 ، 1983 م.

40 ـــ الدّمياطيّ أحمد بن محمّد بن عبد الغنيّ البنّا ، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر تحقيق : الشّيخ عبد الرّحيم الطّرهوني ، دار الحديث – القاهرة ، دط ،1430 هـــ – 2009 م.

41 ـــ الرّازي أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا ، الصّاحبيّ في فقه اللّغة العربيّة و مسائلها و سنن العرب في كلامها ، حقّقه و ضبط نصوصه و قدّم له : د. عمر فاروق الطّبّاع ، مكتبة المعرف ـــ بيروت ، ط1 ، 1414 هـــ / 1993 م.

42 ـــ الرّازي محمّد فخر الدّين بن عمر ، التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، دار الفكر ، ط1 1401 ، هـــ / 1981 م.

–نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، دار الجيل – بيروت – ، ط 1 ، 1412 هـــ / 1992.

43 ـــ ابن ربيعة مهلهل ، الدّيوان ، شرح و تقديم : طلال حرب، دط ، الدار العالمية، دت .

44 ـــ الرّمّاني عليّ بن عيسى ، النّكت في إعجاز القرآن(ضمن ثلاث رسائل) ، تحقيق وتعليق محمّد خلف الله أحمد ، و الدّكتور محمّد زغلول سلام ، دار المعارف ـــ مصر ـــ ،ط3، 1976م .

45 ـــ ذو الرُّمّة غيلان بن عقبة ،الدّيوان ، اعتنى به و شرح غريبه : عبد الرّحمن المصطاوي ، دار المعرفة ـــ بيروت ـــ ، ط1، 1427 هـــ / 2006 م .

46 ـــ ابن الزّبير أحمد بن إبراهيم الثّقفي ، البرهان في تناسب سور القرآن ، تحقيق و تقديم : د . سعيد بن جمعة الفلاّح ، دار ابن الجوزيّ ، ط 1 ، 1428 هـــ .

47 ـــ الزّركشي بدر الدّين محمّد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن ،تحقيق أبي الفضل الدّمياطي ،دار الحديث ، دط ، 1427 هـــ / 2006 م .

48 ـــ الزّمخشري أبو القاسم محمود بن عمر ،الكشّاف عن حقائق التّنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التّأويل ، دار إحياء التّراث العربيّ ، ط2 ،1421 هـــ /2001م.

49 ـــ السّبكي بهاء الدين ، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح تحقيق : عبد الحميد هنداوي المكتبة العصرية ـــ بيروت ، ط1، 1423 هـــ / 2003 م .

50 ـــ السّجستاني أبو بكر محمّد بن عزيز ، غريب القرآن المسمّى (نزهة القلوب) ، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة ، دط، 1990 م.

51 ـــ السّجلماسيّ أبو محمّد ، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، تحقيق : د . علاّل الغازي مكتبة المعارف – الرّباط ، ط1 ، 1980م .

52 ــ السّدّي الكبير أبو محمّد إسماعيل بن عبد الرّحمن ، تفسير السّدّي الكبير ، جمع و دراسة و توثيق:محمّد عطا يوسف ،دار الوفاء للطّباعة و النّشر ــ مصر ، ط1، 1414 هــ / 1993 م.

53 ــ السّكّاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمّد بن عليّ ، مفتاح العلوم ، ضبطه و كتب هوامشه و علّق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلميّة ــ بيروت ــ ، ط 2 ، 1407 هــ / 1987 م.

54 ــ ابن أبي سُلمى زهير،الدّيوان ، تحقيق كرم البستاني ، دار بيروت للطّباعة، دط،1402 هــ /1982 م.

55 ــ السّهيليّ أبو القاسم عبد الرّحمن بن عبد الله ، نتائج الفِكَر في النّحو ، تحقيق : د . محمّد إبراهيم البنّا ،ط 3 ، دار الرّياض للنّشر و التّوزيع ،دت.

56 ــ سيبويه أبو بشر عمرو بن قنبر ، الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل ــ بيروت ، ط1 ، دت .

57 ــ السّيوطي جلال الدّين عبد الرّحمن بن الكمال ، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، دار التّراث ــ القاهرة ، دط ، دت .

- تناسق الدرر في تناسب السور، مطبعة عالم التراث ــ دمشق ــ ، د ط ، 1404هــ / 1983 م.
- شرح عقود الجمان في علم المعاني و البيان ، دار الفكر، دط ، دت .

58 ــ شرف جمال الدّين،مصحف دار الصّحابة في القراءات العشر من طريق الشّاطبيّة و الدّرّة دار الصّحابة للتّراث – طنطا ، ط1، 1425 هــ – 2004 م.

59 ــ الشّوكاني محمّد بن عليّ بن محمّد، فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية و الدّراية من علم التّفسير ، تحقيق : د . عبد الرّحمن عميرة ، درا الوفاء للطّباعة النّشر ــ المنصورة ــ مصر ، ط1 1415 هـ / 1994 م.

60 ــ الطّائيّ حاتم بن عبد الله ،ديوان شرحه و قدّم له : أحمد رشاد، دار الكتب العلميّة بيروت ط 3 ، 1422 هـ / 2002 م.

61 ــ الطّائيّ زيد الخيل ، الدّيوان جمع و دراسة و تحقيق : د . أحمد مختار البرزة ، دار المأمون للتّراث ، ط1، 1408 هـ – 1988م.

62 ــ الطّبريّ محمّد بن جرير ،جامع البيان في تفسير آي القرآن ، المطبعة الأميريّة الكبرى ــ بولاق ، ط1 ، 1905 م.

63 ــ أبو الطّيّب المتنبّي ،الدّيوان ، دار بيروت للطّباعة ، دط ، 1403هـ /1983 م .

64 ــ ابن عبد السّلام عزّ الدّين ، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، المطبعة العامرة ، دط ، دت.

65 ــ ابن العبد طرفة ، الدّيوان ، شرحه و قدّم له : محمّد مهدي ناصر الدّين ، دار الكتب العلميّة ــ بيروت ، ط3 ، 1423 هـ / 2002 م .

66 ــ العسكريّ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، جمهرة أمثال العرب ، ضبطه و كتب هوامشه و نسّقه :د. أحمد عبد السّلام ، دار الكتب العلميّة ، ط1 ، 1408 هـ / 1988 م.

ــ كتاب الصّناعتين ، تحقيق : د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلميّة ، ط2 ، 1409 هـ/ 1989 م .

67 ــ ابن عطيّة أبو محمّد عبد الحقّ ،المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، دار ابن حزم ، دط دت.

68 ــ ابن عَقِيل بهاء الدّين عبد الله ، شرح ابن عقيل ، تأليف محمّد محي الدّين عبد الحميد ، دار التّراث ــ القاهرة ، ط 20 1400 هــ / 1980 م.

69 ــ العكبريّ أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله ، إملاء ما منّ به الرّحمن من وجوه الإعراب و القراءات في جميع القرآن : دار الفكر للطّباعة و النّشر ، دط ، 1414 هــ / 1993 م.

70 ــ العلويّ يحي بن أبي علي المظفّر بن الفضل ، نضرة الإغريض في نصرة القريض،تحقيق: د. نهى عارف الحسن مطبوعات مجمع اللّغة الربيّة ــ دمشق ، دط ، 1396 هــ / 1976 م .

71 ــ العلويّ يحي بن حمزة بن عليّ بن إبراهيم اليمنيّ ، الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز ، ، طبعة المقتطف ــ مصر ، دط ، 1226 هــ / 1914 م.

72 ــ الفرّاء أبو زكريّاء يحي بن زياد ، معاني القرآن،عالم الكتب ــ بيروت ، ط2 ، 1980 م.

73 ــ الفراهيدي الخليل بن أحمد ، كتاب الجمل في النّحو ، تحقيق : د . فخر الدّين قباوة ، دون ذكر دار الطّبع ، ط5 ، 1416 هــ / 1995 م.

74 ــ الفيروز آبادي ، القاموس المحيط دار إحياء التّراث العربيّ ــ بيروت ، ط1 ، 1422 هــ / 2001 م.

75 ــ القاري عليّ بن سلطان محمّد ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، تحقيق : الشّيخ جمال عيتاني ، دار الفكر ، دط ، 1422 هــ / 2002 م.

76 ــ القاسميّ محمّد جمال الدّين ، تفسير القاسميّ المسمّى : محاسن التّأويل ، وقف على طبعه و تصحيحه ، و رقّمه ، و خرّج آياته و أحاديثه و علّق عليه : محمّد فؤاد عبد الباقي ، ط1 ، 1376 هــ / 1957 م.

77 ـــ ابن قتيبة أبو محمّد عبد الله بن مسلم ، تأويل مشكِل القرآن ، شرحه و نشره : السّيّد أحمد صقر ، المكتبة العلميّة ، دط ، دت.

78 ـــ القرطاجنّي أبو الحسن حازم ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تقديم و تحقيق : محمّد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ـــ بيروت ، ط3 ، 1981 م .

79 ـــ القرطبيّ أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن أبي بكر ، الجامع لأحكام القرآن و المبيّن لما تضمّنه من السنّة و آي الفرقان ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التّركيّ ، مؤسّسة الرّسالة ، 1427 هـــ / 2006 م .

80 ـــ القزويني أبو عبد الله جلال الدّين بن سعد الدّين ، الإيضاح في علوم البلاغة ، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة ، ط 3 ، دت .

ـــ التّلخيص في علوم البلاغة ،حقّقه و شرحه و أعدّ فهارسه:د. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلميّة ، ط2 ، 1430هـــ / 2009 م.

81 ـــ القفطي جمال الدّين الحسن عليّ بن يوسف ، انباه الرّواة عل أنباه النّحاة ، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربيّ ، ط1 ، 1406هـــ / 1986 م.

82 ـــ القيرواني ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشّعر و آدابه و نقده ، تحقيق : محمّد محي الدّين عبد الحميد ، مطبعة السّعادة ـــ القاهرة ، دط ، 1963م.

83 ـــ امرؤ القيس بن حُجر الكنديّ، الدّيوان، ضبطه و صحّحه :ذ . مصطفى عبد الشّافي ، دار الكتب العلميّة ـــ بيروت ، ط 5 ، 1425هـــ / 2004 م.

84 ــ ابن قيّم الجوزيّة شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر ،أمثال القرآن ، حقّق النّصوص و ضبطها مع تخريج الآيات الشّريفة : جميل إبراهيم حبيب ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ــ بيروت ، دط ، دت.

ــ بدائع الفوائد ، دار الفكر دط ، دت .

ــ الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن و علم البيان ، دار الكتب العلميّة ، دط ، دت.

85 ــ ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر،تفسير القرآن العظيم ،دار ابن حزم ــ بيروت ، ط 1 1420 هـــ / 2000 م.

86 ــ الكرماني محمود بن حمزة ، أسرار التّكرار في القرآن المسمّى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة و البيان ،دراسة و تحقيق : أحمد عطا، دار الفضيلة ،دط ، دت .

87 ــ ابن كلثوم عمرو ، الدّيوان جمعه و حقّقه و شرحه: د . إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربيّ ، ط 1 ، 1411 هـــ / 1991 م.

88 ــ ابن ماجة أبو عبد الله محمّد بن يزيد ،سنن ابن ماجة ، حقّق نصوصه ، و رقّم كتبه ، و أبوابه،و أحاديثه و علّق عليه : محمّد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، دط دت.

89 ــ الماوردي أبو الحسن عليّ بن محمّد بن حبيب البصريّ،النُّكَتُ و العيون(تفسير الماوردي) راجعه و علّق عليه:عبد المقصود بن عبد الرّحيم ، دار الكتب العلميّة ــ بيروت، دط، دت.

90 ــ المبرّد أبو العبّاس محمّد بن يزيد ، الكامل في اللّغة و الأدب ، حقّقه و شرحه و ضبطه و فهرسه حنّا الفاخوري ، دار الجيل ــ بيروت ، دط ، 1425 هـــ / 2005 م.

91 ــ ابن المثنّى أبو عبيدة معمر ، مجاز القرآن ،عارضه بأصوله و علّق عليه :د ، محمّد فؤاد سزكين ، دار غريب للطّباعة ،دط ، دت .

92 ــ ابن المعتزّ عبد الله ،كتاب البديع ، اعتنى به و علّق عليه :اغناطيوس كراتشقوفسكي ، دط ، دت.

93 ــ المعرّي أبو العلاء ، ديوان سقط الزّند ، شرحه : أحمد شمس الدّين ، دار الكتب العلميّة — بيروت ، ط 2 ، 1428 هـــ/2007 م.

94 ــ المغربيّ أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن محمّد بن يعقوب ، مواهب الفتّاح في شرح تلخيص المفتاح تحقيق : د . خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلميّة ، ط1 ، 1424 هـــ / 2003 م .

95 ــ ابن مقبل تميم بن أبيّ بن عوف بن حنيف بن قتيبة بن العجلان، الدّيوان عني بتحقيقه : د. عزّة حسن دار الشّرق العربي ـــ بيروت ، دط ، 1416 هـــ / 1995 م.

96 ــ المقري أحمد بن محمّد بن علي ، المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير للرّافعيّ ، صحّحه : محمّد محي الدّين عبد الحميد ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، دط ، 1347 هـــ / 1929 م.

97 ــ ابن منظور أبو الفضل جمال الدّين بن محمّد الإفريقيّ ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ط1 ، 1300 هـــ .

98 ــ الموصليّ ، أبو يعلى أحمد بن عليّ بن المثنّى مسند أبي يعلى الموصليّ ، حقّق أصوله و خرّج أحاديثه: خليل مأمون شيحا دار المعرفة ـــ بيروت ، ط1 ، 1426 هـــ / 2005 م.

99 ــ النّابغة زياد بن معاوية ، الدّيوان ، تحقيق و شرح : كرم البستانيّ ، دار صادر ـــ بيروت، د ط ، دت.

100 ـــ النّحّاس أبو جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل ، إعراب القرآن ، اعتنى به :الشّيخ خالد العلي دار المعرفة – بيروت ، ط 2 ، 1429 هـــ - 2008 م.

101 ـــ النّيسابوري محمود بن أبي الحسن ، إيجاز البيان عن معاني القرآن ، دراسة و تحقيق : حَنيف بن حسن القاسميّ ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1995 م .

102 ـــ ابن الورد عروة و السّموأل ، الدّيوانان ، دار صادر ، دط ، دت.

فهرس المراجع

1 ــ بنت الشّاطئ عائشة عبد الرّحمن ، التّفسير البياني للقرآن ، دار المعارف ، ط7 ، دت.

2 ــ البوطي محمّد سعيد رمضان ، من روائع القرآن (تأمّلات علميّة و أدبيّة في كتاب الله عزّ و جلّ) مؤسّسة الرّسالة ، دط ، 1416 هــ / 1996 م .

3 ــ الجندي درويش ، النّظم القرآني في كشّاف الزّمخشريّ ،دار نهضة مصر للطّبع و النّشر ، دط 1969 م .

4 ــ حسّان تمّام ، الأصول (دراسة إبستيمولوجيّة للفكر اللّغويّ عند العرب) ت النّحو ــ فقه اللّغة ــ البلاغة : عالم الكتب ، دط ، 1425 هــ / 2004 م.

5 ــ حسين عبد القادر، أثر النّحاة في البحث البلاغيّ ، دار نهضة مصر بالفجالة، دط، 1975 م.

ــ أبو حمدان سمير ،الإبلاغيّة في البلاغة العربيّة ، ط 1 ، منشورا ت عويدات الدّوليّة ، 1991 م.

6 ــ الحمصي نعيم، فكرة إعجاز القرآن(منذ البعثة النّبويّة حتى عصرنا الحاضر مع نقد و تعليق) قدّم له محمّد بهجت البيطار ، مؤسّسة الرّسالة ــ بيروت ، ط2 ، 1400 هــ / 1980 م.

7 ــ حمّودة طاهر سليمان ، ظاهرة الحذف في الدّرس اللّغويّ ،الدّار الجامعيّة للطّباعة و النّشر و التّوزيع دط ، 1982 م .

8 ــ خلاّف عبد الوهّاب، علم أصول الفقه، دار الحديث القاهرة ،دط ،1423 هــ / 2003 م.

9 ــ خليل عبد النّعيم ،نظريّة السّياق بين القدماء و المحدثين ــ دراسة لغويّة نحويّة دلاليّة ، دار الوفاء لدنيا الطّباعة و النّشر ، ط 1 ، 2007 م.

10 ـــ دراز صباح عبيد ، أساليب القصر في القرآن الكريم و أسرارها البلاغيّة ، مطبعة الأمانة ـــ مصر ، ط1 ، 1406 هـــ / 1986 م .

11 ـــ دراز محمّد عبد الله ، النّبأ العظيم ، دار القلم بيروت ، ط4 ، 1397 هـــ / 1977 م.

12 ـــ الدّرويش محي الدّين ، إعراب القرآن الكريم و بيانه ، دار ابن كثير ـــ دمشق ، ط 9 1424 هـــ / 2003 م.

13 ـــ بني دومي خالد قاسم ، دلالة الظّاهرة الصّوتيّة في القرآن الكريم ، عالم الكتب الحديث ط1 ، 2006 م .

14 ـــ الرّافعيّ مصطفى صادق ، تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب اعربيّ ـــ بيروت ط4 1394 هـــ / 1974 م.

15 ـــ الزّرقاني محمّد عبد العظيم ، راجعه و ضبطه و علّق عليه : محمّد علي قطب ، و يوسف الشّيخ محمّد ، المكتبة العصريّة ، ط1 ، 1417 هـــ / 1997 م .

16 ـــ الزّيّات أحمد حسن ، دفاع عن البلاغة ، دط ، مطبعة الرّسالة ، 1945 م.

17 ـــ ساسي عمّار ، الإعجاز البياني في القرآن الكريم (دراسة نظريّة للإعجاز البياني في الآيات المحكمات) ، دار المعارف للإنتاج و التّوزيع ـــ البليدة ، ط1 ، 2003 م .

18 ـــ السّامرّائيّ فاضل صالح ،بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ،شركة العاتك لصناعة الكتاب ـــ القاهرة ط2 ، 1427 هـــ / 2006 م .

ـــ الجملة العربيّة تأليفها و أقسامها، دار الفكر ، ط2 ، 1427 هـــ / 2007 م.

19 ـــ السّيّد شفيع ، البحث البلاغيّ عند العرب ، تأصيل و تقييم ، دط ، دار الفكر العربيّ ، دت.

20 ــ السّيّد عزّ الدّين علي ،التّكرير بين المثير و التّأثير ، دار الطّباعة المحمّديّة ــ القاهرة ، ط1 1398 هـــ / 1978 م.

21 ــ شاكر أبو فهر محمود محمّد ، مداخل إعجاز القرآن، دار المدني ــ جدّة ، ط2 ، 1435 هـــ / 2014 م.

22 ــ شملول محمّد ،إعجاز رسم القرآن و إعجاز التّلاوة ، دار السّلام ، ط 2 ، 1428 هـــ / 2007م.

23 ــ شيخون محمود السّيّد ، الإعجاز في نظم القرآن ، مكتبة الكلّيات الأزهريّة ، ط1 ، 1398 هـــ / 1978 م .

24 ــ صالح عبد الكريم عوض ، الوقف و الابتداء و صلتهما بالمعنى في القرآن الكريم ، دار السّلام ، ط2 ، 1429 هـــ / 2008 م.

25 ــ الصّعيدي عبد المتعال ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، مطبعة محمد علي صبيح و أولاده القاهرة ط 8 ، دت .

ــ البلاغة العالية (علم المعاني) ، قدّم له و راجعه و أعدّ فهارسه : د. عبد القادر حسين.

26 ــ طبانة بدوي ، معجم البلاغة العربيّة ، دار المنارة ، ط 3 ، 1408 هـــ / 1988 م.

27 ــ ابن عاشور محمّد الطّاهر ، التّحرير و التّنوير ، الدّار التّونسيّة للنّشر ، دط ، 1984م.

28 ــ العاكوب عيسى علي ، و علي سعد الشّتيوى ،الكافي في علوم البلاغة العربيّة (المعاني ــ البيان ــ البديع) ، الجامعة المفتوحة ، دط ،1993م

29 ــ عبّاس إحسان ، شعر الخوارج ، د . دار الثّقافة ــ بيروت ، ط2 ، 1974 م

30 ــ عباس فضل حسن ، البلاغة فنونها و أفنانها ــ علم المعاني ، دار الفرقان للنشر و التوزيع ــ الأردن ، ط 4، 1417 هــ /1997م.

31 ــ عبد الباقي محمّد فؤاد ، اللّؤلؤ و المرجان فيما اتّفق عليه الشّيخان ، دار إحياء الكتب العربيّة دت.

32 ــ عبد ربّه السّيّد عبد الحافظ ، بحوث في القصص القرآن ، دار الكتاب اللّبنانيّ ــ بيروت ، ط 1 ، 1972 م.

33 ــ عبد المطّلب محمّد ، البلاغة و الأسلوبيّة ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط1، 1994 م.

34 ــ عتيق عبد العزيز علم البديع ، دار الآفاق العربيّة ، دط ، 1424 هــ / 2004 م.

ــ علم المعاني ، دار النّهضة العربيّة ، دط ، دت .

35 ــ عفيفي أحمد ،ظاهرة التّخفيف في النّحو العربيّ ، الدّار المصريّة اللّبنانيّة ، ط 1 ، 1417 هــ / 1996 م.

36 ــ عكّاري إنعام فوّال،المعجم المفصّل في علوم البلاغة (البديع و البيان و المعاني)،مراجعة : أحمد شمس الدّين ، دار الكتب العلميّة ــ بيروت ، ط2 ، 1417 هــ / 1996 م.

37 ــ أبو علي حمدي بركات حمدي ،البلاغة العربيّة في ضوء منهج متكامل ، دار البشير ــ الأردن ، ط1، 1412 هــ / 1992 م.

38 ــ عمر أحمد مختار ، و عبد العال سالم مكرم ، معجم القراءات القرآنيّة مع مقدّمة في القراءات و أشهر القرّاء ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط1 ، 1403 هــ / 1983 م.

39 ــ الغزاليّ محمّد ، نحو تفسير موضوعيّ لسور القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) ، دار الشّروق ، ط2 ، 1413 هــ / 1992 م .

40 ــ أبو فريد أحمد ، التّناسب البيانيّ في القرآن ــ دراسة في النّظم المعنويّ و الصّوتيّ ــ مطبعة النّجاح الجديدة ــ الدّار البيضاء ،دط ،1990 م.

41 ــ الفيل توفيق ، بلاغة التّراكيب ــ دراسة في علم المعاني ــ ، مكتبة الآداب ،دط، 1991م.

42 ــ فيّود عبد الفتّاح بسيوني ، من بلاغة النّظم القرآني، مطبعة الحسين الإسلاميّة ، ط1 ،1413 هــ / 1992 م

43 ــ قطب سيّد ، في ظلال القرآن ، دار الشّروق ، ط 1 ، 1425 هــ / 2005 م

44 ــ قلقيلة عبده عبد العزيز ، معجم البلاغة العربيّة (نقد و نقض) ، دار الفكر العربيّ ، ط1 1412 هــ / 1991 م.

45 ــ لاشين عبد الفتّاح ، المعاني في ضوء أساليب القرآن ، دار الفكر العربي ،ط4 ، 1419 هــ / 1999م.

46 ــ المباركفوري أبو العلى محمّد عبد الرّحمن بن عبد الرّحيم ، تحفة الأحودي شرح جامع التّرمذيّ : قدّم له و اعتنى به و خرّج أحاديثه :رائد صبري بن أبي علفة ، بيت الأفكار الدّوليّة ، دط ، دت.

47 ــ المراغي أحمد مصطفى، علوم البلاغة (البيان و المعاني و البديع) ، دار الكتب العلميّة ، دط ، دت .

48 ــ مرزوق حلمي ،النّقد و الدّراسة الأدبيّة ، دار النّهضة العربيّة ،بيروت ، دط ، 1982م.

49 ــ مسلم مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي ، دار القلم ــ دمشق ــ ، ط3 ،1421 هــ / 2000 م.

50 ــ أبو موسى محمّد محمّد ، دلالات التّراكيب (دراسة بلاغيّة) ، مكتبة وهبة ــ القاهرة ط5، 1423 هــ / 2004 م.

الرّسائل الجامعيّة

1 ــ الشّوبكي رانية جهاد إسماعيل ، الطّاهر بن عاشور و جهوده البلاغيّة في ضوء تفسيره التّحرير و التّنوير " المعاني و البديع " إشراف : أ.د.محمّد شعبان علوان ، الجامعة الإسلاميّة ــ غزّة 1430 هــ / 2009 م.

2 ــ زموط عبد السّتّار حسين مبروك ، التّبيان في البيان : الإمام الطّيبيّ ، تحقيق و دراسة : رسالة دكتوراه ، إشراف : د. كامل إمام الخولي ، 1397 هــ / 1977 م.

3 ــ ناطور الضّيف تفرّدات الطّاهر بن عاشور في تحريره عن الزّمخشري في كشّافه و ابن عطيّة في محرّره و البيضاوي في أنواره (دراسة مقارنة تقويميّة) إشراف : د . سر الختم سعيد محمّد ، و د . سميع الحقّ ابن المفتي عبد الدّيّان ،الجامعة الإسلاميّة العالميّة إسلام آباد ــ باكستان ، 1430 هــ / 2009 م .

فهرس الموضوعات

المقدّمة :

المدخل : علاقة البلاغة بالإعجاز. 1 – 32

تمهيد: 2 – 4

أوّلا : تعريف الإعجاز : 4 – 11

ثانيا: خصوصيات الكلام البليغ: 11 – 22

ثالثا :أفانين التّصرّف في الكلام البليغ: 22 – 32

الفصل الأوّل : بلاغة الكلمة: 34 - 105

تمهيد: 34 – 36

أوّلا : الذّكر و الحذف :

أ ـــ الذّكر: 36 –44

ب ـــ الحذف : 44 - 57

1 ـــ حذف الحرف: 44 – 51

2 ـــ حذف الكلمة : 51 - 79

أ ـــ حذف الفعل: 51 – 54

ب ـــ حذف الفاعل : 54 –57

ج ـــ حذف المفعول : 58 – 65

د ـــ حذف المبتدأ : 65 – 68

هـــ حذف الخبر: 68 – 71

و ـــ حذف الصّفة: 71 – 73

ز ـــ حذف الموصوف: 73 – 76

ح ـــ حذف المضاف: 76 – 79

ثانيا :التّعريف و التّنكير : 78 - 104

أ ـــ **التّعريف**: 80- 92

1 ـــ التّعريف باللاّم: 80 – 83

2 ـــ التّعريف بالضّمير: 83 – 84

3 ـــ التّعبير بالموصول: 84– 86

4 ـــ التّعريف بالإضافة: 87 – 89

5 ـــ التّعبير باسم الإشارة: 89 – 93

ب ـــ **التّنكير** :

1 – 2- 3 - 4 :التّعظيم .. النّوعيّة : 93 – 95

ثالثا: الإفراد و التّثنية و الجمع : 96 - 105

1– 2 – 3 : إفراد اليمين...: 96 – 99

4 ـــ إفراد الرّيح و جمعها : 100 – 99

5 ـــ إفراد السّمع و جمع القلوب : 102 –100

6 ـــ الكناية عن مطلق التّكرير : 103–102

7– 8 –الإيذان بالقلّة ... : 105–104

الفصل الثّاني: بلاغة الجملة الخبرية: 164 - 107

تمهيد 109 -107

أوّلا: لازم الفائدة: 113 -109

ثانيا: أضرب الخبر: 117-113

أ_ الجملة الطّلبية: 114 -113

ب_ الجملة الإنكارية: 115 -114

ج _ تأكيد الخبر : 118 -115

ثالثا: الخبر المراد به الإنشاء: 121 -118

رابعا: تحقيق الخبر: 122-121

خامسا: مخالفة مقتضى الظّاهر: 127-122

أ_تنزيل غير المنكر منزلة المنكر: 125 -123

ب_ تنزيل غير الشّاكّ منزلة الشّاكّ: 126 -125

ج_ انفتاح الدّلالة: 131 -128

سادسا: الاهتمام بالخبر:	130 - 127
سابعا: أغراض الخبر البلاغيّة:	157-131
1 – التّسلية :	133 –131
2 ــ الإنشاء :	135 – 133
3 ــ النّهي :	136 – 135
4 ــ الامتنان :	137 – 136
5 – الوعيد و الإنذار:	138 – 137
6 – التّوبيخ :	140 – 138
7 – التّنبيه و التّذكير :	141 – 140
8 – التّعجيب :	145 – 141
9 – الدّعاء و الشّكاية :	147 –145
10 ــ التّهويل :	149 – 147
11 ــ التّهديد :	151 – 149
12 – التّذكير :	154 – 151
13 – أغراض متنوّعة :	159 -154
ثامنا ــ الخبر الكنائي :	164 -159
الفصل الثّالث: بلاغة الجملتين (القصر) :	226 -165

تمهيد: 166 -168

أوّلا: طرق القصر: 168 -184

1_ التّقديم : 169 -174

2_ تعريف الجنس : 174 -175

3_ ضمير الفصل : 175 -177

4_ تعريف المسند باللاّم : 177

5_ القصر بإنّما: 177- 180

6_ ضمير الفصل و تعريف المسند: 180– 181

7 – 8 _ تعريف جزأي الإسناد ..النّفي و الاستثناء : 181 – 182

9_ التّركيب من طريقتين : 182 -183

10_ تعريف جزأي الجملة و ضمير الفصل : 183– 185

11_: الاستثناء : 185– 186

ثانيا: انفتاح الدّلالة : 186 -191

ثالثا: القصر باعتبار الطرفين : 191 -199

1_ قصر موصوف على صفة : 195 -196

2_ قصر صفة على موصوف: 196 -199

رابعا: القصر باعتبار المخاطب : 199 -210

1_ قصر إفراد : 199 -204

2_ قصر قلب : 204 -209

3 – قصر تعيين : 209 -210

خامسا: القصر باعتبار الواقع : 211 -226

1_ القصر الحقيقي: 211 -221

2_ القصر الإضافي : 221 -226

الفصل الرّابع : بلاغة الجمل (الإطناب) : 227 - 289

تمهيد : 228 – 229

1 ـــ التّنويه : 229 – 231

2 ـــ الإيضاح بعد الإبهام : 232–234

3 ـــ ذكر الخاصّ بعد العامّ: 234

4 ـــ التّكرير لفائدة : 234 – 235

5 ـــ الإيغال : 235– 237

6 ـــ التّذييل : 237 – 252

7 ـــ الاحتراس : 252 – 259

8 ـــ 9 التّتميم ، التّكميل : 259 – 262

10 ـــ الاعتراض: 262– 276

11- وضع الظّاهر مكان المضمر : 276 – 284

12- الإدماج : 285 – 289

الفصل الخامس :بلاغة السّورة القرآنيّة : 290- 355

تمهيد: 291- 294

أوّلا : تفرّدات ابن عاشور: 295 – 300

ثانيا: بناء السّور : 300- 301

ثالثا: أغراض السّور : 301- 303

رابعا : علاقة الأغراض بمضامين السّور : 303- 306

خامسا:براعة الاستهلال: 306 – 312

سادسا :ردّ الأعجاز على الصّدور : 312 – 315

سابعا: المقارنة بين السّور : 315 – 319

ثامنا : تناسب السّور : 319 – 322

تاسعا :تناسب سورة الفرقان : 322 - 352

1-2 ـــ التّسمية،و الأغراض : 322 – 323

3 ـــ دعائم السّورة : 323- 324

4 ـــ مضمون السّورة : 324 – 325

5 - علائقيّة السّورة : 325 - 336

أ ـــ براعة الاستهلال: 327 – 326

ب ـــ فنّ التّقابل: 330 – 327

ج ـــ تناسب أجزاء السّورة : 335 - 331

1 ـــ تعظيم الله و الثّناء عليه: 333 – 331

2 ـــ عناوين متنكبّي الصّراط: 335 – 333

3 ـــ بيان مصائر المذكورين: 337 – 335

2 ـــ الإقبال على خطاب الرّسول: 339 – 337

ثامنا : الجوانب الفنّيّة: 355 - 339

1 ـــ تخييل المحكيّ واقعا 340 – 339

2 ـــ التّمثيل و التّنظير: 341 –340

3 ـــ عطف الخاصّ على العامّ: 342 – 341

4 ـــ تعدّد الاعتبارات: 343 – 342

5 ـــ الاستئناف البيانيّ 344 – 343

6 ـــ مستتبعات التّراكيب : 346 – 344

7 ـــ دلائل العظمة : 347 – 346

8 - الاعتراض : 349 – 347

9 – العود إلى الاستدلال : 350 – 349

9ـــ الكلام الجامع : 350– 351

10– مبتكرات السّورة : 351 – 352

11 ـــ حسن التّخلّص : 353 – 354

12ـــ حسن الخاتمة : 354 - 355

الخاتمة : 356– 359

فهرس الآيات : 361– 372

فهرس الأحاديث: 373

فهرس القوافي: 374 – 376

فهرس المصادر: 377– 389

فهرس المراجع: 390– 395

فهرس الموضوعات: 396 - 405

الملخّص :

يحاول هذا البحث أن يقدّم أنموذجا تطبيقيّا للإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم كما نظّر له الإمام محمّد الطّاهر بن عاشور في تفسيره: "التّحرير والتّنوير" من خلال تتبّع التّراكيب البلاغيّة انطلاقا من المفردة القرآنيّة وأحوالها المختلفة، ثمّ الجملة فالجملتين، فالجمل، ووصولا إلى السّورة التي تمثّل بناء كاملا قد تناسقت أجزاؤه، وتلاءمت أطرافه، معتمدا في هذا كلّه على التّناسب البلاغيّ الذي آمن به ابن عاشور، وفسّر القرآن على ضوئه.

كلمات مفتاحيّة : الإعجاز البلاغيّ – المفردة القرآنيّة – الجملة القرآنيّة – بناء السّورة القرآنيّة – التّناسب البلاغيّ .

Résumé:

Cette recherche va essayer de présenter un model d'application pour l'inimitabilité rhétorique dans le sacré Coran selon la vision de l'imame "Mohamed Tahar Benachour" dans son explication intitulée "la rédaction et l'illumination " et ce atravers l'étude des syntagmes rhétoriques apartir de chaque mot coranique avec ses contraintes .

En suite la phrase , les deux phrases , et puis les phrases arrivant au "surat" qui repésente une construction complète bien tissue , par force d'une conformité rhétorique et qui a été adoptée et confirmée par Benachour dans sa manière d'expliquer le texte coranique.

Mots clés: Inimitabilité rhétorique – Le mot coranique – La phrase coranique – La construction du surat – (vérsée coranique) – La conformité rhétorique .

Summary :

This paper presents a practical sample about the rhetorical miracle within Quran as has been theorized by Mohammed Tahar Benachour in his book of interpretation entitled: Liberation and enlightment throughout the investigation of rhetorical structures starting from the Quranic vocabulary and its different meanings , then the sentences and two sentences , and then the sura that reprents a comprehensive structure of harmonized parts.

Tahar Benachour relies in all this upon the rhetorical proportionality in which he believes, therefore uses it to interpret Quran.

Key words: rhetorical miracle, Quranic vocabulary , Quranic sentence , the structure of Quranic sura , rhetorical of proportionality.